مختارات المنفلوطي

جمعهُ

مصطفى لطفي المَنْفَلوطي

بعناية

بسام عبد الوهّاب الجابي

دار ابن حزم



حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها



AL-JAFFAN & AL-JABI
Printers - publishers

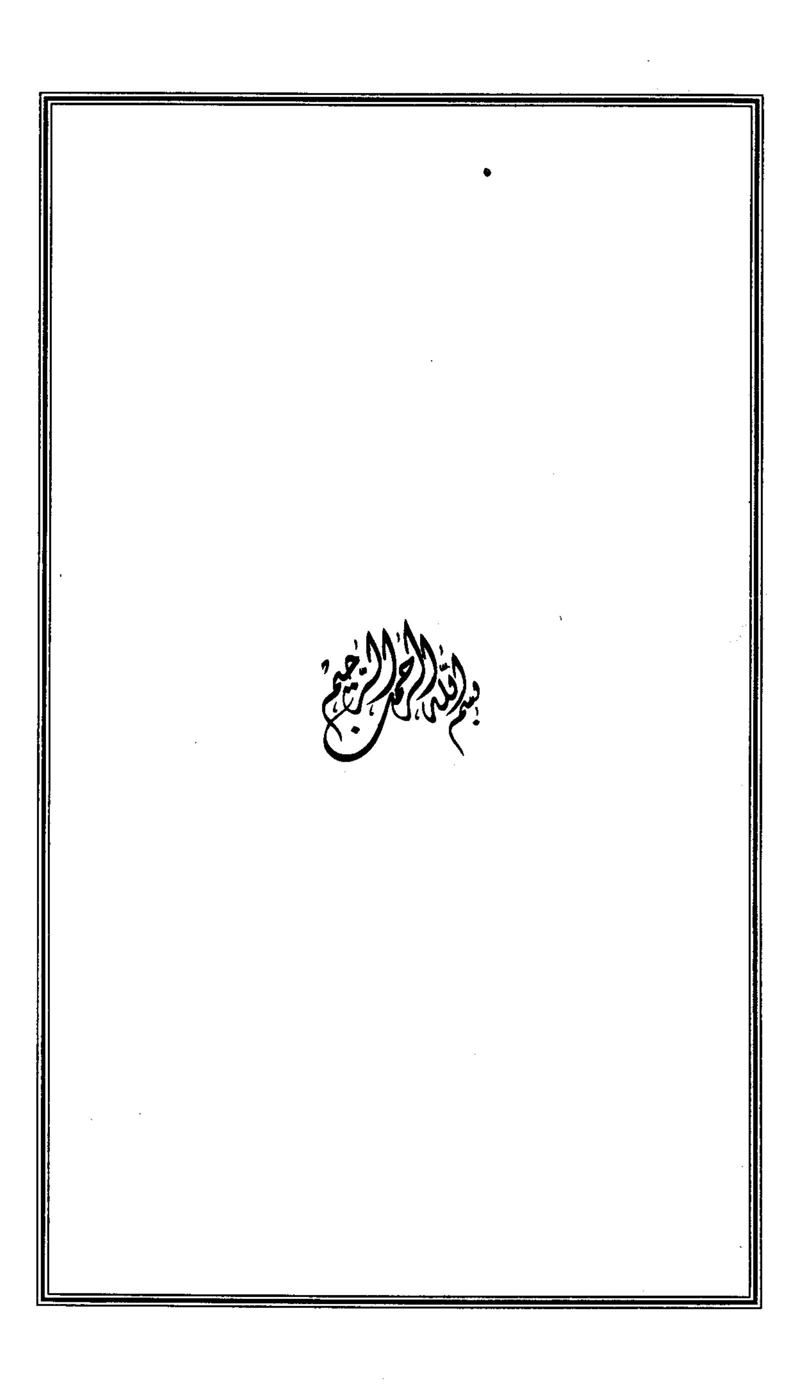
JAFFAN TRADERS P.O.Box: 54170 - 3721 Limassol - CYPRUS
Fax: 357 - 5 - 591160 Phone: (05) 583345
http://www.jaffan.com/ - E-mail: hj@jaffan.com

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - ص.ب: ١٤/٦٣٦٦ - تلفون: ٧٠١٩٧٤

مختارات

المنفلوطي


بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

ترجمة المؤلف:

مصطفى لطفي المنفلوطي
(١٢٨٩ ـ ١٣٤٣هـ = ١٨٧٢ ـ ١٩٢٤م)

مصطفى لطفي، هو ابن محمد لطفي بن محمد حسن المَنْفَلُوطِي.

نابغة في الإنشاء والأدب، انفرد بأسلوب نقي في مقالاته وكتبه.

له شعر جيد فيه رقة وعذوبة.

ولد في مَنْفَلُوط من مدن الوجه القبلي بصعيد مصر، غلب عليه النسبة إليها، فعُرِفَ واشتهر بها؛ من أسرة حسينيةِ النسب؛ مشهورةٍ بالتقوى والعلم، نبغ فيها من نحو مئتي سنة قضاة شرعيون ونقباء أشراف.

حفظ القرآن وهو في الحادية عشرة من عمره، ثم دخل الأزهر، فبقي فيه عشر سنوات يدرس علوم الدين واللغة.

واتصل بالشيخ محمد عبده اتصالاً وثيقاً، وسجن بسببه ستة أشهر لقصيدة قالها تعريضاً بالخديوي عباس حلمي سنة ١٨٩٧م، وقد عاد من سفر، وكان على خلاف مع محمد عبده، وهي [من الطويل]:

قُدُومٌ وَلَكِنْ لا أَقُولُ سَعِيدُ
وَمُلْكٌ وَإِنْ طَالَ الْمَدَىٰ سَيَبِيدُ

رَحَلْتَ وَوَجْهُ النَّاسِ بِالْبِشْرِ بَاسِمٌ
وَعُدْتَ وَحُزْنٌ فِي الْقُلُوبِ شَدِيدُ

عَلامَ التَّهَانِي هَلْ هُنَاكَ مَآثِرٌ
فَتُحْمَدُ أَمْ سَعْيٌ لَدَيْكَ حَمِيدُ

تُذَكِّرُنَا رُؤْيَاكَ أَيَّامَ أُنْزِلَتْ
عَلَيْنَا خُطُوبٌ مِنْ جُدُودِكَ سُودُ

رَمَتْنَا بِكُمْ مَقْدُونِيَا فَأَصَابَنَا
مُصَوَّبُ سَهْمٍ بِالْبِلادِ شَدِيدُ

فَلَمَّا تَوَلَّيْتُمْ طَغَيْتُمْ وَهَكَذَا
إِذَا أَصْبَحَ التُّرْكِيُّ وَهْوَ عَمِيدُ

فَمَا قَامَ مِنْكُمْ بِالْعَدَالَةِ طَارِفٌ
وَلاَ سَارَ مِنْكُمْ بِالسَّدادِ تَلِيدُ
كَأَنِّي بِقَصْرِ المُلْكِ أَصْبَحَ بَائِداً
مِنَ الظُّلْمِ وَالظُّلْمُ الْمُبِينُ يَبِيدُ
وَيَنْدُبُ فِي أطْلالِهِ الْبُومُ نَاعِباً
لَهُ عِنْدَ تَرْدادِ الرِّثَاءِ نَشِيدُ
أعَبّاسُ تَرْجُو أَنْ تَكُونَ خَلِيفَةً
كَمَا وَدَّ آبَاءٌ وَرَامَ جُدُودُ
فَيَا لَيْتَ دُنْيانا تَزُولُ وَلَيْتَنا
نَكُونُ بِبَطْنِ الأَرْضِ حِينَ تَعُودُ

وابتدأت شهرته تعلو منذ سنة ١٩٠٧ كما يقول الزركلي، وذلك بما كان ينشره في جريدة «المؤيد» من المقالات الأسبوعية تحت عنوان «النظرات».

وولي أعمالاً كتابية في وزارة المعارف (سنة ١٩٠٩م)، ووزارة الحقانية = العدل (سنة ١٩١٠م)، وسكرتارية = أمانة سر الجمعية التشريعية (سنة ١٩١٣م)، وأخيراً في سكرتارية = أمانة سر مجلس النواب، واستمر إلى أن توفي يوم الخميس في ١٢ يونيو/ حزيران ١٩٢٤م = ١٠ ذي الحجة ١٣٤٢هـ.

كان له زوج، أصابها رَمَدٌ أضعف بصرها، فلم يدّخر وسعاً في تسليتها والحدب عليها، حتى إنه كان يكلفها أعمالاً لا يقوم بها إلا المبصرون ليوهمها أنه لا ينكر عليها من نظرها شيئاً، وإن أَرَدْتَ أن تعرف خلقه معها وكيف كان يتعامل معها راجع آخر مقال «الوفاء» في «النظرات» ٢/ ١٤٠ حيث تستشف منه ذلك.

وإذا كنت تريد التعرف على المَنْفَلُوطِي أكثر، فراجع آخر مقال «السياسة» في كتاب «النظرات» ٢/ ٨٦ حيث عَرَّف بنفسه.

ترجماته:

كان يجهل اللغة الفرنسية التي ترجم منها، فكانت تترجم له أصول مترجماته بلغة غير مهذبة، فيلخّصها ويتصرّف فيها ويُعيد بناءَها، بل بعضها كان مسرحية فجعلها رواية! كما فعل في «الشاعر» و«في سبيل التاج»، ومن الذين كانوا يترجمون له الدكتور محمد عبد السلام الجندي الذي ورد اسمه في أول «الشاعر» أنه هو الذي قام بالترجمة. كما أن الأستاذ محمود خيرت المحامي ترجم لبرنَارْدِينْ دي سانْ بِيير Bernardin de St. PIERRE مؤلف «الفضيلة أو پول وفيرجيني» Paul et Verginie، ولعله هو الذي ترجَمَ الأصل للمَنْفَلُوطِي. لكن هذا لا ينقص من قيمة ما كتبه، ولعل قراءة ما كتبه الدكتور عبد الرحمن بدوي في مذكراته: «سيرة حياتي» يعطي القارىء صورة أوضح عما أريد بيانه عن طريقته في

الترجمة وقيمة عمله بالنسبة للقارىء العربي؛ قال في الجزء الأول الصفحة: ٢٧ و٢٨:

«وَإبّانَ السَّنة الثانية في مدرسة فَارسكور الابتدائيّة انْبَعَثَتْ في نَفْسِيَ نَزْعَةٌ حادَّةٌ إلى الأَدَب، بل وَإلى التَّأْلِيف! فَأَرْسَلْتُ إلى شقيقي الأكبر الذي كان طالِباً في السنة النهائية بالمدرسة الشَّعبية الثانوية في القاهرة (الجيزة) كي يوافِيني بكتاب «ماجدولين» للمَنْفَلوطي؛ لأنِّي كُنْتُ مُعْجَباً بأُسْلوبِهِ. فوافانِي به، ورحْتُ أَلْتَهِمُه الْتِهاماً، وأَسْتَظْهِرُ الكثيرَ من صفحاتِه ذات النَّفْحة الشِّعْرِيّة، واستعذْتُ قراءَتَهُ عِدَّةَ مرّاتٍ خلال ذلك العام (سنة ١٩٢٧م) وأنا في سِنِّ العاشِرَة. وكان لَهُ تَأْثِيرٌ بالِغٌ في أسلوبي وفي مشاعِري. وَظلَّ هذا التَّأْثِيرُ مَدىً طويلاً، حَتَّى بعد أنْ عَرَفْتُ أساليبَ أُخْرى وَاطَّلَعْتُ على روائع الأدب العالمي. ولا أزالُ أَحِنُّ، حَتّى اليوم، إلى معاوَدَةِ قراءة هذا الكتابِ. ولم تُنْقِص قراءَتِي لأصْلِهِ الفرنسي من إعجابي بتَلْخِيص المَنْفلوطي هذا لِروايَةِ «تحت ظلال الزيزفون» (سنة ١٩٣٢) تأليف ألفونس كار (١٨٠٨- ١٨٩٠). صحيح أنَّ الفارقَ كبيرٌ بين الأصل والتَّلْخيص، وأنَّ العديدَ من الصَّفْحات الموجودَةِ في تلخيص المَنْفَلُوطي لا مُناظِرَ

لها في الأَصْلِ الفِرَنْسِي، والعكس بالعكس. ولكنّ المَنْفَلوطيَّ بنَزْعَتِهِ الرُّومنتكية [الشاعرية] المثالِيَّة لَمْ يَشَأْ أَنْ يُبْقِيَ على ما في الأَصْلِ الفِرَنْسي من أَعْمالٍ شائِنَةٍ مَنْسوبَةٍ إلى بَطَلِ الرِّوايَةِ: اسْتيفن، حَتَّىٰ تَظَلَّ صورَتُهُ مثالِيَّةً رَفيعَةً، زاهِيَّةَ الأَلْوانِ، جامِعَةً لأَجْمَلِ الشَّمائِلِ، إِنَّ المَنْفَلوطيَّ لَمْ يَكُنْ يُتَرْجِمُ ـ وما كانَ لَهُ أَنْ يَفْعلَ ذَلِكَ، لأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ أَيَّةَ لُغَةٍ أَجْنَبيَّةٍ ـ وَإِنَّما كانَ يشارِكُ المُؤَلِّفَ الأَجْنَبِيَّ الَّذِي يُلَخِّصُ له كتابَهُ، في التأليفِ والصِّياغَةِ...

إِنَّ لأُسْلوبِ المَنْفَلُوطِيِّ سِحْراً لا يَعْرِفُهُ إِلاَّ الشَّبابُ المُرْهَفُ الحَساسَةِ» ا هـ.

وإن أردنا أن نعرف رأي المَنْفَلوطي في الترجمة فلنرجع إلى نهاية مقال «البيان» من «النظرات» أول الجزء الثالث، حيث يقول: إنني لا ألوم العاجزين الذين غلبتهم إحدى اللغات الأعجمية على أمرهم، فأصبحوا إذا ترجموا تَرْجَموا ترجمة حرفية ليس فيها مميِّز واحد من مميزات العربية، ولا خاصة من خواصها؛ وإذا كتبوا كتبوا بأسلوب عربيِّ الحروف أعجميٍّ كل شيء بعد ذلك!

مؤلفاته:

ـ «الشاعر أو سيرانو دي برجراك» Cyrano de Bergerac تأليف: إدمون روستان .Edm. Rostand

ـ «العبرات» هي قصص بين مترجمة ومؤلفة، طبعت مجموعة لأول مرة سنة ١٩١٥م.

ـ «الفضيلة أو پول وفيرجيني» Paul et Verginie تأليف: بْرنارْدِينْ دي سانْ بِيير .Bernardin de St. pierre

ـ «في سبيل التاج» Pour la couronne تأليف: فرانسوا كوبيه .François Coppee

ـ «مجدولين أو تحت ظلال الزيزفون» Sous le tilleul تأليف: ألفونس كار .Alfons KARR

ـ «مختارات المَنْفَلُوطِي» طبع الجزء الأول فقط سنة ١٩١٢م، بمطبعة المعارف بمصر القاهرة. قال عنها بطرس البستاني في «أدباء العرب» ٣/ ٢٦٨: مجموعة شعرية اختارها لطلاب المدارس، ولم يطبع منها إلا جزء واحد، مع أنها تبلغ ثلاثة أجزاء.اهـ. بل هي، إضافة لما سبق، مجموعة نصوص شعرية ونثرية تفيد الطالب الإعدادي والثانوي، وكذلك الجامعي في تعريفه بالشعر واللغة والبيان والأدَبِ عامَّةً، جمع فيه جَيِّدَ المنظوم والمنثور، منذ القديم إلى الحديث، في كل فن من فنون العرب وأغراضها، تفيد الطالب في تهذيب بيانه وتقويم لسانه وصقل عقله، وتعريفه بفضل لغته وقيمتها.

وهو يختلف عما أصدره أحد الناشرين باسم «مختارات المَنْفَلُوطِي» إذِ اختار من كتب المَنْفَلُوطِي بعض الاختيارات، ومن بعده تداول الناشرون طباعته.

ـ «النظرات» وهي أسبوعياته التي كانت يكتبها في «المؤيد» وفيها ما هو مترجم ليس من تأليفه. وقد أُعيدَ طباعة «النظرات» لدى الجفان والجابي للطباعة والنشر، ليماسول، قبرص؛ بثلاثة مجلدات، تضمَّنت كاملَ النصّ المتداول والذي يعيد الناشرون طباعته، مضافاً إليه نصوصاً كانت بالأصل ضمن «النظرات» ثم حُذِفَتْ، فأعيدت في هذه الطبعة؛ مع زيادة ضَبْطٍ وتَصْحيح. واستكمالاً لتَرْجمة المَنْفَلوطي، فإنِّي أُوردُ ما نشرَهُ المنفلوطي نفسه في مقدَّمة «النظرات» كترْجَمةٍ له بقلم أحمد بك حافظ عوض.

ترجمة الكاتب

بقلم حضرة الكاتب المشهور
احمد بك حافظ عوض
[١٢٩٤ ـ ١٣٧٠هـ = ١٨٧٧ ـ ١٩٥٠م]

نسبه:

وُلِدَ السَّيِّدُ مصطفىٰ بن محمد بن محمد بن حسن بن محمد بن لطفي في مدينة مَنْفَلوط من مُدُنِ الوَجْه القِبْلي في جَنوبِ مِصْر سنة ١٨٧٦ ميلادِيّة الموافقة لسنة ١٢٩٣ هجرية، من أَبَوَيْن كريمَيْن، يَنْتَهي نَسَبُ أَوَّلِهِما إلى الحُسَيْن بن عليٍّ بن أبي طالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْه، وثانِيهِما إلى أُسْرَةِ چُورَبْچي التركية المعروفة بالشرف العظيم والمَجْدِ المُؤَثَّل، وأُسْرَتُهُ لأبيه في مدينة مَنْفَلوط أُسْرَةٌ مشْهورَةٌ بالشَّرَفِ وَالتَّقْوَىٰ والعِلْم والفَضْلِ، وَأَكْثَرُ أَفْرادِها مِنْ نحو مئتي سنة قضاةٌ شَرْعِيُّون وَنُقباءُ أشْراف، وَوالِدُه السَّيد مُحَمَّد لُطْفي قاضِي مَنْفَلوط الشَّرْعي اليوم وعَيْنَ أَعْيانِها.

دراسَتُهُ:

خَرجَ من المكْتَبِ حافِظاً للْكِتابِ الكريم في سنة

١٨٨٨ ميلادية، فأَدْخَلَهُ والِدُهُ مدْرَسَةَ الأَزْهَرِ الشَّرِيفِ كجميع أفرادِ أُسْرَتِهِ، فما مَرَّتْ به سَنواتٌ قلائِلُ حتى عُرِفَ بَيْنَ أقرانِهِ بالذَّكاءِ وَالفِطْنَةِ وَسلامَةِ الذَّوْقِ في الفَهْم. ثُمَّ نَزَعَتْ به نَفْسُهُ إِلىٰ مَذْهَبٍ في التَّعْلِيم غيرِ المَذْهَبِ الَّذِي يَذْهَبُ إليه الأَزْهرِيُّون في دراسَتِهِم. فكانَ لا يُطالِعُ دروسَهُ في الكُتُبِ الأَزْهَرِيّة إلا على صُورَةٍ تَكْفُلُ لَهُ فَهْمَ جواهِرِ المواضِيعِ والتَّثَبُّت من حقائِقِها، غَيْرَ حافِلٍ بما تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ عادةً مِنَ المُناقَشاتِ اللَّفْظِيَّةِ وَالمنازَعات القِشْريّة، فكانَ لِهَذِهِ الخُطَّةِ في التعليم أَعْظَمُ تأثيرٍ في سلامة ذَوْقِهِ وصفاءِ ذِهْنِه، وَأَصْبَحَ له مُتَّسَعٌ من الوَقْتِ يُنْفِقُهُ في دراسَةِ ما يَتَيَسَّرُ لَدَيْهِ دراستُهُ في كُتُبِ الطَّبيعَةِ وَالأَخْلاقِ وَالأَدَبِ والحِكْمَةِ حَتَّىٰ غَلَبَتْ عَلَيْهِ العلومُ، خُصُوصاً الأَدَبَ مِنْها، وَشَغِفَ بها عَمّا سِوَاها شَغَفاً مَلَكَ هَواهُ وَٱسْتَأْثَرَ بِلُبِّهِ، فَعَلَتْ مدارِكُهُ، وَصُقِلَتْ مِرْآةُ ذِهْنِه، وَهَتَفَ بنَظْمِ القِطَعِ الشِّعْرِيَّةِ والجُمَلِ النَّثْرِيَّةِ، وضَمَّنَهَا ما شاءَ اللَّهُ أَنْ يُضَمِّنَها إِيَّاهُ من فُنونِ الشِّعْرِ وَأفانِينِ القَوْلِ في الأَخْلاقِ والآدابِ وَالانْتِقادِ وَالوَصْفِ.

وَلَكِنَّ كانَ ذَلِكَ في بادِىءِ الأَمْرِ كما يُمْكِنُ أَنْ يَكونَ، لا كما يَجِبُ أنْ يَكونَ.

ثم لَحِقَ بعد ذلك بالمَرْحوم الشَّيْخِ محمد عَبْدُه،

وَلَصِقَ بِهِ لُصُوقَ الوَلَدِ بِأَبِيهِ، وأَكْثَرَ من مُصاحَبَتِهِ في دَرْسِهِ ومَنْزِلِهِ ومَقْدَمِهِ ومُنْصَرفِه عَشْرَ سِنين كامِلَةً، فَكَمُلَ مِنْ عِلْمِهِ ما كانَ ناقِصاً، وَنَضَجَ من أَدَبِهِ ما كان غَيْرَ ناضِجٍ. وكانَ الأُستاذُ رحمةُ اللَّهِ عليه يَعْجَبُ بِهِ كُلَّ الإِعْجابِ، ويُثْني على ذَكائِهِ وَفِطْنَتِهِ الثَّناءَ الجميل، وَيُعَلِّلُ نَفْسَهُ بأَنَّهُ سيكونُ مِنْ أَفْضَلِ المُنْتَفِعين بعِلْمِهِ وَالناشِرين لمبادِئِه وتعاليمِهِ. وما زالَ هذا شَأْنَهُ مَعَهُ حتى لَحِقَ الشيخُ رحمة الله عليه بِرَبِّهِ، فَحَزِنَ عَلَيْهِ المُتَرجَمُ حُزَناً شَدِيداً حَمَلَهُ على هَجْرِ الأَزْهَرِ وَسَفَرِهِ مِن القاهرة وَانْزِوائِهِ في بَلَدِهِ مَنْفَلوط بُرْهَةً من الزمان كادَ يَنساهُ النَّاسُ فِيها، حَتَّىٰ طَلَعَتْ طلائعُ رسائِلِهِ المشهورَةِ في جريدة «المُؤَيِّدِ» سنة ١٩٠٨م، فالْتَفَتَ القارِؤون لها، ثم زَحَفُوا إِلَيْها، ثم تزاحَمُوا عليها تزاحُمَ الإِبل الهِيم على وِرْدِها، فكانوا يَعُدُّون لها أيامَ الأُسْبوعِ يَوْماً بَعْدَ يَوْمٍ، ويَتَرقَّبُونَ لِرُؤْيَتِها ما يَتَرَقَّبُ الضَّالُّ في ظُلْمَةِ اللَّيْلِ البَهِيم من الفَجْرِ الطالِع، والظامِىءُ في المَهْمَهِ القَفْر من الغَيْثِ الهامِع؛ فكانَتْ تَرِدُ عَلَيْهِ الرَّسائلُ العديدَةُ عَشراتٍ ومئاتٍ من أَدْنَى مِصْر إلى أَقْصاها، ومن كافَّةِ الأَقْطار العربيَّةِ، مُتَضَمِّنَةً الأَسْئِلَةَ المخْتَلِفَةَ في الحوادِثِ وَالوقائِع والمسائِلِ الاجْتِماعِيَّة

وَالأَخْلاقِيَّة. فأَصْبَحَتِ الأُمَّةُ تَعُدُّهُ مَنارَها الَّذي تَهْتَدِي بِهِ في ظُلُماتِ الشُّبُهاتِ، وَمَوْئِلَها الَّذي تَعْتَمِدُ عليه في حَلِّ المُشْكلاتِ؛ وَلا أَظُنُّ أَنَّ الأُمَّة العربيَّةَ لَهَجَتْ بِبَيانِ كاتِبٍ وجَمالِ أسلوبِهِ ودِقَّةِ مَسْلَكِهِ في هذا العَصْرِ الأخيرِ شَغَفَها بِرَسائل المُتَرْجَم، ولا أَظُنُّ أَنَّ السَّبَبَ في ذلك إلا أَنَّهُ قَدْ فَاجَأَهُم مِنْ ذلك الأُسْلوبِ العَرَبيّ الفَصِيحِ بما لا عَهْدَ لَهُمْ بِمِثْلِهِ إلا في رَسائلِ بُلَغاءِ الكُتَّابِ الأَدبيَّةِ، وَمُراسلاتِهِم الخُصوصِيَّة؛ بَعْدَما تَلَوَّثَتْ أقلامُ أَكْثَرِ الكاتِبين في الصُّحُفِ بِاللَّهْجَةِ الإفْرَنْجيَّةِ تارَةً، وَالصَّحافيَّةِ تارةً أُخْرىٰ.

أخلاقُهُ:

أَمّا أخلاقُهُ، فَانْقِباضٌ عَنِ النَّاسِ، وَوَحْشَةٌ يَحْسَبُها الرّائي صَلَفاً وَكِبْراً، وَما هِيَ بِالصَّلَفِ وَلا الكِبْرِ، وَلَكِنَّها الرَّزانَةُ وَالوَقارُ وَالأَنَفَةُ وَالعِزَّةُ، والبُعْدُ عن سَفاسِفِ الأُمورِ وَصغائِرِها، وَالتَّرَفُّعُ عن مخالَطَةِ كُلِّ مَنْ لا تُعْجِبُهُ أخلاقُهُ، وَلا تَجْمُلُ في نَظَرِهِ أَطْوارُهُ، وَعِفَّةٌ حَتَّىٰ عَنْ مَدِّ يَدِهِ إلى أَبَوَيْهِ، لأَنَّهُ قَدْ قَنَعَ بما في يَدِهِ من المالِ القَليلِ، فَزَهِدَ فيما سِواه؛ وَأَحْسَنُ ما يَعْرِفُهُ لَهُ النَّاسُ في بابِ العِفَّةِ وَالشَّهامَةِ أَنَّهُ ما أَخَذَ في حياتِهِ أَجْراً على أَدَبِهِ ولا ٱنْتَفَعَ

منْ وراءِ قَصائِدِهِ أَوْ رَسائِلِهِ بِدانِقٍ أَوْ سُحْتُوتٍ؛ وَكَرَمٌ في الخُلُقِ طالَما كانَ سَبَباً في وُصولِ الأَذَىٰ إِلَيْهِ، وكانَ آخِرُ عِهْدِهِ بِذلكَ الأَذَىٰ تِلْكَ القَضِيَّةَ الَّتي رَفَعَتْها عليه النِّيابَةُ العُمُومِيَّةُ من نحو خمسة عشر عاماً من أَجْلِ قَصِيدَةٍ رَأَتْ أَنَّهُ مَسَّ فيها كَرَامَةَ الجنابِ الخديو، ثم دارَتِ الأَيَّامُ فَأَظْهَرَ مولانا الكريمُ تَعَطُّفَهُ بالرِّضَى عَنْهُ عِنْدَما تَبَيَّنَ له حُسْنُ قَصْدِهِ وسلامَةُ ضَمِيرِهِ؛ وَسَخاءٌ وَجُودٌ بِكُلِّ ما تَمْلِكُ يَمِينُهُ، وأَدَبٌ وَحياءٌ وَحِلْمٌ يَظُنُّهُ الظَّانُّ عَجْزاً وَضَعفاً، فَإِذا غَضِبَ، وَقَلِيلاً ما يَفْعَلُ، فَهُوَ اللَّيْثُ قُوَّةً وَشَجاعَةً، وَصَمْتٌ طَويلٌ يَحْسَبُهُ النَّاظِرُ عِيّاً، فَإِذا تَكَلَّم بَذَّ القائِلِينَ؛ وَإِيمانٌ قَوِيٌّ كالطَّوْدِ الرّاسِخِ، لا تَذْهَبُ بِهِ العواصِفُ وَلا تَلْوي بِهِ حوادِثُ الدَّهْرِ وَفواجِعُهُ، فَما رُئِيَ في يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِهِ مُلِمّاً بما يُفْسِدُ عَلَيْهِ دينَهُ أَوْ مُروءَتَهُ؛ وَلا ضَعِيفَ الثِّقَةِ باللَّهِ في حالَيِّ عُسْرِهِ وَيُسْرِهِ، وَشِدَّتِهِ وَرَخائِهِ؛ وَصَبْرٌ جَمِيلٌ على ما يَذْهَبُ بِلُبِّ الحَكِيمِ، وَيَطِيرُ بِرُشْدِ الحليم مِنْ حوادِثِ الأَيَّام ورزاياها؛ فَقَدْ ماتَ له طِفلان في أُسْبوعٍ واحِدٍ، فَسَكَنَ لهذا الحادِثِ المُلِمِّ سُكوناً لا تخالِطُهُ زَفْرَةٌ، ولا تمازِجُهُ دَمْعَةٌ على شِدَّةِ شَغَفِهِ بِهِما، ثُمَّ ماتَتْ زَوْجَتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ، وكانَتْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيْهِ، فَجَلَسَ إِلىٰ أَصْدِقائِهِ

يُحادِثُهم لَيْلَةَ وفاتِها كأَنَّما المَرْزُوءُ بِذَلِكَ الحادِثِ سِواه! وَلَقَدْ لَقِيَ في حياتِهِ كَثِيراً من غَدْرِ أَصْدِقائِهِ وعُشرائِهِ الَّذِينَ أَوْقَعَهُ في شَرَكِ صَداقَتِهم طَهَارَةُ قَلْبِهِ وَبَياضُ سَرِيرَتِهِ، وَالَّذِينَ طالما أَحْسَنَ إِلَيْهِم، وكانَتْ لَهُ اليَدُ الطُّولَىٰ في تَعْليمِهِم أَوْ تَقْوِيمِ أَوَدِ عَيْشِهِم، فما حَفَلَ بِذَلِكَ، ولا بالىٰ به، بل كانَتْ كَلِمَتُهُ الوحيدَةُ الَّتي كان يَقُولُها حِينَما تَدِبُّ إِلَيْهِ تلك العقارِبُ: «إِنَّ اللَّهَ وَحْدَهُ هو الَّذِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يُغَيِّرَ طَبيعَةَ الإِنْسانِ».

وَأَجْمَلُ ما يَعْرِفُ له أَخِصَّاؤُهُ من الأَخْلاقِ النَّادِرَةِ أَنَّهُ يَحْيا حياةً ذاتِيَّةً غَيْرَ حافِلٍ بِتَلْكَ الحياةِ الإضافِيَّةِ التي يَحْياها كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ الَّذِين لا يَعْرِفونَ لهم حياةً إلا في أَفْواهِ النَّاطِقين، وآذانِ السَّامِعِين؛ فَلَيْسَ أَحْقَرَ في نَظَرِهِ من مَدْحِ المادِحِين لَهُ، وَلا أَصْغَرَ في نَفْسِه من انتقادِ المُنْتَقِدِين عَلَيْهِ، فَلَوْ أَنَّ النَّاسَ جَمِيعاً أَجْمَعوا علىٰ انْتِقادِ خَلَّةٍ من خلالِهِ لما ثَناهُ ذَلِكَ عَنْها، ولو أَنَّهُمْ اتَّفَقُوا علىٰ رَأْيٍ مناقِضٍ لِرَأْيِهِ لَمَا نَالَ ذلك مِنْ عَقيدَتِهِ. وَكَثِيراً ما كانَ يقولُ لَهُ العالِمُ الفاضِلُ سَعْد زُغْلول باشا: إِنِّي لأَرَىٰ في كِتابَتِكَ شَخْصِيَّةً أَتَمَنَّىٰ أَنْ أَجِدَها كَثِيراً في أَقْلامِ الكاتِبينَ. وَكَثِيراً ما كُنْتُ أَسْمَعُهُ يَقولُ: «لا طَلَعَتْ عَلَيَّ شَمْسُ ذَلِكَ

اليَوْمِ الَّذي يَرْضَىٰ فيه عَنِّي الجاهِلُ أَوْ يَعْجَبُ بِرَأْيي فيه البَليدُ».

وَلَيْسَ أَبْغَضَ إِلَيْهِ من الكَذِبِ، ولا أَحَبَّ إِلَيْهِ من الصِّدْقِ، فَيُبْغِضُ حَتَّىٰ المُبالَغَةَ في البَشاشَةِ وَالإِغْرَاقَ في الحَفاوَةِ، وَيُحِبُّ حَتَّىٰ العِتابَ المُرَّ وَالتَّقْرِيعَ المُؤْلِمَ ما دامَ المُتَكَلِّمُ صادِقاً في قَوْلِهِ مُخْلِصاً في مَذْهَبِهِ. وَلَقَدْ كانَ هَذا سَبَباً في حُبِّهِ لِلعُزْلَةِ وَمَيْلِهِ إِلىٰ ٱجْتِنابِ المُعاشَرَةِ والمخالَطَةِ، كَأَنَّهُ يَطْلُبُ من النَّاسِ غَيْرَ ما يَطْلُبُ النَّاسُ بَعْضُهُم من بَعْضٍ.

وَبالجُمْلَةِ، فَإِنْ كانَ في أَخْلاقِ المُتَرْجَم مَأْخَذٌ، فَفي هذا الخُلُقِ خُلُقِ النَّفْرَةِ مِنَ النَّاسِ، وَالعَجْزِ عَنِ ٱحْتِمالِهِم على عِلاَّتِهِم، وَلُبْسِهِم على سوْءَاتهم.

سِياسَتُهُ:

سِياسَتُهُ سِياسَةُ كُلِّ وَطَنِيٍّ يتهالَكُ وَجْداً على حُبِّ وَطَنِهِ وَيُذْري الدَّمْعَ حُزْناً عَلَيهِ وَعَلَىٰ ما حَلَّ بِهِ من ضَعَةِ الحالِ، وَفِقْدان الاسْتِقْلال. وَمِنْ كلماتِهِ المأْثُورَةِ عَنْهُ في هذا المَوْضُوعِ قَوْلُهُ: لَوْ عَلِمْتُ أَنَّ حياةَ مِصْرَ لا تَتِمُّ لها إلا بِفِقْدانِ حَياتي، لكانَ سَبيلُ المَوْتِ أَشْهَى إِلَيَّ مِنْ سَبيلِ الحياةِ.

وَلَيْس له حزْبٌ خاصٌّ يَنْتَمِي إِلَيْهِ، وَلا جَرِيدَةٌ خاصَّةٌ يَتَعَصَّبُ لها.

أَمَّا الأَحْزابُ، فَرَأَيُهُ فيها أَنَّ تَعدُّدَها مُضِرٌّ بمصْلَحَةِ الوَطَنِ، وَأَنَّهُ يَجِبُ أَنْ تكونَ الأُمَّةُ كُلُّها حِزْباً واحِداً، لأَنَّ أَقَلَّ ضَغِينَةٍ سياسِيَّةٍ تَقَعُ بين أفرادِ الأَمَّةِ تَنْتَقِصُ مِنِ اسْتِقْلالها بِمِقْدارِها.

وَأَمَّا الجرائِدُ، فَرَأْيُهُ فيها أَنَّها بَيْنَ جَريدَتَيْن: إحداهما تُبالِغُ في إِرْضاءِ الأَمَّةِ ومُمالأَتِها علىٰ كُلِّ نافِعٍ وضارٍّ من شُؤونِها، وِهَذِهِ تُشْبهُ أَنْ تَكونَ متاجرةً بالعُقول. والأَخْرَىٰ تَقْسُو في إِرْشادِها، وهذه لا تَسْتَفيدُ منها الأُمَّةُ كما يَجِبُ أن يكونَ. فَهُوَ يَرىٰ أَنَّ الأُمَّةَ لا تزالُ حَتَّىٰ اليومَ في أَشَدِّ الحاجَةِ إلى قائِدٍ شَديدِ الإِخْلاصِ في عَمَلِهِ، جَمِّ الحِكْمَةِ في قَوْلِهِ، وَلَيْسَ بَيْنَهُ وبَيْنَ جَرِيدَة من الجرائِدِ علاقَةٌ خاصَّةٌ حَتَّى الجرائِدِ الَّتي كان يَكْتُبُ فيها رسائِلَه، فَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُ وَبيْنَها أَكْثَرُ ممَّا يكونُ بَيْنَ أَيِّ كاتِبٍ يَكْتُبُ رسائِلَهُ مُطْلَقَ الحُرِّيَّةِ في أَيَّةِ صحيفَةٍ يَتَوَسَّلُ بِانْتِشارِها إلى نَشْرِ آرائِهِ وأفكارِهِ، فَإِنْ لاقاها في شَيْءٍ من مبادِئها ومَذاهِبها لاقاها مصادَفَةً وَآتِّفاقاً، وَإِنْ فارَقَها في ذلك فارَقَها طَوْعاً وَآخْتِياراً.

أَدَبُهُ:

قَلَّ أَنْ يُوجَدَ بَيْنَ الكُتَّابِ الَّذِينَ يَذْهَبُون مَذْهَبَ كُتَّابِ العَرَبِيَّةِ الأُولَىٰ في عُلُوِّ تراكيبِهم وبلاغَةِ أساليبِهم مَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَخُوضَ بِقَلَمِهِ غِمارَ هذه المَدَنِيَّة الحديثَةِ وَأَنْ يَتَناوَلَ بِهِ هذه المعاني العَصْرِيَّة وَالآراءَ الجديدَةَ الَّتي حَدَثَتْ بَعْدَ وقوفِ اللُّغَةِ العربية عند المَوْقِفِ الَّذي وقَفَتْ عِنْدَهُ، مخْتَفِظاً بخُطَّتِهِ في الكِتابَةِ وَدَرَجَتِهِ في الأُسْلوبِ. وَقَلَّ أَنْ تَجِدَ بَيْنَهُم مَنْ يَسْتَطيعُ أَنْ يُرْضِيَ الخاصَّةَ بِقَلَمِهِ وَيُحْسِنَ إِلىٰ العامَّةِ بِبَيانِهِ وَإِفْصاحِهِ. فَهُو إنْ عَلا غُمَّ على العامَّةِ أَمْرُهُ، وَإِنْ نَزَلَ أَغْضَبَ الخاصَّةَ قَلَمُه. أَمَّا المُتَرْجَمُ، فَهُوَ علىٰ ما أَرىٰ الكاتِبُ الفَريدُ الَّذِي يُحافِظُ على أُسْلوبِهِ البَليغِ في جَمِيعِ حالاتِهِ وَشُؤونِهِ، سَواءٌ في ذَلِكَ المعاني المَطْروقَةِ لِكُتَّابِ العربيَّةِ الأُولَىٰ أو الَّتي لمْ يَكْتُبوا عَنْها شَيْئاً ولم يَرْسِمُوا لها أُسلوباً. مِمَّا يَدُلُّ على أَنَّ السَّلِيقَةَ العربيَّةَ مَلَكَةٌ من مَلَكاتِهِ، لا عارِيَّةٌ من عوارِيهِ. كما أَنَّهُ الكاتِبُ الوحيدُ الَّذِي يَسْتَوِي في فَهْم معانِيه وَأَغْراضِهِ، وَفي الإعجابِ بفصاحَتِهِ وَبيانِهِ، فطاحِلُ الأُدَباءِ، وَأصاغِرُ البُسطاء. مما يَدُلُّ على أَنَّهُ يَكْتُبُ بِقَلْبِهِ لا بِقَلَمِهِ، وَأَنَّهُ يُحادِثُ الأَفْئِدَةَ وَالصُّدُورَ، لا الصَّحائِفَ وَالسُّطورَ.

فَإِنْ كانَ صَحِيحاً ما يقولونَ مِنْ أَنَّ الكُتَّابَ

المُجيدِين في هذا العَصْرِ إنَّما يَسْتَمِدُّونَ رُوحَ كتاباتِهم من اللُّغاتِ الأَجْنَبيَّةِ، ويَسْتَنْزِلونَ من سَماءِ قرائِحِ شُعراءِ الإِفْرَنْج وَحْيَ خيالاتِهم الشِّعْرِيّة. فَالسَّيِّدُ المَنْفَلوطي الَّذِي لا يَعْرِفُ لُغَةً غَيْرَ اللّغة العربيَّة، ولا يَلْجأُ إلىٰ وَحْي غيرَ وَحْي الخواطِرِ النَّفْسِيَّةِ، نادِرَةُ كُتَّابِ العربيَّةِ في هذا العَصْرِ.

أما نَثْرُهُ، فقد عَرَفَهُ النَّاسُ في «نَظراتِهِ»، وَأَمَّا نَظْمُهُ فَسأُورِدُ مِنْهُ ما عَثَرْتُ عَلَيْهِ، وَإِنْ كانَ قليلاً مِنْ كَثِيرٍ، وَقَطْرَةً واحِدَةً مِنْ بَحْرٍ غَزِيرٍ.

قال في وصْفِ القَلَم [من الخفيف]:

يـا يَـراعِـي لَـوْلا يَـدٌ لَـكَ عِـنْـدِي
عِـفْـتُ نَـظْـمِـي فـي وَصْـفِـكَ الأَشْـعـارا

يَـا يَـرَاعَ الأَدِيـبِ لَـوْلاكَ مَـا أَصْـ
ـبَـحَ حَـظُّ الأَدِيـبِ يَـشْـكُـو ٱلْـعِـثَـارا

غَـيْـرَ أَنِّـي أَحْـنُـو عَـلَـيْـكَ وَإِنْ لَـمْ
تَـكُ عَـوْنـاً فـي الـنَّـائِـبـاتِ وَجَـارا

أَنْـتَ نِـعْـمَ الـمُـعِـينُ فـي الـدَّهْـرِ لَـوْلا
أَنَّ لِـلـدَّهْـرِ هِـمَّـةً لا تُـجـارَىٰ

* * *

يَتَجلَّىٰ في النِّقْسِ[١] شَمْسُ نَهارِ
فـي دُجَىٰ اللَّيْلِ تَبْعَثُ الأَنْوارَ
جَمَعَ اللَّهُ فِيهِ بَيْنَ نَقِيضَيْـ
ـنِ فَكانَ الظَّلامُ مِنْه نَهارا
فَهْوَ حِيناً نارٌ تَلَظَّىٰ وَحِيناً
جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ تَنْثُرُ الأَزْهارا
وَتَراهُ وَرْقاءَ[٢] تَنْدُبُ شَجْواً
وَتَراهُ رَقْطاءَ[٣] تَنْفُثُ نارا
وَتَراهُ مُغَنِّياً إنْ شَدَا حَـ
ـرَّكَ بَيْنَ ٱلْجَوانِحِ الأَوْتارا
وَتَراهُ مُصَوِّراً يَرْسِمُ ٱلْحُسْـ
ـنَ وَيُغْرِي بِرَسْمِهِ الأَبْصارا
فَتَخالُ ٱلْقِرْطاسَ صَفْحَةَ خَدٍّ
وَتَخالُ المِدادَ عِذَارا

(١) النِّقْس: المِداد الذي يُكْتَب به.
(٢) الوَرْقاء: الحمامة.
(٣) الرَّقْطاء: حَيَّةٌ خبيثةٌ.

هُو جِسْرٌ تَمْشِي القُلُوبُ عَلَيْهِ
لِتُلاقِي بَيْنَ ٱلْقُلوبِ قَرَارا
صامِتٌ تَسْمَعُ ٱلْعَوالِمُ مِنْهُ
أَيَّ صَوْتٍ يُنَاهِضُ الأَقْدَارا
فَهْوَ كَالْكَهْرَباءِ غامِضَةُ الْكُنْـ
ـهِ وَتَبْدُو بَيْنَ الوَرَىٰ آثارا
كَمْ أَثارَ اليَرَاعُ خَطْباً كَميناً
وَأَماتَ الْيَراعُ خَطْباً مُثَارا
قَطَراتٌ مِنْ بَيْنِ شِقَّيْه سالَتْ
فَأَسالَتْ مِنَ الدِّمَا أَنْهارا
كانَ غُصْناً فَصَارَ عُوداً وَلَكِنْ
لَمْ يَزَلْ بَعْدُ يَحْمِلُ الأَثْمارا
كانَ يَسْتَمْطِرُ السَّماءَ فحالَ الـ
أَمْرُ فَاسْتَمْطَرَ ٱلْعُقُولَ الغِزَارا

* * *

يَسْعَدُ النَّاسُ بِاليَراعِ وَيَلْقَىٰ
رَبَّهُ ذِلَّةً بِهِ وَصَغَارا

وَاشَقَاءَ الأَدِيبِ هَلْ وَتَرَ[1] الدَّهـ
ـرَ فَلا زَالَ طَالِباً مِنْهُ ثارا

أَرَفِيقُ ٱلْمِحْرَاثِ يَحْيَا سَعِيداً
وَرَفِيقُ اليَرَاعِ يَقْضِي ٱفْتِقَارا

مَا جَنَىٰ ذَلِكَ الشَّقَاءَ وَلَكِنْ
قَدْ أَرَادَ القَضَاءُ أَمْراً فَصَارا

لَيْسَ لِلنَّسْرِ مِنْ جَنَاحٍ إِذَا لَمْ
يَجِدِ النَّسْرُ في الفَضَاءِ مَطَارا

حَاسَبُوهُ عَلَىٰ الذَّكَاءِ وَقَالُوا
حَسْبُهُ صِيتُهُ الْبَعِيدُ فَخَارا

أَوْهَمُوهُ أَنَّ الذَّكَاءَ ثَرَاءٌ
فَمَضَىٰ يَسْحَبُ الذُّيُولَ اغْتِرَارا

يَحْسَبُ النَّقْدَ لِلْقَصِيدَةِ نَقْداً
وَيَرَىٰ الْبَيْتَ فِي الْقَصِيدَةِ دَارا

---

(١) وَتَرَه: أصابه بِثَأْرٍ، يقولُ: كأَنَّ الدَّهْرَ مَوْتورٌ لِذَلِكَ الأدِيبِ، فَهْوَ يطالِبُهُ بِالثَّأْرِ.

لَيْسَ بِدْعاً مِنْ هَائِم في خَيالٍ
أَنْ يَرَىٰ أَصْفَرٍ دِينارا
إِنَّ بَيْنَ المِدَادِ وَالْحَظِّ عَهْداً
وَذِماماً لا يَلْتَوِي وَجِوَارا
فَاللَّبِيبُ اللَّبِيبُ مَنْ وَدَّعَ الطِّرْ
سَ وَوَلَّىٰ مِنَ الْيَراعِ فِرَارا

وقال على لسانِ عاملٍ فقيرٍ [من السريع]:

زَاحَفْتُ أَيَّامي وَزَاحَفْنَنِي
دَهْراً فَلم تَنْكُلْ وَلَمْ أَنْكُلِ[١]
لا عَزْمُها وَاهٍ ولا عَزْمَتي
تَصادُمَ الجَنْدَلِ بِالْجَنْدَلِ
رَمَتْ فَلَمْ تُبْقِ عَلى مَفْصِلٍ
لَكِنَّها طاشَتْ عَنِ الْمَقْتَلِ
وَلَيْتَها أَصْمَتْ[٢] فَما أَبْتَغِي
مِنْ عَيْشِها إِنْ أَنَا لَمْ أُقْتَلِ

---

(١) نكل: نَكَصَ وجَبُن.

(٢) أَصْمَىٰ الصيد: رماه فقتله.

لا خَيْرَ في الصَّبْرِ عَلَىٰ غَمْرَةٍ
لا يَأمُلُ الصَّابِرُ أَنْ تَنْجَلي
صَبَرْتُ في البَأساءِ صَبْرَ الَّذِي
قِيدَ إِلَى الْقَتْلِ فَلَم يَحْفِلِ
لا فَضْلَ فِي الصَّبْرِ لِمُسْتَسْلِمٍ
عَيَّ عَنِ الْفِعْلِ فَلَمْ يَفْعَلِ

* * *

عِشرونَ عاماً لَمْ تَحُلْ حالَتِي
ما إِشْبَهِ الآخِرَ بِالأوَّلِ
أَغْدُو إِلى المَعْمَلِ في شَمْلَةٍ[1]
خَرْقاءَ لَمْ تَكْسُ وَلَمْ تَشْمَلِ
كَأَنَّها بُرْقُعُ مِصْرِيَّةٍ
لا يَحْجُبُ الوَجْهَ عَنِ المُجْتَلِي
تَنِمُّ عَنْ جِسْمِي كَما نَمَّ عَنْ
نَفْسِي غَزِيرُ المَدْمَعِ المُرْسَلِ

---

(١) الشَّمْلَة: نوع من الأكْسِيَة.

يَـمِـيـلُ بـي الـهَـمُّ مَـمِـيـلَ الـنَّـقَـا
بَـيْـن جَـنـوبِ الـرِّيـحِ وَالـشَّـمْـأَلِ

فَـمَــنْ رَآنِــي ظَـنَّ بـي نَـشْـوَةً
أَجَـلْ بِـكَـأْسِ الـحُـزْنِ لا الـسَّـلْـسَـلِ

أَقْـضِـي نـهـارِي مُـقْـبِـلاً مُـدْبِـراً
كَـأَنَّـنِـي الآلَـةُ فـي الـمَـعْـمَـلِ

وَصـاحِـبُ الـمَـعْـمَـلِ لا يَـرْتَـضِـي
مِـنِّـي بِـغَـيْـرِ ٱلْـفَـادِحِ الْـمُـثْـقِـلِ

فَـإِنْ شَـكَـوْتُ الـنَّـزْرَ[1] مِـنْ أَجْـرِهِ
بَـرَّحَ بِـي شَـتْـمـاً وَلَـمْ يُـجْـمِـلِ

حَـتَّـىٰ إِذَا عُـدْتُ إِلَـى مَـنْـزِلِـي
وَجَـدْتُ سُـوءَ الْـعَـيْـشِ فـي الـمَـنْـزِلِ

أَرَىٰ أَيَّـامِـي يَـشْـتَـكِـيـنَ الـطَّـوَىٰ
إِلَـى يَـتَـامَـى جُـوَّعٍ نُـحَّـلِ

---

(١) النَّزْر: القليل.

أَبِيتُ وَالأَجْفَانُ فِي سُهْدِهَا
كَأَنَّمَا شُدَّتْ إِلَىٰ يَذْبُلِ[١]

بَيْنَ صِغَارٍ سُهَّدٍ فِي الدُّجَا
يُذْرُوْنَ دَمْعَ الثَّاكِلِ المُرْمِلِ

بَيْنَ ضَعِيفِ الخَطْوِ لَمْ يَعْتَمِدْ
وَشَاخِصٍ فِي المَهْدِ لَمْ يُحْوِلِ[٢]

يَدْعُونَ أُمًّا تَتَلَظَّىٰ أَسًىٰ
حِذَارَ يَوْمِ الحَادِثِ المُشْكِلِ

وَوَالِداً عَيَّ بِإِسْعَافِهِمْ
فِي العَيْشِ عَيَّ الْفَارِسِ الأَعْزَلِ

مَا زَالَ رَيْبُ الدَّهْرِ يَنْتَابُنِي
بِالمُعْضِلِ الفَادِحِ فَالْمُعْضِلِ

حَتَّى رَمَانِي بِالَّتِي لَمْ تَدَعْ
إِلاَّ بَقَايَا الرُّوحِ فِي هَيْكَلِ[٣]

---

(١) جَبَلٌ معروف.

(٢) لم يعتمد، أي: لم يتكل في مشيه على نَفْسِهِ؛ والمحول: الَّذي بَلَغَ حَوْلاً.

(٣) يريد بها الحمى.

فَـهـا أَنـا الْـيَـوْمَ طَـرِيـحُ الـضَّـنَـىٰ
وَلَـيْـسَ غَـيْـرَ الـصَّـبْـرِ مِـنْ مَـعْـقِـلِ

فـي لَـفْـحَـةِ الـرَّمْـضَـاءِ لا أَتَّـقـي
وَهَـبَّـةِ الـنَّـكْـبَـاءِ لا أَصْـطَـلِـي(١)

هَـذَا هُـوَ الْـبُـؤْسُ، فَـهَـلْ مِـنْ فَـتًـىٰ
تَـمَّ لَـهُ الْـبُـؤْسِ مَـا تَـمَّ لـي

وقالَ ينْعَىٰ على جماعة الفَوْضَوِيين مَذْهَبَهُم في قَتْل الملوك، ويُشِيرُ إلى حادثة الفَوْضَوي الَّذِي وَضَعَ منْذُ سَنواتٍ قُنْبلَةً في طَريقِ الفونس الثالث عشر ملك إسْبانيا وهو عائِدٌ من الْكَنِيسَةِ مع عَرُوسِهِ في يوم حَفْلَةِ قِرانِهِ، فأصابَتِ القُنبلَةُ خَيْلَ المَرْكَبَةِ، وقَتَلَتْ بَعْضَ الحاشِيَةِ، وَنجا المَلِكُ وعِرْسُهُ، وقُبِضَ على الفَوْضَوِيِّ فَقُتِلَ [من الخفيف]:

أَيُّـهـا الـفـاتِـكُ الأَثِـيـمُ رُوَيْـداً
كُـلَّ يَـوْمٍ تَـكِـيـدُ لِـلـتَّـاجِ كَـيْـدَا

---

(١) الرمضاء: شدة الحر؛ والنكباء: الريح الباردة.

لا أرَىٰ التَّاجَ في الْبَرِيَّةِ إلاَّ
فَلَكاً دائِراً وَأخْذاً وَرَدَّا
يَتَخَطَّىٰ الرُّؤوسَ رَأساً فَرَأسَا
مَاشِياً في العُصُورِ عَهْداً فَعَهْدَا
فَمُحالٌ أَنْ يَهْدِمَ المَرْءُ صَرْحا
أعْجَزَ الدَّهْرَ بَأسُهُ أَنْ يُهَدَّا
عَبَثاً تَقْتُلُ المُلُوكَ وَعُذْراً
لَكَ فِيهِمْ لَوْ كُنْتَ تَحْمِلُ حِقْدَا
آفَةُ العَقْلِ أَنْ يَرَىٰ الْحَمْدَ ذَمًّا
وَيَرَىٰ الخُطَّةَ الدَنِيئَةَ حَمْدَا
لا يُبَالي بِالْمَوْتِ مَنْ عَرَفَ الْمَوْ
تَ وَمَنْ لا يَرَىٰ مِنَ المَوْتِ بُدَّا
غَيْرَ أنَّ الآجالَ فِينا حُدُودٌ
كُلُّ حَيٍّ تَراهُ يَطْلُبُ حَدَّا
أيُّ جَفْنٍ أجْرَيْتَ مِنْهُ دُمُوعاً
كانَ لَوْلاكَ في السَّماكَيْنِ بُعْدَا

أَيُّ رَوْعٍ أَسْكَنْتَهُ فِي فُؤَادِ
كَانَ فِي فَادِحِ الْحَوادِثِ جَلْدَا
مَا بَكَى الْفُونسُ خَشْيَةً بَلْ غَراماً
وَدُمُوعُ الْغَرامِ أَشْرَفُ قَصْدَا
إِنَّ قَلْبَ الْجَبَانِ يَخْفُقُ رُعْبَا
غَيْرُ قَلْبِ الْمُحِبِّ يَخَفُقُ وجْدَا
كانَ بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ شِبْرٌ
بُدِّلَ النَّحْسُ فِي مَجارِيهِ سَعْدَا
فَرَأَيْنا الْقَتِيلَ يَغْمُرُ قَصْراً
وَغَرِيمَ القَتِيلِ يَغْمُرَ لَحْدَا
أَنْتَ تَقْضِي وَاللَّهُ يَقْضِي بِعَدْلٍ
فِي الْبَرَايا واللَّهُ أَكْبَرُ أَيْدَا[1]
جَمْرَةٌ أَطْفَأَ الْقَضَاءُ لَظَاهَا
فَغَدَا جَمْرُها سَلاماً وَبَرْدَا
إِنَّ لِلْمَالِكِ الْكَرِيمِ قُلُوباً
وَقَفَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَكَ سَدًّا

---

(١) الأيْد: القوة.

فَــافْــتَــدَتْــهُ فَــكُــنَّ خَــيْــرَ فِــداءٍ
لِــمَــلِــيــكٍ وَكــانَ نِــعْــمَ الــمُــفَــدَّىٰ

وقال في الوَجْدِيَات [من الطويل]:

سَقَاهَا وَحَيّا تُرْبَهَا وَابِلُ الْقَطْرِ
وَإِنْ أَصْبَحَتْ قَفْراءَ في مَهْمَهٍ قَفْرِ
طَوَاها الْبِلَىٰ طَيَّ الشَّحِيحِ رِدَاءَهُ
وَلَيْسَ لِما يَطْوِي الْجَدِيدانِ[1] مِنْ نَشْرِ
مَــرَابِــضُ آسَــادٍ وَمَــأْوَىٰ أَرَاقِــمٍ
تَجاوَرَ في قِيعانِها الْغِيلُ بِالجُحْرِ[2]
يَكادُ يَضِلُّ النَّجْمُ في عَرَصَاتِها[3]
وَيَزْوَرُّ عَنْ ظَلْمائِها الْبَدْرُ مِنْ ذُعْرِ
لَقَدْ فَعَلَتْ أَيْدِي السَّوَافِي بِنُؤْيِها[4]
وَأَحْجارِها مَا يَفْعَلُ الدَّهْرُ بِالْحُرِّ

---

(١) الجَدِيدان: الليل والنهار.

(٢) الأراقم: الحيات، والغيل: موضع الأسد.

(٣) العَرَصات، جمع عَرْصَةٍ، وهي: ساحة الدار.

(٤) السوافي: الرياح. والنؤي: الحفير حول الخباء أو الخيمة يمنع السيل.

وَقَفْتُ بِها فِي وَحْشَةِ اللَّيْلِ وَقْفَةً
أَثارَ شَجَاها كامِنَ الْوَجْدِ في صَدْرِي

ذَكَرْتُ بِها الْعَهْدَ الْقَدِيمَ الَّذِي مَضَىٰ
وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ غَيْرُ بَالٍ مِنَ الذِّكْرِ

وَعَيْشاً حَسِبْناهُ مِنَ الْحُسْنِ رَوْضَةً
كَسَاها الْحَيَا مِنْهُ أَفانِينَ مِنْ زَهْرِ

فَأَنْشَأْتُ أَبْكي وَالأَسَىٰ يَتْبَعُ الأَسَىٰ
إِلىٰ أَنْ رَأَيْتُ الصَّخْرَ يَبْكِي إِلىٰ الصَّخْرِ

وَمَا حِيلَةُ الْمَحْزُونِ إِلاَّ لَواعِجٌ
تَفِيضُ بِها الأَحْشاءُ أَو عَبْرَةٌ تَجْرِي

* * *

وَمَا أَنْسَ مِ الأَشْياءِ لا أَنْسَ لَيْلَةً
جَلاها الدُّجَىٰ قَمْرَاءَ في ساحَةِ القَصْرِ

كَأَنَّ النُّجُومَ فِي أَدِيمِ سَمائِها
سَفائِنُ فَوْضَىٰ سابِحاتٌ عَلَىٰ نَهْرِ

كَأَنَّ الثُّرَيَّا في الدُّجُنَّةِ طُرَّةٌ[١]

مُرَصَّعَةُ الأَطْرافِ بِاللُّؤلُؤِ النَّثْرِ

كَأَنَّ سُهَيْلاً حاسِدٌ كُلَّمَا رَأَىٰ

أَخَا نِعْمَةٍ يَرْمِيهِ بِالنَّظَرِ الشَّزْرِ[٢]

كَأَنَّ السُّهَىٰ[٣] حَقٌّ تَعَرَّضَ باطِلٌ

إِلَيْهِ فَأَلْقَىٰ دُونَهُ مُسبَلَ السِّتْرِ

كَأَنَّ الدُّجَىٰ فَحْمٌ سَرَىٰ في سَوَادِهِ

مِنَ الْفَجْرِ نَارٌ فَٱسْتَحالَ إِلىٰ جَمْرَ

كَأَنَّ نَسِيمَ الْفَجْرِ في الْجَوِّ خَاطِرٌ

مِنَ الشِّعْرِ يَجْرِي في فَضَاءٍ مِنَ الْفِكْرِ

وَفِي الْقَصْرِ بَيْنَ الظِّلِّ وَالْمَاءِ غَادَةٌ

تَمِيسُ بِلا سُكْرٍ وَتَنْأَىٰ بِلا كِبْرِ

تُرِيكَ عُيُوناً نَاطِقَاتٍ صَوَامِتا

فَمَا شِئْتَ مِنْ خَمْرٍ وَمَا شِئْتَ مِنْ سِحْرِ

---

(١) الطُّرة: الشَّعْرُ المقدَّم في الجبهة.

(٢) سُهَيل: نجم معروف بشدة الاحْمرار والخَفقان.

(٣) السُّهَىٰ: نجم ضعيف.

لَهَوْتُ بِها حَتَّىٰ قَضَىٰ اللَّيْلُ نَحْبَهُ
وَأَدْرَجَهُ الْمِقْدارُ في كَفَنِ الْفَجْرِ

* * *

لَعَمْرُكَ مَا رَاحَتْ بِلُبِّي صَبَابَةٌ
وَلا نازَعَتْنِي مُهْجَتِي سَوْرَةُ[1] الْخَمْرِ
وَلا هَاجَنِي وَجْدٌ وَلا رَسْمُ مَنزِلٍ
عَفَاءٍ وَلَكِنْ هَكَذَا سُنَّةُ الشِّعْرِ
وَمَنْ كَانَ ذَا نَفْسٍ كَنَفْسِي قَرِيحَةً
مِنَ الْهَمِّ لا يُغْنَىٰ بِوَصْلٍ وَلا هَجْرِ
كَأَنِّي وَلَمْ أَسْلَخْ[2] ثلاثِين حِجَّةً
وَلَمْ يَجْرِ يَوْماً خَاطِرُ الشَّيْبِ في شَعْرِي
أَخُو مِئَةٍ يَمْشِي الْهُوَيْنَىٰ كَأَنَّهُ
إِذَا مَا مَشَىٰ في السَّهْلِ في جَبَلٍ وَعْرِ
إذا شَابَ قَلْبُ الْمَرْءِ شَابَ رَجَاؤُهُ
وَشَابَ هَوَاهُ وَهُوَ في ضَحْوَةِ الْعُمْرِ

---

(١) سَوْرة الخمر: حِدَّتها.

(٢) سَلَخَ عامَه: أمضاهُ.

حَـيِـيـتُ بِـآمـالِـي فـلَـمَّـا كَـذَبْـنَـنِـي
قَـنَـعْـتُ فَـلَـمْ أَحْـفِـلْ بِـقُـلٍّ وَلا كُـثْـرِ

وَأَصْبَحْتُ لا أَرْجُو سِوَىٰ الْجَرْعَةِ الَّتِي
أَذُوقُ إِذا مَـا ذُقْـتُـهَـا رَاحَـةَ الْـقَـبْـرِ

وَلَـيْـسَـتْ حَـيَـاةُ الْـمَـرْءِ إِلاَّ أَمَـانِـيـاً
إِذَا هِـيَ ضـاعَـتْ فَـالـحَـياةُ عَـلـىٰ الإِثْـرِ

جَـزَىٰ الـلَّـهُ عَـنِّـي الْـيأْسَ خَـيْـراً فَـإِنَّـهُ
كَـفَـانِـي مَـا أَلْـقَـىٰ مِـنَ الأَمَـلِ الْـمُـرِّ

وَرَاضَ جِـمـاحِـي لِـلـزَّمـانِ وَحُـكْـمِـهِ
بِـمَـا شَـاءَ مِـنْ عَـدْلٍ وَمَـا شَـاءَ مِـنْ جَـوْرِ

فَـمَـا أَنَـا إِنْ سَـاءَ الـزَّمـانُ بِـسَـاخِـطٍ
وَلا أَنـا إِنْ سَـرَّ الـزَّمَـانِ بِـمُـغْـتَـرِّ

وقـال فـي شَـأْنِ غَـنيٍّ مـن الأغـنـياءِ غَـلَـبَـتْـهُ الـمَـدَنـيَّـةُ الحديثَةُ على بساطَتِهِ الطبيعِيَّة، فَابْتَنَىٰ قَصْراً فَخْماً كان سَبَبَاً في فسادِ حالِهِ وسُوءِ مَصِيرِهِ [من السريع]:

يـا صَـاحِـبَ الْـقَـصْـرِ الَّـذِي شَـادَهُ
فَـاسْـتَـنْـفَـدَ الـمَـذخُـورَ مِـنْ وُجْـدِهِ[١]

أَقَـمْـتَـهُ كَـالـطَّـوْدِ فـي هَـضْـبَـةٍ
تَـرُدُّ عَـادِيَ الـدَّهْـرِ عَـنْ قَـصْـدِهِ

أَزَرْتَـهُ الأَبْـرَاجَ فِـي جَـوِّهَـا
فَـانْـتَـظَـمَ الأَنْـجُـمَ فِـي عِـقْـدِهِ

أَطْـلَـعْـتَ فِـيـهِ كَـوْكَـبـاً دَانِـيـاً
أَغْـنَـىٰ عَـنِ الـشَّـاسِـعِ فـي بُـعْـدِهِ

قَـلَّـصْـتَ ظِـلَّ الـلَّـيْـلِ عَـنْـهُ وَمَـا
رَعَـيْـتَ حَـقَّ الـلَّـهِ فـي مَـدِّهِ

أَنْـشَـأْتَ رَوْضـاً زَاهِـراً حَـوْلَـهُ
يُـعَـطِّـرُ الْـكَـوْنَ شَـذَا نَـدِّهِ

وَرُحْـتَ بِـالـرُّتْـبَـةِ فـي صَـدْرِهِ
تَـدَلُّ دَلَّ الـمَـلْـكِ فـي جُـنْـدِهِ

كَـأَنَّـمَـا الـرُّتْـبَـةُ كُـلُّ الَّـذِي
يُـنِـيـلُـهُ الـكَـوْكَـبُ مِـنْ سَـعْـدِهِ

---

(١) الوجد: الغِنَى والسَّعة.

هِبَ أَنّهُ اللُّوفرَ[١] فِي حُسْنِهِ
أَوْ قَصْرُ بوكِنْهام[٢] فِي جَدِّهِ
وَهَبْكَ رُوكْفِيلَرَ[٣] تَحْوِي الَّذِي
يُضَلِّلْ الحَاسِبَ فِي عَدِّهِ
فَالْمَالُ إنْ أَجْهَدَهُ رَبُّهُ
فَالفَقْرُ وَالعُدْمُ مَدَى جَهْدِهِ
وَالْمَالُ كَالطَّائِرِ إِنْ هَوَّمَتْ
حُرَّاسُهُ طَارَ إِلَىٰ فِنْدِهِ[٤]
وَالْمَجْدُ لِلْمَالِ وَكُلُّ الَّذِي
تَرَاهُ مِنْ مَجْدٍ فَمِنْ مَجْدِهِ
هَذَا شِهابٌ سَاطِعٌ مُشْرِقٌ
وَاللَّيْلَةُ اللَّيْلاءُ مِنْ بَعْدِهِ
بِنَيْتَ لِلْبَنْكِ فَأَغْنَيْتَهُ
بِجِدِّكَ الْمَبْذُولِ عَن جِدِّهِ

---

(١) اللوفر: قَصْر بباريس.

(٢) قصر في لندن.

(٣) أحد الأغنياء في أمريكة.

(٤) هوّم: هزّ رأسه من النعاس؛ والفِنْد: الجبل.

بِـنَـيْـتَ مَـا لَـوْ قَـدَرُوا قَـدْرَهُ
لَـقِـيـلَ هَـذَا الْـمَـيْـتُ فِـي لَـحْـدِهِ

وَأَدْتَ فِـيـهِ الأَمَـلَ الْـمُـرْتَـجَـىٰ
حَـيّـاً وَلَـمْ تَـأْسَ عَـلَـىٰ وَأْدِهِ

أَغْـمَـدْتَ فِـيـهِ صَـارِمـاً طَـالَـمـا
تَـثَـلَّـمَ الـدَّهْـرُ عَـلَـىٰ حَـدِّهِ

وَارَيْـتَ فِـيـهِ وَلَـداً لَـيْـتَـهُ
قَـضَـىٰ قَـرِيـرَ الْـعَـيْـنِ فِـي مَـهْـدِهِ

وَلَـيْـتَـهُ مَـا شَـبَّ فِـي زُخْـرُفٍ
يَـبْـكِـي يَـدَ الـدَّهْـرِ عَـلَـىٰ رَغْـدِهِ

فَـلَـيْـسَ مَـنْ يَـأْسَـىٰ عـلـى مَـطْـلَـبٍ
نَـاءٍ كَـمَـنْ يَـأْسَـىٰ عَـلَـىٰ فَـقْـدِهِ

غَـدَرْتَ بِـالْـبَـيْـتِ الَّـذِي بَـثَّـكَ الْـ
ـوِدَّ فَـلَـمْ تُـبْـقِ عَـلَـىٰ وِدِّهِ

هَـدَمْـتَـهُ وَالْـمَـجْـدُ ظِـلٌّ لَـهُ
فَـمَـا بَـقَـاءُ الـظِّـلِّ مِـنْ بَـعْـدِهِ

لَـكُـنْـتَ مِـنْ كُـوخِـكَ فـي نِـعْـمَـةٍ
تُـذِيـبَ قَـلْـبَ الـدَّهْـرِ مِـنْ حِـقْـدِهِ
وَكـانَ يَـنْـتـابُـكَ مُـسْـتَـزْفِـداً
مَـنْ بِـتَّ مُـحْـتـاجـاً إِلَـىٰ رِفْـدِهِ
فَـالْـيَـوْمَ لا الـقَـصْـرُ كَـما تَـرْتَـجِي
مِـنْـهُ وَلا الْـكُـوخُ عَـلَـىٰ عَـهْـدِهِ
وَالْـيَـوْمَ رَبُّ الْـقَـصْـرِ يُـذْرِي دَمـاً
مِـنْ جَـفْـنِـهِ آنـاً وَمِـنْ كِـبْـدِهِ
يَـدْعُـو إِلَـيْـهِ الْـمَـوْتَ مِـنْ بَـعْـدِ مـا
نـالَـتْ يَـدُ الأَيّـامِ مِـنْ أَيْـدِهِ
وَٱسْـوَدَّ ذَاكَ الْـجَـوْنُ مِـنْ جِـلْـدِهِ
وَٱبْـيَـضَّ ذَاكَ الْـجَـونُ مِـنْ فُـودِهِ[1]
هَـلْ يَـعْـلَـمُ الـشَّـرْقِـيُّ أَنَّ الـرَّدَىٰ
سِـرٌّ بِـصَـدْرِ الـدَّهْـرِ لَـمْ يُـبْـدِهِ
وَأَنَّـهُ يَـفْـجَـؤُنـا بِـالأَسَـىٰ
يَـوْمـاً خُـرُوجَ الـسَّـيْـفِ مِـنْ غِـمْـدِهِ

(١) الجون: وصف للأبيض والأسود، والفُود: ناحية الرأس.

وَإِنَّ هَـذَا الـدَّهْـرَ فِـي هَـزْلِـهِ
يُـغِـرُّ بِـالْـكَـاذِبِ مِـنْ وَعْـدِهِ
فَـهَـزْلُـهُ أَنْـفَـذُ مِـنْ جِـدِّهِ
وَرَهْـوُهُ أَسْـرَعُ مِـنْ وَخْـدِهِ[1]

وَيْـحٌ لِـمِـصْـرٍ وَلأَبْـنَـائِـهَـا
مِـمّـا يَـرِيـغُ[2] الـدَّهْـرُ مِـنْ كَـيْـدِهِ
نَـعِـيـشُ بِـالْـهَـمِّ وَنَـرْضَـىٰ بِـهِ
عَـيْـشـاً وَنَـقْـضِـي الْـعُـمْـرَ فـي نَـقْـدِهِ
كَـشَـارِبِ الْـكَـأْسِ يُـرَىٰ عَـابِـسـاً
مِـنْـهُ وَلا يَـقْـوَىٰ عَـلَـىٰ رَدِّهِ
فَـإِنْ لَـمَـحْـنَـا بَـارِقـاً خَـاطِـفـاً
لا نَـسْـمَـعُ الـقَـاصِـفَ مِـنْ رَعْـدِهِ
نُـسْـرِعُ خَـوْضَ الْـبَـحْـرِ فـي جَـزْرِهِ
وَجَـزْرُهُ يُـنْـبِـىءُ عَـنْ مَـدِّهِ

(١) الرّهو: السير السهل؛ والوخد: السير السريع.
(٢) يريغ: يريد.

وَالْـكُـلُّ ظَـمْـآنٌ يَـرَىٰ صَـادراً
وَمَـا قَـضَـىٰ الإِرْبَـةَ مِـنْ وِرْدِهِ

وقال في الحِكَمِ [من الطويل]:

إذا ما سَفِيهٌ نَالَنِي مِنْهُ نَائِلٌ
مِنَ الذَّمِّ لم يُحْرِجْ بِمَوْقِفِهِ صَدْرِي
أَعُودُ إِلىٰ نَفْسِي فَإِنْ كانَ صَادِقاً
عَتَبْتُ عَلَىٰ نَفْسِي وَأَصْلَحْتُ مِنْ أَمْرِي
وَإِلا فَما ذَنْبِي إِلىٰ النّاسِ إِنْ طَغَىٰ
هَوَاها فَمَا تَرْضَىٰ بِخَيْرٍ وَلا شَرِّ

وقال يُهَنِّىء الشيخَ محمد عَبْده بعَوْدَتِهِ من إحْدى رحْلاتِهِ في أُوربا [من السريع]:

راح يُبَارِي النَّجْمَ في جَدِّهِ
وَعَادَ كَالسَّيْفِ إِلىٰ غِمْدِهِ
رَأَىٰ السُّرَىٰ وَالسُّهْدَ مَهْرَ العُلا
فَجَدَّ وَارْتَاحَ إِلىٰ سُهْدِهِ
لا يُبْصِرُ الْخَطْبَ جَلِيلاً وَلا
تَلْوِي بِهِ الأهْوالُ عَنْ قَصْدِهِ

مُسَدَّدُ الْعَزْمِ إِذَا مَا مَضَىٰ
يَحَارُ صَرْفُ الدَّهْرِ فِي رَدِّهِ

كَالسَّيْفِ يَجْلُوهُ القِرَاعُ[1] وَلا
يَأْخُذُ ضَرْبُ الهَامِ مِنْ حَدِّهِ

كَانَ لِمِصْرٍ بَعْدَ تَوْدِيعِهِ
صَبَابَةُ الصَّادِي إِلَىٰ وِرْدِهِ

وَالْيَوْمَ قَدْ عَادَ لَهَا كُلُّ مَا
تَرْجُو مِنَ النِّعْمَةِ فِي عَوْدِهِ

وَٱفْتَرَّ عَنْهُ ثَغْرُهَا مِثْلَمَا
يَفْتَرُّ ثَغْرُ الرَّوْضِ عَنْ وَرْدِهِ

بَدَا وَقَدْ حَفَّتْ بِهِ هَيْبَةٌ
كَأَنَّمَا عُثْمَانُ فِي بُرْدِهِ

مَا فِيهِ مِنْ عَيْبٍ سِوَىٰ أَنَّهُ
يَحْسُدُهُ النَّاسُ عَلَىٰ مَجْدِهِ

مَا حِيلَةُ الْحُسَّادِ فِي نِعْمَةٍ
أَسْبَغَهَا اللَّهُ عَلَىٰ عَبْدِهِ

---

(١) القِراع: الضِّراب.

وقال في قِصَّةَ عَربيَّةٍ وقَعَتْ بين أسماء بنت أبي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ووَلَدِها أَميرِ المؤمنين عبد الله بن الزُّبَيْر حِينما حاصَرَهُ الحَجَّاجُ في مَكَّةَ حتى أخْرَجَهُ، ثمَّ عَرَضَ عَلَيْهِ التَّسْلِيمَ، فَاسْتَشارَ أُمَّهُ، فأشارت عَلَيْه بالاسْتِقْتالِ، فقاتَلَ حتى قُتِلَ [من الخفيف]:

إِنَّ أَسْـمـاءَ فـي الـوَرَىٰ خَـيْـرُ أُنْـثَـىٰ
صَـنَـعَـتْ فـي الْـوَدَاعِ خَـيْـرَ صَـنِـيـعِ

جَـاءَهَـا ابْـنُ الـزُّبَـيْـرِ يَـسْـحَـبُ دِرْعـاً
تَـحْـتَ دِرْعٍ مَـنْـسُـوجَـةٍ مِـنْ نَـجِـيـعِ[1]

قَـالَ يَـا أُمُّ قَـدْ عَـيِـيـتُ بِـأَمْـرِي
بَـيْـنَ أَسْـرٍ مُـرٍّ وَقَـتْـلٍ فَـظِـيـعِ

خَـانَـنِـي الـصَّـحْـبُ وَالـزَّمَـانُ فَـمَـا لـي
صَـاحِـبٌ غَـيْـرَ سَـيْـفِـيَ الْـمَـطْـبُـوعِ

وَأَرَىٰ نَـجْـمِـيَ الَّـذِي لاحَ قَـبْـلاً
غَـابَ عَـنِّـي وَلَـمْ يَـعُـدْ لِـطُـلُـوعِ

---

(١) النَّجيع: الدم.

بَذَلَ الْقَوْمُ لي الأَمَانَ فَمَا لي
غَيْرُهُ إِنْ قَبِلْتُهُ مِنْ شَفِيعِ

فَأَجَابَتْ وَالْجَفْنُ قَفْرٌ كأَنْ لَمْ
يَكُ مِنْ قَبْلُ مَوْطِناً لِلدُّمُوعِ

وَٱسْتَحَالَتْ تِلْكَ الدُّمُوعُ بُخاراً
صَاعِداً مِنْ فُؤَادِها الْمَصْدُوعِ

لا تُسَلِّمْ إِلاَّ الْحَيَاةَ وإِلاَّ
هَيْكَلاً شَأْنُهُ وَشأْنُ الجَذُوعِ

إِنَّ مَوْتاً في ساحَةِ الْحَرْبِ خَيْرٌ
لَكَ مِنْ عَيْشِ ذِلَّةٍ وخُضُوعِ

إِنْ يَكُنْ قَدْ أَضاعَكَ النَّاسُ فَٱصْبِرْ
وَتَثَبَّتْ فَاللَّهُ غَيْرُ مُضِيعِ

مُتْ هُمَاماً كَما حَيِيتَ هُماماً
وَٱحْيَ في ذِكْرِكَ الْمَجِيدِ الرَّفِيعِ

لَيْسَ بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ إِلاَّ
كَرَّةٌ في سَوَادِ تِلْكَ الْجُمُوعِ

ثُـمَّ قَـامَـتْ تَـضُـمُّـهُ لِـوَدَاعٍ
هَـائِـلٍ لَـيْـسَ بَـعْـدَهُ مِـنْ رُجُـوعِ
لَـمَـسَـتْ دِرْعَـهُ فَـقَـالَـتْ لَـعَـهْـدِي
بِـكَ يَـا بْـنَ الـزُّبَـيْـرِ غَـيْـرَ جَـزُوعِ
إِنَّ بَـأْسَ الْـقَـضَـاءِ فِـي الـنَّـاسِ بَـأْسٌ
لا يُـبَـالِـي بِـبَـأْسِ تِـلْـكَ الـدُّرُوعِ
فَـنَـضَـاهَـا عَـنْـهُ وَفَـرَّ إِلَـى الْـمَـوْ
تِ بِـدِرْعٍ مِـنَ الْـفَـخَـارِ مَـنِـيـعِ
وَأَتَـىٰ أُمَّـهُ الـنَّـعِـيُّ فَـجَـادَتْ
بَـعْـدَ لأْيٍ بِـدَمْـعِـهَـا الْـمَـمْـنُـوعِ

وقال في الشَّيْب [من المديد]:

ضَـحِـكَـاتُ الـشَّـيْـبِ فِـي الـشَّـعَـرِ
لَـمْ تَـدَعْ فِـي الْـعَـيْـشِ مِـنْ وَطَـرِ
هُـنَّ رُسْـلُ الْـمَـوْتِ سَـانِـحَـةٌ
قَـبْـلَـهُ وَالْـمَـوْتُ فِـي الأَثَـرِ
يَـا بَـيَـاضَ الـشَّـيْـبِ مَـا صَـنَـعَـتْ
يَـدُكَ الْـعَـسْـرَاءُ بِـالـطُّـرَرِ

أَنْـــتَ لَـــيْـــلُ الْـــحَـــادِثَـــاتِ وَإِنْ
كُـنْـتَ نُـورَ الـصُّـبْـحِ فِـي الـنَّـظَـرِ
لَـيْـتَ سَـوْدَاءَ الـشَّـبَـابِ مَـضَـتْ
بِـسَـوَادِ الْـقَـلْـبِ وَالْـبَـصَـرِ
فَـالـصِّـبَـا كُـلُّ الْـحَـيَـاةِ فَـإِنْ
مَـرَّ مَـرَّتْ غِـبْـطَـةُ الْـعُـمُـرِ

وَقَالَ علىٰ سَبيلِ الفُكاهَةِ في شَأْنِ كَلْبٍ اسْمُهُ «بِيلٍ» وَفىٰ لِسَيِّدِهِ، فطوَّقَهُ طَوْقاً من الذَّهَبِ، وأَوْصَىٰ له بِخَمْسَةِ آلافِ دِينارٍ [من الطويل]:

لِـيَـهْـنَـكَ يَـا «بِـيـلُ» الْـجَـلالُ وَعِـزَّةٌ
يَـكـادُ لَـهَـا الْـقَـلْـبُ الْـكَـسِـيرُ يَـطِـيرُ
مَـلَـكْـتَ عَـلَـىٰ الـزُّهْـدِ الأُلُـوفَ وَكُـلُّـنَـا
إِلَـىٰ قَـطْـرَةٍ مِـمَّـا مَـلَـكْـتَ فَـقِـيـرُ
إِذَا كَـانَ هَـذَا الـطَّـوْقُ كَـالـتَّـاجِ قِـيـمَـةً
فَـأَنْـتَ بِـأَلْـقَـابِ الـمُـلُـوكِ جَـدِيـرُ
وَمَـا الـمَـالُ إِلاَّ آيَـةُ الْـجَـاهِ الْـوَرَىٰ
فَـحَـيْـثُ تَـراهُ فَـالـمَـقَـامُ خَـطِـيـرُ

وَلَوْ كانَ بَيْنَ الفَضْلِ وَالْجَاهِ نِسْبَةٌ
لَزَالَتْ عُرُوشٌ جَمَّةٌ وَقُصُورُ

فَيَا بِيلُ لا تَجْزَعْ فَرُبَّ مُتَوَّجٍ
شَبِيهُكَ إلاَّ مِنْبَرٌ وَسَرِيرُ

وَمَا أَنْتَ في جَهْلِ المَقَادِيرِ آيَةٌ
فَمِثْلُكَ بَيْنَ النَّاطِقِينَ كَثِيرٌ

لَئِنْ فَاتَكَ النُّطْقُ الْفَصِيحُ كما تَرَىٰ
فَسَهْمُكَ مِنْ نُطْقِ الْفُؤَادِ وَفِيرُ

وَفَيْتَ بِعَهْدِ لِلصَّدِيقِ وَمَا وَفَىٰ
بِعَهْدِ صَدِيقٍ جَرْوَلٌ وَجَرِيرُ(١)

فَعِشْ صَامِتاً وَٱقْنَعْ بِحَظِّكَ وَٱغْتَبِطْ
فَمَا النُّطْق إلاَّ آفَةٌ وَشُرُورُ

ضَلالٌ يَرَىٰ الإِنْسانُ فَضْلاً لِنَفْسِهِ
وسَاعِدُهُ فِي المَكْرُماتِ قَصِيرُ

وَمَا المَرْءُ إلاَّ صِدْقُهُ وَوَفَاؤُهُ
وَكُلٌّ كَبِيرٍ بَعْدَ ذَاكَ صَغِيرُ

---

(١) جَرْوَل: لقب الحُطَيْئةِ الشاعر؛ وجرير: شاعِرٌ معروفٌ.

وَمَـاذا يُـفِـيـدُ الْـمَـرْءَ حُـسْـنُ بَـيَـانِـهِ
إذا عَـيَّ بِـالـنُّـطْـقِ الـفَـصِـيـحِ ضَـمِـيـرُ
مَـدَحْـتُـكَ يَـا بِـيـلٌ لأَنَّـي شَـاعِـرٌ
وَأَنْـتَ عَـلـىٰ حُـسْـنِ الْـجَـزَاءِ قَـدِيـرُ
وَلَوْ كُنْتَ تَدْرِي مَا أَقُولُ لَقُمْتَ لِي
بِـمَـا لَـمْ يَـقُـمْ لِـلْـمَـادِحِـيـنَ أَمِـيـرُ

* * *

هذهِ تَرْجمةُ ذلك الكاتِبِ الكبيرِ، والشَّاعِرِ الجليل؛ مَنْ قَرَأَها ورَأَىٰ أَنَّها تَرجمةٌ غَيْرُ حافِلَةٍ بالأَلْقاب العِلْميَّةِ، والشَّهادات المَدْرَسِيّة، الَّتي تَمْتَلأُ بها عادةً تراجِمُ كِبارِ الكُتَّاب، وفطاحِلِ الشُّعراءِ؛ عَلِمَ أَنَّ الفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ.

أ. حافظ عوض
مصر، في أول ديسمبر/ كانون الأول
سنة ١٩٠٩م

من مصادر ترجمة المنفلوطي

- «الأعلام» خير الدين الزركلي.
- «الأعلام الشرقية» زكي محمد مجاهد.
- «أشهر مشاهير أدباء الشرق» محمد محمد عبد الفتاح ٢/ ١٧٧، الناشر حسين حسنين صاحب المكتبة المصرية بمصر، دون ذكر تاريخ الطبع.
- «الثغر الباسم في مناقب أبي القاسم» صفحة ٢٩.
- «جامع التصانيف الحديثة» ٢/ ١٣.
- «كلمات المَنْفَلُوطِي ملخصة من كتبه ومصدًّرة بصورته وخطه وترجمته ومذيّلة بخلاصة ما قيل فيه من الوصف والتأبين والرثاء» لأحمد عبيد، دمشق، ١٣٤٣هـ = ١٩٢٤م؛ وهو مختارات من أقوال المَنْفَلُوطِي مذيلة بخلاصة ما قاله الأدباء في مصر وسورية والعراق في حياته ومماته، في وصفه وتأبينه، نظماً ونثراً، ١٨٠ صفحة.
- «الكنز الثمين» صفحة: ٢٧٨.
- مجلة «الرسالة» أحمد حسن الزيات السنة الخامسة الصفحة ٧٥٧ و١٠٣٧ و١١٢١ و١١٢٢ و١٢٧٠

و١٢٧١ و١٢٨١ و١٢٨٢ القاهرة سنة ١٩٣٧م؛ والسنة الثامنة الصفحة ٢٧٦ و٢٧٧ القاهرة سنة ١٩٤٠م.

ـ مجلة «كل شيء والعالم» لعباس محمود العقاد العدد الصادر بتاريخ ١٧/ ١/ ١٩٣١م.

ـ «معجم المطبوعات» صفحة ١٨٠٥.

ـ «مشاهير شعراء العصر» لأحمد عبيد، الطبعة الثانية؛ مكتبة صادر، بيروت، ١٩٩٤م؛ ١/ ٣٢٩ ـ ٣٤١.

ـ «مشاهير القرن العشرين» محمد بوذينة، الصفحة ٨٨٩، تونس ١٩٩٤م.

ـ «مصادر الدراسة الأدبية» يوسف أسعد داغر، الجزء ٢ الصفحة ٧٠٢ ـ ٧٠٥، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٨٣م.

ـ «معجم المؤلفين» عمر رضا كحالة، الجزء ١٢ الصفحة ٢٧٢ ـ ٢٧٤، مطبعة الترقي بدمشق، ١٩٦٠م.

ـ «المَنْفَلُوطِي، حياته، أقوال الكتاب والشعراء فيه، المختار من نثره، المختار من شعره» لمحمد محمد زكي الدين، مصر، دون تاريخ [١٩٤٢م؟]، ١٦٠ صفحة.

ـ «النظرات» المقدمة، لمصطفى لطفي المَنْفَلُوطِي.

هذا الكتاب

لم يطبع من «مختارات المنفلوطي» سوى الجزء الأول فقط. كما سبق أن ذكرت عند تعداد مؤلفاته. وإضافة لما أوردته هناك أورد ما قاله هو عن كتابه في مقدمته مخاطباً طالب المدرسة الإعدادية والثانوية وكذلك الجامعي:

كتاب يَجْمَعُ لك من جيّد منظوم العرب ومنثورها، في حاضرها وماضيها، وفي كل فنٍّ وغَرَضٍ من فنونها وأَغْراضِها، ما تستعين باستظهاره أو ترديد النَّظرِ فيه، على تهذيب بيانك وتقويم لسانك.

هذه الطبعة:

هي إعادة طبع لما ورد في الطبعة الأولى مع زيادة ضبطٍ وتصحيحٍ وتعليقٍ، وتعيينٍ لتاريخ الولادة والوفاة للأعلام المترجمين.

* * *

وفي الختام، أرجو الله سبحانه وتعالى أن ييسرنا للخير، ويستعملنا صالحاً، ويرحمنا، ويغفر لنا، ولوالدينا، ولكل مَنْ له حقّ علينا، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

دمـــشـــق

في ٢٠٠١/١١/٢٥

بسّام عبد الوهّاب الجابي

هديَّةُ الكتاب

إلى سعادَةِ الأستاذ السيد علي يوسف[١]:

كانَ للإنشاءِ في مِصْرِ ديوانٌ أَنْتَ رَئِيسُهُ، وَالكُتَّاب

---

(١) **الشيخ علي يُوسف** (١٢٨٠ـ ١٣٣١هـ = ١٨٦٣ـ ١٩١٣م) علي بن أحمد بن يوسف البلصفوري الحسيني: كاتب، من أكابر رجال الصحافة في الديار المصرية. ولد في بلصفورة (من نواحي جرجا بمصر) ونشأ يتيماً، خلفه والده في السنة الأولى من عمره. وانتقل إلى القاهرة سنة ١٢٩٩هـ، فتعلم في الأزهر. ونظم الشعر، ونشر ديواناً صغيراً سماه «نسمة السحر ـ ط» وأنشأ مجلة أسبوعية سماها «الآداب» عاشت ثلاث سنوات. ثم أصدر جريدة **«المؤيد»** يومية سنة ١٣٠٧هـ، فكان لها شأن في سياسة مصر والشرق والإسلام، واستمر صدورها إلى أواخر أيامه. [وفي هذه الجريدة كان ينشر المنفلوطي «نظراته»] وولي مشيخة السجادة الوفائية. وتوفي في القاهرة، فرثاه كثيرون من الشعراء والكتَّاب. وكان سريع الخاطر، قويّ الحجة، واسع الرواية، مقداماً جريئاً، عرَّفه بعض الكتَّاب بشيخ الصحافة الإسلامية في عصره، وهو تعريف صحيح. [مرآة العصر ٥٣٧ والهلال ٢٢: ١٤٨ ومجلة المقتطف. وانظر مجلة الكتاب: ٦: ٢٣٢ـ ٢٤٩ وهدية ١: ٧٧٧] نقلاً عن «الأعلام» للزركلي.

جميعاً عُمَّالُهُ. فأَمَّا وَقَدِ اعْتَزَلْتَهُ، فَائْذَنْ لِأَحَدِ عُمَّالِ دِيوانِكَ أَنْ يُقَدِّمَ إِلَيْكَ كِتابَهُ هذا تَذْكارَ وَداعٍ تَحْفَظُ لَهُ فِيهِ مَاضِي إِخْلاصِهِ لَكَ، وَيَحْفَظُ لَكَ فيهِ سالِفَ أَيادِيكَ عِنْدَهُ؛ وَسلامٌ عَلَىٰ عَهْدِكَ الزَّاهِرِ وتاريخِكَ الطَّاهِرِ.

مصطفى لطفي المَنْفَلُوطي

تحريراً في ١٥ مارس/آذار سنة ١٩١٣م.

مقدمة الكتاب

بسم الله الرحمٰن الرحيم

أَحْمَدُ اللَّهَ علىٰ آلائِه، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ على سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَصَحْبِهِ وَآله.

وَبَعْدُ؛ فَقَدْ عَرَفْتُ حاجَتَكَ يَا بُنَيَّ - أَعَزَّكَ اللَّهُ - إِلىٰ كتاب يَجْمَعُ لَكَ مِنْ جَيِّدِ مَنْظومِ العَرَبِ وَمَنْثُورِها، في حاضِرِها وَماضِيها، وَفي كُلِّ فَنٍّ وَغَرَضٍ مِنْ فُنونِهَا وَأَغْرَاضِها ما تَسْتَعِينُ بِاسْتِظْهارِهِ، أَوْ تَرْدِيدِ النَّظَرِ فِيهِ، علىٰ تَهْذِيبِ بَيانِكَ وَتَقْويمِ لِسانِكَ؛ وَعَلِمْتُ أَنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ أَنْ تَجِدَ طَلِبَتَكَ هذه في مُخْتَارٍ مِنْ مُخْتَاراتِ المُتَقَدِّمِين، وَلا في مَجْمُوعَةٍ مِنْ مَجْمُوعاتِ المُعَاصِرِين.

أَمَّا المُتَقَدِّمُونَ، فَهُمْ بَيْنَ نَحْوِيّ لا يُعْجِبُهُ مِنَ الكَلامِ إِلاَّ ما يَجِدُ فِيه مَذاقَ شَوَاهِدِ العِلْمِ الَّذِي يُعَالِجُهُ، وَلا تَسْكُنُ نَفْسُهُ إِلاّ إِلىٰ البَيْتِ الَّذِي يَرَىٰ فِيهِ عُقْدَةً يَتَفَصَّحُ

بِحَلِّهَا، أَوْ خِطْأَةً يَتفَكَّهُ بِتَأْوِيلِها، أَوْ نادِرَةً مِنْ نَوادِرِ الإِعْرابِ وَالبِنَاءِ يُؤَيِّدُ بها رَأياً أَوْ يُساجِلُ بها خَصْماً؛ وَلُغَوِيٍّ مُولَعٍ بِما يَشْتَمِلُ عَلَىٰ الغَرِيبِ النَّادِرِ مِنْ مُفْرَداتِ اللُّغَةِ وَتراكِيبِها، فلا يَكادُ يَعْدِلُ بِشِعْرِ الجاهِلِيَّةِ وَمَا جَرَىٰ مَجْراهُ شِعرَ طَبَقَةٍ من الطَّبَقَاتِ، ولا يَرَىٰ غَيْرَ كلامِهِمْ كلاماً وَلا مَذْهَبِهِمْ مَذْهَباً.

وَعَصْرُ الجاهِلِيَّةِ عَلَىٰ ما أَعْتَقِدُ هُوَ عَصْرُ الطُّفُولَةِ الشِّعْرِيَّةِ، أي: أَنَّ الشِّعْرَ كَانَ فِيهِ بَسِيطاً سَاذَجاً، لَمْ يُهَذِّبْهُ العِلْمُ، وَلَمْ تَصْقُلْهُ الحَضارَةُ، وَلَمْ تَتَّصِلْ به أَشِعَةُ الخَيالِ فَتُنِيرُ ظُلْمَتَهُ.

فَهُوَ وإِنْ كانَ أَصْدَقَ الشِّعْرِ وَأَجْدَرَهُ أَنْ يَكُونَ صَفحَةً صَحِيحةً لِتاريخِ عَصْرِهِ، ولَكِنْ قَلَّما يَسْتَفِيدُ شاعِرُ الحضارَةِ مِنْ أَكْثَرِهِ أَكْثَرَ مِنَ المادَّةِ اللُّغَوِيَّةِ. وَما الفَرْقُ بَيْنَ شِعْرِ الجاهِلِيَّةِ وَشِعْرِ طَبَقَةِ المُحْدَثِينَ وَالمُوَلِّدِينَ مِنْ بَعْدِهِ إِلاَّ كَالفَرْقِ في المُوسِيقىٰ بَيْنَ نَغَماتِ الحُداةِ في أَعْقَابِ الإِبِلِ وَنَغَماتِ الضَّارِبِينَ عَلَىٰ أَوْتارِ الأَعْوَادِ وَالبَرَابِطِ في عَصْرِ الحَضَارَةِ الإِسْلاَمِيَّةِ.

وَعِنْدِي أَنّ لِلنزْعَةِ التارِيخِيَّةِ سُلطاناً على نُفوسِ المُولَعِينَ بالشِّعْرِ الجاهِلِيِّ أَكْثَرَ مِنَ النَّزْعَةِ الفَنِّيَّةِ، فَمَثَلُهُمْ

كَمَثَلِ المُولَعِينَ بِالعادِياتِ الّذِينَ يُؤْثِرونَ حَجَرَ الغَرانِيت علىٰ حَجَرِ الماسِ، وَيُعْجِبُهُمْ مَنْظَرَ هَرَمَ خُوفُو أكْثَرَ مِمّا يُعْجِبُهُم مَنْظَرَ بُرْجِ إيفِل.

وَراوِيَةٍ هَمُّهُ في حَياتِهِ أَنْ يَدُورَ بِيَدِهِ لَيْلَهُ وَنَهارَهُ في زَوَايَا رَأْسِهِ عَلَّهُ يَعْثُرُ بِبَيْتٍ لاَ يَعْرِفُهُ غَيْرُهُ مَنْسوباً إلى قائلٍ لا يَعْرِفُ نِسْبَتَهُ إِلَيْهِ سِوَاهُ، ثُمَّ لا يُبَالِي بَعْدَ ذَلِكَ أَحْسَنَ أَمْ أَساءَ.

فَهُوَ بِالمُؤَرِّخِ أَشْبَهَ مِنْهُ بِالأَدِيبِ.

وَأَدِيبٍ جَمَعَ مَا جَمَعَهُ لِعَصْرٍ غَيْرِ عَصْرِكَ وَقَوْم غَيْرِ قَوْمِكَ وَحالٍ وَمُجْتَمَعٍ غَيْرِ حَالِكِ وَمُجْتَمَعِكَ، فَإِنْ أَفَادَكَ قَلِيلُهُ لا يَنْفَعُكَ كَثِيرُهُ.

وَأَحْسَبُ أَنَّ ما يَتَعَلَّقُ مِنَ الشِّعْرِ بِالحماسَةِ وَوَصْفِ الحُرُوبِ وَأَسْلِحَتِها وَدِمائِها وَغُبَارِهَا وَأَشْلائِها وَوَصْفِ الإِبِلِ في مَبَارِكِهَا وَالشَّاءِ في حَظَائِرِها وَالأَبْقَارِ في مَراتِعِها، هُوَ آخِرُ مَا يَحْتَاجُ المُتَأَدِّبُ إِلىٰ النَّظَرِ فِيهِ في هَذَا الْعَصْرِ.

وَبَيْنَ مُطِيلٍ قَدْ خَلَطَ جَيِّدَهُ بِرَدِيئِهِ وَغَثَّهُ بسَمِينِهِ، فَلاَ تَصِلُ يَدُكَ إِلىٰ ما في مَنْجَمِهِ مِنْ ذَرّاتِ التِّبْرِ حَتَّىٰ تَنْبُشَ عَنْهَا ما لا قِبلَ لَكَ بِاحْتِمالِهِ مِنْ حقائِبِ الرَّمْلِ.

وَمُقَصِّرٍ يَخْتَصُّ بِالاخْتِيارِ عَصْراً دُونَ عَصْرٍ أَوْ فَرْداً دُونَ فَرْدٍ أَوْ قَوْماً دُونَ قَوْمٍ أَوْ باباً مِنْ أَبَوابِ البَيانِ دُونَ بَابٍ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنّ المُتَأَدِّبَ شَاعِراً كانَ أَوْ كاتِباً لا يَكْمُلُ أَدَبُهُ وَلاَ تَصْفُو قَرِيحَتُهُ وَلاَ تَلْمَعُ صَفْحَةُ بَيانِهِ وَلاَ تَنْحَلّ عُقْدَةُ لِسانِهِ إلاَّ إِذَا تَمَهَّلَ فِي رَوْضِ البَيانِ فَاَقْتَطَفَ ألوانَ زَهَرَاتِهِ مِنْ أَنْوَاعِ شَجَرَاتِهِ، وَأَنَّ الشَّاعِرَ لا يُغْنِيهِ المَدْحُ وَالهِجاءُ عَنِ البُكَاءِ وَالرِّثاءِ، ولا العِتَابُ وَالوِدُّ عَنِ التَّشْبِيهِ وَالوَصْفِ، وَلاَ البُكاءُ عَلَىٰ المَنَازِلِ وَالدِّيارِ وَفِراقِ الأَحِبَّةِ وَمَوْتِ المَوْتَىٰ عَنِ البُكاءِ عَلىٰ المَجْدِ الضَّائِعِ وَالمُلْكِ السَّاقِطِ وَالعِزْضِ المَغْلُوبِ وَالشَّرَفِ المَسْلُوبِ، كما لا يُغْنِيهِ وَصْفُ السَّيْفِ في رَوْنَقِهِ وَبهائِهِ عَنْ وَصْفِهِ في حِدَّتِهِ وَمَضائِهِ، وَلاَ وَصْفُ الْبَدْرِ في جَمَالِهِ وَرُوائِه عَنْ وَصْفِهِ في عِزَّتِهِ وَخُيَلاَئِهِ، وَلاَ تَشْبِيهُ قَوَادِمِ الحمامَةِ عَنْ تَشْبِيهِ ذَنَبِ القَطَاةِ، وَلاَ تَصْوِيرُ ذَكاءِ الفِيلِ عَنْ تَمْثِيلِ إِحْسَاسِ النَّمْلَةِ. وَأَنَّ الكَاتِبَ لا يَبْلُغُ مَرْتَبَةَ البيانِ، وَلاَ يَصِلُ إِلىٰ مَنْزِلَةِ القُدْرَةِ عَلَىٰ الإِفْصاحِ عَنْ أَغْرَاضِهِ وَمَرَامِيهِ في جَمِيعِ مَوَاقِفِهِ وَمَذَاهِبِهِ حَتَّىٰ يَأْخُذَ بَأَزِمَّةِ القَوْلِ جَمِيعِها وَيَشْتَمِلَ عَلَىٰ أَسَالِيبِ الكَلاَمِ بِأَنْواعِهِ وَيَعْلَمَ أَنَّ الْكِتَابَةَ فِي العِلْمِ غَيْرُ الْكِتَابَةِ في الأَدَبِ وَأَنَّ لِلْخُطَبِ أَسْلُوباً غَيْرَ أُسْلُوبِ

الْكُتُبِ، وَأَنَّ لِكُلِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْعُلُومِ وَالْفُنُونِ طَرِيقاً فِي الْكِتَابَةِ خَاصًّا بِهِ لا يُفَارِقُهُ إِلىٰ غَيْرِهِ وَلا يَشْرَكُهُ فِيهِ سِوَاهُ، وَأَنَّ الانْتِقادَ غَيْرُ الهِجَاءِ وَالهِجَاءَ غَيْرُ التَّهَكُّمِ وَالتَّهَكُّمَ غَيْرُ التَّأْنِيبِ وَالتَّأْنِيبَ غَيْرُ الإِنْذَارِ وَالتَّهْدِيدِ.

وَأَمَّا المُعَاصِرُونَ، فَهُمْ إِمَّا تَابِعٌ مُتَأَثِّرٌ يَعْتَمِدُ في ٱخْتِيَارِ مَا يَخْتَارُ عَلَى نَباهَةِ النَّابِهِ وَفِي اطِّرَاحِ مَا يَطَّرِحُ عَلَىٰ خُمُولِ الْخَامِلِ، وَيَعْتَبِرُ التَّقَدُّمَ في الزَّمَنِ شَافِعاً يَشْفَعُ فِي إِسَاءَةِ المُسِيءِ وَالتَّأَخُّرَ فِيهِ ذَنْباً يَذْهَبُ بِإِحْسانِ الْمُحْسِنِ. وَإِمَّا خَابِطٌ مُتَقَمِّمٌ يَعْتَمِدُ في الاخْتِيارِ عَلَىٰ يَدِهِ لا عَلَىٰ بَصَرِهِ، فَيَأْخُذُ مِنْ كُلِّ كِتابٍ صَفْحَةً، وَمِنْ كُلِّ دِيوَانٍ وَرَقَةً، ثُمَّ يَعْرِضُ عَلَىٰ الأَنْظَارِ كِتاباً غَرِيباً في ٱخْتِلافِ أَلْوَانِهِ وَتَزَايُلِ أَوْصَالِهِ، جامِعاً بَيْنَ مُعَلَّقَةِ ٱمْرِىءِ القَيْسِ وَأَلْفِيَّةِ ٱبْنِ مَالِكٍ في مَكانٍ وَبَيْنَ مَقاماتِ البَدِيعِ ومَقالاتِ صِبْيانِ المَكاتِبِ في مَكانٍ آخَرَ.

وَإِمَّا عَالِمٌ أَدِيبٌ قَدْ حَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱنْتِفَاعِ المُتَأَدِّبِينَ بِعِلْمِهِ وَفَضْلِهِ وَسَلامَةِ ذَوْقِهِ وَصَفاءِ قَرِيحَتِهِ، إِنَّهُ يُبالِغُ فِي سُوءِ الظَّنِّ بِأَفْهامِهِمْ، وَيَذْهَبُ فِي تَقْدِيرِ مَدَارِكِهِمْ مَذاهِبَ مَا كَانَ لِمِثْلِهِ أَنْ يَذْهَبَ إِلىٰ مِثْلِها، فَتَرَاهُ يَعْمَدُ في ٱخْتِيارِ مَا يَخْتَارُ إِلىٰ ما يَزْعُمُ أَنَّهُ هُوَ القَرِيبُ إِلىٰ أَذْهانِهِمْ اللاصِقُ

بِعُقُولِهِمْ غَيْرُ المُلْتَوي عَلَيْهِمْ وَلا المُتَعَثِّرِ بِهِمْ، فَيَتَبَذَّلُ كُلَّ التَّبَذُّلِ وَيُسِفُّ كُلَّ الإِسْفافِ، وَيُورِدُ في كِتابِهِ مِنْ قِطَعِ الشِّعْرِ وَجُمَلِ النَّثْرِ ما يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ مادَّةً لِلطِّفْلِ فِي هِجائِهِ، لا مادَّةً للأَدِيبِ في بَيانِهِ.

وَسَبِيلُ كُتُبِ المُخْتاراتِ الَّتِي يُرادُ مِنْها غَرْسَ مَلَكَةِ البَيانِ في نَفْسِ المُتَأَدِّبِ غَيْرُ سَبِيلِ كُتُبِ العِلْمِ الَّتِي لا يُرادُ مِنْهَا غَيْرَ حُصُولِ ما تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مِنْ قَواعِدِ العُلُومِ وَمَسَائِلِها في ذِهْنِ المُتَعَلِّمِ.

وَلَنْ تَسْتَقِرَّ مَلَكَةُ البَيانِ فِي النَّفْسِ حَتَّىٰ يَقِفَ المُتَأَدِّبُ بِطائِفَةٍ مِنْ شَرِيفِ القَوْلِ، مَنْظُومِهِ وَمَنْثُورِهِ، وُقوفَ المُتَثَبِّتِ المُسْتَبْصِرِ الَّذِي يَرَىٰ المَعْنَىٰ بَعِيداً، فَيَمْشِي إِلَيْهِ، أَوْ نازِحاً فَيَسْتَدْنِيهِ، أَوْ مُحَلِّقاً فَيَصْعَدُ إِلَيْهِ، أَوْ مُتَغَلْغِلاً فَيَتَمَشَّىٰ فِي أَحْشائِهِ حَتَّىٰ يُصِيبَ لُبَّهُ، ولا يَزَالُ يُعالِجُ ذَلِكَ عِلاجاً شَدِيداً يَنْضَحُ لَهُ جَبِينُهُ، وَتَنْبَهِرُ لَهُ أَنْفاسُهُ، حَتَّىٰ تَتَكَيَّفَ مَلَكَتُه بِالكَيْفِيَّةِ الَّتِي يُرِيدُها.

وَمَا أَرَىٰ هَذِهِ النَّكْبَةَ العَامَّةَ الَّتِي أَصابَتِ النَّاشِئِينَ في مَلَكاتِهِمُ الكِتَابِيَّةِ وَما رُزِئُوا بِهِ مِنْ نُضُوبِ مادَّتِهِمْ اللُّغَوِّية والنُّزُوعِ إِلىٰ تِلْكَ المَنازِعِ الأَعْجَمِيَّةِ في التَّصوُّرِ وَالتَّخَيُّلِ إِلاَّ أَثَراً مِنْ آثارِ تِلْكَ المُخْتَاراتِ الَّتِي يَجْمَعُها لَهُمُ

الْجامِعُونَ جَمْعاً مَحْفُوفاً بِالْحَذَرِ، وَالاْحْتِياطِ، بَلْ بِما هُوَ فَوْقَ ذَلِكَ مِنَ الخَوْفِ وَالوَسْوَاسِ، فَيَسْتَكْثِرُونَ لَهُمْ مِنْ أَبْوَابِ الحِكَمِ وَالأَخْلاقِ وَالمَوَاعِظِ وَالزُّهْدِ وَأَمْثالِ ذَلِكَ مِمّا لا يَكَادُ يَتَرَاءَى فِيهِ قَلْبُ الشَّاعِرِ وَلاَ تَتَجَلَّىٰ فِيهِ نَفْسُ الكَاتِبِ، وَيَفِرُّونَ الفِرَارَ كُلَّهُ مِنْ كُلِّ مَا يَتَعَلَّقُ بِوَصْفِ جَمالِ الطَّبِيعَةِ أَوْ جَمَالِ الصِّنَاعَةِ، أَوْ تَصْوِيرِ عَواطِفِ النُّفُوسِ وَوِجْداناتِها في الْخَيْرِ وَالشَّرِّ وَالعُرْفِ وَالنُّكْرِ، كَأَنَّمَا يَحْسَبُونَ أَنَّ كُلَّ بَيْتِ غَزَلٍ بَيْتُ رِيبَةٍ، وَكُلَّ وَصْفِ خَمْرٍ حَانَةُ شَرَابٍ.

وَمَا سَمِعْنا مِنْ قَبْلُ، وَلا نَحْسَبُ أَنْ سَيَسْمَعُ السَّامِعونَ مِنْ بَعْدُ أَنَّ مُتَأَدِّباً أَفْسَدَهُ ديوانُ غَزَلٍ أَوْ أَغْرَاهُ بِالشَّرابِ وَصْفُ خَمْرٍ، لا بَلْ إِنَّمَا يَرِدُ ذَلِكَ عَلَىٰ مَنْ يَرِدُ عَلَيْهِ مِنْهُمْ مِنْ فَسادِ الخُلَطاءِ أَوْ ضَلالِ المُؤَدِّبِينَ.

أَمَّا الشِّعْرُ المُشْتَمِلُ عَلَىٰ وَصْفِ الْجَمالِ والنَّثْرِ المُتَضَمِّنُ تَصْويرَ دَقائِقِ المَعَانِي النَّفْسِيَّةِ وَالخَواطِرِ القَلْبِيَّةِ ما دَامَ بَعِيداً عَنْ فاحِشِ القَوْلِ وهُجْرِهِ، فهُوَ أَعْوَنُ الذَّرائِعِ عَلَىٰ تَنْمِيَةِ مَلَكَةِ الفَصاحَةِ وَالبَيانِ فِي نَفْسِ النَّاشِىءِ.

لِذَلِكَ لَمْ أَرَ بُدًّا مِنْ أَنْ أَسْتَخِيرَ ٱللهَ تَعالَىٰ فِي أَنْ أَجْمَعَ لَكَ يَا بُنَيَّ في هَذَا السِّفْرِ مِنْ جَيِّدِ المَنْظُومِ وَالمَنْثُورِ

ما أَعْلَمُ أَنَّهُ أَلْصَقُ بِكَ وَأَدْنَىٰ إِلَيْكَ وَأَنْفَعُ لَكَ في تَثْقِيفِ عَقْلِكَ وَتَقْوِيمِ لِسانِكَ وَتَحْلِيلِ ما أَسْأَرَتْهُ الأَيَّامُ مِنَ العُجْمَةِ في قَلَمِكَ وَلِسانِكَ، فَهَزَزْتُ لَكَ دَوْحَةَ الأَدَبِ الْعَرَبِيِّ هَزَّةً تَناثَرَتْ فِيها هَذِهِ الثَّمراتُ النَّاضِجَةُ الَّتِي تَرَاهَا بَيْنَ يَدَيْكَ، وَلَمْ أَتْرُكْ مِنْ وَرَائِي في جَمِيعِ ما تَصَفَّحْتُهُ مِنْ دَوَاوِينِ الشِّعْرِ وَمَجامِيعِ الأَدَبِ وَكُتُبِ المُخْتاراتِ إِلاَّ ما كَانَ رَدِيئاً أَوْ مَشُوباً بِشَيْءٍ مِنْ هُجْرِ القَوْلِ وَمَعِيبِهِ، أَوْ بَالِغاً مِنَ الشُّهْرَةِ وَالسَّيْرُورَةِ مَنْزِلَةً لا يُخْطِئُها نَظَرُ النَّاظِرِ، أَوْ وَاقِعاً فِي مَنْزِلَةٍ بَيْنَ الجُودَةِ وَالرَّدَاءَةِ.

وَقَدْ جَعَلْتُ قَاعِدَتِي في الاخْتِيارِ جَمالَ الأُسْلوبِ أَوْلاً، وجَمَالَ المَعْنَى ثَانِياً، فَرُبَّما أَخْتَارُ مَا حَسُنَ لَفْظُهُ وَتَوَسَّطَ مَعْنَاهُ، وَقَدْ أَخْتَارُ ما تَوَسَّطَ لَفْظُهُ وَسَمَا مَعْناهُ، كَمَا صَنَعْتُ فِي بَعْضِ مُخْتاراتِ قِسْمِ المَنْثُورِ مِنَ البَابِ الأَوَّلِ، وَهُوَ بَابُ الفَصَاحَةِ وَالبَيانِ؛ وَلَكِنَّنِي لا أَخْتَارُ بِحالٍ مَا كَانَ مَعْناهُ سَامِياً وَنَظْمُه فاسِداً.

أَمَّا ٱلْجَيِّدُ فَقاعِدَتُهُ عِنْدِي مَا يَأْتِي: «كَلُّ كَلامٍ صَحِيحُ النَّظْمِ وَالنَّسَقِ، إِذَا قَرَأَهُ القَارِئُ وَجَدَ في نَفْسِهِ الأَثَرَ الَّذِي أَرادَهُ الكاتِبُ مِنْهُ عَلَىٰ شَرْطِ أَلاَّ يَجِدَ فِيهِ مَسْحَةً تَدُلُّ عَلَى أَنَّ صاحِبَهُ يُحاوِلُ أَنْ يَكُونَ فِيهِ بَلِيغاً فَهُوَ بَلِيغٌ».

وَلاَ أَكْتُمُكَ أَنِّي قَدِ ٱسْتَجَزْتُ لِنَفْسِي ما ٱسْتَجَازَهُ لِأَنْفُسِهِمْ المُخْتارُونَ قَبْلِي، فَتَصَرَّفْتُ في قَليلٍ مِنَ المُخْتَاراتِ بَعْضَ التَّصَرُّفِ بِالتَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ وَٱلاخْتِصارِ وَالإِبْدالِ وَالْحَذْفِ.

وَلَقَدْ لَقِيتُ في هَذَا السَّبِيلِ وَفِي كُلِّ سَبِيلٍ سَلَكْتُهُ إِلىٰ جَمْعِ هَذِهِ المُخْتارَاتِ عَناءً كَثِيراً لا أَسْأَلُكَ يا بُنَيَّ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ أَنْ تَنْتَصِحَ بِما أَنْصَحُكَ بِهِ في كَلِمَتِي هَذِه، وَهِيَ أَنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ أَنْ تَنْتَفِعَ بِهَذِهِ المُخْتَاراتِ إِلاَّ بِشُرُوطٍ ثلاثَةٍ:

أَوَّلُهَا: أَنَّ تَمْلأَ قَلْبَكَ مِنَ الثِّقَةِ بِها وَالسُّكُونِ إِلَيْها حَتَّىٰ لا يَصْرِفكَ عَنْهَا صارِفٌ وَلاَ يَخْدَعُكَ عَنْهَا خادِعٌ.

وَثانِيها: أَنْ تَقِفَ بِها وُقُوفَ الدَّارِسِ المُتَعَلِّمِ لا وُقُوفَ المُتَنَزِّهِ المُتَفَرِّجِ، فَلاَ يَمْنَعُكَ فَهْمُ مَا فَهِمْتَهُ مِنْ مُعاوَدَتِهِ وَتَرْدِيدِ النَّظَرِ فِيهِ حَتَّىٰ تَرْشِفَ مِنَ الْكَأْسِ ثُمالَتَها، ولا تُصَعِّبُ ما يَتَصَعَّبُ عَلَيْكَ مِنْ مُراجَعَتِهِ وَالاخْتِلافِ إِلَيْهِ وَالتَّغَلْغُلِ في أَحْشَائِهِ، فَإِنَّكَ لا بُدَّ ماخِضٌ زُبْدَتَهُ وَمُصِيبٌ لُبَّهُ.

وثالِثُهَا: أَنْ تَحْمِيَ نَفْسَكَ النَّظَرَ في هَذِهِ المَخْطُوطاتِ المُخْتَلِفَةِ الَّتِي تَتَجَدَّدُ كُلَّ يَوْمٍ أَمَامَ عَيْنَيْكَ في

أَسْفارِ هَذَا العَصْرِ وَصُحُفِهِ، فَإِنَّ التَّرْبِيَةَ الكِتَابِيَّةَ مِثْلُ التَّرْبِيَةِ الأَخْلاَقِيَّةِ، يَسْرِي فِيها الدَّاءُ ثُمَّ يُعوِزُ مِنْها الدَّواءُ، اللَّهُمَّ إِلاَّ ما كانَ مِنْ أَمْثَالِ مَا يَكْتُبُهُ الكُتَّابُ الَّذِينَ ٱخْتَرْتُ لَهُمُ في هَذَا الكِتَابِ في المَعَانِي الَّتِي عُرِفُوا بِهَا وَبَرَّزُوا فِيها.

فَإِنْ أَنْتَ أَخَذْتَ بِنَصِيحَتِي وَعُنِيتَ بِها العِنَايَةَ كُلَّها، وَكُنْتَ مِمَّنْ رَزَقَهُمُ الله قَرِيحةً خِصْبَةً صالِحَةً لِنَمَاءِ مَا يُغْرَسُ فِيها مِنَ البُذُورِ الصَّالِحَةِ بَلَغْتَ ما أَرَدْتَ لِنَفْسِكَ وَمَا أَرَدْتُ لَكَ إِنْ شاءَ ٱللَّهُ تَعالىٰ.

مصطفىٰ لُطفِي المَنْفَلُوطِي

بابُ
الفَصاحَةِ وَالبَيَانِ

قِسْمُ المَنْظُومِ



قُوَّةُ ٱلْحُجَّةِ

«لِأَعْرَابِي»

[الطويل]

وَدَاهِيَـةٍ دَاهَـىٰ بِـهَـا الـقـومَ مُـفْـلِـقٌ
شَـدِيـدٍ بِـعَـوْرَاءِ الـكَـلامِ أَزُومُـهـا[1]

أَصَـخْـتُ لَـهـا حَـتَّـىٰ إِذا مـا وَعَـيْـتُـهـا
رَمَـيْـتُ بِـأُخْـرَىٰ يَـسْـتَـدِيرُ أَمِـيمُـهـا[2]

تَـرَىٰ الـقَـوْمَ مِـنْـهَـا مُـطْـرِقِـيـنَ كَـأَنَّـمَـا
تَـسَـاقَـوْا بِـكَـأْسٍ مـا يَـبِـلُّ سَـلِـيـمُـهـا[3]

---

(١) عَوْراء الكلام: مَعيبُه، وَالأَزُوم: العَضّ * ولقد أَنْصَفَ هذا الأعرابيُّ خَصْمَهُ، فوصَفَ حُجَّتَهُ بالقُوَّةِ، إلاَّ أنَّهُ شكا مِنهُ ما لا يزالُ يَشْكُو مِنْهُ النَّاسُ حَتَّىٰ اليوم، وَهُوَ اسْتِعانَةُ الخَصْمِ عَلَىٰ خَصْمِهِ في المناظَرَةِ بالهُجْرِ وَالعَيْبِ.

(٢) الأَمِيمُ: المضروب عَلىٰ أُمِّ رأسه * في هذا البَيْتِ أَدبٌ جَميلٌ من آدابِ المناظَرَةِ، وَهو أَنْ يُصْغِي المناظِرُ لأقوال مناظِرِهِ حتى يَسْتَوعِبَها، ثُمَّ يُدْلي بِحُجَّتِهِ.

(٣) بَلَّ: بَرىءَ، وَالسليم: ٱللَّدِيغُ.

فَلَمْ تَرَنِي فَهًّا وَلَم تَرَ حُجَّتِي
مُلَجْلَجَةً أَبْغِي لَهَا مَنْ يُقِيمُها[١]

تَهذِيبُ الشِّعْرِ

«لِعَدِيِ ابْنِ الرِّقَاعِ»[٢]

[الكامل]

وَقَصِيدَةٍ قَدْ بِتُّ أَجْمَعُ بَيْنَها
حَتَّىٰ أُقَوِّمَ مَيْلَها وَسِنادَها[٣]
نَظَرَ المُثَقِّفِ في كُعُوب قَنَاتِهِ
حَتَّىٰ يُقِيمَ ثِقافُهُ مُنْآدَها[٤]

[راجع ديوانه، طبعة المجمع العراقي، ١٩٨٧م، الصفحات: ٨٨ ـ ٩٠].

---

(١) الفَهُّ والفَهِيهُ: العَيِيّ.

(٢) «عَدِيُّ ابن الرِّقاع» [... ـ نحو ٩٥هـ = ... ـ نحو ٧١٤م] [هو عدي بن زيد بن مالك بن عدي بن الرِّقاع العاملي]. من أهل دمشق، يكنى: أبا داود]. أَحَدُ شُعُراءِ العَصْرِ الأُموي، مَعْدُودٌ في الطَّبَقَةِ الثَّانِيَةِ، وَإِحْسَانُهُ قَلِيلٌ، وَنَسِيبُهُ الغايَةُ في الإحسانِ.

(٣) السِّنادُ: كلُّ عَيْبٍ في القافِيَةِ قَبْلَ الرَّوِي.

(٤) ثَقَّفَ الرُّمْحَ: قَوَّمَهُ، وَكُعُوبُ الرُّمحِ: عُقَدُه، والمُنْآدُ: المُنْحَنِي.

وصْفُ القَلَمِ

«لِأَبِي تَمَامٍ»[١]

[الطويل]

لَكَ القَلَمُ الأعْلَىٰ الَّذي بِشَبَاتِهِ
تُصابُ مِنَ الأمْرِ الكُلَىٰ وَالمَفَاصِلُ[٢]

لَهُ الخُلَوَاتُ اللاَّئي لَوْلاَ نَجِيُّها
لَمَا ٱحْتَفَلَتْ لِلْمُلْكِ تِلْكَ المَحَافِلُ[٣]

لُعَابُ الأَفاعِي القاتِلاتِ لُعَابُهُ
وَأَرْيُ الْجَنَىٰ ٱشْتارَتْهُ أَيْدٍ عَوَاسِلُ[٤]

لَهُ رِيقَةٌ طَلٌّ وَلَكِنَّ وَقْعُهَا
بِآثارِهِ في الشَّرْقِ وَٱلْغَرْبِ وَابِلُ

---

(١) «أبو تَمام» [١٨٨ ـ ٢٣١هـ = ٨٠٤ ـ ٨٤٦م] هو حبيبُ بنُ أَوسٍ الطائِي، أحَدُ شُعراءِ الطَّبَقَةِ الأُولى، مَعْرُوفٌ بِحُسْنِ مَراثِيهِ وَبَدِيعِ وصْفِهِ وَابْتِكارِ مَعانِيه، وعَيْبُهُ التكلُّفُ والافتِتانُ بالصِّناعَةِ اللَّفظِيَّةِ في أَكْثَرِ شِعْرِهِ.

(٢) الشَّبَاة: حَدُّ السَّيْفِ. يريدُ أَنَّ قَلَمَهُ يصُيبُ الغَرَضَ، وَيُصادِف المَحزَّ.

(٣) النَّجِيّ: المسارِرُ، والاحتفالُ: حُسْنُ القيامِ بالأَمْرِ.

(٤) الأَرْيُ: العَسَلُ، واشْتَارَتْهُ: اسْتَخْرَجَتْه، وَالعَواسِلُ: التي تَسْتَخْرِجُ العَسل.

فَـصِـيـحٌ إِذا ٱسْـتَـنْـطَـقْـتَـهُ وَهُـوَ رَاكِـبٌ
وَأَعْـجَـمُ إِنْ خَـاطَـبْـتَـهُ وَهُـوَ رَاجِـلُ

إِذَا مَا ٱمْتَطَىٰ ٱلْخَمْسَ اللِّطافَ وَأُفْرِغَتْ
عَلَيْهِ شِعَابُ الْفِكْرِ وَهْيَ حَوَافِلُ(١)

أَطـاعَـتْـهُ أَطْـرَافُ ٱلْـقَـنَـا وَتَـقَـوَّضَـتْ
لِنَجْوَاهُ تَقْوِيضَ ٱلْخِيَامِ ٱلْجَحَافِلُ(٢)

إِذَا ٱسْـتَـغْـزَرَ ٱلـذِّهْـنَ ٱلـذَّكِـيَّ وَأَقْـبَـلَـتْ
أَعالِيهِ فِي ٱلْقِرْطَاسِ وَهْيَ أَسَافِلُ(٣)

وَقَـدْ رَفَـدَتْـهُ الـخِـنْـصَـرانِ وَسَـدَّدَتْ
ثَـلاثَ نَـوَاحِـيـهِ ٱلـثَّـلاثُ ٱلأَنَـامِـلُ(٤)

رَأَيْـتَ جَـلِـيـلاً شَـأْنُـهُ وَهُـوَ مُـرْهَـفٌ
ضَـنًـى وَسَـمِـيـناً خَـطْـبُـهُ وَهُـوَ نَـاحِـلُ

[راجع «شرح الصولي لديوان أبي تمام» ٢/ ٣٣٢ ـ ٣٣٥].

(١) الحوافِلُ: المُمْتَلِئة.

(٢) تقَوَّضَتْ: ٱنتَقَضَتْ، وَتقويضَ الخيام، أي: كتقويض الخيام؛ والجحافِلُ: فاعلُ تقوَّضَت.

(٣) اسْتَغْزَرَه: وجدَه غَزِيراً.

(٤) رَفَدَتْهُ: أَعَانَتْهُ، وسدَّدت: قَوَّمَت.

تَهْذِيبُ الشِّعْرِ

«لِلبُحْتُرِيِّ»[1]

[الخفيف]

حُـجَـجٌ تُـخْـرِسُ الأَلَـدَّ بِـأَلْـفـا
ظٍ فُـرَادَىٰ كَـٱلْـجَـوْهَـرِ ٱلْـمَـعْـدُودِ

وَمَـعَـانٍ لَـوْ فَـصَّـلَـتْـهَـا الْـقَـوَافِـي
هَـجَّـنَـتْ شِـعْـرَ جَـرْوَلٍ وَلَـبِـيـدِ

حُزْنَ مُسْتَعْمَلَ الْكَلامِ اخْتِياراً
وَتَـجَـنَّـبْـنَ ظُـلْـمَـةَ الـتَّـعْـقِـيـدِ

وَرَكِـبْـنَ الـلَّـفْـظَ الْـقَـرِيـبَ فَـأَدْرَكْـ
ـنَ بِـهِ غَـايَـةَ الـمُـرادِ الـبَـعِـيـدِ

كَـالْـعَـذَارَىٰ غَـدَوْنَ فِي ٱلْـحُـلَـلِ الـبِيـ
ـضِ إِذَا رُحْنَ فِي ٱلْـخُـطُـوطِ الـسُّـودِ

[راجع «ديوان البحتري» بتحقيق حسن كامل الصيرفي، ٢/٦٣٧].

---

(١) «البُحْتُرِيُّ» [٢٠٦ ـ ٢٨٣هـ = ٨٢١ ـ ٨٩٧م].

هو أبو عُبادة الوَلِيد بن عُبَيْد الطَّائي، أفضلُ الشُّعراءِ حُسْنَ دِيباجَةٍ وَجمالَ أُسْلُوبٍ. وَأَحْسَنُ ما يُجيدُ فيه الوَصْفُ، والوَصْفُ لُبُّ الشاعِرِيَّةِ وَجَوْهَرُهَا.

سِحْرُ البَيانِ

«لأَبي تَمَّامٍ»

[الطويل]

كَشَفْتُ قِناعَ الشِّعْرِ عَنْ حُرِّ وَجْهِهِ
وَطَيَّرْتُهُ عَنْ وَكْرِهِ وَهُوَ وَاقِعُ

بِغُرٍّ يَرَاهَا مَنْ يَرَاهَا بِسَمْعِهِ
وَيَدْنُو إِلَيْها ذو الحِجَا وَهُوَ شَاسِعُ

يَوَدُّ وِدَاداً أَنَّ أَعْضَاءَ جِسْمِهِ
إِذَا أُنْشِدَتْ شَوْقاً إِلَيْهَا مَسَامِعُ

[راجع «شرح الصولي لديوان أبي تمام» ٣/ ٦٣٧].

وَصْفُ قَصِيدَةٍ

«لابنِ الرُّومِي»[1]

[الخفيف]

نَظَمَ الْفِكْرُ دُرَّهَا غَيْرَ مَثْقُو
بِ إِذَا الدُّرُّ شِينَ بِالتَّثْقِيبِ

(١) «ابن الرُّومي» [٢٢١ ـ ٢٨٣هـ = ٨٣٦ ـ ٨٩٦م].
هُوَ عليّ بنُ العَبَّاسِ، أَقْدَرُ الشَّعراءِ عَلَىٰ ٱخْتِراعِ المَعانِي الغَريبَةِ والافْتِتانِ فِيها، وَلَهُ في بَابِ الهِجاءِ قَذْعٌ وَإِيلامٌ، وَتَنَزَّلَ إِلىٰ =

لَـمْ يَـعِـبْـهـا سِـوَىٰ قَـوَافٍ تَـشَـاغَـلْـ
ـنَ عَـنِ الـمَـدْحِ فِـيـكَ بِـالـتَّـشْـبِـيـبِ
يُطْـرِبُ الـسَّـامِـعِـيـنَ أَيْـسَـرُ مـا فِـيـ
ـهَـا وَإِنْ أُنْـشِـدَتْ بِـلا تَـطْـرِيـبِ
سَـوَّدَتْ فِـيـكَ كُـلَّ بَـيْـضَـاءَ تَـسْـوِيـ
ـداً تَـرَاهُ ٱلْـعُـيُـونُ كَـالـتَّـذْهِـيـبِ
لَـوْ يُـنَـاغِـي بَـيـانُـهَـا ٱلْـعُـجْـمَ يَـوْمـاً
عَـرَّبَ ٱلْـعُـجْـمَ أَيَّـمَـا تَـعْـرِيـبِ

[راجع «ديوان ابن الرومي» بتحقيق حسين نصار، الصفحة ١/ ١٤٥].

سَيْرُورَةُ الشِّعْرِ

«للمتنبي»[١]

[الطويل]

وَمَـا الـدَّهْـرُ إِلاَّ مِـنْ رُواةِ قَـصَـائِـدِي
إِذَا قُـلْـتُ شِـعْـراً أَصْـبَـحَ الـدَّهْـرُ مُـنْـشِـدَا

= هُجْرِ القَوْلِ أحياناً وَعَيْبِهِ. إنَّ في كَثِيرِ مِنْ شِعْرِهِ رِكَّةً وَتَكَلُّفاً، وَإِنَّ في بَعْضِ قوافِيهِ قَلَقاً وَاضطِراباً.

(١) «المُتَنَبِّي» [٣٠٣ ـ ٣٥٤هـ = ٩١٥ ـ ٩٦٥م]. =

فَسَارَ بِهِ مَنْ لا يَسِيرُ مُشَمِّراً
وَغَنَّىٰ بِهِ مَنْ لاَ يُغَنِّي مُغَرِّدَا
أَجِزْنِي إِذَا أُنْشِدْتَ شِعْراً فَإِنَّمَا
بِشِعْرِي أَتَاكَ ٱلْمَادِحُونَ مُرَدَّدَا

[راجع «البيان شرح ديوان أبي الطيب المتنبي» طبعة السقا، ١/ ٢٩٠ و٢٩١].

سُهُولَةُ الشِّعْرِ

«لِبشَّارِ بْنِ بُرْدٍ»(١)

[الطويل]

عَمِيتُ جَنِيناً وَالذَّكَاءُ مِنَ ٱلْعَمَىٰ
فَجِئْتُ عَجِيبَ ٱلظَّنِّ لِلْعِلْمِ مَوْئِلا

= هُوَ أَبو الطَّيِّبِ أحْمَدُ بنُ الحُسَيْنِ، الشاعِرُ المَشْهُورُ، يَعْلُو فلا يجارِيهِ مُجارٍ، ثُمَّ يَنْحَطُّ أَحْياناً فلا يُساوِي أَصْغَرَ شاعِرٍ، فَإذا أَسْقَطْنَا رَدِيئَهُ رَأيْنَا أَنَّهُ أشْعُرُ الشُّعَرَاءِ أَوَّلاً وَأَخِيراً. وَأَقْدَرُهُمْ عَلَىٰ إِلْباسِ أَدَقِّ المَعَانِي وَأَثْمَنِهَا أَجْمَلَ الأثوابِ وَأَبْدَعَها.

(١) «بشار بن برد» [٩٥ ـ ١٦٢هـ = ٧١٤ ـ ٧٧٩م].
شاعر جَزْلٌ فَخْمٌ، مُحْكَمُ الأسْلُوبِ، بَدِيعُ الافْتِتانِ، يُجِيدُ في كُلِّ نَوعٍ من أنْواعِ الكلام؛ وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ نَقَلَ الشِّعْرَ من البَداوَةِ إلى الحضارَةِ.

وَغَـاضَ ضِـيـاءُ الْـعَـيْـنِ لِـلْـعِـلْـمِ رَافِـداً
لِـقَـلْـبٍ إِذَا مَـا ضَـيَّـعَ الـنَّـاسَ حَـصَّـلا
وَشِـعْـرٍ كَـزَهْـرِ الـرَّوْضِ لاءَمْـتُ بَـيْـنَـهُ
بَـقَـوْلٍ إذا مَـا أَحْـزَنَ الـشِّـعْـرُ أَسْـهَـلا

[راجع «ديوان بشار» بتحقيق محمد الطاهر بن عاشور، ٤/١٣٦ و١٣٧].

شِعْرُ فِيكْتُور هِيغو

«لحافظِ إبراهيم»(١)

[الرمل]

مـا ثُـغُـورُ الـزَّهْـرِ فـي أَكْـمـامِـهـا
ضَـاحِـكـاتٍ مِـنْ بُـكـاءِ الـسُّـحُـبِ

---

(١) «حافظ إبراهيم» [وهو محمد حافظ بن إبراهيم فهمي المهندس (١٢٨٧ ـ ١٣٥١هـ = ١٨٧١ ـ ١٩٣٢م)].

شاعِرٌ مِنْ شُعراءِ الطَّبَقَةِ الأُولى، وكاتِبٌ مِنْ أَوائِلِ الكُتَّابِ، وَلَهُ في بابِ الاَجْتِماعِ ما لا يَلْحَقُهُ فيه لاحِقٌ، وشِعْرُهُ سائِرٌ في جَميعِ الأَقطارِ العربيَّةِ، وَيَمْتازُ باقْتِدارِهِ عَلَىٰ الجَمْعِ بَيْنَ السَّلاسَةِ وَالرِّقَّةِ والجَزالَةِ وَالفَخَامَةِ، وَهُوَ أَحَدُ الَّذِين أَحْيَوْا مَواتَ اللُّغَةِ العَربِيَّةِ بِاسْتِعْمالِ غرائِبِ مُفْرَداتِها ونادِرِ تراكِيبِها في شِعْرِهِ وَنَثْرِهِ، وَلا أَعْرِفُ بين أُدَبَاءِ العَصْرِ أَصَحَّ مِنْهُ ذَوْقاً في التَّمْييز بين جَيِّدِ الكلامِ وَرَدِيئِهِ.

نَـظَـمَ الـوَسْـمِـيُّ فِـيـهَـا لُـؤْلُـؤاً
كَـثَـنَـايَـا الـغِـيـدِ أَوْ كَـالْـحَـبَـبِ
عِـنْـدَ مَـنْ يَـقْـضِـي بِـأَبْـهَـىٰ مَـنْـظَـراً
مِـنْ مَـعَـانِـيـهِ ٱلَّـتِـي تَـلْـعَـبُ بِـي
بَـسَـمَـتْ لِـلـذِّهْـنِ فَـٱسْـتَـهْـوَتْ نُـهَـىٰ
مُـغْـرَمِ الـفَـضْـلِ وَصَـبِّ الأَدَبِ

[راجع «ديوانه» صفحة: ٣٢].

ديوانُ أَلفرِيد دِي مُوسِّيه

«لِخَليل مُطْرَان»(١)

وهي أبياتٌ كَتَبَها إِلىٰ فَتاةٍ مُتَأَدِّبةٍ أَهْدَىٰ إِلَيْهَا هَذَا الدِّيوانَ.

---

(١) «خليل [بن عبده] مُطْرَان» [١٢٨٨ ـ ١٣٦٨هـ = ١٨٧١ ـ ١٩٤٩م].
شاعِرٌ رَاقي الخَيالِ، بديعُ التَّصوُّرِ، يُجِيدُ في كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ في المَدائحِ النَّبَوِيَّةِ الَّتِي هِيَ أَبْعَدُ المعاني عَنْ ذِهْنِهِ؛ وَكاتِبٌ لا أعْرِفُ لَهُ شَبِيهاً في القُدْرَةِ عَلَىٰ تَصْوِيرِ جُزْئِيَاتِ المعَانِي وَأَدَقِّ ما في أَعْماقِ القُلوبِ، إلاَّ أَنَّ اضْطِلاعَهُ بِبَعْضِ اللُّغاتِ الإفْرَنْجِيَّة وحِرْصَهُ عَلَى المَعْنَىٰ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ يُزَحْزِحُ ديباجَتَهُ أَحْياناً عَنِ الأُسْلُوبِ العَرَبِيِّ وَالمَنْهَجِ المَطْبُوعِ، فَهُوَ في المُتَأَخِّرِينَ أَشْبَهَ بِابْنِ الرُّومِيِّ في المُتَقَدِّمِينَ.

[الخفيف]

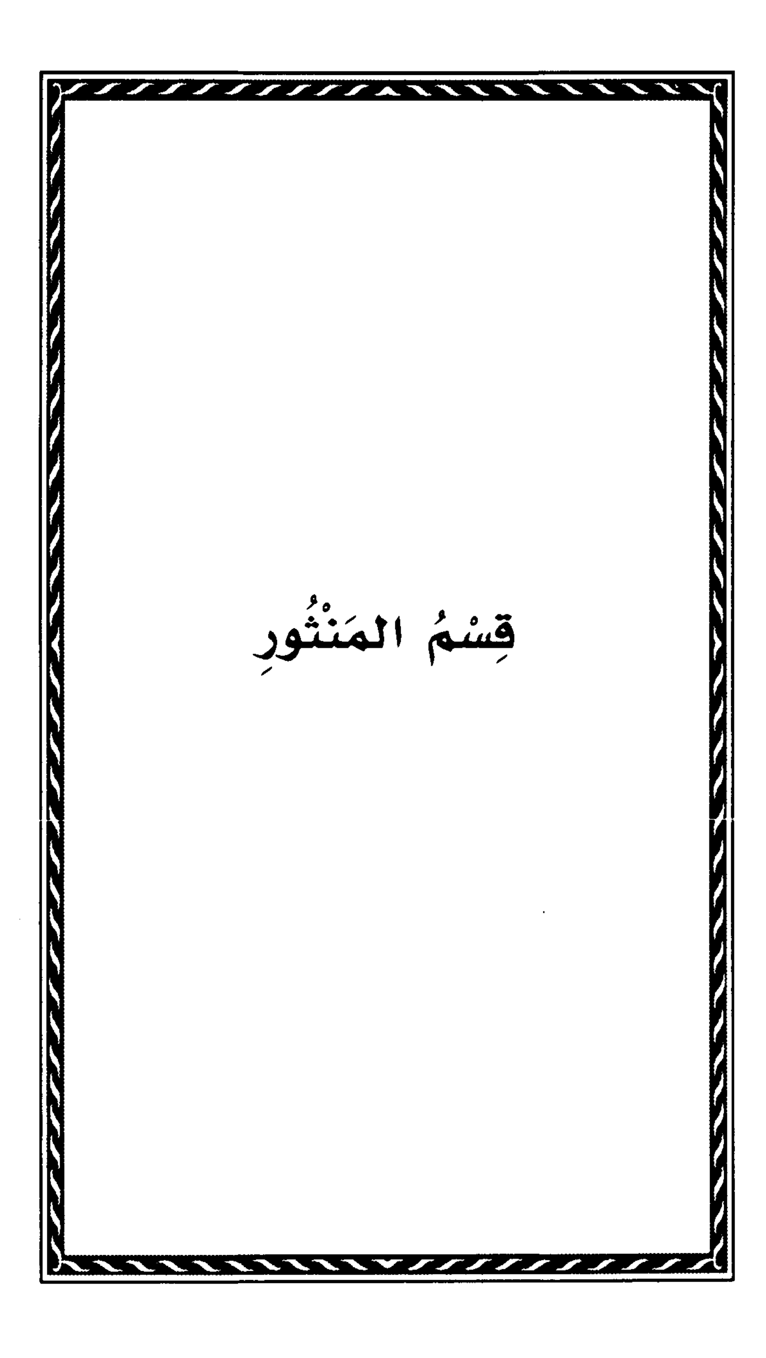
عَـاشَ هَـذَا الْـفَـتَـى مُـحِـبًّـا شَـقِـيًّـا
وَقَـضَـىٰ عُـمْـرَهُ مُـحِـبًّـا شَـقِـيًّـا

وَبَـكَـىٰ دَمْـعُ عَـيْـنِـهِ فـي سُـطُـورٍ
جَـعَـلَـتْـهُ عَـلَـىٰ الـمَـدَى مَـبْـكِـيًّـا

مُـنْـشِـدٌ لِـلْـغَـرَامِ لَـمْ يَـشْـدُ إلاَّ
كَـانَ إنْـشَـادُهُ نُـوَاحـاً شَـجِـيًّـا

شَـاعِـرٌ كـانَ عُـمْـرُهُ بَـيْـتَ تَـشْـبِـيـ
ـبٍ وَكَـانَ الأَنِـيـنُ فِـيـهِ الـرَوِيَّـا





قِسْمُ المَنْثُورِ



صِناعَةُ الإنْشاءِ

«لابْنِ المُعْتَمِرِ»[١]

خُذْ مِنْ نَفْسِكَ سَاعَةَ نَشَاطِكَ وَفَرَاغَ بالِكَ وَإِجَابَتَها إِيَّاكَ؛ فَإِنَّ قَلِيلَ تِلْكَ السَّاعَةِ أَكْرَمُ جَوْهَراً، وَأَشْرَفُ حَسَباً، وَأَحْسَنُ فِي الأَسْمَاعِ، وَأَحْلَىٰ فِي الصُّدُورِ، وَأَسْلَمُ مِنْ فاحِشِ الخَطإِ، وَأَجْلَبُ لِكُلِّ عَيْنٍ وَغُرَّةٍ مِنْ لَفْظٍ شَرِيفٍ وَمَعْنًى بَدِيعٍ. وَٱعْلَمْ أَنَّ ذٰلِكَ أَجْدَى عَلَيْكَ مِمَّا يُعْطِيكَ يَوْمُكَ الأَطْوَلُ بِالكَدِّ وَالمُطاوَلَةِ وَالمُجاهَدَةِ وَبِالتَّكَلُّفِ وَالمُعَاوَدَةِ، وَمَهْمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يُخْطِئْكَ أَنْ يَكُونَ مَقْبُولاً قَصْداً[٢] وَخَفِيفاً علىٰ اللِّسانِ سَهْلاً، وكما خَرَجَ مِنْ يَنْبُوعِهِ وَنَجَمَ مِنْ مَعْدَنِهِ، وَإِيَّاكَ وَالتَّوَعُّرَ، فَإِنَّ التَّوَعُّرَ يُسْلِمُكَ إِلىٰ التَّعْقِيدِ، وَالتَّعْقِيدُ هُوَ الذِي يَسْتَهْلِكُ مَعَانِيكَ وَيَشِينُ أَلْفاظَكَ، وَمَنْ أَرَاغَ[٣] مَعْنَىٰ كَرِيماً فَلْيَلْتَمِسْ لَهُ لَفْظاً كَرِيماً، فَإِنَّ حَقَّ المعنىٰ الشَّرِيفِ اللَّفْظُ الشَّرِيفُ، وَمِنْ حَقِّهِما أَنْ

---

(١) «ابنُ المُعْتَمِر» ت١٨٣هـ [أو ٢١٠هـ = ٧٩٩، أو ٨٢٥م].
هُوَ بِشْرُ بنُ المُعْتَمِر، أَحَدُ عُلماءِ الكَلامِ وَرَئِيسُ فِرْقَةٍ من المُعْتَزِلَةِ. تُسَمَّىٰ بِٱسْمِهِ، وَكانَ خَطِيباً مَفَوَّهاً وَعالماً جليلاً.

(٢) القصد: المُعْتَدِل.

(٣) أراغ: طَلَب.

تَصونَهُما عَمَّا يُفْسِدُهُمَا ويُهجِّنُهُما وَعَمّا تَعودُ مِنْ أَجْلِهِ إِلىٰ أَنْ تَكُونَ أَسْوَأَ حالاً مِنْكَ قَبْلَ أَنْ تَلْتَمِسَ إظهارَهُمَا وَتَرْتَهِنَ نَفْسَكَ بِمُلابَسَتِهِما وقضاءِ حَقِّهما. وَكُنْ في إحدى ثلاثِ منازل، أُولاهما: أنْ يكونَ لَفْظُكَ رَشِيقاً عَذْباً وَفَخْماً سَهْلاً، ويكونَ مَعْناك ظاهِراً مَكْشُوفاً وقَرِيباً مَعْروفاً، إمّا عِنْدَ الخاصَّةِ إنْ كُنْتَ للخاصَّةِ قَصَدْتَ، وإمَّا عِنْدَ العامَّةِ إنْ كُنْتَ للعامَّةِ أَرَدْتَ؛ وَالمَعْنَىٰ لَيْسَ يَشْرُفُ بأَنْ يَكونَ من معاني الخاصَّةِ، وكذلك لَيْسَ يَتَّضِعُ بأَنْ يكونَ من معاني العامَّةِ؛ وإنما مدارُ الشَّرَفِ على الصَّوابِ وإحْرازِ المَنْفَعَةِ مع موافَقَةِ الحالِ ومَا يجبُ لِكُلِّ مَقام مِنَ المَقالِ؛ فَإِنْ أَمْكَنَكَ أَنْ تَبْلُغَ من بيانِ لِسانِكَ وبلاغَةِ قَلَمِكَ ولُطْفِ مَداخِلِكَ وَاقْتِدارِك على نَفْسِكَ أَنْ تُفْهِمَ العامَّةَ معاني الخاصَّةِ، وَتَكْسُوَها الأَلْفاظَ الواسِطَةَ التي لا تَلْطُفُ عَنِ الدَّهْمَاءِ ولا تَجْفُو عن الأكْفَاءِ، فَأَنْتَ البَليغُ التَّامُّ. فَإِنْ كانت المنزلةُ الأُولَىٰ لا تواتِيكَ ولا تَعْتَرِيكَ ولا تَسْنَحُ لكَ عِنْدَ أَوَّلِ نَظَرِكَ وفي أَوَّلِ تَكلُّفِكَ، وتَجِدُ اللَّفْظَةَ لم تُوقَعْ موقِعَهَا، ولم تَصِرْ إِلىٰ قرارِها مِنْ أماكِنِها المَقْسومَةِ لها، والقافِيَةَ لم تَحُلَّ في مَرْكَزِها وفي نِصابِها ولم تَتَّصِلْ بِشَكْلِها، وكانت قَلِقَةً في مكانِها نافِرةً من مَوْضِعِها، فلا

تُكْرِهُها على ٱغْتِصابِ الأماكنِ، والنُّزُولِ في غَيْرِ أَوْطانِها، فإِنَّكَ إذا لم تَتَعاطَ قَرِيضَ الشِّعْرِ المَوْزُونِ ولم تَتَكلَّفِ اخْتيارَ الكلامِ المَنْثورِ لم يَعِبْكَ بِتَرْكِ ذلك أَحَدٌ، وَإنْ أَنْتَ تَكَلَّفْتَهُمَا ولم تَكنْ حاذِقاً مَطْبوعاً ولا مُحْكِماً لسانَك بَصيراً بما عَلَيْكَ وما لَكَ، عابَكَ مَنْ أَنْتَ أَقَلُّ عَيْباً مِنْهُ، ورَأَىٰ مَنْ هُوَ دُونَكَ أَنَّهُ فَوْقَكَ. فَإِن ٱبْتُلِيتَ بِأَنْ تَتَكلَّفَ القَوْلَ وتَتَعاطىٰ الصَّنْعَةَ، ولم تَسْمَحْ لك الطِّباعُ في أَوَّلِ وَهْلَةٍ، وتَعَصَّىٰ عَلَيْكَ البَيانُ بَعْدَ إِجَالةِ الفِكْرَةِ، فلا تَعْجَلْ ولا تَضْجرْ، وَدَعْهُ بياضَ يَوْمِك أَوْ سَوادَ لَيْلِكَ، وعاوِدْهُ عِنْدَ نشاطِكَ وفَراغِ بالِكَ، فَإِنَّكَ لا تَعْدَمُ الإجابَةَ وَالمُواتاةَ إنْ كانَتْ هنالِكَ طبيعَةٌ أَوْ كُنْتَ جَرَيْتَ من الصِّنَاعَةِ على عِرْقٍ، فَإِنْ تَمَنَّعَ عَلَيْكَ الأَمْرُ بَعْدَ ذَلِكَ، فالمَنْزِلَةُ الثالِثَةُ أنْ تتَحوَّلَ من هذه الصِّناعَةِ إلىٰ أَشْهَىٰ الصِّناعاتِ إِلَيْكَ وأَخَفِّها عَلَيْكَ، لأَنَّ النُّفوسَ لا تجَوُدُ بمَكْنُونِها مع الرَّغْبَةِ ولا تَسْمَحُ بِمَخْزُونِها مع الرَّهْبَةِ كما تجودُ بِهِ مع المحَبةِ والشَّهْوَةِ.

الإرْتاجُ

«لأحَدِ أُمراء العَبَّاسِيِّين»

وَقَدْ صَعِدَ المِنْبَرَ لِيَخْطُبَ فأُرْتِجَ عَلَيْهِ، فقالَ:

أَمَّا بَعْدُ؛ فَقَدْ يجدُ المُعْسِرُ، ويُعْسِرُ المُوسِرُ، ويُفَلُّ الحديدُ، ويَقْطَعُ الكَلِيلُ؛ وَإِنّما الكلامُ بعد الإفحام، كالإِشْراقِ بعد الإظلام؛ وقَدْ يَعْزُبُ البَيانُ، ويَعْتَقِمُ الصَّوابُ، وَإِنّما اللِّسانُ مُضْغَةٌ من الإِنْسانِ، يَفْتُرُ بفتُورِهِ إذا نَكَلَ، ويَثُوبُ بانْبِساطِهِ إذا ٱرْتَجَلَ؛ أَلا وَإِنَّا لاَ نَنْطِقُ بَطَراً، ولا نَسْكُتُ حَصَراً؛ بَلْ نَسْكُتُ مُعْتَبِرِينَ، ونَنْطِقُ مُرْشِدِينَ؛ وَنَحْنُ بَعْدُ أُمراءُ الكلام، فِينا وَشَجَتْ عُروقُهُ، وعَلَيْنا عَطَفَتْ أَغْصانُهُ، ولنا تهدَّلَتْ ثَمَراتُهُ؛ فَنَتَخَيَّرُ مِنْهُ ما احْلَوْلَى وَعَذُبَ، وَنَطْرَحُ مِنْهُ ما املَوْلَحَ وَخَبُثَ، وَمِنْ بَعْدِ مقامِنا مَقامُ، وبَعْدِ أَيَّامِنا أَيَّامُ، يُعْرَفُ فيها فَضْلُ البَيانِ، وفَضْلُ الخِطابِ، وَالله أَفْضَلُ مُسْتعانِ.

فَصاحَةُ رَسُولِ اللّهِ

«للجاحِظِ»[١]

عابَ النبيُّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وسلَّمَ التَّشْدِيقَ، وجانَبَ أَصْحَابَ التَّقْعِيرِ، وَاسْتَعْمَلَ المَبْسُوطَ في مَوْضِعِ البَسْطِ، والمَقْصُورَ في مَوْضِعِ القَصْرِ، وَهَجَرَ الغَريبَ الوَحْشِيَّ، وَرَغِبَ عن الهَجِينِ السُّوقِيِّ، فَلَمْ يَنْطِقْ إلاَّ عَنْ مِيراثِ حِكْمَةٍ، ولم يَتَكَلَّمْ إلاَّ بِكلامٍ قَدْ حُفَّ بِالعِصْمَةِ، وَشِيدَ بِالتَّأْيِيدِ، وَيَسُرَ بالتَّوْفِيقِ؛ وَأَلْقَىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ من المحبَّةِ، وَغَشَّاهُ بالقَبُولِ، وجَمَعَ لَهُ بينَ المهابَةِ وَالحَلاوَةِ، وَبَيْنَ حُسْنِ الإفْهامِ وَالإيجازِ؛ ومَعَ اسْتِغْنَائِهِ عن إعادَتِهِ وقِلَّةِ حاجَةِ السَّامِعِ إلى مُعاوَدَتِهِ لَمْ تَسْقُطْ له كَلمةٌ، ولا زَلَّتْ به قَدَمٌ، بل يَبُذُّ الخُطَبَ الطُوالَ بالكَلامِ القَصِيرِ، ولا يَلْتَمِسُ

---

(١) «الجاحِظ» [١٦٣ ـ ٢٢٥هـ = ٧٨٠ ـ ٨٦٩م].

هو أبو عثمان عَمْرو بن بَحْر، العالِمُ المَشْهُورُ، والكاتِبُ القديرُ؛ وله علىٰ جَميع الكُتَّاب قاطِبَةً مَزِيَّةُ الإحسان والعُلُوّ في كُلِّ موضوعٍ يَطْرُقُهُ، حتى في المواضِيعِ الَّتِي لم يَأْلفْ أُدباءُ الكُتَّابِ الكتابَةَ فيها، وَرُبَّما كَانَ كتابُهُ «الحيوان» أَبلَغَ كُتُبِه، وكان في كتابَتِهِ كثيرَ التَّوَسُّعِ والاسْتِطْرادِ والخروج من غَرَضٍ إلى غَرَضٍ، حَتَّىٰ يكادُ يَقَعُ أحْياناً في الغُموضِ والإبهامِ.

إسْكاتَ الخَصْمِ إلاَّ بما يَعْرِفُهُ الخَصْمِ، ولا يَحْتَجُّ إلاّ بالصِّدْقِ، ولا يَطْلُبُ الفَلْجَ إلاّ بالحَقِّ، ولا يَسْتَعِينُ بالخلابَةِ، ولا يَسْتَعْمِلُ المُوارَبَةَ، ولا يَهْمِزُ ولا يَلْمُزُ ولا يُبْطِىءُ ولا يَعْجَلُ ولا يُسْهِبُ ولا يَحْصُرُ، وما سُمِعَ كَلامٌ قَطُّ أَعَمُّ نَفْعاً، ولا أصْدَقُ لَفْظاً، ولا أَعْدلُ وَزْناً، ولا أجْمَلُ مَذْهَباً، ولا أكْرَمُ مَطْلَباً، ولا أَحْسَنُ مَوْقِعاً، ولا أَسْهَلُ مَخْرَجاً؛ من كلامِهِ صَلّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ.

فَضْل الْبَيانِ

«للجاحظ أيضاً»

أَحْسَنُ الكلامِ ما كانَ قَلِيلُهُ يُغْنِيكَ عن كَثيرِهِ، وكان مَعْناه في ظاهِرِ لَفْظِهِ، حَتى يُخَيَّلَ لَكَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجلَّ أَلْبَسَهُ من الجلالةِ، وَغَشَّاهُ مِنْ نُورِ الحِكْمَةِ على حَسْبِ نِيَّةِ صاحِبِهِ وتَقَوىٰ قائِلِهِ. فإِذا كانَ المَعْنَىٰ شَرِيفاً، وَاللَّفْظُ بَلِيغاً، وكانَ صَحِيحَ الطَّبْعِ، بَعِيداً مِنَ الاسْتِكْرَاهِ، مُنَزَّهاً عن الاخْتِلالِ، مَصُوناً عَنِ التَّكلُّفِ؛ صَنَعَ في القَلْبِ صَنِيعَ الغَيْثِ في التُّرْبَةِ الكَريمَة. وَمَتَىٰ فَصَلَتِ الكلمَةُ على هَذِه الشَّريطَةِ، ونَفَذَتْ مِنْ قائِلِها عَلَىٰ هَذِهِ الصِّفَةِ أَصْحَبَها اللَّهُ من التَّوفِيقِ، ومَنَحَها من التأييد، ما لا يَمْتَنِعُ مِنْ تَعْظِيمِها

بِهِ صُدُورُ الجبابرة، ولا يَذْهَلُ عن فَهْمِهَا عُقُولُ الجَهَلَة.

مقامات الكلام

«لبعض الكتّاب المتقدمين»

أَوَّلُ البَلاغَةِ اجتماعُ آلَتِها، وذَلِكَ أَنْ يَكُونَ الخَطِيبُ رَابِطَ الجَأْشِ، ساكِنَ الجَوارِحِ، قَلِيلَ اللَّحْظِ، مُتَخَيَّرَ اللَّفْظِ، لا يُكَلِّمُ سَيِّدَ الأَمَةِ بِكَلام الأَمَةِ، ولا الملوكَ بكلام السُّوقَةِ، ويكونُ في قواه فَضْلٌ للتَّصَرُّفِ في كُلِّ طَبَقَةٍ، ولا يُدَقِّقُ المعاني كلَّ التَّدْقِيقِ، ولا يُنَقِّحُ الألفاظَ كُلَّ التَّنْقِيحِ، ولا يُصَفِّيها كُلَّ التَّصْفِيَةِ، ولا يُهَذِّبُها غايَةَ التَّهْذِيبِ؛ ولا يَفْعَلُ ذَلِكَ حَتَّىٰ يصادِفَ حكيماً، أَوْ فَيْلَسُوفاً عَلِيماً؛ ومدارُ الأَمْرِ علىٰ إِفْهامِ كُلِّ قَوْمٍ بِقَدْرِ طاقَتِهِمْ، والحَمْلُ عَلَيْهِمْ على أَقْدَارِ مَنَازِلِهِمْ وَأَنْ تُواتِيَه آلَتُهُ، وتَتَصَرَّفَ مَعَهُ أداتُهُ، ويكونُ في التُّهْمَةِ لِنَفْسِهِ مُعْتَدِلاً، وفي حُسْنِ الظَّنِّ بها مُقْتَصِداً، فَإِنَّهُ إِنْ تجاوَزَ مقدارَ الحَقِّ في التُّهْمَةِ لِنَفْسِهِ ظَلَمَهَا، فأَوْدَعَهَا ذِلَّةَ المَظْلُومِينَ؛ وَإِنْ تَجاوَزَ الحَقَّ في مِقْدارِ حُسْنِ الظَّنِّ بها أَمَّنَها، فَأَوْدَعَها تهاوُنَ الآمِنِينَ.

الأَدِيبُ غَيْرُ الكاتِبِ

«لِلْمُبرِّدِ»[١]

لا أحْتاجُ إلى وَصْفِ نَفْسِي لِعِلْمِ النَّاسِ بي أَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الخافِقَيْنِ تَخْتَلِجُ في نَفْسِهِ مَسأَلَةٌ مشْكِلَةٌ إلاّ لَقِيَنِي بِهَا وأعدَّنِي لها، فَأَنا عالِمٌ وَمُتَعَلِّمٌ وحافِظٌ ودارِسٌ، لا يَخْفَىٰ عَلَيَّ مشْتَبَهٌ من الشِّعْرِ والنَّحْوِ والكلامِ المَنْثُور والخُطَبِ والرَّسائِلِ، وَلَرُبَّما احْتَجْتُ إلىٰ اعْتِذارٍ مِنْ فَلْتَةٍ أَوِ ٱلْتِماسِ حاجَةٍ، فَأَجْعَلُ المَعْنَىٰ الَّذِي أَقْصِدُهُ نُصْبَ عَيْني، ثم لا أَجِدُ سَبيلاً إلى التَّعْبِيرِ عَنْهُ بِيَدٍ ولا لسانٍ، ولقد بَلَغَني أَنَّ عُبَيْدَ اللَّهِ بنَ سُلَيْمَانَ ذَكَرَنِي بجميلٍ، فحاوَلْتُ أَنْ أَكْتُبَ إِليهِ رُقعةً أَشْكُرُهُ فِيها، وَأُعَرِّضُ بِبَعْضِ أُموري، فَأَتْعَبْتُ نَفْسِي يوماً في ذَلِكَ فَلَمْ أَقْدِرْ على ما أَرْتَضِيهِ مِنْهَا، وَكُنْتُ أُحاوِلُ الإِفْصَاحَ عَمَّا في ضَمِيرِي فَيَنْصَرِفُ لساني إلى غَيْرِهِ، فزيادَةٌ

---

(١) «المبرّد» [٢١٠ ـ ٢٨٥هـ = ٨٢٦ ـ ٨٩٨م].

هو أبو العبّاس محمد بن يزيد المُبرّد، أحد أشياخِ اللُّغةِ العربيَّةِ في عَصْرِهِ، وكتابُهُ «الكامل» أحَدُ الكتب الأربعة التي عُدَّتْ أمهات الأَدَبِ. وكتابَتُهُ في تآلِيفِهِ في الطَّبَقَةِ الأُولىٰ من البلاغَةِ إلاَّ أنَّهُ كَانَ لا يُحْسِنُ ٱخْتِيارَ الشِّعْرِ، وَلَعَلَّ ذلك كانَ لِغَلَبَةِ نَزْعَةِ اللُّغَةِ والرِّوايَةِ عَلَيْهِ.

المَنْطِقِ على الأَدَبِ خِدْعَةٌ، وزِيادَةُ الأَدَبِ على المنطق هُجْنَةٌ.

الفَصاحَةُ في الأُسْلُوبِ

«لأبي هِلالِ العَسْكَرِي»[1]

إِنَّما يَحْسُنُ الكلامُ بسَلاسَتِهِ، وسُهُولَتِه، وفَصاحَتِهِ، وَتَخَيُّرِ لَفْظِهِ، وإِصابَةِ مَعناه، وجُودَةِ مطالِعِهِ، ولِينِ مقاطِعِه، واْسْتواءِ تقاسِيمِه، وتعادُلِ أَطْرافِهِ، وَتَشَبُّهِ أَعْجازِهِ بِهَوادِيهِ، وموافَقَةِ مآخِرِهِ لِمبادِيهِ؛ فَتَجِدُ المَنْظُومَ مِثْلَ المَنْثُورِ في سُهُولَةِ مَطْلَعِهِ، وجُودَةِ مَقْطَعِهِ، وحُسْنِ رَصْفِهِ وَتَأْلِيفِهِ، وَكَمالِ صَوْغِهِ وَتَرْكِيبِهِ. وَمَتَىٰ جَمَعَ الكَلامُ بَيْنَ العُذُوبَةِ وَالجَزَالَةِ وَالسُّهُولَةِ والرَّصانَةِ والرَّوْنَقِ وَالطَّلاَوَةِ، وَسَلِمَ مِنْ حَيْفِ التَّأْلِيفِ، وَبَعُدَ منْ سَمَاجَةِ التَّرْكِيبِ، وَرَدَ على الفَهْمِ الثَّاقِبِ فَقَبِلَهُ وَلَمْ يَرُدَّهُ، وعَلَىٰ السَّمْعِ المُصِيبِ فَاسْتَوْعَبَهُ

---

(١) «أبو هلالٍ [الحسن بن عبد الله] العَسْكَرِي» [... ـ بعد ٣٩٥هـ = ... ـ بعد ١٠٠٥م].

هو أَحَدُ كبارِ علماء الأدَبِ، وصاحب كتاب «الصّناعتَيْن» الذي لَمْ يؤلَّفْ في بابِهِ مِثْلُهُ، وأسْلُوبُهُ في كتابِهِ هذا فصيحٌ، يدُلُّ على أَدَبٍ جَمٍّ وذَوْقٍ سَلِيمٍ.

وَلَمْ يَمُجَّهُ؛ وَالنَّفْسُ تَقْبَلُ اللَّطِيفَ وَتَنْبُو عَنِ الغَلِيظِ، والفهمُ يَأْنَسُ بِالمَعْرُوفِ وَيَسْكُنُ إلى المَأْلُوفِ، ويُصْغِي إلىٰ الصَّوابِ، وَيَهْرُبُ من المُحالِ، وَلَيْسَ الشَّأْنُ في إيرادِ المعاني، فَالمعاني يَعْرِفُها العَرَبِيُّ وَالعَجَمِيُّ وَالقَرَوِيُّ وَالبَدَوِيُّ، وَإِنَّما هُوَ جُودَةُ اللَّفْظِ وَصفَاؤُهُ، وَحُسْنُهُ وَبهاؤُهُ، وَنَزاهَتُهُ وَنَقَاؤُهُ؛ وَلَيْسَ يَطْلُبُ مِنَ المَعْنَىٰ إلاَّ أَنْ يَكُونَ صَواباً مُسْتَقِيماً؛ أَمّا اللَّفْظُ، فلا يَقْنَعُ بِهِ قانِعٌ حَتَّىٰ يَكُونَ عَلَىٰ ما وَصَفْناهُ.

دَعْوَىٰ الأَدَبِ

«للآمِدِي»(١)

يَظْهَرُ أَنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الشِّعْرَ مُنْفَرِدٌ مِنْ بَيْنِ سائِرِ الأَشْياءِ بِجوازِ العِلْمِ بِهِ لِكُلِّ أَحَدٍ، وَالحُكْمِ عَلَيْهِ لِكُلِّ نَاظِرٍ، لِأَنَّا نَرَىٰ أَنَّ الَّذِي يَعْلَمُ مِنْهُمْ من العَيْنَ

---

(١) «الآمِدِي» [... ـ ٣٧٠هـ = ... ـ ٩٨٠م].

هو أبو القاسِم الحسن بن بِشْر الآمِدِي، أحد نَقَدَةِ الكلام المشهورين، وكتابُهُ «الموازنة بين أبي تمام والبُحْتُري» من أفضَلِ الكُتُبِ الأَدَبِيَّةِ في دِقَّةِ النَّظَرِ وعُلُوِّ الأسلوبِ وحُسْنِ الاعْتِدال.

وَالوَرِقِ وَالرَّقِيقِ وَالخَيْلِ وَالسِّلاحِ وَالبَزِّ وَالطِّيبِ أَكْثَرَ مِمَّا يَعْلَمُ مِنَ الشِّعْرِ، لا يَتَّهِمُ نَفْسَهُ في المَعْرِفَةِ بالشِّعْرِ تُهْمَتَهُ إِيَّاها في المَعْرِفَةِ بِتِلْكَ الأَشياءِ، لِأَنَّهُ يَرَىٰ الفَرَسَ فَيُعْجِبُهُ مَلاحَةُ سَبِيبِهِ، وَاسْتِدارَةُ كَفَلِهِ، وَبَرِيقُ شَعْرِهِ، وَحُسْنُ أَشْرَافِهِ، وصِحَّةُ قوائِمِهِ، وَسلامَةُ أَعضائِهِ، وَبراءَتُهُ من العيوبِ الظَّاهِرَةِ والْباطِنَةِ؛ وَلَكِنَّهُ لا يُقْدِمُ عَلَىٰ ابْتِياعِهِ حَتَّىٰ يُشاوِرَ في أَمْرِهِ أَصْحابَ البَصَرِ بِهِ؛ وَيَرَىٰ السَّيْفَ فَيُبْهِرُهُ مِنْهُ جلاؤُهُ وَصِقالُهُ وَصفاءُ حَدِيدِهِ، وَلَكِنَّهُ لا يُمْضِي فيهِ اختيارَهُ حَتَّىٰ يَعْتَمِدَ على مَنْ يَعْرِفُ حُسْنَهُ وَطَبْعَهُ وَجَوْهَرَهُ وَفِرَنْدَهَ ومَضاءَهُ؛ وَيُرِيدُ ٱبتِياعَ ثَوْبِ الوَشْيِ، فَيَرُوقُهُ مِنْهُ حُسْنُ طَرْزِهِ وَكَثْرَةُ صُورِهِ وَبَدِيعُ نُقُوشِهِ وَاخْتِلاطُ أَلْوَانِهِ، فَلا يبادِرُ إلى إعطاءِ ثَمَنِهِ حَتَّى يَرْجِعَ إِلىٰ أَهْلِ العِلْمِ بِجَوْهَرِه، وجُودَةِ رُقْعَتِهِ، وصِحَّةِ نَسْجِهِ، وخلاصِ إِبْرَيْسَمِهِ[1]؛ وَلَكِنَّهُ لا يَجْرِي عَلَىٰ هَذِهِ القاعِدَةِ في الشِّعْرِ، لِأَنَّهُ رُبَّما سَمِعَ القَصِيدَةَ، فَأَعْجَبَهُ منها حُسْنُ وَزْنِها، أَوْ دِقَّةُ معانيها، أو ما اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ من مواعِظَ وآدابٍ وحِكَمٍ وأمثالٍ، فَيَتَعَجَّلُ بالحُكْمِ لها على سِواها قَبْلَ أَنْ يَرْجِعَ إِلىٰ مَنْ هُوَ أَعْلَمُ مِنْهُ بالشِّعْرِ، واسْتِواءِ نَظْمِهِ، وَوَضْعِ أَلْفاظِهِ في

---

(١) الإبرَيسَم: كلمة معربة، تعني: الحرير، أو أحسنه.

مواضِعِها، وغَيْرِ ذلك من الأنْظَارِ الدَّقِيقَةِ التي لا يُدْرِكُها إلاّ أرْبَابُ الصِّنَاعة.

وكما أنَّهُ قَدْ يَكونُ الفَرَسانِ سَلِيمَيْن منْ كُلِّ عَيْبٍ مَوْجودٌ فِيهما سائِرُ علاماتِ العِتْقِ والجَوْدَةِ والنَّجَابَةِ، ويكونُ أَحَدُهما أَفْضَلَ من الآخَرِ بفَرْقٍ لا يَعْلَمُهُ إلاَّ أَهْلُ الخِبْرَةِ وَالدِّرايَةِ الطويلَةِ؛ وتَكُونُ الجارِيتانِ بارِعَتَيْنِ في الجَمالِ، سَليمَتَيْنِ مِنْ كُلِّ عَيْبٍ، فَيُفَرِّقُ بَيْنَهُمَا العالِمُ بأمْرِ الرَّقِيقِ حَتَّى يَجْعَلَ في الثمن بَيْنَهُمَا فَضلاً كبيراً بِدُونِ أنْ يَقْدِرَ على عِبارَةٍ تُوضِّحُ وَجْهَ ذلك الفَرْقِ، وَإِنَّما يَعْرِفُهُ بِطَبْعِهِ وَكَثْرَةِ دُرْبَتِهِ وطُولِ ملابَسَتِهِ؛ فَكَذَلِكَ الشِّعْرُ، قَدْ يَتقارَبُ البَيْتَانِ الجَيِّدانِ النادِرانِ، فَيَعْلَمُ أَهْلُ العِلْمِ بِصِناعَةِ الشِّعْرِ أَيَّهُمَا أَجْوَدُ إنْ كَانَ مَعْنَاهُمَا وَاحِداً، وَأَيَّهُمَا أَجْوَدُ في مَعْناهُ إنْ كانَ مَعْنَاهما مُخْتَلِفاً.

وَقَدْ ذَكَرَ هذا المعنىٰ بِعَيْنِهِ محمَّدُ بن سَلاَّمَ الجُمَحِيُّ وأبو علي دِعْبِلُ بن عَليّ الخُزَاعِيّ في كتابَيْهِما.

وحكى إسْحَاقُ المَوْصِلِيُّ قالَ: قالَ لي المُعْتَصِمُ: أَخْبِرْنِي عن مَعْرِفَةِ النَّغَمِ وَبَيِّنْها لي؟ فَقُلْتُ: إنَّ مِنَ الأَشْيَاءِ أَشْياءَ تُحِيطُ بها المَعْرِفَةُ ولا تُؤَدِّيها الصِّفَةُ.

قال: وسَأَلَنِي مُحَمَّدٌ الأَمِينُ عن شِعْرَيْنِ مُتَقَارِبَيْنِ، وقال: ٱخْتَرْ أحَدَهُمَا! فَٱخْتَرْتُ، فقالَ: مِنْ أَيْنَ فَضَّلْتَ هَذَا عَلَىٰ هَذَا، وَهُمَا مُتَقَارِبان؟ فَقُلْتُ: لَوْ تَفَاوَتَا لأَمْكَنَنِي التَّبْيِينَ، ولَكِنَّهُمَا تَقَارَبَا، فَفَاضَلْتُ بَيْنَهما بشَيْءٍ تَشهَدُ بِهِ الطَّبِيعَةُ ولا يُعَبِّرُ عَنْهُ اللِّسَانُ.

وَقِيلَ لِخَلَفٍ الأحْمَرِ: إنَّكَ لا تَزَالُ تَرُدُّ الشَّيْءَ مِنَ الشِّعْرِ، وتَقُولُ: هُوَ رَدِيءٌ! وَالنَّاسُ يَسْتَحْسِنُونَهُ؟ فقال: إذَا قالَ لَكَ الصَّيْرَفِيُّ: إنَّ هذا الدِّرْهَمَ زَائِفٌ، فَلَيْسَ بِنافِعِكَ قولُ غَيْرِهِ: إنَّهُ جَيِّدٌ.

فَمِنْ سَبيلِ مَنْ عُرِفَ بِكَثْرَةِ النَّظَرِ فِي الشِّعْرِ وَالاْرتِياضِ فِيهِ وَطُولِ المُلاَبَسَةِ لَهُ أَنْ يُقْضَىٰ له العِلْمُ بِالشِّعْرِ وَالمَعْرِفَةِ بِأَغْرَاضِهِ، وَأَنْ يُسَلَّمَ لَهُ الحُكْمُ فِيهِ، وَيُقْبَلَ مِنْهُ ما يَقُولُهُ، ويَعْمَلَ على تِمْثَالِهِ، ولا يُنازَعُ في شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، إذْ كَانَ من الواجِبِ أنْ يُسَلِّمَ لِأَهْلِ كُلِّ صِنَاعَةٍ صِنَاعَتَهُمْ، ولا يخاصِمُهُمْ فيها، ولا ينازِعُهُمْ إلاّ مَنْ كانَ مثلُهُمْ نَظَراً في الخِبْرَةِ وَطُولِ الدُّرْبَةِ والملابَسَة.

وَٱعْلَمْ أَيُّهَا السَّائِلُ المُتَعَنِّتُ أنَّ هذا الَّذِي تسائِلُهُ وتلاحِّهِ لَيْسَ في وُسْعِهِ أنْ يَجْعَلَكَ في العِلْمِ بالصِّناعَةِ

كَنَفْسِهِ، ولا يَجِدُ سَبيلاً إلىٰ قَذْفِ ذَلِكَ في نَفْسِكَ، ولا في نَفْسِ وَلَدِهِ، ومَنْ هُوَ أَخَصُّ النّاسِ بِهِ؛ ولا أَنْ يَأْتِيكَ في ذلك بِعِلَّةٍ قاطِعَةٍ، ولا حُجَّةٍ باهِرَةٍ، وَإِنْ كَانَ ما ٱعْتَرَضْتَ فِيهِ ٱعْتِراضاً صحَيحاً، وما سَأَلْتَ عَنْهُ سُؤالاً مُسْتَقِيماً.

علىٰ أنَّ العِلْمَ الَّذِي لا يَسْتَقِرُّ في الذِّهْنِ إلاَّ بِالرُّؤْيَةِ والمُشاهَدَةِ وَطُولِ الملابَسَةِ لا يُمْكِنُ أَنْ يَنْتَقِلَ إلى ذِهْنٍ آخَرَ بِمُجَرَّدِ القَوْلِ والصِّفَةِ إلاَّ إذا ٱسْتَطَاعَ صاحِبُ البَصَرِ بالسُّيُوفِ أَنْ يَصِفَ لَكَ عَشْرةَ آلافِ سَيْفٍ مُخْتلفاتِ الأَجْناسِ وَالجواهِرِ، بِحَيْثُ يَجْعَلُكَ مشاهِداً لها كُلِّها في لَحْظَةٍ واحِدَةٍ، عالماً بِكُلِّ عِلَّةٍ، مُحِيطاً بِكُلِّ حُجَّةٍ، وهذا مُحالٌ غَيْرُ مُمْكِنٍ لِأَحدٍ ولا مُسْتطاعٍ إلاّ لخالِقِ الخَلْقِ وَبارِىءِ البَشَرِ.

وَبَعْدُ، فَلَعَلَّ الَّذِي غَرَّكَ في دَعْواكَ المَعْرِفَةَ بِالشِّعْرِ والقُدْرَةَ على الحُكْمِ فيه، أَنَّ عِنْدَكَ خِزانَةَ كُتُبٍ تَشْتَمِلُ على عِدَّةٍ من دواوِينِ الشّعراءِ، تَتَصَفَّحُهَا أحْياناً، وتَحْفَظُ مِنْها القَصِيدَةَ أوِ القصائِدِ، وفاتَكَ أَنَّكَ لم تَغْتَرَّ هذا الاغْتِرارَ فيما يَتَعَلَّقُ بِثِيابِ بَدَنِكَ وَأَثاثِ بَيْتِكَ وَطُرُقِ نَفَقَتِكَ، لأَنَّا نَراكَ لا تَبْتاعُ وَشْياً ولا آلَةً، ولا تَصْرِفُ دِيناراً بِدِرهَمٍ ولا دِرْهَماً بِدِينارٍ حَتَّىٰ تَرْجِعَ إلي مَنْ يَعْرِفُ ذَلِكَ

دُونَكَ، فَتَسْتَعِينُ بِهِ على حاجَتِكَ مخافَةَ أنْ تُفْجَعَ فِي مالِكَ، فكانَ خَليقاً بكَ أنْ تُسْلِمَ أَمْرَ الشِّعْرِ إلى أَهْلِهِ مخافَةَ أنْ تُفْجَعَ في عَقْلِكَ، وَمُصِيبةُ الغُبْنِ في العَقْلِ أَكْبَرُ من مُصيبَةِ الغُبْنِ في المال.

أَوْ لَعَلَّ الَّذِي غَرَّكَ في ذَلِكَ أَنَّكَ شارَفْتَ شَيْئاً من تَقْسِيماتِ المَنْطِقِ وَجُمَلاً من الكلامِ والجَدَلِ، أَوْ عَلِمْتَ أَبواباً من الحلالِ وَالحرامِ، أَوْ حَفِظْتَ صَدْراً مِنَ اللُّغَةِ، أَوِ ٱطَّلَعْتَ على بَعْضِ مقاييسِ العَرِبيَّةِ، فَظَنَنْتَ أَنَّ كُلَّ ما لَمْ تلابِسْهُ مِنَ العُلومِ، ولَمْ تُزَاوِلْهُ، يَجْرِي ذَلِكَ المَجْرَىٰ، وَإِنَّكَ مَتَىٰ تَعَرَّضْتَ لَهُ، وَأَمْرَزْتَ قَريحَتَكَ عَلَيْهِ، نَفَذْتَ فِيهِ، وَكَشَفْتَ عن مَعانيهِ؛ وفاتَكَ أَنَّ العِلْمَ بِجَمِيعِ أنواعِهِ لا يُدْرِكُهُ طالِبُهُ إلاّ بالانْقِطاعِ إِلَيْهِ، وَالإِكْبابِ عَلَيْهِ، وَالجِدِّ فيهِ، وَالحِرْصِ على مَعْرِفَةِ أَسْرَارِهِ وغوامِضِهِ؛ وقَدْ يَتَأَتَّىٰ جِنْسٌ مِنْ العلوم لطالبِهِ، وَيَسْهُلُ وَيَمْتَنِعُ عَلَيْهِ جِنْسٌ آخَرَ، وَيَتَعَذَّرُ، لأَنَّ كلَّ ٱمْرِىءٍ إِنَّما يَتَيَسَّرُ لَهُ ما في طَبْعِهِ قَبولُهُ وما في طاقَتِهِ تعلُّمُهُ؛ فَيَنْبَغِي ـ أَصْلَحَكَ اللَّهُ ـ أَنْ تَقِفَ حَيْثُ وُقِفَ بِكَ، وتَقْنَعَ بما قُسِمَ لَكَ، ولا تَتَعدَّىٰ إلى ما لَيْسَ من شَأْنِكَ، ولا من صناعَتِكَ.

مُناظِرَةٌ

(بَيْن صاحِبِ أبي تَمّامٍ وصاحِبِ البُحتُرِيِّ)[1]

«للآمِدِي أيضاً»

صاحِبُ أبي تمّامٍ: كَيْفَ يجوزُ لقائِلٍ أنْ يَقُولَ: إنَّ البُحْتُرِيَّ أَشْعَرُ من أبي تمّام؛ وعَنْ أَبي تمّامٍ أخَذَ، وعلى حَذْوِهِ احْتَذَىٰ، ومِنْ معانيهِ ٱسْتَقَىٰ، حتَّى قِيلَ: الطَّائِيُّ الأَكْبَرُ وَالطَّائِيُّ الأَصْغَرُ.

صاحب البُحْتُرِيِّ: أمَّا الصُّحْبَةُ لَهُ، فما صَحِبَهُ، ولا تَتَلْمَذَ له، ولا رَوَى ذَلِكَ أَحَدٌ عَنْهُ، ولا نَقَلَهُ، ولا رأىٰ قَطُّ أنهُ مُحْتاجٌ إِلَيْهِ! وَدَلِيلُ ذَلِكَ الخَبَرُ المُسْتَفِيضُ من اجتماعِهِمَا وتعارُفِهِما عند أبي سَعِيد محمد بن يوسف الثَّغْرِيّ، وقد دَخَلَ عَلَيْهِ البُحْتُرِيُّ بقَصِيدَتِهِ التَّي أَوَّلُها:

[الكامل]

أَأَفَاقَ صَبٌّ مِنْ هَوَىٰ فَأُفِيقَا

وَأَبو تَمَّام حاضِرٌ، فَلَمّا أَنْشَدَها عَلِقَ أَبو تَمَّام منها أَبياتاً كَثِيرَةً، فَلَمَّا فَرَغَ مِنَ الإنشادِ أَقْبَلَ أَبو تَمَّامٍ على

(١) الظاهرُ أَنَّ الآمِدِيَّ فَرَضَ هذه المناظرةَ فَرْضاً لِيُمَثِّلَ فيها رأي المُتَشَيِّعينَ لِذينَكَ الشَّاعِرَيْن.

محمَّدِ بن يُوسُفَ، فقالَ: أَيُّها الأمِيرِ! ما ظَنَنْتُ أَنَّ أَحداً يُقدِمُ على أنْ يَسْرِقَ شِعْرِي ويُنْشِدَهُ بِحَضْرَتي حَتَّىٰ اليَوْمِ؛ ثُمَّ ٱنْدَفَعَ يُنْشِدُ ما حَفِظَهُ حَتَّىٰ أَتَىٰ علىٰ أبياتٍ كَثِيرةٍ من القَصِيدَةِ، فبُهِتَ البُحْتُرِيُّ، وَرَأَىٰ أَبو تَمَّامٍ الإنْكارَ في وَجْهِ أبي سَعِيدٍ، فحِينَئذٍ قالَ له أَبو تمَّام: أَيُّهَا الأَمِيرُ! وَاللَّهِ ما الشِّعْرُ إلاَّ لَهُ، وَإِنَّهُ أَحْسَنَ فِيهِ الإحْسانَ كُلَّهُ؛ وَأَقْبَلَ يُقَرِّظُهُ وَيَصِفُ معانِيَهِ، وَيَذْكُرُ محاسِنَهُ، وَلَمْ يَقْنَعْ من محمد بن يوسف حَتَّىٰ أَضْعَفَ لَهُ الجائِزَةَ، فَمَنْ كانَ يقولُ مِثْلَ هَذِهِ القَصِيدَةِ الَّتي هِيَ مِنْ عَيْنِ شِعْرِهِ وفاخِرِ كلامِهِ قَبْلَ أنْ يَعْرفَ أبا تمام؛ جَدِيرٌ بِهِ أَنْ يَسْتَغْنِيَ عَنْ أن يَصْحَبَهُ أَوْ يَتَتَلْمَذَ لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ من الشُّعراءِ. علىٰ أَنَّني لا أُنْكِرُ أَنَّهُ اسْتَعَارَ بَعْضَ معاني أبي تَمَّامٍ لِقُرْبِ البَلَدَيْنِ وكَثْرَةِ ما كان يَطْرُقُ سَمْعَ البُحْتُرِيِّ من شِعْرِهِ، وَلَيْسَ ذلك بِمُقْتَضٍ أنْ يَكونَ أَبو تَمَّامٍ أُسْتَاذَ البُحْتُرِيِّ، ولا بِمانعٍ أَنْ يَكُونَ البُحْتُرِيُّ أَشْعَرَ من أبي تَمَّامٍ، فهذا كُثَيِّرٌ قَدْ أَخَذَ من جَمِيلٍ وَٱسْتَقَىٰ من معانِيهِ، فَما رَأَيْنا أَنَّ أَحداً قالَ: إِنَّ جَمِيلاً أَشْعَرُ مِنْهُ، بَلْ هُوَ عِنْد أَهْلِ العِلْمِ بالشِّعْرِ والرِّوَايَةِ أَشْعَرُ من جَمِيلٍ.

صاحِبُ أبي تَمَّامٍ: إِنَّ البُحْتُرِيَّ نَفْسَهُ يَعْتَرِفُ أَنْ أبا

تَمَّام أَشْعَرُ مِنْهُ، فَقَدْ سُئِلَ عَنْهُ وعَنْ أبي تَمَّام، فَقَالَ: إنَّ جَيِّدَهُ خَيْرٌ مِنْ جَيِّدِي، وَجَيِّدُ أَبي تَمَّامٍ كَثِيرٌ.

صاحِبُ البُحْتُرِيِّ: إِنْ كَانَ هذا الخَبَرُ صَحِيحاً، فَهُوَ للبُحْتُرِيِّ لا عَلَيْهِ، لأَنَّ قَوْلَهُ هذا يَدُلُّ على أنَّ شِعْرَ أَبي تَمَّام كَثِيرُ الاخْتِلافِ، وشِعْرَهُ شَدِيدُ الاسْتِوَاءِ، وَالمُسْتَوِي الشِّعْرِ أَوْلَىٰ بِالتَّقْدِمَةِ مِنَ المُخْتَلِفِ الشِّعْرِ، وَقَدِ اجْتَمَعْنَا نَحْنُ وَأَنْتُمْ عَلَىٰ أَنَّ أبا تمَّام يَعْلُو عُلُوّاً حَسَناً ويَنْحَطُّ ٱنْحِطاطاً قَبيحاً، وَأَنَّ البُحْتُرِيَّ يَعْلُو بِتَوَسُّطٍ ولا يَسْقُطُ، وَمَنْ لا يَسْقُطُ وَلاَ يُسِفُّ[1] أَفْضَلُ مِمَّنْ يَسْقُطَ وَيُسِفُّ.

صاحِبُ أَبِي تَمَّام: إنَّ أبا تَمَّام ٱنْفَرَدَ بِمَذْهَبٍ ٱخْتَرَعَهُ وصارَ فِيهِ أَوَّلاً وَإِماماً مَتْبوعاً، وَشُهِرَ بِهِ حَتَّىٰ قِيلَ: هَذَا مَذْهَبُ أبي تَمَّامٍ وطَرِيقَةُ أبي تَمَّام؛ وَسَلَكَ النَّاسُ نَهْجَهُ، وَاقْتَفَوْا أَثَرَهُ، وَهِيَ فَضِيلَةٌ عَرِيَ عَنْ مِثْلِها البُحْتُرِيُّ.

صاحِبُ البُحْتُرِيِّ: لَيْسَ الأَمْرُ علىٰ ما وَصَفْتَ، وَلَيْسَ أَبُو تَمَّامٍ صاحِبَ هذا المَذْهَبِ، ولا بِأَوَّلٍ فيه، ولا سابقٍ إليهِ؛ بل سَلَكَ فيهِ سَبِيلَ مُسْلِم بنِ الوَلِيدِ، وَٱحْتَذَىٰ حَذْوَهُ، وَأَفْرَطَ في ذَلِكَ وَأَسْرَفَ حَتَّىٰ زالَ عَنِ النَّهْجِ المعروفِ

(١) أَسَفَّ: انْحَطَّ.

وَالسَّنَنِ المألوفِ، بَلْ إِنَّ مُسْلِماً غَيْرُ مُبْتَدِعٍ لَهُ، وَلٰكِنَّهُ رَأىٰ هذه الأَنْوَاعَ الَّتِي وَقَعَ عَلَيْهَا ٱسْمُ البَدِيعِ مُتَفَرِّقَةً في أَشْعَارِ المُتَقَدِّمِينَ، فَقَصَدَها، وَأَكْثَرَ في شِعْرِهِ مِنْهَا، وَلٰكِنَّهُ حَرَصَ علىٰ أَنْ يَضَعَها في مَواضِعِها، وَلَمْ يَسْلَمْ مَعَ ذَلِكَ مِنَ الطَّعْنِ عَلَيْهِ، حَتَّىٰ قِيلَ: إِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ أَفْسَدَ الشِّعْرَ! فجاءَ أَبو تَمَّامٍ علىٰ إِثْرِهِ، وَاسْتَحْسَنَ مَذْهَبَهُ، وَأَحَبَّ أَنْ يَجْعَلَ كُلَّ بَيْتٍ من شِعْرِهِ غَيْرَ خالٍ من هذه الأَصْنافِ، فَسَلَكَ طَرِيقاً وَعِراً، وَاسْتَكْرَهَ الأَلْفاظَ وَالمعاني اسْتِكْراهاً، فَفَسَدَ شِعْرُهُ، وَذَهَبَتْ طَلاوَتُهُ، ونَشَفَ ماؤهُ؛ فَقَدْ سَقَطَ الآنَ احْتِجاجُكُمْ بِٱخْتِراعِ أبي تَمَّامٍ لهذا المَذْهَبِ وَسَبْقِهِ إِلَيْهِ، وَكُلُّ ما في المسأَلَةِ أَنَّهُ اسْتَكْثَرَ مِنْهُ وَأَفْرَطَ، فكانَ إِفراطُهُ فيهِ مِنْ أَعْظَمِ ذنوبِهِ، وَأَكْبَرِ عُيوبِهِ. أَمَّا البُحْتُرِيُّ، فَإِنَّهُ ما فارقَ عَمُودَ الشِّعْرِ وطريقَتَهُ المعروفَةَ على كَثْرَةِ ما جاءَ في شِعْرِهِ من الاسْتِعارَةِ والتَّجْنِيسِ والمُطَابَقَةِ، فكانَ انْفِرادُهُ بِحُسْنِ العِبارَةِ، وَحلاوَةِ اللَّفْظِ، وَصِحَّةِ المَعْنَىٰ، والبُعْدِ عَنِ التَّكَلُّفِ وَالتَّعَمُّلِ سَبَباً في إِجْمَاعِ النَّاسِ على ٱسْتِحْسانِ شِعْرِهِ واسْتِجادَتِهِ وَتداوُلِهِ. وَنَفاقُ شِعْرِ الشَّاعِرِ دَلِيلٌ علىٰ عُلُوِّ مكانَتِهِ وَاضْطِلاعِهِ بما يلائِمُ الأذْواقَ وَيلامِسُ القُلوبَ مِنْ أَسالِيبِ الكَلامِ وَمَناهِجِهِ.

صاحِبُ أَبِي تَمَّام: إِنَّما أَعْرَضَ عَنْ شِعْرِ أبي تَمَّام مَنْ لَمْ يَفْهَمْهُ، لِدِقَّةِ مَعانِيهِ، وَقُصورِ فَهْمِهِ عَنْهُ؛ أَمَّا النُّقَّادُ وَالعُلماءُ، فَقَدْ فَهِمُوهُ وَعَرَفُوا قَدْرَهُ، وَإِذا عَرَفَتْ هذه الطَّبَقَةُ فَضِيلَتَهُ لَمْ يَضُرَّهُ طَعْنُ مَنْ طَعَنَ بَعْدَهَا عَلَيْهِ.

صاحِبُ البُحْتُرِيِّ: لا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يُنْكِرَ مَنْزِلَةَ ابْنِ الأَعْرَابِيِّ وَأَحْمَدَ بنِ يحيى الشَّيْبَانِيِّ ودِعْبِلِ ابن الخُزَاعِيِّ مِنَ الشِّعْرِ وَمَنْزِلَتَهُمْ مِنْ العِلْمِ بِكَلامِ العَرَبِ، وقَدْ عَلِمْتُمْ مَذْهَبَهُم في أَبي تَمَّام وَازْدِراءَهُمْ بِشِعْرِهِ، حَتَّىٰ قالَ دِعْبِلُ: إنَّ ثُلُثَ شِعْرِهِ مُحالٌ[1]، وَثُلُثَهُ مَسْروقٌ. وثُلُثَهُ صالِحٌ! وَقالَ: ما جَعَلَ ٱللَّهُ أبا تمَّام مِنَ الشُّعراءِ، بَلْ شِعْرُهُ بالخُطَبِ وَالكلامِ المَنْثورِ أَشْبَهُ مِنَهُ بالشِّعْرِ. وَقالَ ٱبْنُ الأعْرابيِّ في شِعْرِ أبي تَمَّام: إنَّ كانَ هذا شِعْراً، فكلامُ العَرَبِ باطِلٌ! وهذا مُحَمَّدُ بنُ يَزيد المبرِّد: ما عَلِمْناهُ دُوِّنَ لَهُ كبيرُ شَيْءٍ.

صاحِبُ أَبِي تَمَّام: إنّ دِعْبِلاً كانَ يَشْنَأُ أبا تَمَّام، وَيَحْسُدُهُ، علىٰ ما هو معروفٌ ومَشْهُورٌ، فلا يُقْبَلُ قَوْلُ شاعِرٍ في شاعِرٍ؛ وَأَمَّا ٱبْنُ الأعْرَابيِّ، فكانَ شَدِيدَ التَّعَصُّبِ

(١) المُحالُ: الفاسِدُ.

عَلَيْهِ لِغَرابَةِ مَذْهَبِهِ، وَلأَنَّهُ كانَ يَرُدُّ عَلَيْهِ مِنْ مَعانِيهِ ما لا يَفْهَمُهُ ولا يَعْلَمُهُ، فكانَ إذا سُئِلَ عَنْ شَيْءٍ مِنْها يَأْنَفُ أَنْ يَقُولَ: لا أدْري! فَيَعْدِلُ إِلىٰ الطَّعْنِ عَلَيْهِ؛ ولا مانِعَ أَنْ يَكُونَ جَميعُ مَنْ تَذْكُرونَهُ علىٰ هذا القِياسِ.

صاحِبُ البُحْتُرِيِّ: لا عَيْبَ على ٱبْنِ الأَعْرَابِيِّ في طَعْنِهِ عَلَىٰ شاعِرٍ عَدَلَ في شِعْرِهِ عَنْ مذاهِبِ العَرَبِ إلىٰ الاسْتِعاراتِ البَعيدَةِ المُخْرِجَةِ لِلْكلامِ إِلىٰ الخَطأ وَالإحَالَةِ، وَالعَيْبُ في ذَلِكَ يَلْحَقُ أبا تَمَّامٍ، إِذْ عَدَلَ عَنِ المَحَجَّةِ إِلى طريقَةٍ يَجْهَلُهَا ٱبْنُ الأعْرابِيِّ وأمْثالُهُ من المُضْطَلِعِينَ بِالسَّلِيقَةِ العَرَبِيَّةِ.

صاحِبُ أَبِي تَمَّامٍ: إِنَّ العِلْمَ في شِعْرِ أبي تَمَّامٍ أَظْهَرُ مِنْهُ في شِعْرِ البُحْتُرِيِّ، وَالشَّاعِرُ العالِمُ أَفْضَلُ مِنَ الشَّاعِرِ غَيْرِ العالِمِ.

صاحِبُ البُحْتُرِيِّ: كانَ الخليلُ بنُ أَحْمَدَ عالِماً شاعِراً، وَكانَ الأَصْمَعِيُّ شاعِراً عالِماً، وَكانَ الكِسائِيُّ كَذلِكَ، وَكانَ خَلَفُ بْنُ حَيَّانٍ الأَحْمَرُ أَشْعَرَ العُلماءِ، وما بَلَغَ بِهِمُ العِلْمُ طَبَقَةَ مَنْ كانَ في زمانِهِمْ مِنَ الشُّعراء غَيْرِ العُلماءِ، والتَّجْوِيدُ في الشِّعْرِ لَيْسَتْ عِلَّتُهُ العِلْمَ، وَالشَّائِعُ المَشْهُورُ أَنَّ شِعْرَ العُلَماءِ دُونَ شِعْرِ الشُّعَرَاءِ، وَقَدْ كانَ أبو

تَمَّامٍ يَعْمَلُ عَلَىٰ أَنْ يَدُلَّ في شِعْرِهِ على عِلْمِهِ باللُّغَةِ وكلامِ العَرَبِ.

أمّا البُحْتُرِيُّ، فَلَمْ يَقْصِدْ هذا ولا ٱعْتَمَدَهُ، ولا كانَ يَعُدُّهُ فَضِيلَةً، ولا يراهُ عِلْماً، بَلْ كانَ يَرَىٰ أَنَّهُ شاعِرٌ لا بُدَّ لَهُ أَنْ يُقَرِّبَ شِعْرَهُ مِنْ فَهْمِ سامِعِهِ، فلا يَأْتِي بِالغَرِيبِ إلاَّ أَنْ يَتَّفِقَ لَهُ في اللَّفْظَةِ بَعْدَ اللَّفْظَةِ في مَوْضِعِه مِنْ غَيْرِ طَلَبٍ لَهُ ولا حِرْصٍ عَلَيْهِ. على أن هذا العلم الذي تُؤثرون بهِ أبا تمام لم ينفعهُ فقد كان يلحن في شعره لحناً يضيقُ العذرُ فيه ولا يَجِدُ المُتَأَوِّلُ له مخرجاً منهُ إلاَّ بالحيلة والتَّمَحُّل الشديدِ.

صاحِبُ أَبِي تَمَّامٍ: لَسْنَا نَنكِرُ أَنْ يَكونَ صاحِبُنَا قد وَهِمَ في بَعْضِ شِعْرِهِ وَعَدَلَ عن الوجْهِ الأَوْضَحِ في كَثِيرِ من مَعانِيهِ، وَغَيْرُ غَرِيبٍ علىٰ فِكْرٍ نَتَجَ من المحاسِنِ ما نَتَجَ، وَوَلَدَ مِنَ البَدائِعِ ما وَلَدَ، أَنْ يَلْحَقَهُ الكلالُ في الأوقات وَالزَّلَلُ في الأحيان، بَلْ مِنَ الوَاجِبِ لِمَنْ أَحْسَنَ إحسانَهُ أَنْ يُسامَحَ في سَهْوِهِ وَيُتَجاوَزَ لَهُ عَنْ خَطَئِهِ، وما رأَيْنَا أحداً مِنْ شُعَراءِ الجاهِلِيَّةِ سَلِمَ من الطَّعْنِ، ولا مِنْ أَخْذِ الرُّواةِ عَلَيْهِ الغَلَطَ وَالعَيْبَ، وَكَذَلِكَ ما أَخَذَتْهُ الرُّواةُ على المُحْدَثِينَ المُتَأَخِّرِينَ من الغَلَطِ وَالخطأ وَاللَّحْنِ أَشْهَرُ

مِنْ أَنْ يَحْتاجَ إلى أَنْ نُبَرْهِنَهُ أَوْ ندلَّ عَلَيْهِ، ومَا كان أَحَدٌ مِنْ أُولَئِكَ ولاَ هؤلاء مَجْهُولَ الحَقِّ وَلاَ مَجْحودَ الفَضْلِ، بَلْ عَفا إِحسانُهُمْ على إساءَتِهِمْ وَتَجْوِيدُهِمْ على تَقْصِيرِهِمْ.

صاحِبُ البُحْتُرِيِّ: أَمَّا أَخْذُ السَّهْوِ وَالغَلَطِ على مَنْ أُخِذَ عَلَيْهِم من المُتَقَدِّمِينَ وَالمُتَأَخِّرِينَ، فَفِي البَيْتِ الواحِدِ وَالبَيْتَيْنِ والثلاثة، أَمَّا أبو تَمَّام، فلا تَكادُ تَخْلُو له قَصِيدَةٌ واحِدَةٌ مِنْ عِدَّةِ أبياتٍ يَكونُ فيها مُفْسِداً أَوْ مُحِيلاً أَوْ عادِلاً عن السَّنَنِ، أَوْ مُسْتَعِيراً اسْتِعارةً قَبِيحةً، أو مُخْطِئاً المَعْنَىٰ بِطَلَبِ الطِّباقِ وَالتَّجْنِيسِ، أَوْ مُبْهِماً بِسُوءِ العِبارَةِ وَالتَّعْقِيدِ، حَتَّىٰ لايُفْهَمَ ولا يُوجَدَ له مَخْرَجٌ.

صاحِبُ أَبِي تَمَّام: إِنَّكُمْ تُنْكِرُونَ علىٰ أَبي تَمَّام مِنَ الفَضْلِ ما يَعْتَرِفُ بهِ البُحْتُرِيُّ نَفْسُهُ، فَقَدْ رَثاهُ بَعْدَ مَوْتِهِ رِثاءً اعْتَرَفَ فِيهِ لَهُ بِالسَّبْقِ وَفَضْلِهِ عَلىٰ شُعَراءِ عَصْرِهِ.

صاحِبُ البُحْتُرِيِّ: لِمَ لا يَفْعَلُ البُحْتُرِيُّ ذلك وقَدْ كانَ هو وَأبو تَمَّام صَدِيقَيْنِ مُتَحابَيْنِ، وأَخَوَيْنِ مُتَصافِيَيْنِ، يَجْمَعُهما الطَّلَبُ وَالنَّسَبُ والمُكْتَسَبُ، فَلَيْسَ بِمُنْكَرٍ ولاَ غَريبٍ أَنْ يَشْهَدَ أَحَدُهُمَا لِصاحِبِهِ بِالفَضْلِ وَيَصِفَهُ بِأَحْسَنِ ما فِيهِ، وَيَنْحَلَهُ ما لَيْسَ فيهِ، عَلَىٰ أَنَّ المَيْتَ خاصَّةً يُعْطَىٰ

في تَأْبينِهِ مِنَ التَّقْرِيظِ والوَصْفِ وجَميلِ الذِّكْرِ أضْعافَ ما كانَ يَسْتَحِقُّهُ.

صاحِبُ أَبي تَمَّام: كَيْفَما كانَ الأَمْرُ لا تَسْتَطيعونَ أَنْ تَدْفَعُوا ما أَجْمَعَ عَلَيْهِ الرُّواةُ والعُلَماءُ أَنَّ جَيِّدَ أَبي تَمَّامٍ لا يَتَعَلَّقُ بِهِ جَيِّدُ أَمْثالِهِ، وَإذا كانَ جَيِّدُهُ بهذه المَكَانَةِ، وكانَ مِنَ المُمْكِنِ إغفالُ رَدِيئِهِ وَاطِّراحُهُ كأَنَّهُ لَمْ يَقُلْهُ، فلا يَبْقَىٰ رَيْبٌ في أَنَّهُ أَشْعَرُ شُعراءِ عَصْرِهِ، والبُحْتُرِيُّ واحِدٌ مِنْهُمْ.

صاحِبُ البُحْتُرِيِّ: إِنَّما صارَ جَيِّدُ أَبي تَمام مَوْصُوفاً وَمَذْكُوراً لِنُدْرَتِهِ ووقُوعِهِ في تَضاعِيفِ الرَّدِيءِ، فَيَكُونُ لَهُ رَوْنَقٌ وَماءٌ عِنْدَ المُقَابَلَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ما يَليهِ، وجَيِّدُ البُحْتُرِيِّ كَجَيِّدِ أبي تَمَّامٍ، إلاَّ أَنَّهُ يَقَعُ في جَيِّدٍ مِثْلِهِ أَوْ مُتَوَسِّطٍ، فلا يُفاجِىءُ النَّفْسَ مِنْهُ ما يُفَاجِئُها مِنْ جَيِّدِ صاحِبِه.

فِتْنَةُ القَوْلِ

«للجاحِظِ»

قالَ بَعْضُ الرَّبَّانِيِّينَ[1] مِنَ الأُدَباءِ، وَأَهْلِ المَعْرِفَةِ من البُلَغاءِ؛ مِمَّنْ يَكْرَهُ التَّشادُقَ وَالتَّعَمُّقَ، وَيُبْغِضُ الإِغْراقَ في القَوْلِ وَالتَّكَلُّفِ والاجْتِلابِ، وَيَعْرِفُ أَكْثَرَ أَدْواءِ الكلامِ

---

(١) الرَّباني: العارف باللّه، ويُطلقُ على الحَبْر.

وَدَوائِهِ، وما يَعْتَرِي المُتَكَلِّمَ مِنَ الفِتْنَةِ بِحُسْنِ ما يَقولُ، ومَا يَعْرِضُ للسَّامِعِ من الافْتِتانِ بحُسْنِ ما يَسْمَعُ: أُنْذِرُكُمْ حُسْنَ الألْفاظِ وَحَلاوَةَ مخارجِ ٱلْكَلامِ، فَإِنَّ المَعْنَىٰ إِذَا ٱكْتَسَىٰ لَفْظاً حَسَناً، وَأَعَارَهُ البَليغُ مَخْرَجاً سَهْلاً، وَمَنَحَهُ المُتَكَلِّمُ قَوْلاً مُتَعَشَّقاً، صارَ في القَلْبِ أحْلَىٰ، ولِلصَّدْرِ أَمَلأ؛ والمعاني إذا كُسِيَتِ الألفاظَ الكَريمةَ، وَأُلْبِسَتِ الأَوْصافَ الرَّفِيعَةَ، تَحَوَّلَتْ في العُيُونِ عنْ مقادِيرِ صُوَرِها، وَأَرْبَتْ على حقائق أقْدارِها بِقَدْرِ ما زُيِّنَتْ، وعلى حَسْبِ مَا زُخْرِفَتْ، والقَلْبُ ضَعيفٌ، وسُلْطَانُ الهَوَىٰ قَوِيٌّ، ومَدْخَلُ خِدَعِ الشَّيْطَانِ خَفِيٌّ.

فصاحَةُ جَعْفَر بْنِ يَحْيَىٰ

«لبعض الكُتَّاب المُتَقَدِّمِين»

كانَ جَعْفَرُ بنُ يَحْيَىٰ أَنْطَقَ النَّاسِ، قَدْ جَمَعَ الهُدوءَ والتَّمَهُّلَ والجَزالَةَ وَالْحَلاوَةَ وَالإِفْهامَ الَّذِي يُغْني عَنِ الإعادَةِ، وَلَوْ كانَ في الأَرْضِ ناطِقٌ يُسْتَغْنَىٰ بِمَنْطِقِهِ عن الإشارةِ لاسْتَغْنَى جَعْفَرُ عَنْها، وما رَأَيْت أحَداً لا يَتَحَبَّسُ ولا يَتَوقَّفُ ولا يَتَلَجْلَجُ ولا يَتَنَحْنَحُ، ولا يَتَرَقَّبُ لَفْظاً قَدِ ٱسْتَدْعاهُ مِنْ بُعْدٍ، ولا يَلْتَمِسُ التَّخَلُّصَ إلى مَعْنَى قد

تَعَصَّىٰ عَلَيْهِ طَلَبُهُ، ولاَ أَشَدَّ ٱقْتِداراً، ولا أَقَلَّ تَكَلُّفاً مِنْ جَعْفَرِ بنِ يَحْيَىٰ.

حَقِيقَةُ البَيانِ

«لِبَعْضِ الكُتَّابِ المُتَقَدِّمِين»

إِنَّ المَعَانِي القائِمَةَ في صُدُورِ العِبادِ، المُتَصَوَّرَةَ في أَذْهَانِهِمْ، وَالمُخْتَلِجَةَ في صُدُورِهِمْ، وَالمُتَّصِلَةَ بِخواطِرِهِمْ، وَالْحادِثَةَ عَنْ فِكْرِهِم مَسْتُورَةٌ خَفِيَّةٌ، وَبَعِيدَةٌ وَحْشِيَّةٌ، ومَحْجُوبَةٌ مَكْنُونَةٌ، ومَوْجُودَةٌ في مَعْنَى مَعْدومَةٌ. لا يَعْرِفُ الإنسانُ ضَمِيرَ صاحِبِهِ، ولا حاجَةَ أَخِيهِ وَخَلِيطِهِ، ولا مَعْنَىٰ شَريكِهِ وَالمُعاوِنِ لَهُ علىٰ أَمْرِه، وعَلَىٰ ما لا يَبْلُغُهُ مِنْ حاجاتِ نَفْسِهِ إلاَّ بِغَيْرِهِ. وَإِنَّما تَحْيا تِلْكَ المَعاني في ذِكْرِهِمْ لها، وَإِخْبَارِهِمْ عَنْها، وَٱسْتِعْمالِهِمْ إِيَّاهَا؛ وَهَذِهِ الخِصالُ هي الّتي تَقَرِّبُها مِنَ الفَهْمِ، وَتُجَلِّيها لِلْعَقْلِ، وَتَجْعَلُ الخَفِيَّ مِنْها ظاهِراً، والغائِبَ شاهِداً، وَالبَعِيدَ قَرِيباً؛ وَهِيَ الَّتي تُلَخِّصُ المُلْتَبِسَ، وَتُحِلُّ المُنْعَقِدَ، وَتَجْعَلُ المُهْمَلَ مُقَيَّداً، وَالمُقَيَّدَ مُطْلَقاً، وَالمَجْهُولَ مَعْرُوفاً، وَالوَحْشِيَّ مَأْلوفاً، وَالغُفْلَ[1] مَوْسُوماً.

(١) الغُفْل: ما لا علامَةَ فيه.

وَعَلَىٰ قَدْرِ وُضوحِ الدَّلالَةِ، وَصَوابِ الإشارَةِ، وَحُسَنِ الاخْتِصَارِ، وَدِقَّةِ المَدْخَلِ يَكونُ ظُهُورُ المَعْنَى؛ وَكُلَّمَا كانَتِ الدَّلالَةُ أَوْضَحَ وَأَفْصَحَ، وكانَتِ الإشارَةُ أَبْيَنَ وَأَنْوَرَ، كانَ أَنْفَعَ وَأَنْجَعَ.

وَالبَيانُ اسْمٌ لِكُلِّ شَيْءٍ كَشَفَ لَكَ قِنَاعَ المَعْنَىٰ، وَهَتَكَ الحُجُبَ دُونَ الضَّمِيرِ حَتَّىٰ يُفْضِيَ السَّامِعُ إلىٰ حَقيقَتِه، ويَهْجُمَ علىٰ مَحْصُولِهِ كائِناً ما كانَ ذَلِكَ البيانُ، ومِنْ أَيِّ جِنْسٍ كانَ ذَلِكَ الدَّلِيل، لِأَنَّ مَدارَ الأَمْرِ وَالغَايَةِ الَّتي إلَيْها يَجْرِي القائِلُ والسَّامِعُ إِنَّما هُوَ الفَهْمُ والإفْهامُ، فَبِأَيِّ شَيْءٍ بَلَغْتَ ذَلِكَ فَذَلِكَ هو البَيانُ.

فَصاحَةُ القُرْآنِ

«للباقِلاّني»[1]

إنَّ نَظْمَ القُرْآنِ علىٰ تَصَرُّفِ وُجوهِهِ، وَاخْتِلافِ مَذاهِبِهِ، خارِجٌ عن المَعْهُودِ مِنْ نِظامِ كلامِ العَرَبِ، وَمُبايِنٌ

(١) «الباقِلاّني» [٣٣٨ ـ ٤٠٣هـ = ٩٥٠ ـ ١٠١٣م].

هو القاضي أبو بكر محمد بن الطَّيِّب، كان مَعْرُوفاً بالجَدَلِ وقوّةِ الحُجَّةِ ورسوخِ القَدَمِ في علم الكلامِ، والبراعَةِ والتفوُّقِ في الفصاحَةِ والبيان؛ ومَنْ قرأَ كتابَه: «إعجاز القرآن» ظَنَّ أنَّهُ يَقْرأُ أُسلوبَ الأدباءِ المُغْرِبينَ لا المتكلِّمِينَ المُعْجَمِين.

للمَألوفِ مِنْ تَرْتيبِ خِطابِهِمْ، وَلَهُ أُسْلُوبٌ يَخْتَصُّ بِهِ وَيَتَمَيَّزُ في تَصَرُّفِهِ عنِ أساليبِ الكلامِ المُعْتادِ، وَذٰلِكَ أَنَّ الطُّرَقَ الَّتِي يَتَقَيَّدُ بها الكلامُ البَدِيعُ المَنْظُومُ تَنْقَسِمُ إِلىٰ أَعاريضِ الشِّعْرِ علىٰ اخْتِلافِ أَنْواعِه، ثُمَّ إِلىٰ أَنْواعِ الكلامِ المَوْزُونِ غَيْرِ المُقَفَّىٰ، ثُمَّ إِلىٰ أَصْنافِ الكلامِ المُعَدَّلِ غَيْرِ المُسَجَّعِ، ثُمَّ إِلىٰ مُعَدَّلٍ مَوْزُونٍ غَيْرِ مُسَجَّعٍ، ثُمَّ إِلىٰ ما يُرْسَلُ إِرْسالاً، فَيُطْلَبُ فِيه الإصابَةُ وَالإفادَةُ وإِفهامُ المعاني المُعْتَرِضَة على وَجْهٍ بَديعٍ وتَرتِيبٍ لَطيفٍ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُعْتَدِلاً في وَزْنِه، وَذٰلِكَ شَبِيهٌ بِجُمْلَةِ الكلام الَّذِي لا يُتَعَمَّلُ ولا يُتَصَنَّعُ لَهُ.

وَالقرآنُ خارِجٌ عَنْ هَـٰذِهِ الوُجوهِ، وَمُبايِنٌ لِهـٰذِهِ الطُّرُقِ، فَضْلاً عَنْ أَنَّهُ لَيْسَ لِلْعَرَبِ كَلامٌ مُشْتَمِلٌ علىٰ هَذِهِ الفَصاحَةِ وَالغَرابَةِ والتَّصَرُّفِ البَديعِ وَالمعانِي اللَّطِيفَةِ وَالفَوائِدِ الغَزِيرَةِ وَالحِكْمَةِ الكَثِيرَةِ وَالتَّناسُبِ في البلاغَةِ والتَّشابُهِ في البَراعَةِ عَلَىٰ هذا الطُّولِ وَعلىٰ هذا القَدْرِ، وَإِنَّمَا تُنْسَبُ إِلىٰ حَكيمِهِمْ كلماتٌ مَعْدودَةٌ وألفاظٌ قَلِيلَةٌ، وَإِلى شاعِرِهِمْ قَصائِدُ مَحْصُورَةٌ يَقَعُ فيها أحياناً الاخْتِلالُ والاخْتِلافُ والتَّعمُّلُ والتكلُّفُ والتَّجَوُّزُ والتَّعَسُّفُ.

وقَدْ حَصَلَ القرآنُ على كَثْرَتِهِ وطُولِهِ مُتَناسِباً في

الْفَصاحَةِ على ما وَصَفَهُ اللَّهُ تعالى بِهِ، فَقَالَ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [٣٩ سورة الزمر/ الآية: ٢٣]، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [٤ سورة النساء/ الآية: ٨٢].

ذَلِكَ إلى ما تَراهُ من أَنَّ عَجِيبَ نَظْمِهِ وبَدِيعَ تأليفِهِ لا يَتَفاوَتُ ولا يَتبايَنُ على ما يَتَصرَّفُ إِلَيْهِ من الوُجوهِ التي يَتَصرَّفُ إِلَيْها مِن ذِكْرِ قِصَصٍ وَمواعِظَ وَاحْتِجاجٍ وَحِكَم وأَحْكامٍ وَإِعْذارٍ وَإِنْذارٍ وَوَعْدٍ ووعيدٍ وَتَبْشِيرٍ وَتَخْويفٍ وَأَوْصافٍ وَتَعْلِيمِ أخلاقٍ كريمَةٍ وَشِيَمٍ رَفِيعَةٍ وسِيَرٍ مَأْثُورَةٍ وغَيْرِ ذَلِكَ من الوُجوهِ الَّتِي يَشْتَمِلُ عليها.

وَنَجِدُ كلامَ البليغِ الكامِلِ وَالشَّاعِرِ المُفْلِقِ والخَطِيب المِصْقَعِ يَخْتَلِفُ على حَسْبِ اختلافِ هذه الأُمور. فَمِنَ الشُّعراءِ مَنْ يُجَوِّدُ في المَدْح، وَمِنْهُم من يَسْبِقُ في التَّقْرِيظِ دون التَّأْبينِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُجَوِّدُ في التَّأْبِينِ دُونَ التَّقْرِيظِ، وَمِنْهُمْ من يُغْرِبُ في وَصْفِ الإِبِلِ أَوِ الخَيْلِ أَوْ سَيْرِ اللَّيْلِ أَوْ وَصْفِ الحَرْبِ أَوْ وَصْفِ الرَّوْضِ أَوْ وَصْفِ ٱلْخَمْرِ أَوِ الغَزَلِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَشْتَمِلُ عَلَيهِ الشِّعْرُ وَيَتَداوَلُهُ الكَلامُ، وَلِذَلِكَ ضُرِبَ المَثَلُ بِامْرِئِ القَيْسِ إذا رَكِبَ،

وَالنَّابِغَةِ إذا رَهِبَ، وَزُهَيْرٍ إذا رَغِبَ، وَهُمْ قَوْمٌ لا خلافَ في تَقَدُّمِهِمْ في صَنْعَةِ الشِّعْرِ، ولا شَكَّ في تَبْرِيزِهِمْ في مَذْهَبِ النَّظْمِ.

وَمَتَىٰ تَأَمَّلْتَ شِعْرَ الشَّاعِرِ البَلِيغ رَأَيْتَ التَّفاوُتَ في شِعْرِهِ على حَسْبِ الأَحْوالِ الَّتي يَتَصرَّفُ فِيها، فَيَأْتِي بِالغايَةِ في البَراعَةِ في مَعْنَىٰ، فَإذا جاءَ إلىٰ غَيْرِهِ قَصَّرَ عَنْهُ وَوَقَفَ دُونَهُ وَبانَ الاخْتِلافُ في شِعْرِهِ، ثُمَّ نَجِدُ في الشُّعراءِ من يَجَوِّدُ في الرَّجَزِ ولا يُمْكِنُهُ نَظْمُ القَصِيدِ أَصْلاً، وَمِنْهُمْ من يَنْظِمُ القَصِيدَ، ولَكِنَّهُ يُقْصِرُ فيهِ مهما تَكَلَّفَهُ أوْ تَعَمَّلَهُ، وَنَجِدُ من النَّاسِ من يُجَوِّدُ في الكلام المُرْسَلِ، فَإذا أَتَى بالمَوْزُونِ قَصَّرَ وَنَقَصَ نُقْصاناً عَجِيباً، وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ علىٰ الضِّدِّ مِنْ ذَلِكَ.

وقد تَأَمَّلْنا نَظْمَ القُرْآنِ، فَوَجَدْنا جَميعَ ما يَتَصرَّفُ فِيهِ مِنَ الوجوهِ التي ذَكَرْناها على حَدٍّ واحِدٍ في حُسْنِ النَّظْمِ وبَديعِ التَّأليفِ، لا تَفاوُتَ فِيهِ ولا انْحِطَاطَ عَنِ المَنْزِلَةِ العُلْيَا، ولا إِسْفال فيهِ إلىٰ الرُّتْبَةِ الدُّنْيا.

وكَذَلِكَ قد تَأَمَّلْنا ما تَتَصرَّفُ إِلَيْهِ وُجوهُ الخِطابِ مِن الآياتِ الطَّوِيلَةِ والقَصِيرَةِ، فَرَأَيْنَا الإعْجازَ في جَميعِها على حَدٍّ واحِدٍ لا يَخْتَلِفُ.

وَهُناكَ شَيْءٌ آخَرُ هُوَ خَيْرُ ما يُؤْتَىٰ بِهِ لِلدّلالَةِ على بُلوغِ الفَصاحَةِ في القُرْآنِ مَنْزِلَةَ الإعْجازِ، وَهُوَ أَنَّ وُرُودَ تِلْكَ المعاني الغريبَةِ الَّتي يَتَضَمَّنُها في أَصْلِ الشَّريعَةِ والأَحْكام، وَالاحْتِجاجات في أَصْلِ الدِّينِ، وَالرَّدُّ على المُلْحِدينَ بِهَذِهِ الأساليبِ البَديعَةِ وَمُوافَقَةِ بَعْضِها بَعْضاً في اللُّطْفِ وَالبَراعَةِ مِمَّا يَتَعَذَّرُ على العَرَبِ مجاراتُهُ فيهِ، لأَنَّها معَانٍ غَريبَةٌ غَيْرُ مُطْرُوقَةٍ، وَقَدْ عُلِمَ أَنّ تَخَيُّرَ الأَلْفاظِ لِلْمَعانِي المُتَداوَلَةِ المَأْلوفَةِ وَالأَسْبَابِ الدَّائِرَةِ بَيْنَ النَّاسِ أَسْهَلُ وَأَقْرَبُ مِنْ تَخَيُّرِ الأَلْفاظِ لِمعانٍ مُبْتَكَرَةٍ وَأَسْبابٍ مُؤَسَّسَةٍ مُسْتَحْدَثَةٍ، وَبَراعَةُ اللَّفْظِ في المَعْنَىٰ البارِعِ أَعْجَبُ مِنْ بَراعَتِهِ في المَعْنَىٰ المُتَداوَلِ المُتَكَرِّر.

وَلِلْقُرْآنِ مَزِيَّةٌ أُخْرَى غَيْرُ ما تَقَدَّمَ، وَهِيَ أَنَّهُ مِنَ المُقَرَّرِ المَعْرُوفِ أَنَّ الكلامَ يَبِينُ فَضْلُهُ وَرُجحَانُ فَصاحَتِهِ بِأَنْ تُذْكَرَ مِنْهُ الكَلِمَةُ في تضاعِيفِ كلام أَوْ تُقْذَفَ ما بَيْنَ شِعْرٍ فَتَأْخُذُهُ الأَسْماعُ، وَتَتَشَوَّفُ إِلَيْهِ النُّفُوسُ، ويُرَىٰ وجْهُ رَوْنَقِهِ بادِياً غامِراً سائِرَ ما يُقْرَنُ بِهِ، كالدُّرَّةِ الَّتِي تُرَىٰ في سِلْكٍ مَنْ خَرَزٍ، وَكالياقوتَةِ وَسَطَ العِقْدِ، وَأَنْتَ تَرَىٰ الكَلِمَةَ مِنَ القُرْآنِ يُتَمَثَّلُ بِها في تضاعيف كلامٍ كَثِيرٍ، فَإِذا هي غُرَّةُ جَميعِهِ وَواسِطَةُ عِقْدِهِ، وَالمُنادَىٰ على نَفْسِهِ بِتَمَيُّزِهِ وَتَخَصُّصِهِ بِرَوْنَقِهِ وجَمالِهِ وَانْفِرادِهِ.

وَبَعْدُ، فَإِنَّكَ تَجِدُ في كِتابِ اللَّهِ الحِكْمَةَ وَفَصْلَ الخِطابِ مَجْلُوَّةً عَلَيْكَ في مَنْظَرٍ بَهِيجٍ، وَمَعْرِضٍ رَشيقٍ، ونَظْمٍ أَنِيقٍ، غَيْرِ مُتعاصٍ على الأَسْماعِ، ولا مُلْتَوٍ علىٰ الأَفْهامِ، ولا مُسْتَكرَهٍ في اللَّفْظِ، يَمُرُّ كما يَمُرُّ السَّهْمُ، وَيُضِيءُ كما يُضِيءُ الفَجْرُ، وَيَزْخَرُ كما يَزْخَرُ البَحْرُ، طَموحُ العُبابِ، جَموحٌ على الطَّارِقِ المُنْتابِ، كالرُّوحِ في البَدَنِ، وَالنُّورِ المُسْبَطِرِ[1] في الأُفُقِ، وَالغَيْثِ الشّامِلِ، وَالضِّياءِ الباهِرِ، ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [٤١ سورة فصلت/ الآية: ٤٢].

إعجازُ القُرْآنِ

«للقاضي عِياض»[2]

إنَّ كتابَ اللَّهِ العزيزِ مُنْطَوٍ علىٰ وُجوهٍ من الإعْجازِ كَثِيرَةٍ، وَتَحْصِيلُها مِنْ جِهَةِ ضَبْطِ أَنْواعِها في أَرْبَعَةِ وُجوهٍ:

---

(١) المُسْبَطِر: المُمْتد.

(٢) «القاضِي عِياض» [٤٧٦ ـ ٥٤٤هـ = ١٠٨٣ ـ ١١٤٩م].
هو القاضِي أَبو الفَضْلِ عِياضُ بن مُوسَىٰ السَّبْتِي، نِسْبَةً إِلىٰ مَدِينة سَبْتَة، كانَ إماماً في الحَدِيثِ والفِقْهِ، وكاتِباً من أوائل الكُتَّابِ، وكِتابُهُ «الشِّفا» في السِّيرَةِ المحمَّدِيّةِ لَمْ يؤلَّفْ مِثْلُهُ في موضوعِهِ من حَيْثُ بلاغَةِ عبارَتِهِ وجمالِ أُسْلوبِهِ.

أَوَّلُهَا حُسْنُ تأليفِهِ، وَالْتِئامُ كَلِمِهِ، وفصاحَتُهُ، ووجوهُ إِيجازِهِ، وبلاغَتُهُ الخارِقَةَ عادَةَ العَرَبِ. وذَلِكَ أَنَّهُمْ كانوا أرْبابَ هذا الشَّأْنِ وفُرْسانَ الكلامِ، قَدْ خُصُّوا مِنَ البلاغَةِ وَالحِكَمِ بما لم يُخَصَّ بهِ غَيْرُهُمْ من الأُمَمِ، وأُوتُوا مِنْ ذَرابَةِ اللِّسانِ ما لَمْ يُؤْتَ إنسانٌ؛ وَمِنْ فَصْلِ الخِطابِ، ما يُقَيِّدُ الألْبابَ؛ جَعَلَ اللَّهُ لَهُمْ ذلك طَبْعاً وَخِلْقَةً، وَفِيهِمْ غريزَةً وقُوَّةً؛ يأْتُونَ مِنْهُ علىٰ البَدِيهَةِ بالعَجَبِ، ويُدْلُونَ بِهِ إلىٰ كُلِّ سَبَبٍ؛ فَيَخْطبون بَدِيهاً في المقاماتِ وَالخَطْبِ، وَيَرْتَجِزُونَ بَيْنَ الطَّعْنِ وَالضَّرْبِ؛ وَيَمْدَحُونَ وَيَقْدَحُونَ، وَيَتَوَسَّلُونَ وَيَتَوَصَّلُونَ، وَيَرْفَعُونَ وَيَضَعُونَ؛ فَيَأْتُونَ مِنْ ذَلِكَ بِالسِّحْرِ الحلال، وَيُطَوِّقونَ مِنْ أَوصافِهِمْ أجْمَلَ مِنْ سِمْطِ اللآلِ؛ فَيَخْدَعونَ الألْبابَ، وَيُذَلِّلونَ الصِّعابَ؛ ويُذْهِبونَ الإِحَنَ، وَيُهَيِّجونَ الدِّمَنَ؛ وَيُجَرِّؤُونَ الجبانَ، وَيَبْسِطونَ يَدَ الجَعْدِ البَنان؛ وَيُصَيِّرونَ النّاقِص كاملاً، وَيَتْرُكونَ النَّبيهَ خامِلاً؛ مِنْهُمُ البَدِويُّ ذو اللَّفْظِ الجَزْل، وَالقَوْلِ الفَصْل؛ وَالكلامِ الفَخْمِ، وَالطَّبْعِ الجَوْهَرِيّ، وَالمَنْزَعِ القَويّ؛ وَمِنْهُمْ الحَضَرِيُّ ذو البلاغة البارِعَة، وَالألفاظ الناصِعة، وَالكلمات الجامِعَة؛ وَالطَّبْعِ السَّهْلِ، وَالتَّصَرُّفِ في القَوْلِ القَليلِ الكُلْفَةِ، الكَثيرِ الرَّوْنَقِ، الرَّقيقِ الحاشِيَة، لا يَشكُّونَ أنّ

الكلامَ طَوْعُ مُرادِهِمْ، وَالبلاغَةَ مِلْكُ قِيادِهِم؛ قَد حَوَوا فُنونَها، وٱسْتَنْبَطُوا عيُونَها؛ ودَخَلُوا مِنْ كُلِّ بابٍ من أبوابها، وَعَلَوْا صَرْحاً لِبلُوغِ أسْبابها؛ فقالُوا في الخَطِيرِ وَالمَهِين، وتَفَنَّنُوا في الغَثِّ والسَّمِين؛ وتَقاوَلُوا في القُلِّ وَالكُثْرِ، وَتساجَلُوا في النَّظْمِ وَالنَّثْرِ؛ فما رَاعَهُم إلاَّ رَسولٌ كَرِيمٌ بِكِتابٍ عَزيزٍ ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [٤١ سورة فصلت/ الآية: ٤٢]؛ أُحْكِمَتْ آياتُهُ، وفُصِّلَتْ كلماتُهُ؛ وَبَهَرَتْ بلاغَتُهُ العقول، وظَهَرَتْ فصاحَتُهُ علىٰ كُلِّ مَقُول؛ وَتَضافَرَ إيجازُهُ وَإعْجازُهُ، وَتَظاهَرَتْ حَقيقَتُهُ وَمجازُهُ؛ وَتبارَتْ في الحُسْنِ مَطالِعُهُ وَمقاطِعُهُ، وَحَوَتْ كُلَّ البيانِ مجامِعُه وبدائِعُهُ؛ وَٱعْتَدَلَ مَعَ إيجازِهِ حُسْنُ نَظْمِهِ، وَٱنْطَبَقَ علىٰ كَثْرَةِ فَوائِدِهِ مُخْتارُ لَفْظِهِ؛ وَهُمْ أَفْسَحُ ما كانُوا في هذا البابِ مَجالاً، وَأَشْهَرُ في الخَطابَةِ رِجالاً؛ وأكْثَرُ في الشِّعْرِ وَالسَّجْعِ ارْتجالاً، وَأَوْسَعُ في الغَرِيبِ وَاللُّغَةِ مَقالاً؛ بِلُغَتِهِمْ الَّتِي بِها يَتَحاوَرُونَ، وَمنازِعِهِمُ الَّتِي عَنْهَا يُناضِلُونَ؛ فما زالَ صارِخاً بِهِمْ في كُلِّ حِينٍ، وَمُقَرِّعاً لَهُمْ عَلىٰ رُؤوسِ المَلإِ أَجْمَعِينَ؛ ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [١٠ سورة يونس/ الآية: ٣٨].

الشُّعراءُ المُحْدَثُون

قال ابْنُ دُرَيدٍ: سَأَلْتُ أبا حاتِمٍ عَنِ أَبي نُواسٍ، فَقَال: إنْ جَدَّ أَحْسَنَ، وَإنْ هَزَلَ ظَرُفَ، وَإِنْ وَصَفَ بالَغَ، يُلْقَي الكلامَ علىٰ عواهِنِهِ لا يُبالي مِنْ أَيْنَ أَخَذَهُ. قُلْتُ: فَبَشّارُ بْنُ بُرْدٍ؟ قالَ: نَظّارٌ غَوّاصٌ مُطِيلٌ مُجيدٌ، يَصِفُ ما لَمْ يَرَ كَأَنَّهُ رَآهُ، عَلَىٰ أَنَّ في شِعْرِهِ خَلَلاً كَثِيراً. قُلْتُ: فَمروانُ ابْنُ أَبي حَفْصَةَ؟ قالَ: شاعِرٌ رَاضٍ عَنْ نَفسِهِ يَسْتَحْسِنُ كُلَّما جاءَ مِنْهُ مُعْجَبُ، لا يَرىٰ أَنَّ أحداً يَتَقَدَّمُهُ، كَثِيرُ الصَّوابِ، كَثِيرُ الخَطأ، لَيْسَ لِشِعْرِهِ صَنْعَةٌ. قُلْتُ: فَمُسْلِمُ بْنُ الوَليدِ؟ قالَ: خليجٌ صافٍ يَنْزِعُ مِنْ بَحْرٍ كَدِرٍ، كَالزَّنْدِ يُورِي تارَةً وَيَصْلِدُ أُخْرَىٰ. قُلْتُ: فَأَبو العَتاهِيةِ؟ قالَ: غُثاءٌ[1] جَمٌّ وَاقْتِدارٌ سَهْلٌ، وشِعْرٌ كَخَرَزِ الزُّجاجِ، وَرُبَّما أَشْبَهَ الياقوتَ والزَبَرْجَدَ. قُلْتُ: فَعَبّاسُ بْنُ الأَحْنَفِ؟ قالَ: يُلْقِي دَلْوَهُ في الدِّلاءِ، فَيَغْتَرِفُ الصَّفْوَ أَحْياناً وَالحَمْأَةَ[2] أحياناً، علىٰ أنَّ كَدَرَهُ أَكْثَرُ من صَفْوِهِ. قُلْتُ: فَسَلْمُ الخاسِرُ؟ قَالَ: مُقِلٌّ مَدّاحٌ، شِعْرُهُ ديباجٌ وعِهْنٌ، يُمَوِّهُ الرَّدِيءَ حَتَّىٰ يُشْبِهَ الجَيِّدَ.

---

(١) الغُثاء: الزَّبَدُ.

(٢) الحمأةُ: الطِّينُ الأسْودُ.

قُلْتُ: فأَبو الشِّيصِ؟ قال: جَدُّهُ كُلُّهُ فيهِ حلاوَةٌ وبشاعَةٌ، كالسِّذْرَةِ الّتي نَفَضَتْ، فَفيها المُسْتَعْذَبُ وَالمُسْتَبْشَعُ. قُلْتُ: فَعليُّ بْنُ جَبَلَةَ؟ قالَ: بَحّاثٌ عن الكلامِ الفَخْمِ والمَعْنَى الرّائِعِ، لا ينالُ مَرْتَبَةَ القُدَماء، وَيَجِلُّ عَنْ مَنْزِلَةِ النُّظراءِ. قُلْتُ: فَأَبو تَمّامٍ؟ قالَ: سَيْلٌ كَثِيرُ الغُثاءِ، غَزِيرُ الغِمارِ، جَمُّ النِّطافِ[1]؛ فَإِذا صَفا فهو السُّلافُ بالماءِ الزُّلالِ. قُلْتُ: فَعَبْدُ الصَّمَدِ بْنِ المُعَذَّل؟ قال: خَرّاجٌ وَلاّجٌ، يَعْتَسِفُ تارةً، ويَهْتَدِي أُخْرَىٰ. قُلْتُ: فَعَلِيُّ بْنُ الجَهْمِ؟ قالَ: كَلامٌ رَصِينٌ وَمَسْلَكٌ وَعْرٌ، عَقْلُهُ أغْلَبُ علىٰ شِعْرِهِ مِنْ طَبْعِهِ. قُلْتُ: فَبَكْرُ بن النَّطّاحِ؟ قال: تَشَبَّهَ بِالأَعْرابِ فَأَفْرَطَ، وَتجاوَزَ حَدَّ المُوَلَّدِين فَأَسْهَبَ، فَهُوَ السّاقِطُ بَيْنَ القَرْيَتَيْنِ.

---

(١) النِّطافُ: الماءُ الصافي.

نظراتُ المَنْفَلوطِي

«لأحمد لُطْفِي بك السَّيِّد»[1]

يَكْتُبُ الكاتِبونَ عِنْدَنَا وفي البلادِ الأُخرى، فَيَقَعُ بَعْضُهُم علىٰ بَعْضٍ في كَيْفِيَّةِ اسْتِحْضارِ الأفكارِ وَصَوْغِ العِباراتِ وَفِي الأُسْلوبِ الكِتابِيّ إلىٰ حَدٍّ يَخْتَلِطُ فيهِ أَمْرُهُم، وَتَفْنَىٰ بِهِ شَخْصِيَّتُهُمْ، فلا تَكادُ تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدِهِم وبَيْنَ الآخَرِ إلاَّ باخْتِلافِ الاسْم. وهذا الصِّنْفُ مِنَ الكُتَّابِ في كُلِّ أُمَّةٍ كَثِيرٌ، وكتاباتُهُم أَكْثَرُ، ولَكِنَّ الزمانَ نَقَّادٌ غَيْرُ مُتسامِحٍ، لا يُبْقِي في كَفِّهِ من تلك الأسْفارِ الكثيرةِ إلاَّ القليلَ.

ومن الكُتَّابِ مَنْ هُوَ ضَنِينٌ بشَخْصِيَّتِهِ، لا يَدَعُها

---

(١) «أحمد لُطْفي بك السَّيِّد» [١٢٨٨ ـ ١٣٨٢هـ = ١٨٧٠ ـ ١٩٦٣م]

هو من أعْلَم الكتَّاب في هذا العصر بالأخْلاقِ والاجْتِماعِ والحِكْمَةِ، ومن أَقْدَرِهِم على الحُجَّةِ التي لا يَشوبُها كَذِبٌ ولا تَخْييلٌ؛ وَلَهُ في كتابَتِهِ صِفَةٌ خاصَّةٌ بِهِ، مَنْشَؤُها أَنَّهُ يَصْدُرُ فِيما يَكْتُبُ عن رَأْيِ نَفْسِهِ، وَقَلَمُهُ أَطْهَرُ الأقْلامِ وَأَبْعَدُها عن الهُجْرِ والعَيْبِ، ولو أَمْكَنَ أنْ يَخْلُوَ قَلَمُ كاتِبٍ من كُلِّ عَيْبٍ لخلا قلم لطْفي السَّيِّد من الأساليب الإفرنْجِية التي يَسْتَعْمِلُها أحياناً.

تتلاشَىٰ في بيئَةِ الكِتابِ، لا يتكلَّفُ تَقْليدَ شَيْخٍ من أشْياخِ الكتابة، ولا يَكْتُبُ للكِتابَة، بَلْ لاَ يَكْتُبُ إلاَّ إذا قامَتْ بِنَفْسِهِ أَغْراضٌ واضِحَةٌ يَجبُ أنْ يُبْرِزَها للنَّاسِ في الثَّوْبِ الَّذِي يُناسِبُها علىٰ تَفْصِيلِ مَوَدَّةِ الأذْواقِ الحاضِرَةِ، وَحَسْبَما يَقْتَضِيهِ الفَصْلُ الزَّمَنِي للأفكارِ. وَكُتَّابُ هذا الصِّنْفِ قليلونَ عادَةً في كُلِّ أُمَّةٍ وفي كُلِّ جيلٍ، إلاَّ أنَّ كتاباتِهِمْ علىٰ قِلَّتِها هي المُرَبِّي الوَحيدُ للأُمَمِ، وَالعِلَلُ الأُولىٰ الَّتِي تَدْفَعُها إلىٰ الأَخْذِ بِكُلِّ نَوْعٍ مِن أَنْواعِ الرُّقِيِّ والنَّجاح، وهِي خَيْرُ اللُّغاتِ وَأبْقاها.

مِنْ أَشْياخِ البيانِ عِنْدَنا السَّيِّد مصطفى المَنْفَلوطِي. أكادُ لا أَجِدُ لَهُ في طَرِيقَتِهِ مَثِيلاً بين كُتابنا، فَإِنَّهُ يَمْتازُ بالمساواةِ، وَقَلَّ مَنْ يَعْرِفُ المُساواةَ. يَمْتازُ باسْتِعمالِ ألفاظِ الخُصوصِ، فلا يُلْبِسُ مَعْنَىٰ إلاَّ لَفْظَهُ الَّذِي يكادُ لا يُشارِكُهُ فِيهِ مَعْنَىٰ آخَرَ. يَطْرُقُ الموضوعاتِ الصَّعْبَةَ البَعيدةَ، فَيُقَرِّبُها من القارِىءِ، وَيَجْعَلُهُ يَظُنُّ أَنَّها من مَألوفاتِهِ وَلَمْ تَكُنْ كذلك مِنْ قَبْلُ.

أَقولُ مِنْ غَيْرِ محاباةٍ، وَفِي يَدِي «نَظَراتُ المَنْفَلوطِي»: إِنَّ السَّيِّدَ مُصْطَفى هو الثَّمَرَةُ الناضِجَةُ للعَصْرِ الكِتابِيِّ الحاضِرِ، جَمَعَ بَيْنَ أفْكارِ التَّمَدُّنِ وَأُسْلُوبِ العَرَبِ

الأَصيلِ، فكان كتابُهُ «النَّظرات» بذلك إحْدَىٰ المُعْجِزاتِ عِنْدَ من يَظُنُّونَ أنَّ الغَرْبَ غَرْبٌ والشَّرْقَ شَرْقٌ، وَأَنَّهُمَا لا يزالانِ كَذَلِكَ ما بَقِيَ البُعْدُ بَيْنَ مَطْلِعِ الشَّمْسِ وبَيْنَ مَغْرِبها.

أَنْصَحُ لِلشَّبِيبَةِ أنْ تَجْعَلَ «نظرات» السيد المَنْفَلُوطِي كتابَ مطالَعَتِهِمْ، وَأَنْصَحُ للنَّاشِئَةِ أنْ يَحْفَظُوا مِنْهُ ما اسْتَطاعُوا، فَإِنَّ هذا الكتابَ خَيْرُ مَرَبٍّ لِمَلَكَةِ الإنشاءِ.

الشِّعْرُ

«لأَحَدِ الأُدَباءِ المُعاصِرِين»[١]

كَتَبَ إِلَيَّ كاتِبٌ يَقُولُ: عَرَفْناكَ قَبْلَ اليَوْمِ شاعِراً مَا تَكْتُبُ فِقْرَةً، ثُمَّ رَأَيْنَاكَ بَعْدَ ذَلِكَ كاتِباً ما تَنْظِمُ شَطْرَةً، فَلِمَ لَمْ تَكْتُبْ في عَهْدِكَ الأَوَّلِ، وَلِمَ لَمْ تَشْعُرْ في عَهْدِكَ الثَّانِي؟

كَأَنَّما ظَنَّ عافاهُ ٱللَّهُ أَنِّي أَكْتُبُ اليَوْمَ بِقَلمٍ غَيْرَ قَلَمِ الأَمْسِ، أَوْ أَهِيمُ في وَادٍ غَيْرَ ذَلِكَ الوَادِي، وَهَلِ الشِّعْرُ

---

(١) [هو مصطفى لطفي المنفلوطي نفسه، راجع كتابه «النظرات»، الجزء الثاني، الصفحة: ٢٩٤].

إلاَّ نُثارَةٌ[١] مِنَ الدُّرِّ يَنْظِمُها النَّاظِمُ إنْ شاءَ شِعْراً، وَيَنْثُرُها الكاتِبُ إنْ شاءَ نَثْراً، أَوْ نَغْمَةٌ مِنْ نَغماتِ المُوسيقى يَسْمَعُها السَّامِعُ مَرَّةً مِنْ أفواهِ البلابِلِ وَالحمائِمِ، وَأُخْرَىٰ مِنْ أَوْتارِ العِيدانِ وَالمَزاهِرِ، أَوْ عالَمٌ مِنْ عَوالِمِ الخيالِ يَطيرُ فيهِ الطائِرُ بقادِمَتَيْنِ[٢] مِنْ عَرُوضٍ وَقافِيَةٍ، أَوْ خَافِيَتَيْنِ[٣] مِنْ فِقَرٍ وَأَسْجاعٍ.

الكاتِبُ الخَيَالِيُّ شاعِرٌ بلا قافِيَةٍ وَلاَ بَحْرٍ، وَما القافِيَةُ وَالبَحْرُ إلاَّ أَلْوانٌ وَأَصْباغٌ تَعْرِضُ لِلْكلامِ فِيما يَعْرِضُ لَهُ مِنْ شُؤونِهِ وَأَطْوارِهِ وَلا علاقَةَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ جَوْهَرِهِ وَحَقِيقَتِهِ؛ وَلَوْلاَ أَنَّ غَرِيزَةً في النَّفْسِ أنْ يُرَدِّدَ القائِلُ ما يقولُ، وَيَتَغَنَّى بِما يُرَدِّدُ تَرْوِيحاً عَنْ نَفْسِهِ وَتَطْرِيباً لِعاطِفَتِهِ ما نَظَمَ نَاظِمٌ شِعْراً، ولاَ رَوَىٰ عَرُوضِيٌّ بَحْراً.

مَا كانَ العَرَبِيُّ في مَبْدَإِ عَهْدِهِ يَنْظِمُ الشِّعْرَ وَلاَ يَعْرِفُ ما قَوافِيهِ وَأَعارِيضُهُ، وَما عِلَلُهُ وَزِحافاتُهُ، وَلَكِنَّهُ سَمِعَ أَصْواتَ النَّواعِيرِ، وحَفِيفَ أَوْراقِ الأَشْجارِ، وخَرِيرَ

---

(١) النُّثَارَةُ: ما تَنَاثَرَ مِنَ الشَّيء.

(٢) القادِمَةُ، مُفْرَدُ قَوادِمٍ، وهي: عشر رِيشات في مقدَّمِ جنَاح الطائر.

(٣) الخوافي: ريشات، إذا ضم الطائر جناحيه اختَفَتْ.

الماءِ، وَبُكَاءَ الحَمائِمِ، فَلَذَّ لَهُ صَوْتُ تِلْكَ الطَّبِيعَةِ المُتَرَنِّمَة، وَلذَّ لَهُ أنْ يَبْكِي لِبُكائِها، وَيَنشِجَ لِنَشِيجها، وَأنْ يَكُونَ صَداها الحاكِي لِرَنَّاتِها وَنَغماتِها، فَإِذا هو يَنْظِمُ الشِّعْرَ مِنْ حَيْثُ لا يَفْهَمُ مِنْهُ إلاَّ أنَّهُ ذَلِكَ الخَيالُ السَّارِي المُتَمَثِّلُ في قَرِيحَتِهِ المُتَرَدِّدُ بين شِدْقَيْهِ. وَلا مِنْ أوْزانِهِ وَضُرُوبِهِ إلاَّ أنَّها صُورَةٌ مِنْ صُوَرِهِ، وَلَوْنٌ مِنْ ألْوانِهِ.

ذَلِكَ مُنْتَهَىٰ نَظَرِ العَرَبِيِّ إلىٰ الشِّعْرِ، وَذَلِكَ ما دَعاهُ إلىٰ أنْ يُسَمِّيَ النَّبِيَّ الَّذِي بَعَثَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ شاعِراً، وَهُوَ يَعْلَمُ كما يَعْلَمُ غَيْرُهُ مِنَ النَّاسِ أنَّهُ ما قَصَدَ في حَياتِهِ قَصِيدَةً، وَلاَ رَجَزَ أرْجُوزَةً، وَلٰكِنَّهُ سَمِعَ مِنْ كِتابِ اللَّهِ وَآياتِهِ المُفَصَّلاتِ أبْلَغَ الكَلامِ وَأفْصَحَهُ، وَأعْلَقَهُ بِالنُّفُوسِ، وَآخَذَهُ بالألْبَابِ، وَأمْلَكَهُ للعَوَاطِفِ وَالوِجداناتِ، وَأجْمَعَهُ لِصُنُوفِ التَّشْبِيهاتِ البَدِيعَةِ، وَالاسْتِعاراتِ الدَّقِيقَةِ، وَالمجازاتِ الرَّائِعَةِ، وَالكناياتِ المُسْتَطْرَفَةِ، وَأمثالِ تيكَ ممَّا لا يَنْطِقُ بِهِ الناطِقُ في أكْثَرِ منازِعِهِ ومناحِيه إلاَّ عِنْدَ ذَهابِهِ مَذْهَبَ الخيالِ الشِّعْرِيِّ، فَشُبِّهَ لَهُ، فَسَمَّىٰ مَا سَمِعَهُ شِعْراً، وَسَمَّى النَّاطِقَ بِهِ شاعِراً، وَما هُوَ بشاعِرٍ ولا ساحِرٍ، ولا كاهِنٍ ولا مَجْنُونٍ.

ما كُلُّ موزونٍ شِعْراً، وَلا كُلُّ ناظِمٍ شاعراً، فَالوَزْنُ

مَلَكَةٌ تَعْلَقُ بِالنَّفْسِ مِنْ طُولِ تَرْديدِ المَنْظُومِ وَالتَّغَنِّي بِهِ مُقَطَّعاً تَقْطِيعاً يوازِنُ تفاعِيلَهُ، فهو نَغْمَةٌ مُوسِيقِيَّةٌ، وَلَحْنٌ خاصٌّ من ألحانِ الغناءِ، يَتَمَثَّلُ في قَوْلِ المَلِكِ الضِّلِّيلِ(١) [من الطويل]:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَىٰ حَبِيْبٍ وَمَنْزِلِ

كما يَتَمَثَّلُ في قَوْلِ الخَلِيلِ:

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن

وَيَتَرَاءَى في أَوْتارِ الحَلْقِ الناطِقِ، كما يَتَراءَىٰ في أَوْتارِ العُودِ الصامِتِ.

أَمَّا الشِّعْرُ، فَأَمْرٌ وَراءَ الأَنْغَامِ وَالأَوْزَانِ، وَما النَّظْمُ بالإِضافة إِلَيْهِ إِلا كَالحَلْي في جِيدِ الغانِيَةِ الحَسْناءِ، أَوِ الوَشْيِ في ثَوْبِ الدِّيباجِ المُعْلَمِ، فكَما أَنّ الغانِيَةَ لا يَحْزُنْها عَطَلُ جِيدِها، وَالدِّيباجَ لا يُزْري به أَنَّهُ غَيْرُ مُعْلَمٍ، كَذَلِكَ الشِّعْرُ لا يَذْهَبُ بِحُسْنِهِ وَرُوائِهِ أَنَّهُ غَيْرُ مَنْظُومٍ ولا موزون.

ذلِكَ هُوَ الفَرْقُ بَيْنَ الشِّعْرِ وَالنَّظْمِ، وها أَنْتَ تَرَىٰ أَنْ لا صِلَةَ بَيْنَهُمَا إِلاّ تلكَ الصِّلَةُ الاصْطِلاحِيَّةُ التي لا سَبَبَ لها إِلاّ ٱعْتِيادُ النَّاسِ أَنَّهُمْ يَنْظِمُونَ ما يَشْعُرونَ،

---

(١) هو لَقَبُ ٱمرئِ القَيْسِ.

وَتِلْكَ الصِّلَةُ هي الَّتِي خَلَطَتْ بَيْنَهُما، وَعَمَّتْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ أَمْرَهُما، وَهِيَ الَّتِي أَدْخَلَتِ النَّظَّامِيْنِ في عِدادِ الشُّعراءِ وَأَلْقَتْ عَلَيْهِمْ جَمِيعاً رِداءً واحِداً لا يُسْتَطاعُ مَعَهُ التَّمْييزُ بَيْنَهما إلاَّ لِلْقَلِيلِ من الناقِدِينَ المُسْتَبْصِرِينَ، فَأَصْبَحْنا نَقْرَأُ لِبَعْضِ المُعاصِرِينَ القصيدةَ ذات المِئَةِ بَيْتٍ فلا نَجِدُ بَيْتاً، وَنَتَصَفَّحُ الدِّيوانَ ذا المِئَةِ قَصِيدَةٍ، فلا نَعْثُرُ بِقَصِيدَةٍ، وَأَصْبَحْنا لا نَكادُ نَجِدُ بَيْنَنَا قَارِئاً غَيْرَ شاعِرٍ، لأَنَّهُ لا يوجَدُ في النَّاسِ شَخْصٌ واحِدٌ يُعْجِزُهُ تَصَوُّرُ تِلْكَ النَّغْمَةِ العَرُوضِيَّةِ وَتَصْوِيرُها حَتَّى العامَّةِ وَالأُمِّيِّينَ.

وَلَقَدْ كَتَبَ الكاتِبونَ في تَعْرِيفِ الشِّعْرِ وَافْتَنُّوا في ذَلِكَ ٱفْتِناناً بَعُدَ بِهِ عَنْ مكانِهِ، وَعِنْدِي أَنْ أَفْضَلَ تَعْرِيفٍ له أَنَّهُ (تَصْوِيرٌ ناطِقٌ) لأَنَّ قاعِدَةَ الشِّعْرُ المُطَّرِدَةَ هي التَّأْثِيرُ، وَمِيزانَ جُودَتِهِ ما يَتْرُكُ في النَّفْسِ مِنَ الأَثَرِ، وَسِرّ ذَلِكَ التَّأْثِيرِ أَنَّ الشَّاعِرَ يَتَمَكَّنُ ببراعَةِ أُسْلُوبِهِ، وَقُوَّةِ خيالِهِ، وَدِقَّةِ مَسْلَكِهِ، وَسَعَةِ حِيلَتِهِ، مِنْ هَتْكِ ذَلِكَ السِّتارِ المُسْبَلِ دُونَ قَلْبِهِ وَتَصْوِيرِ ما في نَفْسِهِ للسّامِعِ تَصْوِيراً يكادُ يَراهُ بِعَيْنِهِ وَيَلْمَسُهُ بِبَنَانِهِ، فَيُصْبِحُ شَرِيكَهُ في حِسِّهِ وَوِجْدانِهِ، يَبْكِي لِبُكائِه، وَيَضْحَكُ لِضِحْكِهِ، وَيَغْضَبُ لِغَضَبِهِ، وَيَطْرَبُ لِطَرَبِهِ، وَيَطِيرُ مَعَهُ في ذَلِكَ الفَضاءِ الواسِعِ مِن الخيالِ،

فَيَرَىٰ الطبيعَةَ بِأَرْضِها، وَسَمائِها، وَشُمُوسِها، وَأَقْمارِها،وَرِياضِها، وأَزْهارِهَا، وَسُهولِها وَجِبالها، وصادِحِها وبَاغِمِها[١]، وَناطِقِها وَصامِتِها، مِنْ حَيْثُ لا يَنْقُلُ إلىٰ ذَلِكَ قَدَماً، وَلا يُلاقِي في سَبِيلِهِ نَصَباً؛ فَإِنْ سَمِعَ قَوْلَ القائِلِ [من الوافر]:

وَقانَا لَفْحَةَ الرَّمْضاءِ وَادٍ
سَقَاهُ مُضاعَفُ الغَيْثِ العَمِيمِ
نَزَلْنَا دَوْحَهُ فَحَنَا عَلَيْنا
حُنُوَّ المُرْضِعاتِ عَلَىٰ الْفَطِيمِ
وَأَرْشَفَنَا عَلَىٰ ظَمَأٍ زُلالاً
أَلَذَّ مِنَ المُدَامَةِ لِلنَّدِيمِ
يَصُدُّ الشَّمْسَ أَنَّىٰ وَاجَهَتْنَا
فَيَحْجُبُهَا وَيَأْذَنُ لِلنَّسِيمِ
يَرُوعُ حَصاهُ حَالِيَةَ[٢] العَذَارَىٰ
فَتَلْمَسُ جانِبَ العِقْدِ النَّظِيمِ

---

(١) يقال: بغم الغزال، إِذَا صَوَّتَ بأرْخَمِ صَوْتِهِ، فهو باغِمٌ.

(٢) الحالية: لابسة الحُلِيّ.

خُيِّلَ لَهُ أَنَّهُ يَخْطُرُ في ذَلِكَ الرَّوْضِ البَلِيلِ بَيْنَ أَنْوارِهِ وَأَزْهارِهِ، خَطَرانَ النَّسِيمِ بَيْنَ ظِلالِهِ وَأَشْجارِهِ، وَأَنَّهُ يَرَىٰ بِعَيْنِهِ أُولَئِكَ العَذَارَىٰ السَّانِحاتِ وَقَدْ رَاعَهُنَّ مَنْظَرُ الحَصْبَاءِ اللامِعُ فَوْقَ تِلْكَ الدِّيباجَةِ الخَضْرَاءِ فَتَوَلَّهْنَ وَفَزِعْنَ إِلىٰ جَوانِبِ عُقُودِهِنَّ يَلْمَسْنَها بِأَطْرافِ بَنَانِهِنَّ يَحْسَبْنَ أَنْ قَدْ وَهَتْ فَانْتَثَرتْ جَوَاهِرُهَا في ذَلِكَ الرَّوْضِ الأَرِيضِ.

وَإِنْ سَمِعَ قَوْلَ الآخَرِ [من الطويل]:

وَدَارِ نَـدَامَـىٰ عَـطَّـلُـوهـا وَأَدْلَـجُـوا
بِـهَـا أَثَـرٌ مِـنْـهُـمْ جَـدِيـدٌ وَدَارِسُ

حَبَسْتُ بِها صَحْبِي وَجَمَّعْتُ شَمْلَهُمْ
وَإِنِّـي عَـلَـىٰ أَمْـثَـالِ تِـلْـكَ لَـحَـابِـسُ

أَقَـمْـنَـا بِـهَـا يَـوْمـاً وَيَـوْمـاً وَثـالِـثـاً
وَيَـوْمـاً لَـهُ يَـوْمَ الـتَّـرَحُّـلِ خَـامِـسُ

تُـدَارُ عَـلَـيْـنَـا الـرَّاحُ فـي عَـسْـجَـدِيَّـةٍ
حَـبَـتْـهـا بِـأَنْـواعِ الـتَّـصَـاوِيـرِ فَـارِسُ

قَـرَارَتُـهـا كِـسْـرَىٰ وَفِـي جَـنَـبَـاتِـهـا
مَـهـاً تُـدَّرِيـهـا[1] بِـالـقِـسِـيِّ الـفَـوارِسُ

(١) أَدَّرىٰ الصَّيْدَ: خَتَلَه.

فَـلِـلـرَّاحِ مَـا زُرَّتْ عَـلَـيْـهِ جُـيُـوبُـهَـا

وَلِـلْـمَـاءِ مَـا دَارَتْ عَـلَـيْـهِ الـقَـلانِـسُ

تَمَثَّلَ لَهُ كَأَنَّهُ مَرَّ في ضاحِيَةٍ مِنْ ضَوَاحِي بَغْدادَ بِدَارٍ مُوْحِشَةٍ فَسَمِعَ فِيها أَصْواتَ قَوْم يَلْهُونَ وَيَقْصِفُونَ[١]، وَيَقْرَعُونَ الكُؤُوسَ بِأَمْثالِها، فَٱقْتَرَبَ مِنْها، وَأَطَلَّ مِنْ خَصاصِ[٢] بَابِها، فَرَأَىٰ أُولَئِكَ القَوْمَ مُجْتَمِعِينَ حَوْلَ دَنٍّ مِنَ الخَمْرِ قَدْ تكامَلَ سِنُّهُ، وَشَيَّبَ الدَّهْرُ فَوْدَيْهِ[٣]، فَفَصَدُوهُ، فَسَالَ دَمُهُ الأَحْمَرُ في كُؤُوسٍ مِنَ الذَّهَبِ مَنْقُوشَةٍ نُقُوشاً فارِسِيَّةً قَدِ اسْتَقَرَّتْ في قَرَارَتِهَا صُورَةُ كِسْرَىٰ فارِسَ وَدَارَتْ في باطِنِهَا صُوَرُ فُرْسانِهِ مُتَنَكِّبِي قِسِيِّهِمْ كَأَنَّمَا يُطَارِدُونَ بَقَرَ الوَحْشِ أَمامَهُمْ وَرَآهُمْ يَمْلَؤُونَ الكُؤُوسَ إِلىٰ ما يُوازِي أَعْنَاقَ تِلْكِ الفُرْسانِ، ثُمَّ يَمْزُجُونَها بِالماءِ إِلىٰ ما يُغَطِّي رُؤُوسَهم، فَتَسَلَّلَ مِنْ مَكانِهِ مُغْتَبِطاً بِمَجْمَعِهِمْ، وَبِمَا هُيِّيءَ لَهُمْ مِنَ الهَنَاءِ وَالنِّعْمَةِ فِيهِ، ثُمَّ مَرَّ بِتِلْكَ الدَّارِ بَعْدَ أَيَّامٍ فَرَآها مَقْفِرَةً مِنْ أَهْلِها لا تُسْمَعُ بِها

(١) قصف: أقام في أكْلٍ وشُرْبٍ ولَهْوٍ.

(٢) الخصاص: كل خَلَلٍ وخَرْقٍ في بابٍ أوْ غيره.

(٣) الفودان: ناحِيتا الرَّأْس.

نَغْمَةٌ ولا نَأْمَةٌ[١]، فَدَخَلَهَا، فَلَمْ يَرَ فِيها إلاَّ أَعْوَادَ رَيْحانٍ قَدْ يَبِسَ أَكْثَرُهَا، مُبَعْثَرَةً في جوانِبِها، وَخُطوطاً كانَتْ رَسَمَتْها زِقاقُ الخَمْرِ فَوْقَ تُرْبَتِها في غُدُوِّها وَرَوَاحِها بَيْنَ أُولَئِكَ النُّدَماءِ، فَٱنْصَرَفَ حَزيناً مُكْتَئِباً يَسْمَعُ صَفِيرَ الرِّيحِ الضّارِبِ في جَوَانِبِها، فَيُرَدِّدُ قَوْلَ القائِلِ [من الرمل]:

رُبَّ رَكْبٍ قَدْ أَنَاخُوا حَوْلَنَا
يَشْرَبُونَ الخَمْرَ بِالمَاءِ الزُّلاَلِ
عَصَفَ الدَّهْرُ بِهِمْ فَانْقَرَضُوا
وَكَذَاكَ الدَّهْرُ حَالاً بَعْدَ حَالِ

وَإنْ سَمِعَ قَوْلَ الآخَرِ [من الطويل]:

وَيَوْمٍ كَتَنُّورِ الإِماءِ سَجَرْنَهُ[٢]
وَأَوْقَدْنَ فِيهِ الجَزْلَ حَتَّىٰ تَضَرَّمَا
رَمَيْتُ بِنَفْسِي في أَجِيجِ سَمُومِهِ
وَبِالْعِيسِ حَتَّىٰ بَضَّ مِنْخَرُهَا دَمَا

شَعَرَ كأَنَّ لَهِيبَ تِلْكَ الهاجِرَةِ يَهُبُّ في وَجْهِهِ فَيُشِيحُ

---

(١) النَأْمَةُ: النَغمة والصوت.

(٢) سَجَر الرجل التنورَ: ملأه وقوداً.

بِوَجْهِهِ عَنْهُ فِراراً مِنْ لَفَحاتِهِ، وَيَكَادُ يَبْكِي رَحْمَةً لِذَلِكَ الشَّبَحِ المَصْهُورِ الَّذِي مَلَكَتْ عَلَيْهِ تِلْكَ التَّنُوفَةُ الحَمْرَاءُ سَبِيلَهُ، وَحالَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ، فَلا هُوَ بِصَابِرٍ إنْ رَامَ صَبْراً، وَلا بِنَاجٍ إنّ أَرادَ نَجاءً.

وَإِنْ سَمِعَ قَوْلَ الآخَرِ [من المنسرح]:

وَارْحمَتَا لِلْغَرِيبِ في البَلَدِ النْـ
ـنَازِحِ مَاذَا بِنَفْسِهِ صَنَعَا
فَارَقَ أَحْبَابَهُ فَمَا ٱنْتَفَعُوا
بِالعَيْشِ مِنْ بَعْدِهِ وَلا ٱنْتَفَعَا

هَمَلَتْ عَيْناهُ وَجْداً علىٰ ذَلِكَ الغَرِيبِ الحائِرِ، وَتَمَنَّىٰ أَنْ لَوْ رَآهُ في بَعْضِ مَذاهِبِهِ فَعَطَفَ عَلَيْهِ، وَآنَسَ وَحْشَتَه، وَخَفَّضَ لَوْعَتَهُ؛ ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِهِ، فَأَنْزَلَهُ مِنْ نَفْسِهِ مَنْزِلاً كَرِيماً، وَأَبْدَلَهُ أَهْلاً بِأَهْلٍ وَجِيراناً بِجِيرَانٍ.

وَإِنْ سَمِعَ قَوْلَ الآخَرِ [من الطويل]:

وَإِنَّ الَّذِي وَبَيْنَ بَنِي أَبِي
وَبَيْنَ بَنِي عَمِّي لِمُخْتَلِفٌ جِدًّا
فَإِنْ أَكَلُوا لَحْمِي وَفَرْتُ لُحومَهُمْ
وَإِنْ هَدَمُوا مَجْدِي بَنَيْتُ لَهُمْ مَجْدَا

وَإِنْ ضَيَّعُوا غَيْبِي حَفِظْتُ غُيُوبَهُمْ
وَإِنْ هُمْ هَوَوْا غَيِّي هَوَيْتُ لَهُمْ رُشْدَا
وَإِنْ زَجَرُوا طَيْراً بِنَحْسٍ تَمُرُّ بِي
زَجَرْتُ لَهُمْ طَيْراً تَمُرُّ بِهِمْ سَعْدَا
ولاَ أَحْمِلُ الحِقْدَ القَدِيمَ عَلَيْهِمُ
وَلَيْسَ رَئِيسُ القَوْمِ مَنْ يَحْمِلُ الحِقْدَا
لَهُمْ جُلُّ مَالِي إِنْ تَتَابَعَ لي غِنًىٰ
وَإِنْ قَلَّ مَالِي لَمْ أُكَلِّفْهُمْ رِفْدَا
وَإِنِّيَ لَعَبْدُ الضَّيْفِ مَا دَامَ ثَاوِياً
وَمَا شِيمَةٌ لِي غَيْرُهَا تُشْبِهُ العَبْدا

أَكْبَرَ تِلْكَ المَكْرُمَةَ العَظِيمَةَ وَأَجَلَّها، وَنَظَرَ إِلَيْهَا في عَلْيَاءِ سَمَائِها كَمَا يَنْظُرُ الفَلَكِيُّ إِلىٰ كَوْكَبِهِ، وَشَعَرَ كَأَنَّ نُورَها قَدْ لَمَعَ فَٱمْتَدَّ شُعاعُهُ إِلىٰ جوانِبِ نَفْسِهِ فَأَضَاءَها.

وَلاَ غَرْوَ أَنْ يَبْلُغَ الشِّعْرُ مِنْ نَفْسِهِ هَذَا المَبْلَغَ، فَلَطَالما كانَ لِلشِّعْرِ السُّلْطانُ الأَكْبَرُ عَلَىٰ النُّفُوسِ العَظِيمَةِ، فَقَدْ نَكَبَ الرَّشِيدُ البَرَامِكَةَ عِنْدَمَا دَسَّ لَهُ أَعْدَاؤُهُمْ ذَلِكَ المُغَنِّي الَّذِي غَنَّاهُ هَذَا الصَّوْتَ [من الرمل]:

لَـيْـتَ هِـنْـداً أَنْـجَـزَتْـنَـا مَـا تَـعِـدُ
وَشَـفَـتْ أَنْـفُـسَـنَـا مِـمَّـا تَـجِـدُ

وَٱسْـتَـبَـدَّتْ مَـرَّةً وَاحِـدَةً
إِنَّـمَـا الـعَـاجِـزُ مَـنْ لا يَـسْـتَـبِـدُّ

وَأَمَرَ السَّفَّاحُ بِقَتْلِ وُجوهِ بَني أُمَيَّةَ بَعْدَ مَا قَرَّبَهُمْ وَأَدْنَاهُمْ عِنْدَما دَخَلَ عَليهِ سَديفُ مَولاه وأغْراهُ بِهِمْ في قَوْلِهِ [من الخفيف]:

لا تُـقِـيـلَـنَّ عَـبْـدَ شَـمْـسٍ عِـثَـارَا
وَٱقْـطَـعَـنْ كُـلَّ رَقْـلَـةٍ[1] وَغِـرَاسِ

أَنْـزِلُـوهـا بِـحَـيْـثُ أَنْـزَلَـهَـا ٱلـلّـ
ـهُ بِـدَارِ الـهَـوَانِ وَالإِتْـعَـاسِ

خَـوْفُـهُـمْ أَظْـهَـرَ الـتَّـوَدُّدَ فِـيـهِـمْ
وَبِـهِـمْ مِـنْـكُـمْ كَـحَـرِّ الـمَـوَاسِـي

أَقْـصِـهِـمْ أَيُّـهَـا الـخَـلِـيـفَـةُ وَٱحْـسِـمْ
عَـنْـكَ بِـالـسَّـيْـفِ شَـأْفَـةَ الإِرْجَـاسِ

---

(١) الرقلَة: النَّخلة الطويلة التي تفوتُ اليد.

فَـلَـقَـدْ سَـاءَنِـي وَسَـاءَ سِـوَائِـي
قُـرْبُـهُـمْ مِـنْ نَـمـارِقٍ وَكَـرَاسِـي

بَلْ عَطَفَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ عَلَىٰ الحُطَيْئَةِ وَأَطْلَقَهُ مِنْ سِجْنِهِ حِينَ سَمِعَهُ يَقُولُ [من البسيط]:

مَـاذَا تَـقُـولُ لِأَفْـرَاخٍ بِـذِي مَـرَخٍ
حُـمْـرِ الـحَـوَاصِـلِ لا مَـاءٌ وَلاَ شَـجَـرُ
أَلْقَيْتَ كاسِبَهُمْ في قَعْرِ مُظْلِمَةٍ
فَٱغْفِرْ عَلَيْكَ سَلامُ ٱللَّهِ يَا عُمَرُ

بَلْ سَمِعَ النَّبِيُّ صلَّىٰ اللَّهُ عَليهِ وَسَلَّمَ قَوْلَ قَتِيلَةَ بِنْتِ الحارِثِ تعاتِبُهُ في قَتْلِهِ أَخاها النَّضْرَ بْنَ الحارِثِ على رَحِمِهِ مِنْهُ وَاتِّصالِ نَسَبِهِ بِهِ [من الكامل]:

أَمُـحَـمَّـدٌ يَـا خَـيْـرَ صِـنْـوِ كَـرِيـمَـةٍ
فِـي قَـوْمِـهَـا وَالْـفَـحْـلُ فَـحْـلٌ مُـعْـرِقُ
مَـا كَـانَ ضَـرَّكَ لَـوْ مَـنَـنْـتَ وَرُبَّـمَـا
مَـنَّ الـفَـتَـىٰ وَهُـوَ الـمَـغِـيظُ الـمُـحْـنَـقُ
والـنَّـضْـرُ أَقْـرَبُ مَـنْ أَصَـبْـتَ وَسِـيَـلَـةً
وَأَحَـقُّـهُـمْ إِنْ كَـانَ عِـتْـقٌ يُـعْـتَـقُ

ظَلَّتْ سُيُوفُ بَنِي أَبِيهِ تَنُوشُهُ
لِلَّهِ أَرْحامٌ هُناكَ تَشَقَّقُ

فَبَكَىٰ، وَقَالَ وَهُوَ مَنْ لا ظِنَّةَ[1] في عَدْلِهِ، ولا رِيبةَ في حُكْمِهِ: «لَوْ سَمِعْتُها قَبْلَ اليَوْمِ ما قَتَلْتُهُ».

لا مُؤَثِّرَ في نَفْسِ الإِنسانِ غَيْرُ الشِّعْرِ، وَمَا خَضَعَ الإِنْسانُ لِشَيْءٍ في جَميع أَدْوارِ حياتِهِ إلا لِلشِّعْرِ، وَلِلشِّعْرِ الفَضْلُ الأَوَّلُ في نُبوغِ الإِنسانِ وَٱرْتِقائِه، وَبُلوغِهِ هذا المَبْلَغَ مِنَ الكَمالِ، وَلَقَدْ أَحبَّ الإِنسانُ الشِّعْرَ ناطِقاً وَصامِتاً، أَمَّا الشِّعْرُ النَّاطِقُ فَقَدْ عَرَفْتَهُ، وَأَمَّا الشِّعْرُ الصَّامِتُ فَهَذِهِ التَّماثِيلُ الَّتِي يُرادُ بِنَصْبِهَا تَمْثِيلُ حَياةِ عُظماءِ الرِّجالِ بَعْدَ مَماتِهِمْ شِعْرٌ، وَهَذِهِ النَّغَماتُ المُوسِيقِيَّةُ الَّتي تُصَوِّرُ خواطِرَ القُلوبِ ووِجْداناتِها فَتَهِيجُ عاطِفَةَ الحُبِّ في نَفْس العاشِقِ وعاطِفَةَ الحماسَةِ في نَفْسِ الجُنْدِيِّ شِعْرٌ، وَهَدِيرُ الأَمْواجِ شِعْرٌ، لِأَنَّهُ يُمَثِّلُ عَظَمَةَ الجبَّارِينَ، وظلامُ اللَّيْلِ شِعْرٌ، لأَنَّهُ يُطْلِقُ دُموعَ الباكِينَ، وَحَفِيفُ أَوْرَاقِ الأَشْجَارِ شِعْرٌ، لأَنَّهُ يُمَثِّلُ المُنَاجاةَ في مَواقِفِ العُشَّاقِ، وَبُكاءُ الحَمائِمِ شِعْرٌ، لأَنَّهُ يُمَثِّلُ فَجْعَةَ البَيْنِ وَلَوْعَةَ الفِراقِ.

---

(١) الظِنَّة: التُّهمة.

تِلْكَ النَّغماتُ الشِّعْرِيَّةُ الَّتِي نَسْمَعُها مِنْ فَمِ الإِنْسانِ مَرَّةً، وَفَمِ الطَّبيعَةِ أُخْرَىٰ، هيَ الَّتِي زَخْرَفَتْ لَنَا هَذِهِ الحياةَ، وَأَلْبَسَتْها ذَلِكَ الثَّوْبَ النَّاعِمَ الأَبيَضَ مِنَ السَّعَادَةِ وَالهَنَاءِ حَتَّىٰ أَحْبَبْناها، وَوَلَعْنَا بِهَا، وَحَرَصْنَا عَلَيْهَا، وَأَعَدَدْنَا العُدَدَ لِلْبَقَاءِ فِيها، وَالسُّكُونِ إِلَيْها، فَكَتَبْنا وَدَوَّنّا، وَأَلَّفْنا وَٱخْتَرَعْنا، وَتَعَلَّمْنا فَعَلَّمْنا، وَبَنَيْنَا فشَيَّدْنا، وَغَرَسْنا فَجَنَيْنَا، وَعَمِلْنا فَرَبِحْنا، وَٱجْتَهَدْنا فَأَثْرَيْنَا، وَأَمَّلْنا فَسَعَيْنا، وَسَعَيْنا فَبَلَغْنَا.

فَكانَ الشِّعْرُ سِرَّ هَذِهِ الحَياةِ، وَعِلَّةَ هَذا الوُجودِ، لا تَطِيرُ إِلَيْنا الحقائِقُ إِلاَّ علىٰ جَناحِه، وَلاَ يَطِيبُ لنا العَيْشُ إلاَّ في جِوارِهِ، فَلْنُمَجِّدِ الشُّعراءَ كُلَّ التَّمْجِيدِ، وَلِنُكْبِرْهُمْ كُلَّ الإِكْبارِ، فَهُمْ مَشارِقُ شُمُوسِ الحِكْمَةِ، وَأَفْلاكُ كَواكِبِ العِلْمِ وَالفَضْلِ، وَهُمُ اليَنَابِيعُ الصَّافِيَةُ الَّتِي يَتَرَقْرَقُ مَاؤها، ثُمَّ يَتَسَرَّبُ إِلىٰ الأَفْئِدَةِ وَالقُلُوبِ فَيَمْلَؤُها سعادةً وَهَناءً.

كلمةٌ في التَّغريب[1]

«لحافظ أفندي إبراهيم»

هذا كتابُ «البؤساء»، وهو خَيْرُ ما أُخْرِجَ للناس في هذا العَهْدِ. وضَعَهُ صاحبه وهو بائِسٌ، وعرَّبَهُ معرِّبُهُ وهو

(١) هذه الكلمة هي مقدمة كتاب «البؤساء».

بائِسٌ، فجاء الأصل والتعريبُ كالحسناءِ وخيالِها في المرآةِ، وضَعَهُ نابغَةُ شُعراءِ الغَرْب وهو في مَنْفاه، وعرَّبَهُ كاتب هذه الأسطر وهو في بلواه.

ولولا أنَّني أشْرَبُ بالكأسِ التي كان يَشْرَبُ بها ذلك الرجل العظيم لما وَصَلَ مَبْلَغُ عِلْمِي إلى مَبْلَغِ عِلْمِهِ، ولما سَبَحَ يراعي في قَطْرَةٍ من سُيُولِ قَلَمِه؛ ولو أنَّ لي قَلَماً من أعوادِ أشْجارِ الجَنَّةِ، وصَحيفةً من صُحُف إبراهيم وموسى، وقد تَلقتني البلاغَةُ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ بِفَضْلِها، فَسَمَوْتُ إلىٰ لُبابِ مُصاصِها[١]، وأَخَذْتُ منها حاجَتي؛ لما حَدَّثَتْنِي النَّفْسُ بتَعْرِيبِ ذلك الكتابِ لولا اتحادُنا في الألَم وتشابهُنا في الشقاء.

فلقد كُنْتُ أنْظرُ فيهِ نظرةَ المُنَجِّم في الميقات، واستَوزعُ الله بيانَ تلك المعْجِزات، حتى إذا نَفَذَ الفِكْرُ إلى ما وراء سُطوره، واهْتَدَىٰ الخاطِرُ إلى مكامِنِ حِكَمِهِ، دَعَوْتُ إليَّ أُمَّ اللُّغاتِ، وعَمِلْتُ على التوفيق بين هذه الغَادَةِ الشَّرْقِيَّةِ وتلك الفتاةِ الغَرْبِيّة، وعَمَدْتُ إلى مَدِّ صِلةِ النَّسَبِ بين الغادَتَيْنِ اللَّتَيْن انتهتْ إلَيْهما بلاغَةُ العَرَبِ

(١) مصاص الشيء: خالصه، أو سرُّه.

وبلاغَةُ الإفْرَنْج، فإذا شَمَسَتْ[١] إحداهما، وٱزْوَرَّ جانِبُها، أَغْرَيْتُ بها سلطانَ العَقْلِ، فلا يزالُ بِها يَرُوضُها كما يَرُوضُ الراكِبُ الصَّعْبَةَ حَتَّى تَسْكُنَ إلىٰ أُخْتِها وترتاح إلى جِوارِها. ولم تَزلْ تِلْك حالي أدْخُلُ بَيْنَهُما دخولَ المِرْوَدِ بين الجَفْنِ والجَفْنِ، وأَمْشِي بَيْنَهُما مِشْيَةَ الحكيم في الصُّلْحِ بين القَوْمِ والقَوْمِ، حتَّىٰ ٱئتَلَفَ الذَّوْقان، وامْتَزج الرُّوحان، وضَمَّتْ شَمْسَيْهما طُفَاوَةٌ[٢]، واحتوت بَدْرَيْهِما هالَةٌ، وخَلَعَتِ الأُولَى على الثانِيَةِ جلالَها، وأعارَتْها الثانِيَةُ نضَارَتَهَا وجمالَها، وأصْبَحت تلك المباني الإفْرَنجِيَّة بعد أنْ صَقَلَها اللسانُ المُبين وجَنْدَرَها الذَّوْقُ الشرقيُّ وهي تسْكُنُ في هذه المباني العربية.

ولم يَقَعْ للنَّاطِقِينَ بالضَّادِ حتَّى اليوم شَيْءٌ من مُؤَلَّفاتِ ذلك الحكيم، وَهُمْ أحْوَجُ النَّاسِ إلى معرفَةِ أسْرار الحياةِ والانْتِفاع بمثل ذلك الفِكْرِ الذي كُنْتُ بَيْنَا أراهُ يُسابح الأَجْرامَ في أفْلاكِها، إذا هو يُدارِجُ النِّمالَ في مَدابِّها؛ وبينا أَلْمَحُهُ بين ذِرْوَةِ العِلم وشُرْفَةِ القَصْرِ، إذا هو بَيْنَ قاع البحر وعقيق النهر. فَكَمْ أَفْلَتَ من هَجِيرَةٍ، وَاخْتَبَأَ

---

(١) شَمَس: امتنع وأبىٰ.

(٢) الطفاوة: الدارة حول الشمس أو القمر.

في خَميلَةٍ؛ فمِن تَلَهُّبِ جَمْرَةِ القَيْظِ في صميم القائِلَةِ إلى تَراوُحِ النَّجْمِ في الرَّوْضَةِ، ومِنَ التردُّدِ بين زَفير العاشِق وحُرْقَتِهِ إلى التَّمَشِّي بَيْنَ نَفَسِ الحبيبِ وريقَتِهِ.

ولا يزالُ الكُتَّابُ في كُلِّ أُمَّةٍ يَلْتَمِسون أنْ يُعْقَلَ عَنْهُم ما أُلْهِمُوا أنْ يُدْخِلوهُ في مُؤَلَّفاتِهِمْ من الحِكَم والأَمْثالِ، فَيَصْدَحُونَ عنها الشرورَ بأقلامهم كما يُصْدَحُ[1] المَطَرُ، ويَسْتَهْبِطون الحكمةَ من سمائها فيسكنونها بين سطورهم، وينشدون لذلك الأمثال فينثرونها فيما يتخيَّرونهُ من الأقاصيص التي تَدْعو إلى العِظَةِ وتَصْفَحُ[2] النفوسَ عن ركوب سُبُلِ الغِوايةِ.

ومِنْ تِلْكَ الأقاصيص ذلك الكتاب الذي أعاني تعريبَهُ اليومَ، فلقد قَصَّ علينا صاحِبُهُ أحْسَنَ القَصَصِ، فكان مَثَلُهُ فيهِ كما قال عن نَفْسِهِ، مَثَلَ المَنْجَمِ الذَّهَبِيِّ لا

(١) أخرجها مثلاً، وكان من وساوِس العرب إذا خشوا سقوطَ المَطَرِ أنْ يَعْمَدَ أحَدُهُمْ إلى خَيْمَتِهِ أو عَطْنِهِ فيرسم حَوْلها دائرةً، ويتلو رُقْيَةً يعلمها رجاءَ أنْ يُخْطِىءَ المطرُ في سقوطِهِ ما يكونُ ضِمْنَ تلك الدائرة. وقد كانَتْ هذه الصُّدْحَةُ مما استعان به المتنبي على تأييد دعواه في النُّبُوَّةِ.

(٢) صَفَحَهُ عن حاجته: ردّه.

تَصِلُ الأَيْدِي إلى تِبْرِهِ حتَّىٰ تكاد تُحْصِي ثراه عَدًّا.

وقد خارَ اللَّهُ لي[١] أنْ أُعَرِّبَهُ، فاستعنْته، فأعانَنِي؛ وَاسْتَهْدَيْتُهُ، فهداني؛ وسَلَخْتُ اثني عشر هِلالاً في تعريبِ تلك الصَّفحاتِ التي ترونها اليومَ. وحاوَلْتُ أَنْ أَصِلَ بها تلك الرَّحِمَ التي قَطَعَتْها يَدُ التَّرجَمَةِ التجارية بَيْنَنا وبين أولئك الرجال الذين تَجرَّدُوا لِتَعْرِيبِ أساطير الأَوَلِينَ، فَوَافُوها قسْطَها من الإتقان، وألْبَسُوها من البهجة لباساً تَرْضَاهُ اللُّغَةُ ويَرضاهُ أَبْنَاؤُهَا.

أَرَأَيْتُكَ أَيُّها الناظِرُ في كِتَابِ «كَلِيْلَة ودِمْنَة»؟ أكانَ يَقومُ بِنَفْسِكَ وَأَنْتَ تَذُوقُ حُلْوَ تَركيبِهِ، وَتَسْتَمْرِىءُ لَذَّةَ أُسْلوبِهِ، أنَّ عَبْدَ اللَّهَ بن المُقَفَّع قد عَرَّبَهُ عن الفارِسِيَّةِ لَوْ لَمْ يَصِلْ خَبَرُ ذلك إليك؟ فَسُقياً لتلك الأقلام التي عَرَّبتْ فأعْرَبَتْ؛ وسَطَّرَت فأعْجَبَتْ، وواهاً لهذه اللغة التي أَصْبَحَتْ بين أَعْجَمِيٍّ ينادي بِوَأْدِها، وعَرَبيٍّ يعمل على كَيْدِها.

ومَنْ نَظَرَ في بطونِ تلك الكُتُبِ التي تُتَرْجَمُ اليومَ رأى هذه الغادَةَ الشَّرْقِيَّةَ وهي عَلَى فِرَاشِ مَوْتِهَا تَنْدُبُ

(١) يُقال: خار الله له في الأمر: إذا جعل له فيه خَيْراً.

خِذراً قد ابْتَذَلَتْهُ الأقلام، وسِتْراً قد هَتَكَتْهُ الأوهام؛ وقد فَتَحوا لها في بطونِ هذه الكتب قُبوراً، وخاطوا لها من تلك الصُّحُفِ أكفاناً، وهَيَّؤُوا من هذه الأقلام أعواداً. وما هو إلاَّ أَنْ يُثنّي ذلك الغربيُّ بدَعْوَتِهِ حتى يسرعَ إلى جنازَتِها أهْلُها وذوو قرابَتِها.

اللَّهُمَّ أَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّنا نَعْلَمُ مَوْضِعَ الداءِ وفينا الطبيب الماهر، ونَسْمَعُ ذلك النداءَ ومِنّا المعينُ الناصِر؛ اللَّهُمَّ إنّ هذا خذلان منك فأدْرِكْنا بِرَحْمَتِكَ وهَيِّىء لنا من أمرنا رَشَداً.

أَيكونُ بَيْنَ أبناءِ اللِّسان العربيِّ مِثْلُ من أَرَىٰ اليومَ من فحولِ البلاغة وملوكِ الكلام، وأنا أعْرِفُ من هذه الزُّهور قديمِها وحديثِها غيرَ أسماء معدودات، ولا أكادُ أُجيدُ وصْفَ قَصْرٍ من القُصورِ، أَوْ آلةٍ من الآلات، ومُخْتَرَعٍ من المُخْتَرَعات؛ إلاّ ما وَقَعَ تحتَ نظر العَرَبِ فِي تلك الجزيرة الجرداء، وما سَمَتْ إلَيْهِ حضارَتُهم في عَهْدِ الدولة الأَنْدَلُسِيَّة. أيَّ رَجُلٍ كان صاحبُ كتابِ «البؤساء» وأيُّ غَيْث سقاهُ، وجَوٌّ حواه، حتى أدْخَلَ في لُغَتِهِ من الكلمات ما يخطِئُهُ العدُّ، ووَقَفَ في وجوه المعارضين فيها وِقْفَةَ البُسْفُورِ في وجوه الطامعين في هذه

الدولة حتَّى انْقَلَبُوا عنهُ خاسِرين؟ أَوَ لَيْست رجالُنا بقادِرين على أن يأتوا متساندين بمثل ما أتىٰ بهِ ذلك الرجلُ وهو وحيدٌ؟

تبارَكَتْ أسماؤك اللَّهُمَّ، أَيُدْعَىٰ البعيرُ، وهو ذلك المَرْكَبُ الخشن، بهذه الأسماء التي تضيق عنها بطونُ الكُتُب، وهذه مراكِبُ البخارِ والكَهْرباء لا نكادُ نجدُ لأسْمائِها مُرادِفاً في هذه اللُّغَةِ، فما عسىٰ أنْ تكون حالُنا بجانِبِ ذلك العربيِّ الذي يقولُ في وصْفِ عَيْشِهِ [من الرجز]:

ألأَبْـيَـضَـانِ أَبْـرَدا عِـظَـامِـي
الـمـاءُ وَالـفَـتّ بـلا إدَامِ[1]

وَهُوَ فوق راحِلَةٍ ظالِع[2] على قَتَبٍ يكادُ يُدْمِي عِجانَه[3] تحت شَمْسٍ تكادُ تأْكُلُ ظِلَّهَا في مفَازَةٍ.

---

(١) تقول العرب: الأبيضان عن الماء والفت [أي: الماء والخبز، ويقال أيضاً الأبيضان عن الماء واللبن] والأحمران عن اللحم والخمر.

(٢) ظَلَعَ البعيرُ: غَمَزَ في مِشْيَتِهِ.

(٣) عجان الرجل: ما تحته.

[البسيط]

تَمْشِي الرِّياحُ بِهَا حَيْرَىٰ مُوَلَّهَةً
حَسْرَىٰ تَلُوذُ بِأكْنَافِ الجَلاَمِيدِ

إِذَا أَرَدْتَهُ على أنْ يَصِفَ تلك الراحلة العجفاء فأَرْهَفَ بالقَوْلِ، وَسَرَدَ من الوَصْفِ ما يبلغُ حَدّ الإعجاز؛ وأَرَدْتَنا على أنْ نَصِفَ ونحن نستطيبُ من صُنُوفِ الطَّعام ما يضيقُ بهِ صَدْرُ الخوان، ونَتَبَوَّأُ أريكة «الأُوتومُبِيل» تحت ذَلِكَ الظِلِّ الظَّلِيل، في مَخارِفِ[1] ضِفافِ النِّيل، عَلَىٰ فِرَاشٍ وَثِيرْ؛ ومُتّكَأٍ من حَرِير، بَيْنَ نَسيمٍ عَلِيلٍ، وماءٍ سَلْسَبِيلٍ، ذلك المركبَ الذلول الذي لا تَلْحَقُ بِهِ صافناتُ الخيولِ، فوَقَفْنا أمامَكَ موقِفَ الحائِرِ، لا نعرفُ له ٱسماً يدلُّ على مُسمَّاهُ، ولا مرادِفاً في اللُّغَةِ يؤدِّي مَعْناه.

فَخُذُوا أَيُّها القادِرُونَ على الإصلاح بِيَدِ اللُّغَةِ، وَٱنْظُروا كَمْ أَدْخَلَ فيها آباؤكُمُ الأَوَّلُونَ من كلمة فارسية.

وهذا كتابُ اللَّهِ بين أَيْدِيكُمْ يأْذَنُ لَكُمْ بما نَدْعُوكُمْ إِلَيهِ، وَهَذَا بابُ الاشْتِقاقِ وباب النَّحْتِ لا يزالان بِحَمْدِ اللَّه مفتوحَيْن لم يصبْهما ما أصابَ بابَ الاجتهادِ، فادخلوا مِنْهُما آمنين.

---

(١) جمع مَخْرَفَة، وهي: المُتَنَزَّه.

الشعراء المعاصرون

«لِخَليل مُطْرَان»

إسماعيل باشا صبري (١٢٧٠ ـ ١٣٤١هـ = ١٨٥٤ ـ ١٩٢٣م):

أكثرُ ما يَنْظِمُ فلخَطْرَةٍ تَخْطُرُ على باله، من مثل حادثة يَشْهدها، أو خبرٍ ذي بال يَسْمَعهُ، أو كتاب يُطالِعُهُ.

ولما كانَ لا ينظم للشُّهْرة، بل لمجاراةِ نَفْسِهِ على ما تَدْعُوهُ إِلَيْهِ، فالغالِبُ في أمْرِهِ أَنَّهُ يقولُ الشِّعْرَ مُتَمَشِّياً، وَرُبَّمَا قاله بحضْرَةِ صديقٍ وهو مائلٌ عنهُ بِعُنُقِهِ، وله بَيْنَ حِينٍ وحينٍ أَنَّةٌ بمِثْلِ ما تُنْطَقُ لفظة إيهٍ مسْتطلية.

ينظمُ المعْنَىٰ الذي يعرضُ له في بيتَيْنِ عادةً إلى أربعةٍ إلى سِتَّةٍ، وقَلَّما يزيدَ على هذا القَدْرِ إلاَّ حَيْثُ يَقصِدُ قصيدةً، وهو نادِرٌ.

شدِيدُ النَّقْدِ لِشِعْرِهِ، كثيرُ التَّبْدِيل والتحويل فيهِ، حتى إذا استقام على ما يريدُهُ ذَوْقُهُ من رِقَّةِ اللَّفْظِ وفصاحة الأُسْلوبِ أهمَلَهُ ثم نَسِيَهُ.

وَهَكَذا يمرُّ بِهِ الآن بعد الآن، فيَجيشُ في صَدْرِهِ الشِّعْرُ، فيُرْسِلُ بَيْتَيْهِ إطلاقَ زَوجي الطائِرِ، فيَذْهَبان في

الفضاء ضارِبينَ من أشْطُرِهما بأجنحةٍ مُلْتَمِعَةٍ، شادِيَيْنَ على توقيعِ العروض إلى أن يتواريا ويَنْقَطِعَ نَغَمُهُما من عالَمِ النِّسْيَانِ.

ذلك هو الشِّعْرُ للشِّعْرِ.

أحمد شَوْقِي بك (١٢٨٥ ـ ١٣٥١هـ = ١٨٦٨ ـ ١٩٣٢م):

يَنْظِمُ بين أَصْحابِهِ فَيكونُ مَعَهُم ولَيْسَ مَعَهُمْ، ويَنْظِمُ في المرْكَبَةِ وفي السِّكَّةِ الحديدية وفي المجْتَمَع الرَّسْمِيِّ وحين يشاء وحيث يشاء. ولا يعرفُ جَلِيسُهُ أَنَّهُ يَنْظِمُ إلاَّ إذا سمع منْهُ بادىءَ بَدْءٍ غَمْغَمَةً تُشْبِهُ النَّغَمَ الصادِرَ من غَوْرٍ بَعيدٍ، ثم رأى ناظِرَيْهِ وقَدْ بَرَقا وتواتَرَتْ فِيهما حَرَكَةُ المَحْجِرَيْن، ثم بَصَرَ بهِ وقد رَفَعَ يَدَهُ إلى جَبِينِه وَأَمَرَّها عَلَيْهِ إمْراراً خَفِيفاً هُنَيْهةً بَعْدَ هُنَيْهَةٍ.

فإذا قوطِعَ في خلالِ النَّظْمِ انْتَقَلَ إلى أيِّ بَحْثٍ يباحَثُ فِيهِ، حاضِرَ الذِّهْنِ صافِيَهُ جميلَ البادِرَةِ كعادَتِهِ في الحديثِ.

ثم إذا اسْتَأْنَفَ ذلك المَنْظومَ ولو بَعْدَ أَيَّامٍ طِوالٍ عاد إلَيْهِ كأَنَّهُ لم يَنْقَطِعْ عَنْهُ مسْتَظْهِراً ما تَمَّ مِنْهُ حافِظاً لِبَقِيَّةِ المعنى الذي يُضْمِرُهُ.

يَكْتُبُ القَصِيدةَ بعد تمامِها، ورُبّما تَمَّتْ وَنَسِيهَا شَهْراً، ثم ذَكَرَها، فَكَتَبَها في جَلْسةٍ واحدةٍ.

يَكْلُفُ أحياناً بمعارَضَةِ المُتَقَدِّمين، ولا يَنْدُرُ عليهِ أنْ يَبُزَّهُمْ(١).

لا يُجْهِدُ فِكْرَهُ ولا يكدّهُ في معنىً أوْ في مَبْنَىٰ.

فأمَّا المَعْنَىٰ، فَيَجِيئُهُ على مَرامِهِ أوْ على أبْعَدِ من مَرامِهِ، ولا يَنْضُبُ عندَهُ لأنَّهُ يَسْتَخْلِصُهُ من عَقْلٍ فوَّارِ الذَّكاءِ ومعارِفَ جامعةٍ إلى أفانين الآداب في لُغاتِ الإفرنج والأعْراب فلسفةَ الحُقُوقِ وحَقائقَ التاريخِ وغرائبَ السِّيَرِ التي يَحْفَظُ منها غَيْرَ يَسيرٍ، إلى مشاركاتٍ عِلْمِيَّةٍ وتنبيهاتٍ فَنِّيَّةٍ استفادَها من مطالَعَتِهِ في صنوف الكُتُبِ، وَاتَّخَذَها عن مَلْحوظاتهِ ومَسْمُوعاتهِ في جَوْلاتِهِ بين بلادِ الشَّرْقِ والغَرْبِ.

وأما المَبْنَىٰ، فله فيهِ أذواقٌ مُتَعدِّدَةٌ بتَعدُّدِ مقامات القَوْلِ. ترى فيهِ من نَسْجِ البُحْتُرِيِّ ومن صيَاغةِ أبي تَمّام ومن وَثَباتِ المُتَنَبّي ومن مُفاجآت الشَّرِيفِ ومن مُسَلْسلاتِ مِهْيار.

---

(١) بَزَّهُ: غَلَبَه.

وفي المجموع تَجِدُ صِفةً عامَّةً للنَّظْمِ، وهي أنَّهُ نَظْمُ شَوْقِي.

ذلك شِعْرُ العَبْقريَّةِ والتفوُّقِ.

حافظ إبراهيم = [محمد حافظ بن إبراهيم فهمي المهندس] (١٢٨٧ ـ ١٢٥١هـ = ١٨٧١ ـ ١٩٣٢م)

يقولُ الشِّعْرَ في كلِّ مكانٍ يتَّفِقُ له فيهِ أنْ يَخْلُوَ بِنَفْسِهِ، ومن عادَتِه دخولُ حديقة الأَزْبكيّة بعد الظهر طَلَباً لتلك الخَلْوَةِ، ولا يختلطُ عليهِ الفِكْرُ خلال الضجيج المحيطِ بهِ.

يَتْعَبُ في قَرْضِ قريضِهِ تَعَبَ النحَّاتِ الماهِرِ في استخراج مِثالٍ جميلٍ من حَجَرِهِ.

يُؤْثِرُ الجزالَةَ على الرِّقَّةِ، وله فيها آياتٌ.

يَطْرُقُ الموضوعَ في الغالِبِ من جَوْهَرِهِ، ورُبَّما نَظَمَ أَكثَرَ الأبياتِ قَبْلَ المَطْلِعِ شَأْنَ الصانِعِ القديرِ الذي يَبْدَأ بأَصْعَبِ ما بين يَدَيْهِ آمِناً أنْ تَهِنَ عزيمتُهُ دون الإجادة بعد ذلك، عالِماً أنَّ الكلامَ لا بُدَّ أنْ يَأْتِيَهُ في أيِّ مَقام طَيِّعاً ولو بَعْدَ حِينٍ.

حاضِرُ المَحْفُوظِ من أَفْصَحِ أساليب العَرَبِ، يَنْسِجُ على مِنْوالِها، وَيَتَخَيَّرُ نفائِسَ مُفْرَداتِها وأعلاقَ حُلاها.

إذا صَبَّ البيتَ في قالَب من العَرُوضِ أعادَهُ نَغَماً على سَمْعِهِ مستشيراً بذلك ذَوْقَهُ عَنْ طريقِ أُذنِهِ، وطالما صَدَقَتْهُ الأُذُن بنَصيحَتِها. أمّا تَغَنِّيهُ فَبَدَوِيٌّ، أخَذَهُ عن الشيخ عبد المحْسِن الكاظِمِي، وطريقَتُهُ أنْ يَنطقَ بالكلمات مُلَحَّنَةً تَلْحِيناً ساذَجاً من إطالَةٍ في الحروفِ المُعْتَلَّةِ ورجْفَةٍ في القرار كَرَّةَ أربعة أنفاس وتُقتَضَب.

لَهُ غَرامٌ باللَّفْظِ لا يقلُّ عن الغَرامِ بِالمَعْنَى، وفي أقصىٰ ضَمِيرِهِ يُؤْثِرُ البيتَ المجادَ لَفْظاً على المجادِ مَعْنًى. فإذا فاتَهُ الابتكارُ حِيناً في التصوُّرِ لم يفُتْهُ الابتكارُ في التصويرِ.

أُولِعَ بالاجْتِماعيّات، فقال فيها وأجادَ ما شاءَ.

كبيرُ الآمالِ، عاثِرُ الجَدِّ، تجدُ على أَكْثَر منظومِهِ أَثراً من أَلَم النَّفْسِ أو مِسْحةً من الشَّكْوىٰ، وتحمل بعضُ حروفِهِ من بَثِّهِ ما يلذعُ لَذْعَ النارِ الكامنة في غَيْرِ مُتَّقِدٍ.

فهو على الجملة أحدُ الثلاثة الَّذِين هم نجوم الأدب

العربي في مِصْرَ لهذا العَصْر، ولكلٍّ من تلك النجوم منزلَتُهُ وإضاءتُهُ وأثرُهُ الخالِدُ.

أما شِعْرُهُ فشعر البيان، وإنَّ من البيانِ لَسِحْراً.

محمود باشا سامي البارودي (١٢٥٥ ـ ١٣٢٢هـ = ١٨٣٩ ـ ١٩٠٤م):

أدركْتُهُ وقد عاد من مَنْفاه، وكان أَوَّلُ معرفتي بهِ أنْ زُرْتُهُ مصاحبةً لصديقِهِ ومُريدِهِ الشاعر الناثر محمد بك إبراهيم هلال.

دخَلْنا عليهِ وهو في صَدْرِ مجْلِسِهِ، فحيّانا بذلك اللُّطْفِ الذي كان لا يفارِقُهُ الوقارُ ولا تثبت معهُ الكُلْفَةُ وكانَ لي مَعَهُ بعد ذلكَ وِدٌّ وعَهْدٌ.

واتَّفَقَ أن جِئْتهُ ذاتَ يَوْمٍ وما بيننا ثالث، فتطارَحْنا الشِّعْرَ، وتباحثنا فيهِ، ثم اقْتَرَحْتُ عليهِ بَيْتَيْن يَرْتَجِلُهما، فاستوى يفكر.

اسْتَوىٰ ساكِناً ساجِياً مسْنِداً ظهره إلى الحائط، وفكَّرَ غير مَنْقَبِضِ المُحَيَّا ولا مُعْنَت الملامح، متهللةً سماحةُ وجْهِهِ اللامِعِ بأنوار الزَّوال بين بَلَجِ لِحْيَتَهِ البِيْضَاءِ المُسْتَدِيْرَةِ وقَتَمِ الناظِرَتَيْنِ السَّوْدَاوَيْنِ اللَّتَيْنِ تَحْجُبَانِ عَيْنَيْهِ.

مَرَّتْ بهِ وبي دقيقةٌ وهو مُتَمَكِّنٌ في تأمُّلِهِ وأنا مُسْتَرْسِلٌ مع خاطر أَخْطَرَتْهُ في قلبي رؤيةُ الرَّجُلِ عَلَىٰ هَذِهِ الحَالِ. فَخُيِّلَ لي أنَّني لدىٰ تمثالٍ من تلك التَّمَاثِيلِ التَّي أقامَها صُنَّاعُ اليونانِ لبعضِ المُتَقَدِّمين من حكمائِهِم، وتَبَدَّلَتْ في ذِهْنِي الناظِرتان السَّوْداوانِ بالظِّلَّيْن اللذين يحيطان بالعيون المُطْبَقَةِ في تلك التماثيل.

وعاد إلى وَهْمِي استطراقاً قُوَّةُ ما أبدعوه في تلك الأنصاب حتى أعاروا بإتقانهم أعلام الإنسان بارقةً من بوارِقِ الأُلوهِيَّة.

وبينما أنا مُسْتَغْرِقُ الحواس بتلك الذِّكْرَىٰ، إذْ تحرَّك الرَّجُلُ تحرُّكَ من يعالج مَعْنَى مُسْتَصْعَباً، فتنبَّهْتُ تنبُّهَ دَهْشَةٍ كأنِّي بالتمثال وقد تحرَّكَ.

وفي تلك الوهْلَةِ تصوَّرْتُ لأوَّلِ مرَّةٍ أنَّ الرجل وذَلِكَ رَسْمُهُ وَتِلْكَ بَشَرَتُهُ البَيْضَاءُ لَيْسَ بِعَرَبِيِّ التَّبِعَةِ، وقَضَيْتُ عَجَباً لآيةِ البَيَانِ التَّي تَنْتَفِي عندها فروقُ الأُصول والفُرُوعِ والأمْكِنَةِ والأزْمَانِ.

أما شِعْرُهُ، فهو بِجُمْلَتِهِ صناعَةٌ لا تنافسَ بقديمٍ أو حديثٍ مع ابتكارٍ قليلٍ وإحساسٍ فيّاض.

اختارَ له أَحسَنَ أساليبِ العَرَبِ وأفْصَحَ ألفاظِهِم، وتَغَنَّىٰ بها على وَحْيِ نَفْسِهِ ـ وَنَفْسُهُ جارِيَةُ النَّغْمَةِ وعاشِقَةُ الإيقاعِ ـ فافْتَنَّ حتى أَنْسَىٰ الفَنَّ وجَوَّدَ حتى أَذْهَلَ عن المَعْنَىٰ.

فَمَثَلُ قارِئِهِ مَثَلُ سامِعِ المُنْشِدِ البارِعِ، لا يَبْتَئِسُ حينَ يَلْتَبِسُ عليه فَهْمُ الألفاظِ إذا استمرَّ النَّغَمُ على نظامِهِ واتقانِه، بل يَسْتَمِرّ في طَرَبِهِ وَيَتَرَقَّىٰ فيهِ إلى أنْ يَخْلُقَ لِنَفْسِهِ شُجوناً حيث تفوتُهُ شجونُ الأقوالِ المُنْشَدَةِ.

ذلك كانَ مذْهَبُهُ في الشِّعْرِ، وتلك غايَتُه منهُ. ولا نَنْسَىٰ له فضلاً جَديراً بالذِّكْرِ الخاصِّ، وهو أَنَّهُ أَوَّلُ شعراءِ البِعْثَةِ الحديثةِ، بِمَعْنَىٰ أَنَّهُ أَوَّلُ من رَدّ الديباجَةَ إلى بهائِها وصفائِها القَديمَيْن. وما أبزَّ قريضُهُ لقريضِ جيله، فإنَّكَ لَتَجِدُ الواحدَةَ من قصائِدِهِ ذاهبةً صُعُداً إلى عَهْدِ أرقىٰ أَزْمَنَةِ العَرَبِ، فَهِيَ كالجبالِ الشامِخَةِ وحولها القصائِدُ الأُخَرُ كالأَرْكَانِ المُقامَةِ من حجارة أطلالٍ بلا اختبارٍ ولا نَسَقٍ ولا هِنْدامٍ.

الخلاصَةُ أنَّ المرحومَ الباروديّ كان في الطبقة الأولى بين شعراء العَرَبِ، وكان قَلْبُهُ كَلِفاً بالنَّغْمَةِ، وذِهْنُهُ مُنْصَرِفاً إلى الصناعة، كما يدلُّ علىٰ ذلك مَنْظُومُهُ، وكما

يُشيرُ إليهِ اختيارُهُ من أقوالِ المُتَفَوِّقِين. فإنَّهُ لم يَنْتَقِ منها إلاَّ كلّ ما حَسُنَ لفظاً وَمَعْنًى، أو حَسُنَ لَفْظاً، وأَهْمَلَ ما حَسُنَ بمعناه دُونَ مَبْنَاهُ.

فَشِعْرُهُ إنَّما هو شِعْرُ الصناعة والإيقاع.

الشيخ إبراهيم [بن ناصيف] اليازِجي (١٢٦٣ ـ ١٣٢٤هـ = ١٨٤٧ ـ ١٩٠٦م)

هو أستاذي بعد المرحوم أَخِيهِ الشَّيْخ خَليل. قَرأْتُ عَلَيْهِ أخريات الصُّحُفِ في كتب البيان المُتَداوَلَةِ يومئذٍ في المدرسة البطريركية بِبَيْرُوت، وذلك أنّ أخاهُ كانَ قد أُصِيبَ بالعِلَّة التي ماتَ بها، فحلَّ هُوَ محلَّهُ إلى نهاية تِلْكَ السَّنَةِ التي كَانَتْ آخِرَ عَهْدِي بطَلَبِ العِلْمِ في المدرسة.

راعَنِي الشَّيْخُ بكمالِ سِيرَتِهِ ورجاحَةِ عقْلِهِ وسَعَةِ معارِفِهِ وإحاطَةِ خِبْرَتِهِ بالنَّاسِ، فَلَزِمْتُهُ لزومَ المتأدِّبِ والمُريدِ زَمناً طَوِيلاً، ولا أبالِغُ بقَوْلِي: إنَّهُ إذا كانَ الإنسان في ظاهِرِهِ وباطِنِهِ لا يَخْلُو من العُيوبِ، فَقَدْ كان الشَّيْخُ من أَقلِّ النَّاسِ عُيوباً، بل أقولُ، ولا أبالي عاقبَةَ التَّصْرِيحِ عَلَىٰ سُمْعَتِهِ: إنّ كُلَّ ما تَمَنَّيْتُ عَلَىٰ اللَّهِ أنْ يزيدَهُ في

مناقِبِهِ ومحامِدِهِ هو خَلَّةَ العَفْوَ. فلقد كانَ مُنْتَقِماً لِشَرَفِهِ وشَرَفِ بَيْتِهِ، يَنْتَقِمُ مدافِعاً لا مُبادِئاً، وَإذا ضَرَبَ ضَرَبَ بِتَؤُدَةٍ وتَبَصُّرٍ، ناظراً إلى المقاتِلِ، وقَلَّما تَصدَّىٰ لِخَصْمٍ إلاّ تركَهُ صَرِيعاً أَوْ جَرِيحاً جَرْحاً مُشْفياً[١].

على أَنَّهُ لم يَنْبَرِ مَرَّةٌ لأَحدٍ إلاّ عن عَدْلٍ وحَقٍّ.

كان للشَّيْخِ مَذْهَبٌ عامٌّ في شِعْرِهِ ونَثْرِهِ وسائِرِ ما يَتَولاهُ من الأعمالِ، وهو مَذْهَبُ الإتقان.

لا يَخْلِقُ جَدِيداً، ولكنَّهُ يُتْقِنُ ما يَصْنَعُهُ إلى حَدٍّ أَنَّكَ تَعْزوهُ إِلَيْهِ وتَعْرِفُهُ بطابَعِهِ.

ولِهَذَا لم يَنْظِمْ مُرْتَجِلاً، ولم يَكْتُبْ إلاّ مُحْتَفِلاً[٢].

زُرْتُهُ أحياناً وهو يَصْنَعَ آباء الحروف المطبعية المُتَداوَلَة الآن في مِصْر والشَّامِ، وكان يَنْحِتُها من الفولاذ.

وزُرْتُهُ أيَّاماً وهو يَضْرِبُ العودَ، ويَضَعُ للأنْغام العربية علائِمَ خاصَّةً بها، كالعلائم التي تُقْرأُ بها الأَنْغامُ الإفرنجية.

---

(١) يقال: أشفَىٰ المريضُ على الموت: إذا قاربه.

(٢) احتفل بالأمر: أحسن القيام به.

وَزُرْتُهُ مِراراً وهو قَدْ فَكَّكَ قطع سَاعَتِهِ بَعْضَها من بَعْضٍ لِيُصْلحها، وزُرْتُهُ آوِنَةً يعالِجُ الرَّسْمِ الشَّمْسِيّ وآوِنةً أُخرىٰ يرسُمُ بالقَلَمِ الفَحْمِيِّ صَدِيقاً له.

وزُرْتُهُ في الأكْثَر وهو يَنْظِمُ أو يَنْثُرُ واقِفاً تجاه مِنْضَدَةٍ ـ كذلك كان شَأْنُهُ ـ والصَّحِيفَةُ أمامَهُ على دَرْجٍ مائِلٍ.

ففي كُلِّ هذه الأحْوالِ كُنْتُ أَجِدُهُ على مثالٍ واحِدٍ من شِدَّةِ التَّفكِيرِ والتَّدْبِيرِ وبُطْءِ الحَرَكَةِ وجُمودِ المَحْجِرَيْنِ مع غرابَةِ السُّطوعِ في إنْسانَيْهما، حتَّى لتكاد تُحْسُّ بانْبعَاثِ الأَشِعَّةِ مِنْهُما مُتَجَمِّعَةً.

كانَ أَثْنَاءَ نَظْمِهِ لا يَتَقَلْقَلُ من مكانِهِ لِمُراجَعَةِ كتابٍ وتحقيقِ لَفْظَةٍ، والتَّحْقِيقُ خَلَّةٌ لَمْ تَبْلُغْ من باحِثٍ أوْ عالم مَبْلَغَها منْهُ.

إذا نَظَمَ البيتَ خَطَّهُ ذلك الخَطِّ الجميلِ المَصُوغِ صياغَةَ الجُمانِ الدَّقِيق، وقد يُقَلِّبُ الصحيفَةَ في يَدِهِ كأَنَّهُ يريدُ أَنْ يَرَىٰ في سياقِ البَيْتِ وٱخْتِيارِ مُفرداتِهِ مِثْلَما يراهُ من الجمالِ في رَسْمِ حُرُوفِهِ، وهكذا إلىٰ أنْ يُتِمَّ القَصِيدَةَ.

فإذا أَتَمَّهَا وَاطَّلَعْتَ عَلَيْهَا، رَأَيْتَ فِيها من المتانَةِ، ووَضْعِ الكَلِمِ في مواضِعِها، وفصاحَةِ الأسْلوبِ، وسلامَةِ

التَّرْكِيب، والجَزالة أو الرِّقة كُلٌّ في المكانَةِ اللائِقَةِ لها، وتجافي الضَّرورات، وتوخِّي المسْتَحْسَنِ من المألوفاتِ؛ ما لا تَجِدُ مِثْلَهُ في قصائِدِ غَيْرِهِ، ووَجَدْتَ على الجملَةِ وفي التَّفْصِيل لمعانَ الصَّقْلِ.

وأكْثَرُ مُبْتَكَرِهِ لَفْظِيٌّ، يفاجِئُكَ بالمُفْرَدَةِ التمثيليَّةِ أو بالعبارَةِ التصويرية، فَيُريكَ أَبعَدَ ما يَرْمِي إِلَيْهِ فِكْرُكَ من قَصْدِهِ ويُعْجِبُكَ ويُبْهِرُكَ.

على أَنَّهُ أقلَّ من الشِّعْرِ، لأَنَّ إباءَ نَفْسِهِ حَمَلَهُ مَعَ الأَيَّام على التَّيَّارِ الذي دَفَعَتْهُ فيهِ ابتغاءَ لِرِزْقِهِ، وما كانَ أَعْيَفَهُ لمالٍ لا يُصيبهُ جزاءً وفاقاً لِحَقِّهِ.

وأصْلَحُ تَسْمِيَةٍ عامَّةٍ لِشِعْرِهِ فيما أراه، هي تَسْمِيَتُهُ بِشِعْرِ الإتقان.

السيد [محمد] توفيق [بن علي] البَكْرِي: (١٢٨٧ ـ ١٣٥١هـ = ١٨٧٠ ـ ١٩٣٢م):

شَغِفٌ كَلِفٌ بالغَريبِ من ألفاظ اللغةِ. أَذْكُرُ أَنَّهُ بَعَثَ في صباه إلىٰ أَحَدِ كبراءِ الشام بكتابِ مجامَلَةٍ فحارَ في حَلِّ رُموزِهِ، وجاءَني وَأنا يَوْمَئِذٍ في المَدْرَسةِ يَسْتَعينُ على فَهْمِ ذلك الكتاب، فاسْتَعَنْا كلانا بالمُعْجَم.

وما زالَتْ هذه حالَهُ إِلىٰ الآن، سَواءٌ في نَثْرِهِ وفي شِعْرِهِ. على أنَّ في ذَلِكَ عَجَباً، لأنَّ الشَّيْخَ مِمَّنْ يُشاوِرونَ، ولكن يَغْلِبُ على الظَّنِّ أنَّ ثقاتِهِ الذين يَرْجِعُ إلى رَأْيِهِم من مثل العلامة الكبير الشِّنْقِيطِي قَدِيماً وَسواهُ حَدِيثاً، إنّما هُمْ جَمِيعاً من المشايخ الَّذِين يَمُرُّ بهم العَصْرُ بما فيه من مُعْجزاتِ الماءِ والنارِ والكهرباء والنور، وبما يُفْتِنُ العقولَ ويأخذ بالأَلْباب من كل جميلِ النظام شائِقِ الهِنْدام بديعِ التَّجَزُّؤ والالتئام، كما تَمُرُّ بالبَدَوِي المُقِيمِ في الصحراء خَيالاتُ الجِنِّ وطُمْطمانيتِهم في أضْغاثِ الأحلام.

السَّيِّدُ مُقِلٌّ، يحولُ الحَوْلُ أو الحولان فَيَقْصِدُ قصيدةً، ومن لطائِفِهِ أَنَّهُ رأىٰ يَوْماً عيونَ مَيٍّ في باريسَ، ومَيٌّ علىٰ ما هو معلومٌ ٱسْمُ أعرابية بنتِ أعْرابية إلى قحطانَ من الأسماء التي كان يذكرها شعراء العرب حقيقةً أو عارِيَّةً.

أَمَّا نَظْمُهُ، فَمَتِينٌ، وله فِيهِ نظراتٌ إلى زمانِهِ، لَكِنَّها أَشْبَهُ شَيْءٍ بنظراتٍ مُوَجَّهةٍ من عَهْدِ عَهيدِ[١] إلى عهد جَدِيدٍ.

---

(١) العَهيد: القديم العتيق.

لَيْسَ لَهُ فِكْرٌ عامٌّ ثابتٌ يتَّجِهُ إِلَيْهِ، ولو التفاتاً في أكْثَرِ ما يَنْظِمُهُ كما يَلْتَفِتُ حافِظٌ إلىٰ اجْتِماعيّاتهِ وشَوْقي إلى خُلُقِيَّاتِهِ، فَهُوَ يَقولُ إجابةً لِدَعَواتِ الطوارِىءِ، ويَلْبَسُ لِكُلِّ حالَةٍ لَبُوسَها.

على إنَّنا إنَّما أَشَرْنا إلى انْتفاءِ الجامعة التي تُجْمَعُ وَلَوْ بِصِلَةٍ ضَعيفَةٍ بين أقْسام شِعْرِهِ لأسْبابٍ، منها أنَّ السَّيِّدَ شاعِرٌ مُباهٍ بالشاعِرِيَّةِ عن حَقٍّ، وكان في وُسْعِهِ أنْ يَحُلَّ في الرُّتْبَةِ الأُولىٰ من شُعراءِ زَمانِهِ لَوْ أَرادَ أَنْ يَكونَ من زمانِهِ، ولكنَّهُ انْتَهى إلى عَصْرٍ آخَرَ، فلم يَبْلُغْ ولَنْ يَبْلُغَ هو ولا سِواه أَدَباءَ ذلك العَصْرِ، لأنَّهم كانوا يأْخُذونَ اللُّغة رَضاعاً وَفِطاماً وعادَةَ يَقَظَةٍ ومَنامٍ وعُشْرَةٍ ومعاشٍ. ومنها أنَّ السَّيِّدَ طالَعَ شِعْرَ الإِفْرَنْج وَعَلِمَ مِنْهُ المُهِمَّةَ العُلْيا التي يَنْتَدِبُ لها الشاعر لا بَيْنَ أُمَّتِهِ مُنْفردَةً بل بين الأُمَمِ جَمعاء أحياناً. ومنْها أنَّ سماحَتَه أَدْرَى بأنَّ الشِّعْرَ في بَلَدٍ محتاجٍ إلى التَّرْبيَةِ وَالتَّأْديبِ كَمِصْرَ، وَإِذا لم يَكُنْ إلاّ طوائفُ أَسْطرٍ تُرْسَمُ مقسومةً إلى أشْطُرٍ فَفَضْلُ الشَّاعِرِ ربِّ المقاصِدِ والمعاني على الوَزَّانِ الناظِمِ مُقَطِّعِ عَروُضِ الكلام لَيْسَ بالكَبيرِ. وهُوَ إذَنْ بما يَقْتَضِيهِ من المَنْزِلَةِ وَالتَّجِلَّةِ غير جَدِيرٍ.

ليسامِحنا السَّيِّدُ فِيما نَذْكُرُهُ لَهُ، فما هو ـ يَعْلَمُ اللَّهُ ـ قَصْدُ إحلالٍ له في غير مَحلِّهِ، بل توسُّلٌ إِلَيْهِ ـ وفي طاقَتِهِ أن يُجِيبَ ـ بالرُّقِيِّ ولو شَقَّ الصعودُ إلى الأَوْجِ الَّذِي مَهَّدَ له سَبيلَه مَنْ زانَ فِطْرَتَهُ بذلك الذكاءِ الباهِرِ، والفِكْرِ الحاضِرِ، ويَسَّرَ له الاطْلاعَ على كثيرٍ، وَأعْفاه من المعاذير.

هذا، وَللسَّيِّدِ من المقاطِيعِ الشِّعْريَّةِ ما لا يَدعُ في مَعْناه مَقالاً لقائِلٍ، ولا مجالاً لجائِلٍ؛ فلو جارىٰ في كَثِيرِهِ قليلَهُ لأَصْبَحَ قُطْباً من أَقْطابِ الزّمان، في الجمْعِ بين البلاغة والبيان.

أَمَا وطريقَتُهُ العامَّةُ ما وَصَفْناهُ، فالكلمَةُ الَّتي تَغْلِبُ في وَصْفِ شِعْرِهِ أَنَّهُ في القَرْنِ الرَّابعِ عشَر المحمَّدِي شِعْرُ البعْثة الجاهليّة.

اللُّغَةُ والعَصْرُ

«للشيخ إبراهيم اليازِجي»(١)

لم يَبْقَ في أَرْبابِ الأَقْلامِ ومُنْتَحلي صناعةِ الإنْشَاءِ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ مَنْ لم يَشْعُرْ بما صارَتْ إليهِ اللُّغةُ لَعَهْدِنا

(١) «الشيخ إبراهيم [بن ناصيف] اليازِجي» [١٢٦٣ ـ ١٣٢٤هـ = ١٨٤٧ ـ ١٩٠٦م]. =

=

الحاضرِ من التَّقْصِيرِ بِخِدْمَةِ أَهْلها وَالعُقْم بحاجات ذَوِيها، حَتَّى لَقَدْ ضاقَتْ مُعْجماتُها بمطالبِ الكُتَّابِ والمُعرِّبين، وأصْبَحتِ الكتابَةُ في كَثِيرٍ من الأغْراض ضَرْباً من شاقِّ التَّكْليفِ وَباباً من أَبْوابِ العَنَتِ. وَاللُّغَةُ لا تَزْدادُ إلاَّ ضِيقاً باتِّساعِ مذاهِب الحضارة وتشعُّب طُرُقِ التَّفَنُّنِ في المُخْتَرَعات والمُسْتَحْدَثات إلىٰ أنْ كادَت تُنْبَذُ في زوايا الإهْمال، وتُلْحَقُ بما سَبَقها من لغات القرون الخوال؛ ومَسَّت الضرورةُ إلى تدارُكِ ما طَرَأَ عَلَيْها من الثُلَمِ قَبْل تمام العَفاء، وَقَبْل أن ينادِيَ عليها مُؤَذِّنُ العَصْرِ: سُبْحانَ مَنْ تَفرَّد بالبقاء! وَيَخْتِمَ على مُعْجَماتها بقصائِدَ التَّأْبِينِ وَالرِّثاءِ.

تلك هي اللُّغَةُ التي طالما وصَفَها الواصِفُونَ بأَنَّها أغْزَرُ الألْسِنَةِ مادّةً، وأَوْسَعُها تَعْبيراً، وأَبْعَدُها للأغراض مُتَناوَلاً، وَأَطْوَعُها للمعاني تَصْويراً؛ قد أَفْضَتِ اليومَ إِلى حالٍ لَوْ رامَ الكاتِبُ فيها أَنْ يَصِفَ حُجْرَة منامهِ لم يَكَدْ

= هو أكبر عالمٍ نَبَغَ في العصر الحاضرِ، واتَّفَقَ له ما لا يَتَيَسَّرُ إلا لِقليلٍ من اللُّغويين من قوّةِ البيانِ وبراعَةِ الإنشاء، فهو فَخْرُ سورية خاصّةً والعربِ عامَّةً، ولو أَنّ اللهَ أَبقاهُ للغة العربيّةِ لنالَتْ فوقَ ما نالت على يَدِه خَيراً كثيراً.

يَجِدُ فيها ما يَكْفِيهِ هذه المؤونَةَ اليَسِيرَةَ فَضْلاً عَمَّا وَراء ذلك من وصْفِ قُصورِ المُلوكِ وَالكُبَراءِ، ومنازِلِ المُتْرَفِينَ وَالأَغْنِياءِ، وَشَوارِعِ المُدُنِ الغَنّاء؛ وَما ثَمَّ مِنْ آنِيَةٍ وأثاثٍ وَمَلْبُوسٍ وَمَفْرُوشٍ وَغَيْرِ ذلك من أصْنافِ الماعُونِ وَأدوات الزِّينَةِ مما لا يَجِدُ لِشَيْءٍ مِنْهُ اسماً في هذه اللغة، ولا يكونُ حَظُّ العربيِّ منْ وَصْفِهِ إلاَّ العِيَّ والحَصْرَ وَطَيَّ لِسانِهِ على معانٍ في قَلْبِهِ لا يَتَسَنَّىٰ له إبرازُها بالنُّطْقِ ولا يَجِدُ سَبِيلاً إلىٰ تَمْثِيلِها باللَّفْظِ، كأَنَّ المقاطِعَ الَّتِي يُعَبَّرُ بِها عن هَذِهِ المُشَخَّصاتِ لَمْ يُخْلَقْ لها مَوْضِعٌ بَيْنَ فَكَّيْهِ، وَلَيْسَتْ مما يَجْرِي بَيْن لَهَاتِهِ وشَفَتَيْهِ؛ فعادَ كالأَبْكَمِ يَرىٰ الأَشْياءَ وَيُمَيِّزُها ولا يَسْتَطِيعُ أنْ يُعَبِّرَ عنها إلاَّ بالإشارَةِ ولا يصَفِها إلاَّ بِالإيماءِ.

ويا ليت شِعْرِي! ما يَصْنَعُ أحدُنا لو دَخَلَ أَحَدَ المعارِضِ الطبيعيَّةِ أَوِ الصناعِيَّةِ ورَأىٰ ما ثَمّةَ من المُسَمَّياتِ العضوِيَّةِ وغير العضوِيَّةِ من أنواعِ الحَيْوانِ وضُروبِ النَّباتِ وصُنوفِ المعادِنِ، وعايَنَ ما هُناكَ من الآلاتِ والأَدَواتِ وسائِرِ أَجْناسِ المَصْنُوعاتِ وما تَتَأَلَّفُ مِنْهُ من القِطَعِ والأَجزاءِ بما لها من الهَيْئاتِ المُخْتَلِفَةِ والمنافِعِ المتبايِنَةِ وأرادَ العبارَةَ عن شَيْءٍ من هذه المذْكورات.

ثُمَّ ما هُوَ فاعلٌ لو أرادَ الكلامَ فيما يَحْدُثُ كلَّ يَوْمٍ من المُخْتَرعاتِ العِلْمِيَّةِ والصناعِيَّةِ والمكْتَشفات الطبيعيَّةِ والكِيماوِيَّةِ والفُنُونِ العَقْلِيَّةِ واليَدَوِيَّةِ وما لِكُلِّ ذَلِكَ من الأَوْضاع والحدودِ والمصْطَلحاتِ التي لا تغادِرُ جَليلاً ولا دَقِيقاً إلاَّ تَدُلُّ عَلَيْهِ بِلَفْظِهِ المَخْصُوص.

لا رَيْبَ أَنَّ الكَثِيرَ من ذَلِكَ لا يَتَحرَّكُ لَهُ به لسانٌ، ولا يعهَدُ لَهُ بَيْنَ ألواحِ مُعْجَماتِ اللُّغةِ ألفاظاً يُعبِّرُ بها عنهُ، ولا يُغْنِيهِ في هذا المَوْقِفِ ما عِنْدَهُ من ثمانين اسماً للعَسَل، ومئتي اسْمٍ للخَمْر، وخمس مئة للأسد، وألف لفظةٍ للسيف، ومثلها للبعير، وأربعة آلاف للدّاهية، وما يفوتُ الحَصْرَ لِشَيْء آخر حَرَصَ مؤلِّف «القَامُوس» على استقصاءِ ألفاظِهِ، حتى لم يَكُنْ يَذْكُرُ مادةً إلاّ وفيها شَيْءٌ يشيرُ إِلَيه ويَدُلُّ عَلَيْهِ.

على أَنَّ اللُّغةَ مِرآةُ أحوالِ الأُمَّةِ وصورَةُ تَمدُّنِها ورَسْمُ مُجْتَمَعِها وتمثالُ أَخْلاقِها وملكاتِها وسجلٌّ ما لها من عُلومٍ وصنائِعَ وآدابٍ، وإِنَّما تَضَعُ مِنْهَا على قَدْرِ ما تَقْتَضِيه حاجاتُها في الخِطابِ وما يَتَمَثَّلُ في خواطِرِها أَوْ يَقَعُ تَحْتَ حِسِّها من المعاني. ومعلومٌ أَنَّ العَرَبَ واضعي هذه اللُّغَةِ كانوا قَوْماً أَهْلَ بادِيَةٍ، بُيوتُهُمُ الشَّعْرُ والأَديمُ،

وَمَفْرَشُهم البَارِيُّ[1] والبَلاَسُ[2]، ولباسُهُم الكِساءُ وَالرِّداءُ، وأثاثُهُمْ الرَّحَى والقِدْرُ، وآنِيَتُهم القَعْبُ[3] وَالجَفْنَةُ[4]، إلى ما شاكل ذَلِكَ مِمَّا لاَ يَكَادُونَ يَعْدُونَهُ في حِلٍّ ولا ترحالٍ؛ فَأَيْنَ هُمْ وما نَحْنُ فِيهِ لهذا العَهْدِ من ٱتِّساعِ مذاهِبِ الحضارة والأسْتِبْحار في التَّرَفِ وَاليسار وَكَثْرَةِ ما بين أيْدينا من صنوف المرافِقِ وأنْواع الأثاث والزخارف، وما نَحْنُ فيه من التَّفَنُّنِ في أحْوالِ المُجْتَمَعِ والمعاش، فضلاً عما بَلَغَ إِلَيْهِ أَهْلُ هذا العَصْرِ من التبسُّطِ في مناحي العِلْمِ والصِّناعَةِ مِمّا كانَ أولئك بِمَعْزِلٍ عن جَميعه، إلاّ ما حَدَثَ بعد ذَلِكَ فِي عَهْدِ اسْتِفْحالِ الإسلام مِمّا ذَهَبَ عَنّا أَكْثَرُهُ، وَمَا كَانَ فِيهِ لَوْ بَلَغَ إِلَيْنا إلاّ غَناءٌ قَليلٌ؟

ومَهْمَا يَكُنْ مِنْ حالِ أولئك القَوْمِ، وضِيقِ مُضْطَرَبِ الحضارَةِ عِنْدَهُمْ، وما نَجِدُ في ألفاظِهِمْ من الفاقَةِ والتَّقْصِيرِ عن حاجاتِ هذا الزَّمَنِ؛ فلا يَتَوَهَّمَنَّ مُتَوهِمٌ أَنَّ ذلك واردٌ على اللُّغَة من هَرَمٍ أدْركها فَقَعَدَ بها عن مجاراةِ الأحوال

---

(١) [الباري: الحصير المنسوج من القصب].

(٢) البلاس: البِساطُ من شَعْرٍ.

(٣) [العَقْبُ: القَدَحُ الضخمُ الجافي].

(٤) [الجَفْنَةُ: القَصْعَةُ].

العصرية، وأناخَ بها في ساقة الألْسُنة الحاليَّة، فَإنَّ مَعْنَى الهَرَمِ في اللّغَةِ أنْ يَحْدُثَ عند المتكلّمين بها معانٍ قَدْ خَلَتْ ألفاظُها عنها، ثم تضيقُ أَوْضاعُها عن إحْداثِ ألفاظٍ تُؤَدَّىٰ بها تِلْكَ المعاني، فَيَطْرَأُ علىٰ اللُّغَةِ النَّقْصُ حِيناً بعد حِينٍ إلى أنْ تَعْجِزَ عن أَداءِ أغراضِ أَهْلها، ولا تبقى صالحةً للاستعمال، وحينئذ فلا يَبْقَىٰ إلاَّ أَنْ يُلْقَىٰ حَبْلُها على غارِبِها، أَوْ يُسْتعانُ بِغَيْرِها على سَدِّ ما عَرَضَ فِيها من الخَلَلِ بما يُغَيِّرُ من دِيباجَتِها وَيُنَكِّرُ أسلوبَ وَضْعِها، حَتَّى تَتَبدَّلَ هَيْئاتُها على الزَّمنِ، وتَصِيرُ على الجُمْلَةِ لُغَةً أخرىٰ، ولَيْسَ بِمُنْكَرٍ أَنَّ ما وَصَفْناه من هذِهِ الحالِ يُشْبِهُ في بادِىءِ الرَّأْي ما نشاهِدُهُ من حالِ لُغَتِنا اليومَ وما لَمْ نَزَلْ نَنعاهُ عَلَيْها مُنْذُ حِينٍ من تَقْصِيرِها عن الوفاءِ بِمَطالِبنا العَصْرِيَّةِ، إلاَّ أَنَّ ذلك إذَا اسْتَقْرَيْتَ أَوْجُهَهُ وَأَسْبَابَهُ، وسَبَرْتَ غَوْرَ اللُّغَةِ في نَفْسِها، وقِسْتَ مبلَغَ اسْتِعدادِها؛ عَلِمْتَ أَنَّهُ لَيْسَ منها من شَيْءٍ، وَأَيْقَنْتَ أَنَّها لا تزالُ في رَيْعانِ شبابِها وَطَوْرِ تَرَعْرُعِها، وَإِنَّ فِيها بَقِيَّةً صالِحَةً لِأَنْ نُجاري أَوْسَعَ اللُّغاتِ وَأَكْثَرَها مادَّةً، وَلَكِنْ ما أَدْرَكَها مِنْ ذَلِكَ واردٌ مِنْ قِبَلِ الأُمَّةِ وَتَخَلُّفِها في حَلْبَةِ الحَضارَةِ والمَدَنِيَّةِ، إِذ اللُّغَةَ بأَهْلِها، تَشُبُّ بِشبابِهم، وتَهْرَمُ بِهَرَمِهِمْ؛

وَإِنَّما هي عِبارَةٌ عَمَّا يَتَداوَلونَهُ بَيْنَهُمْ، لا تَعْدُو أَلْسِنَتُهم ما في خواطِرِهم، ولا تُمَثِّلُ ألفاظُهُم إلاّ صُوَرَ ما في أَذْهانِهِم. وَبَدِيهِيٌّ أَنَّ اللغةَ لم تُوضَعْ دَفْعةً واحِدَةً، وَإِنَّما كانَ يُوضَعُ منها الشَّيْءُ بَعْدَ الشَّيْءِ علىٰ قَدْرِ ما تَدْعُو إِلَيْهِ حاجَةُ المُتَكلِّمين بها، وقَدِ ٱخْتَصَّتْ هذه اللُّغةُ بِمَزِيَّةٍ عَزَّ أَنْ تُوجَدَ في غَيْرِها، وهيَ أَنَّ أَكْثَرَ أَلْفاظِها مأْخوذَةٌ بالاشْتِقاقِ اللَّفْظِيِّ أَوِ المَعْنَوِيِّ، بِحَيْثُ صارَتْ إلىٰ ما صارَتْ إِلَيْهِ من الاتِّساعِ الَّذِي لا تكادُ تُضاهِيها فِيهِ لُغَةٌ على كَوْنِها من أَقَلِّ اللُّغاتِ أَوْضاعاً، إِلاَّ أَنَّها مِنْ أَكْثَرِهِنَّ صِيَغاً وَأَبْنِيَةً، وَهُوَ السِّرُّ في قَبُولِها هذا الاتساعَ العَجِيبَ، فَضْلاً عَمَّا فِيها من تَشَعُّبِ طُرُقِ المجازِ على ما سَنَعودُ إلى بيانِهِ بِالتَّفْصِيلِ.

وَٱعْتَبِرْ ما ذكرناهُ من ذَلِكَ بالرُّجوعِ إلى ما كانَتْ عَلَيْهِ اللُّغَةُ زَمَنَ الجاهِلِيَّةِ وفي صَدْرِ الإسلام وَمقابَلَتِها بما بَلَغَتْ إِلَيْهِ على عَهْدِ الخُلفاءِ من بَني العَبَّاسِ بعد سُكونِ الغاراتِ وَاسْتِتْبابِ الفُتُوحِ وَتَنبُّهِ الأُمَّةِ لِطَلَبِ العلوم وتَبَسُّطِها في الفُنونِ وَالحضارَةِ بِحَيْثُ خَرَجُوا بِها مِنْ حالِ الخُشُونَةِ البَدَوِيَّةِ إلى أَبْعَدِ مذاهِبِ المَدَنِيَّةِ الشَّائِعَةِ لِعَهْدِهِمْ ذاكَ، لم يكادُوا يُدْخِلونَ فيها لَفْظاً أَعْجَمِيّاً، وَلا ٱضْطُرُّوا

فيها إلى وَضْعٍ جَديدٍ، وَلكِنّها خَدَمَتْهُمْ بِنَفْسِ أَوْضاعها التي وَضَعَتْها العَربُ، فَاشْتَقُّوا مِنْها ما لا عَهْدَ بهِ لِلْعَرَبِ على وَجْهِه الَّذي نَقَلُوهُ إِلَيْهِ، ولم تَتَكَلَّمْ بهِ أَصْلاً، حَتَّى أحاطُوا بِصِناعَةِ الفُرْسِ وعُلوم اليونانِ، وَأَدْخَلُوا كَثِيراً من مُصْطَلحاتِ الأُمَمِ الَّتي اجْتاحُوها شَرْقاً وغَرْباً، وزَادوا على ذَلِكَ كُلِّهُ ما اسْتَنْبَطوهُ بأَنْفُسِهِمْ، وَاللُّغَةُ مشايِعَةٌ لهم في كُلِّ ما أَخَذُوا فِيهِ، لم تَنْضُبْ مواردُها دُونَهُم، ولا رَأَيْنَا مَنْ شَكا مِنْهُم عَجْزاً ولا تَقْصِيراً، إلىٰ أَنْ أَدْرَكَهُمْ مِنْ تبدُّلِ الأَطْوارِ وغاراتِ الأَقْدار ما وَقَفَ بِهِمْ عِنْدَ ذَلِكَ الحَدِّ، فَوَقَفَتِ اللُّغَةُ عِنْدَ ما نراهُ فِيما وَصَل إِلَيْنا من كُتُبِهِم.

وَتوالىٰ الاَجْتِياحُ بَعْدَ ذلك علىٰ الأُمّة وَتتابَعَتْ دَواعِي الدَّمارِ حَتَّىٰ انْدَرَسَتْ أَعْلامُ حضارَتِها وَذَهَبَتْ عُلومُها أَدْراجَ الرِّياحِ، فَزالَ أَكْثَرُ اللُّغَةِ من أَلْسِنَتِها بزوالِ مَعانِيها، حَتَّىٰ صارَ المَوْجودُ منها اليومَ لا يقومُ بِخِدْمَةِ أُمَّةٍ مُتَمدِّنَةٍ ولا هُوَ أَهْلٌ لأَنْ يَبْلُغَ بِهِ ما مَنْزِلَتُهُ تلك. وَلِذَلِكَ فَإِنْ كانَ ثَمَّةَ هَرَمٌ فإِنّما هو في الأُمَّةِ لا في اللُّغَةِ، لأَنَّ ما عَرَضَ لها من الهَجْرِ والإِهْمالِ غَيْرُ لاحِقٍ بها ولا مُلْحِقٍ بها وَهْناً ولا عَجْزاً، وَإِنَّما هُوَ عَجْزٌ في أَلْسِنَةِ الأُمَّةِ ومَدارِكِها وَتَأَخُّرٌ في أَحْوالِها واسْتِعْدادِها، ولو صادَفَتْ من

أَهْلِها البقاءَ على عَهْدِ أَسْلافِهِم من السَّعْيِ في سُبُلِ الحضارَةِ وتَوْسِيعِ نِطاقِ العِلْمِ لم تُقَصِّرْ عَنْ مشايَعَتِهِمْ في كلٍّ ما فاتَهُمْ من الأَطْوارِ حَتَّى تَبْلُغَ بِهِمْ إلى مجاراةِ العَصْرِ الحاضرِ.

ولَقَدْ أَتَىٰ على اللُّغَةِ مئاتٌ من السِّنين بعد ذلك لم يُزَدْ فِيها حَرْفٌ، بَلْ لَمْ يَكَدْ يُحْفَظُ منها ما يَزيدُ على الحوائجِ البَيْتِيَّةِ والسُّوقِيَّةِ على تناقصِ هذه الحوائجِ وتراجُعِ عَدَدِها يَوْماً بعد يَوْمٍ بما طَرَأَ على أَهْلِها من الضَّغْطِ والفاقَةِ وما اتَّصَلَ بذلك من استيلاءِ الجَهْلِ وتقلُّصِ العمْرانِ وذَهابِ الحضارة مِنْ بَيْنِهِمْ، حتى عادَتْ حوائجُ كثيرٍ من أَهْلِ المُدُنِ الحافِلَةِ لا تكادُ تَتَعَدَّىٰ حوائجَ البَدويِّ وَالأَكَّارِ، وما دامَتِ المعاني التي يُعَبَّرُ عنها باللُّغَةِ معدومَةً فلا سبيلَ إلى بقاءِ الأَلْفاظِ الدَّالَّةِ عليها، إذِ اللَّفْظُ إنَّما يُتَّخَذُ للعبارَةِ عن الخواطِرِ التي في النَّفْسِ، فلا يكونُ إلاَّ علىٰ قَدْرِها بالضَّرُورَةِ. وزادَ على ذَلِكَ كُلِّهِ ذهابُ ما كَتَبَ المُتَقَدِّمونَ، بَعضُهُ بالإِحْراقِ، كما تَمَّ في مَكْتَبَةِ قُرطُبة، وكأَنَّ هذا في مقابَلَةِ ما وَقَعَ مِنْ مِثْلِهِ بالإسكندرية وفارِس... وبَعْضُهُ بالاجْتِياحِ والنَّهْبِ، فلا بَقِيَ في مكانِهِ فَيَنْتَفِعُ بِهِ المُتَأَخِّرُ، ولا ٱحْتَفَظَ بِهِ الَّذِي نَهَبَهُ لِجَهْلِهِ قيمَتَهُ،

وَبَقِي الشَّيْءُ اليَسيرُ، نَجِدُهُ اليومَ في مكاتِبِ الأعاجِمِ، وَأَكْثَرُهُ مما ٱشْتُرِيَ من أَيْدِينا بالذَّهَبِ... فلا غَرْوَ إِنْ نَشَأَ عن تلك الأحوالِ كُلِّها ذهابُ هذه اللُّغَةِ من أَلْسِنَةِ الأَعْقابِ، حَتَّىٰ لَوْ رَامَ أَحَدُنا إثارَةَ دفائِنِها وتَعَهَّدَها بالتَّجْديدِ وَالإحياءِ لما وَجَدَ مِنْها في البلادِ إلاّ الشَّيْءَ النَّزْرَ لا يَعْدُو في الغالِبِ عُلومَ الدِّين وما يَتَّصِلُ بها مِمَّا لَمْ يَكَدْ أهْلُ بِلادِنا يحافِظُونَ على سِوَاهُ.

على أَنَّكَ لو طُفْتَ اليومَ في جَمِيعِ أنحاءِ البلادِ الَّتِي كانَتْ مَبَاءَةً لِلْعَرَبِ وَمَعْرِضاً لحضارَتِهِمْ وَفُنُونِهِمْ، لَمْ تَكَدْ تَجِدُ مَوْضِعاً تَتَوَسَّمُ فِيهِ آثارَ ذلك القَدِيمِ سِوَى الدِّيار المِصْرِيّة التي هي مُسْتَوْدَعُ ذخائِرِ السَّلَفِ وَمَجْمَعُ شَمْلِ علومِهِمْ في شَمْلِ بقاياهم، وَالَّتِي إنْ كانَ قَدْ كُتِبَ لِهَذِهِ اللُّغَةِ أنْ تَسْتَأْنِفَ البقاءَ مُدَّةً أُخْرَىٰ، فَإِنَّ مَبْعَثَها إِنَّما يَكُونُ من ناحِيَتِها، وَعَلَىٰ أَيْدِي رِجالِها، وَإِنْ سَبَقَهُم إلى إحياءِ رُسومِها بَعْضُ المجاوِرين لَهُمْ مِمَّنِ ٱصْطَبَغوا صِبْغَةَ العَرَبِ وَلَيْسُوا مِنْهُمْ في شَيْءٍ، وشَتَّانَ بَيْنَ من يُعْنَىٰ بالأَمْرِ لِضَرُورَةٍ أَحْوَجَتْهُ إِليهِ وَمَنْ تكونُ فائِدَتُهُ له وخُسْرانُهُ عَلَيْهِ.

وقد كانَ عُقِدَ في هذه العاصِمَةِ، أَعْني مدينة القاهرة، مُجْتَمَعٌ لُغَوِيٌّ تَطالَتْ إِلَيْهِ أَعْناقُ النَّاطِقِينَ بِالضَّادِ

مِنْ جَمِيعِ الآفاقِ العَرَبِيَّةِ، وَتَوَقَّعَ المُتَأَدِّبُونَ مِنْهُ فوائِدَ جَمَّةً لم تَبْرَحِ النفوسُ مُتَطَلِّعَةً إِلَيْهِ والأمانيُّ مَعْقودةً عَلَيْهِ، فَاعْتَرَضَ دُونَ تِلْكَ الثَّمَراتِ ما عُهِدَ في أَهْلِ الشَّرْقِ عامَّةً والمِصْرِيِّينَ خاصَّةً من وَناءِ الهِمَمِ وَتَخَلُّفِ الثَّباتِ، على حِين لم يجْرُوا في هذا الشَّوْطِ إلاّ خُطواتٍ يَسيرَةً أبانوا فيها عن رأيٍ فَطيرٍ وبضاعة مُزْجاةٍ، وَصَدَرَتِ الآمالُ عَنْهُمْ كما وَرَدَتْ، لم تَظْفَرْ مِنْهَا بِبِلَّةٍ، بل تَجَرَّعَتْ من الْيَأْسِ ما زادَها على غُلَّتها غُلَّةً.

ولا بَأْسَ أنْ نُلِمَّ في هذا المَقامِ بِطَرَفٍ من تاريخ هذا المُجْتَمَعِ والكَشْفِ عن شَيْءٍ من أَعْمالِهِ بَياناً لِلْغَايَةِ التي جَعَلُوها نُصبَ أَبصارِهِمْ وَاسْتَنْهَضُوا لها هِمَمَهُم، ثُمَّ المَبْلَغَ الَّذِي أدْرَكُوهُ مِنْ ذَلِكَ والأَمَد الذِي اسْتَوْلوا عليهِ منهُ، لا نريدُ بذلك تَسْوِئَةً لَهم ولا غَضًّا مِنْهُمْ، ولكنِ الإشارةَ إلى أَوْجُهِ التَّقْصِيرِ فيما هَمُّوا بهِ من هذا الأَمْرِ الخَطيرِ والبَحْثِ في الخُطَّةِ التي يَنْبَغِي سُلوكُها للوُصولِ إلىٰ المَقْصَدِ الَّذِي تَمَثَّلَ لَهُمْ بَعْدمَا أَوْضَحْنا من الحاجَةِ الماسَّةِ إِلَيْه وما يَترَتَّبُ عَلَيْهِ من الفوائِدِ التي أَيْسَرُها تدارُكُ اللُّغَةِ، من السقوطِ وَلحاقُها بِلُغاتِ الغابِرِين.

لا جَرَمَ أَنَّ الأُمورَ إِنَّما تَسْتَتِبُّ بالرأيِ قَبْلَ العَمَلِ،

والحازِمُ مَنْ إذا هَمَّ بِمَفْعولٍ نَظَرَ في غاياته قبل مَبادِئِهِ حَتَّىٰ يكونَ مَدْخَلُهُ فيهِ سَدِيداً ومَخْرَجُهُ منهُ حَمِيداً. فأَوَّلُ ما يُؤْخَذُ عَلَيْهِمْ في أمْرِ هذا المُجْتَمَعِ أَنَّهُمْ حَصَرُوا انْتِخابَ المُشْتَغِلِين بهِ في عِدادِ رِجالِ مِصْرَ، وَحَظَرُوا أنْ يُشارِكَهُمْ فيهِ غَيْرُهُمْ من سائِرِ النَّاطِقِين بهذا اللِّسانِ، وهو أَمْرٌ قد خَفِيَ علينا وَجْهُ الحِكْمةِ فيهِ، بل لَمْ نَجِدْ لَهُمْ عُذْراً يُخْرِجُهُم مِنَ المُؤَاخَذَةِ عليهِ. فإِنَّهُ إِنْ كانَ ذلك عنْ مَزيدِ اعْتِدادٍ بأَنْفُسِهِمْ في كفايَةِ هذا الأَمْرِ حَتَّىٰ أَدَّاهُمْ إلى تَرْكِ الاَعْتِدادِ بِغَيْرِهم، فَهِيَ السَّوْءَةُ الَّتِي لا يَسْتُرُها إِحسانٌ ولا يَشْفَعُ فيها فَضْلٌ ولا مَزِيَّةٌ، بل هي السَّقْطَةُ التي تَقْضِي وَخْدَها على عَمَلِهِمْ بالحُبُوطِ وَمساعِيهِمْ بالإِخْفاقِ. وَذَلِكَ أَنَّ ما عَقَدُوا العَزْمَ علىٰ إِحْداثِهِ في هذا المُجْتَمَعِ مِن الزِّيادَةِ وَالتَّبْدِيلِ في أَلْفاظِ اللُّغَةِ أَمْرٌ لاَ يَسْتَتِبُّ نَفْعُهُ ولا تَتَحَقَّقُ ثَمَرَتُهُ إِلاَّ بأنْ يَعُمَّ اسْتعمالُهُ بين المُتَكلِّمينَ بها وتَتَداوِلُهُ أَلْسِنَتُهُمْ وَأقلامُهُم، حَتَّى يُلْحِقُوهُ بأَصْلِ اللُّغَةِ، وَيَعْتَبِرُوهُ في جُمْلَةِ أَوْضاعِها. وَعَلَىٰ ذَلِكَ، فَمَنْ لَمْ يَدْعُوهُ من أُولئك إلى مُشارَكَتِهِمْ في الرَّأْيِ ومُشاطَرَتِهِمْ وجْهَ الحُكْمِ، فَقَدْ دَعَوْهُ بِلِسانِ حالِهِمْ إلى مُتَابَعَتِهِمْ فيما يَرَوْنَ

وَالنُّزُولِ على ما يَحْكُمون، وذلك أَمْرٌ ولا سُلْطَةَ تَعْضُدُهُ لا يَتَسَنَّىٰ إلاَّ بِرِضىٰ من يَدْعونَه إِلَيه وَارتياحِهِ إلى موافَقَتِهم عَلَيْه، وَهَيْهاتَ أَنْ يَرْضىٰ بِذلكَ مِنْهُمْ، وَهُمْ قَدْ جَعَلوا بَرِيدَهُمْ إِلَيْهِ ما عَلِمْتَ من الاسْتِخْفافِ وَالازْدِهاءِ. وَإِنْ كانَ ذَلِكَ طلباً للأَثَرَةِ وَالانْفِرادِ بِالمَزِيَّةِ على غَيْرِهِمْ، فَهُوَ أَمْرٌ في غَيْرِ مَحَلِّهِ أَيْضاً، وَلَيْسَ مِنَ النَّصَفَةِ ولا السَّدَادِ في شَيْءٍ.

وذَلِكَ، أَمَّا أَوَّلاً: فَلأَنَّهُ لَوْ كانَ الأَمْرُ الَّذي اجْتَمَعُوا عَلَيْهِ من شُؤونِ مِصْرَ الخاصَّةِ لم يَكُنْ في ذَلِكَ لِأَحَدٍ حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ ولا حَقُّ المُطَالَبَةِ بالدُّخُولِ مَعَهُمْ فِيهِ، وَلَكِنَّهُ مِنَ الأُمُورِ الشَّائِعَةِ بَيْنَ جَمِيعِ الأُمَّةِ على السَّواءِ، لَيْسَ بَعْضُها أَحقَّ بِهِ من بَعْضٍ، فانْفِرادُهُمْ به دون سائِرِها اسْتِبْدادٌ لا وَجْهَ له ودَاعٍ إِلىٰ المنافَسَةِ والتَّخاذُلِ وَنَقْضِ عُرْوَةِ الوِئام.

وَأَمَّا ثَانِياً: فلأَنَّ مدارَ العَمَلِ على سَدِّ ما طَرَأَ على اللُّغَةِ من النَّقْصِ وَوَضْعِ أَلفاظٍ بإزاءِ المَعاني الَّتي حَدَثَتْ في الأَعْصُرِ المُتَأَخِّرَةِ، وَهُناكَ من الأَوْضاعِ والمُصْطَلَحاتِ ما لَوْ جُمِعَتْ مُفرداتُهُ في كُلِّ فَنٍّ لَبَلَغَتْ أَنْ تَكونَ

مُجلَّداتٍ كَثيرةً. ولا يَخْفَىٰ أنَّ هذا من الأَعْمالِ الَّتِي لا يَضْطَلِعُ بها إلاّ العَدَدُ العَدِيدُ في الزَّمَنِ المَدِيدِ مِمَّا يَدْعُو إلى تَضافِرُ الأَيْدِي والاسْتِكْثارِ من العامِلِينَ مع مواصَلَةِ الجِدِّ وإدْمانِ الاشْتِغالِ، ثُمَّ هُوَ مَعَ ذَلِكَ رُبَّما أَتَىٰ عَلَيْنا قَرْنٌ بِتَمامِهِ ولم نَبْلُغْ آخِرَهُ، بَلْ كَيْفَ نَبْلُغُهُ وَنَحْنُ لا نُفْضِي إلى ذَلِكَ الزَّمَن حتى يَكونَ قد حَدَثَ مِنْ تِلْكَ الأَوْضاعِ أَضْعافُ المَوْجُودِ الآن.

وَبَعْدُ، فإنَّ نَقْلَ هذه الأَوْضَاعِ إلى لُغَتِنا لا يَكْفِي فِيهِ العِلْمُ بقوانِين العربيَّةِ والإحاطَةُ بأَلْفاظِ مِنْها نَسْتَظْهِرُها مِنْ بُطونِ الدَّفاتِرِ، بَلْ مِنْ مُقْتضاهُ أنْ يكونَ أَكْثَرُ المُشْتَغِلينَ بِهِ منَ العارِفِينَ باللُّغاتِ المَنْقولِ عَنْها وَالمُطَّلِعينَ على عُلومِ أَرْبابها وصَنائِعِهم وسائِرِ فُنُونِهِمْ ليكونوا على بَيِّنَةٍ من مواضِعِ النَّقْصِ المُشارِ إِلَيْها وتحقيقِ المعاني التي يَنْبَغِي وَضْعُ أَلفاظٍ لها، مِمَّا يُؤَدَّىٰ بِهِ المقصودُ علىٰ وَجْهِهِ، وَلَيْسَ في مِصْرَ وَحْدها مِنْ هَذِهِ الطَّبَقَةِ إلاَّ رِجالٌ مَعْدُودونَ لا نَحْسَبُهُمْ إنْ كَانُوا قد جَعَلُوا لَهُمْ مَكاناً من هذا العَمَلِ كافِينَ للاضْطلاعِ بِهِ على طُوله وَاتِّساعِهِ وعلى ما يَقْتَضِيهِ من التَّفَرُّغِ وَإِدْمانِ النَّظَرِ. فَقَدْ كانوا والحالَةُ هذه في أَشَدِّ الحاجةِ إلى أنْ يكونَ لهم في كُلِّ قِطْرٍ أناسٌ من

أمثالِ أولئك يُؤازِرُونَهُمْ في العَمَلِ وَيكُونونَ أَعْواناً لَهُمْ على النُّجْحِ، وكانَ يَبْقَىٰ لهم مِنَ المَزِيَّةِ التَّي حَرَصُوا عَلَيْها أَنَّهُمْ هُمُ الشَّارِعُونَ في تَأْسِيسِ هذا المُجْتَمَعِ وَالدَّاعُونَ إِلَيْهِ، وَأَنَّ أَرْضَهُمْ مُلْتقَى أَشِعَّتِهِ ومُنْبَثَقُ أنوارِهِ، وهَذا كافٍ في بابِ الأَثَرةِ، وَهُوَ مِمَّا لا يَنْفَسُهُ عَلَيْهِمْ منافِسٌ. وَبالتَّالِي فَإِنَّهُم لو نَظَرُوا نَظْرَةً في التَّاريخ لأَرَتْهُم مِثالَ ما هُمْ فِيهِ بما يُسْفِرُ لَهُمْ عن وَجْهِ الرَّأْيِ وَيَنْهَجُ لَهُمْ سَبيلَ العَمَلِ، إِذْ لَيْسَتْ هذه أَوَّلَ مَرَّةٍ، عَبَرَ فيها على الأُمَّةِ مِثْلُ ذلك وَدَعَتِ الحالُ إلى الإحداثِ في اللُّغَةِ وإِدْخالِ شَيْءٍ جَدِيدٍ بَيْنَ أَهْلِها. فَكُلٌّ يَعْلَمُ ما فَعَلَ المَأْمُونُ حِينَ عَرَّب كُتُبَ اليونانِ والفُرْسِ والسِّرْيانِ في الطِّبِّ والحِكْمةِ وَالعُلوم الطبيعيَّةِ والرِّياضيَّةِ وغَيْرِها، فَإِنَّهُ لَمَّا لَمْ يَجِدْ في الأُمَّةِ مَنْ يَضْطَلِعُ باسْتِخْراجِ هذه الكُتُبِ إِلى العربيَّةِ لم يَتَوقَّفْ عنِ اسْتِدْعاءِ قَوْمٍ مِن نَساطِرَةِ العَجَمِ لِيَتَوَلَّوْا له نَقْلَها، لم يَسْتَنْكِفْ من ذلك ولا أَنِفَ مَنْ بِبابِهِ من العُلماء الذين حَشَدَهُمْ إِلَيْهِ من أطرافِ البلادِ، وَنَاهِيكَ بِهِمْ مَنْ كانُوا أَنْ يُشارِكُوهُمْ في العَمَلِ. وقد أَفْرَدَ لَهُمْ مَكاناً في بلاطِهِ وَوَزَّع تلك الأعْمالَ بَيْنَهُمْ على ما يُحْسِنُهُ كُلُّ فَرِيقٍ مِنْهُم، ثُمَّ جَعَلَ لهم يَوْماً في الأُسبوعِ يجْتَمِعُونَ فِيهِ وتُعرَضُ أَعْمالُ

المُعرِّبين على عُلماءِ اللُّغَةِ، فَيُقِرُّون منها ما وَجَدُوهُ سَدِيداً، ويَنْظُرونَ في غَيْرِهِ مما لم يَقَعِ المُعَرِّبونَ على وَجْهِهِ فَيُصَحِّحونَهُ.

أَمّا ما كانَ من ثَمراتِ هذا المُجْتَمَعِ، فَزُبْدَةُ ما اتّصَلَ بِنا أَنَّهُمْ عَقَدُوا سِتّ أَوْ سَبْع جَلْساتٍ اسْتَحْدَثوا فِيها عِشْرِينَ لفظَةٍ بإزاء عشرين كَلمةٍ من الألفاظِ الأعْجَمِيَّةِ، ولا بأْسَ أَنْ نَذْكُرَ بَعْضَ هذه الألْفاظِ في هذا المَوْضِعِ تَتِمَّةً لِسياقَةِ البَحْثِ.

فَمِنْها قَوْلُهم: «مَرْحَىٰ»، و«أَيْحىٰ» في مكان «بَرَاڤُو Bravo»، «وبَرْحىٰ» في مكان «في Fi»، وهي كلماتٌ تُقالُ الأُوليان منها لمن أصابَ المَرْمَىٰ والثالثة لِمَنْ أَخْطأَهُ، فنقَلُوها إلى مُطْلَقِ مَعْنَىٰ الاستحسانِ أَوِ الاستهجانِ، وقد تكلَّفُوا في هذه الألْفَاظِ عَلَىٰ مَا نَرَىٰ «وَأَبْعَدوا المَرْمَىٰ» بما لا حاجَةَ إِلَيْهِ، لِوُجودِ كثيرٍ في كلامِ العرب من مَشْهُورِ اللَّفْظِ ومَأْنُوسِهِ يُغْني عَنه اجْتِلابُ هذه الكلماتِ وَنَقْلُها عن مواضِعِها. فَمِنْ قَوْلِهِم في الاسْتِحْسانِ: أَحْسَنْتَ، وأَجَدْتَ، وأَبْدَعْتَ، وَلِلَّهِ دَرُّكَ، وَلِلَّهِ أَنْتَ، وَلِلَّهِ أبوكَ، وما شاءَ اللَّهُ كان، وَكَذَا وإلاّ فَلاَ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ. وَمِنْ هَذَا القَبِيلِ قولهم: بَخٍ بَخٍ، وبَهٍ بَهٍ، وزِهْ، بكسر

فسكون؛ وهذه الأخيرة من مُسْتَدْركاتِ الزُّبِيدِي على «القَامُوسِ» نقلاً عن «الأغاني». ويقولونَ في التَّقْبِيحِ: سَوْءَةً لفلانٍ، وَقُبْحاً لَهُ، وَخِزْياً لَهُ، وَتَبّاً لَهُ، وَأُفٌّ لَهُ، ولا أَباً لَهُ، وَخَسِىءَ الأبعَدُ وَخَزِيَ، وَلاَ دَرَّ دَرُّه، ونحو ذلك؛ وكُلُّها من الأَلفاظِ الوافِيَةِ بالمُرادِ على خُلُوِّها مِمَّا في تِلْكَ مِنَ الغَرابَةِ وما في بَعْضِها من الاسْتِهْجانِ في السَّمْعِ.

ومِنْها قَوْلُهُم: «عِمْ صَباحاً» و«عِمْ مَسَاءً» في مُقابَلَة: «بَنْجور Bonjour» و«بُونْسوار Bonsoir»، وَهُما مِمّا لا داعِي إِلَيْهِ أَيْضاً، إذْ لا أَكْثَرَ من ألفاظِ التَّحيَّةِ عِنْدَنا، فَضْلاً عَنْ أَنَّهُما من قَدِيم اللَّفْظِ الَّذِي قَدْ أُمِيتَ استعمالُهُ مُنْذُ أَزْمانٍ مَدِيدَةٍ، فلا تُقْبَلان في هذا العَصْرِ. وبَعْدُ، فلا نُزِيدُهُمْ عِلْماً أَنَّ الذينَ يقولون: بنجور وبونسوار، لَيْس ذلك مِنْهُم عن افْتِقارٍ إلى لَفْظٍ يُرادِفُهما بالعربيَّةِ، فإِنَّ أَجْهَلَ العَوامِّ يقولُها في تحيَّةِ الصَّباح: نهارُكَ سعيدٌ، أَوْ صَبَّحَكَ اللَّهُ بالخَيْرِ مثلاً؛ وفي تحية المساء: لَيْلَتُكَ سعيدةٌ، أو أَسْعَدَ اللَّهُ مساءَكَ، وَنَحْوَ ذَلِكَ. ولكنَّ الدَّاءَ الَّذِي أرادُوا علاجَهُ بِهاتَيْنِ العبارَتَيْنِ لَيْسَ من الأدواءِ التي تُعَالَجُ من هذا الكتاب، ولا الَّتِي يَنْجَعُ فيها هذا الضَّرْبُ من العقاقِيرِ؛ إنَّما علاجُهُ تَلْقِينُ فِتْيانِنا حُبَّ الوَطَنِ وَتُنْشِئَتُهُمْ على عِزَّةِ

النَّفْسِ والاعْتِدادِ بحُرْمَةِ الذَّاتِ حَتَّىٰ لا تَتَسَفَّلَ أهْواؤُهُمْ إلى التَّشَبُّهِ بِغَيْرِهِمْ مِمَّنْ لَيْسُوا بِخَيْرٍ مِنْهُمْ أَحْساباً ولا أَشْرَفَ خِلالاً، وقدِ بَقِيَ مِن أعراضِ هذا الدَّاءِ ما تَجِدُ استعمالَ هَذِهِ الألفاظِ في جَنْبِهِ سَهْلاً، نَسْأَلُ ٱللَّهَ أَنْ يُلْهِمَنَا رُشْدَ أَنْفُسِنا وهو وَلِيُّ الهِدَايَةِ.

وَمِنْهَا قولهم: «نُمْرَة» في مَوْضِعَ «نُومِرُو Numéro»! وهذه لا تَخْلُو من غرابَةٍ، فإنْ كانَ القَصْدُ مِنْها تَعريبَ اللَّفْظَةِ، أَيْ: تحويلَها إلىٰ صِيغَةٍ تُوافِقُ الأَبنِيَةَ العَرَبِيَّةَ، فَهُوَ مِمَّا سَبَقَتْهُم إِلَيْه العامَّةُ، يقولون: كَمْ نُمْرَة هَذَا الثَّوب؟ مثلاً. وإنْ كان مُرادُهُم أنّ «النُّمْرَةَ» لفظة عربيَّة بهذا المَعْنَىٰ، فلا صِحَّةَ لَهُ، لأَنَّ «النُّمْرَةَ» في اللُّغَةِ النُّكْتَةُ في الشَّيْءِ تخالِفُ لَوْنَهُ، كَمَا يُرى في جِلْدِ النَّمِرِ مَثَلاً، فكانَ الأَوْلَىٰ أَنْ يَبْحَثوا عن لَفْظَةٍ عَرَبِيَّةٍ توافِقُ المَعْنَىٰ، وَإلا فَهَذِهِ كَغَيْرِها من الكَلِمِ الَّتِي كَانُوا يَضَعُونَها اتِّفاقاً من غَيْرِ أَنْ يُطالِبَهُمْ بها مطالِبٌ، فَلَمْ يَكُنْ عَلَيْهِمْ بَأْسٌ مِنْ تَرْكِها وَإِرْجائِها إلىٰ فَتْحٍ جَدِيدٍ.

وَمِنْها: «الحرّاقة» في تعريب: «التوربيد Torpille»، قالوا: وهي ـ أي: الحرّاقة ـ سَفِينَةٌ فِيهَا مَرام للنّيرانِ يُرْمَىٰ بها العَدُوُّ في البَحْرِ! ولا يَخْفَىٰ أنَّ هَذِهِ لَيْسَتْ في شَيْءٍ

من التُّوربيد، إذ هو عبارَةٌ عن صُنْدُوقٍ وَنَحْوِهِ من رَقِيقِ صَفائِحِ المَعْدَنِ، يُحْشَىٰ بالبارُودِ، ويُرْسَلُ في قَعْرِ البَحْرِ حَتَّىٰ يَصِيرَ تَحْتَ سَفِينَةِ العَدُوِّ، ثم يُفَجَّرُ بنابِضٍ (زنبرك) أوْ سِلْكٍ كَهربائِيٍّ، فَتَنْقَذِفُ السَّفِينَةُ صُعُداً. وَ«التوربيد» في الأصل: اسمٌ لِسِلْكٍ كهربائِيٍّ، من لَمَسَهُ خَدِرَتَ يَدُهُ، وَتُسَمِّيه العربُ بالرَّعّادِ، وهو اللَّفْظُ الّذي اسْتَعْمَلَهُ بَعْضُهُمْ في تعريبِ هذه الكَلِمَةِ، وَلَعَلَّهُ أَوْلَىٰ.

وَمِنْها: «الوِشاح» اختاروه للتَّعْبِير عن «الكُوردون Cordon» الذي يُتَّخَذُ للسَّيْفِ بجامِعِ الهَيْئَةِ، على أَنَّهُ لَيْسَ تَعْرِيباً للّفظة الأعجمية، إذ هي في الأصْلِ عنْدَهُمْ بمعنى القُوَةِ من قُوَىٰ الحَبْلِ، ثُمَّ نَقَلُوها، وإنْ لَمْ يَظْهَرْ وَجْهُ النَّقْلِ إلى هذا السَّفِيفِ من مَنْسُوجِ الحَرِيرِ ونَحْوِهِ، تَشُدُّهُ النِّساء عَلَىٰ أوْساطِهِنَّ، وَيُزَيِّنَّ به رُؤُوسَهُنَّ، وَتُجْمَعُ بِهِ أطْرافُ السُّجُوفِ وَكِلَلُ الأَسِرَّةِ، وَيُتَّخَذُ مِنْهُ نِجادُ السَّيْفِ وغَيْرُ ذَلِكَ؛ والوِشاحُ لا يَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ المَذْكُوراتِ إلاَّ لِلْمَعْنَىٰ الأخِير، فهو أَخَصُّ من اللَّفْظَةِ المُعَرَّبَةِ؛ وَمَعَ ذَلِكَ فلا بَأْسَ باستعمالِهِ لهذا المَوْضِعِ.

ومِنْها: «الطَّنُفُ» لما يُسَمَّىٰ: «بالبَلكون Balcon»، إلاَّ أَنَّهُمْ فَسَّرُوهُ بالسَّقِيفَةِ التي تُشْرَعُ فوق باب الدَّارِ، وَهِيَ غَيْرُ

البَلْكُون، على أنَّ اللَّفْظَةَ أوْسَعُ مِمّا ذَكَرُوا، ويرادِفُها أيضاً: الجَناحُ، وهو أحْسَن لَفْظاً وأَدَلُّ على المراد.

ومِنْهَا: «المِشْجَب» لِمَا يُقَالَ لَهُ عِنْدَ العَامَّةِ: «شَمّاعة»، وَهُوَ بالإفْرَنْجِيَةَ «بُورت مانْتو - Porte chapeaux». «وحَصَّبَ الطّريقَ بالحَصْباء» مَكَانَ قولهم: «وَضَعَ فِيْهَا المِكْدَامَ». «والعِطاف» و«المِعْطَف» لِمَّا يُسَمَّى: «البالطو» و«الپاردسو Pardessus» كذا مِنْ غَيْرِ تَعْيين، والأظْهَرُ أنَّ ما اَخْتَرعوه يوافِقُ الأَوَّلِ، وأمَّا الثَّاني فَأليقُ مَا يُسَمَّىٰ به الدِّثَار، فإنْ كَانَ يُتَّقىٰ بِهِ مَاءُ المَطِرِ فَهُوَ المِمْطَر والمِمْطَرَة.

ومنها: «البَهْو» بِمَعْنَىٰ «الصالون Salon»، و«القُفَّاز» بمعنىٰ «الغوانتي = Gant»، و«البِطاقَةَ» بمعنَىٰ «الكَارْت Carte»، و«الشُّرْطِي» و«الجِلْوازُ» بمعنَىٰ «البوليس Police»؛ وَهَذِهِ كُلُّها مِمَا سُبِقُوا إِلَيْهِ.

وَبَقِيَتْ أَلْفاظٌ أُخَرُ أُرْسِلَتْ مِنْ عَفْوِ الذَّاكِرةِ وَلَمْ يُنْضِجْها الفِكْرُ، فلا نُطِيلُ باسْتِقْصَائِها والكلامِ عَلَيْها.

على أَنَّهُ مَهْمَا يَكُنْ مِنْ أَمْرِ هَذِهِ الكلماتِ، فَلَمْ يَكُنْ مِنَ المُتَعَيِّنِ أَنْ يَكُونَ كُلُّ ما يَضَعَونُهُ وَارِداً موردَ الإصابَةِ،

ولا يَنْبَغِي أَنْ يُتَوَقَّعَ مِثْلُ ذَلِكَ من أَيِّ قَوم تَعاطَوْا مِثْلَ هَذَا الأَمْرِ الدَّقِيقِ عَلَىٰ مَا يَقْتَضِيهِ من الإحاطَةِ وبُعْدِ النَّظَرِ وَكَثْرَةِ التَّنْقِيبِ في أَعْطافِ الحافِظَةِ وبَيْنَ تضاعِيفِ السُّطورِ، ولا سِيَّمَا أَنَّ تِلْكَ الأَلْفاظَ كانَتْ تَصْدُرُ من وَضْعِ الواحِدِ، ثُمَّ تُنْشَرُ بِلاَ بَحْثٍ ولا تَنْقِيحٍ، فَلاَ عَجَبَ أَنْ بَعْضَها مَرْمَى لِلنَّقْدِ. عَلَىٰ أَنَّهُمْ لَوْ مَضَوْا على ما بَدَؤُوا بِهِ مِنْ ذَلِكَ وَأَدْمَنُوا الاشْتِغَالَ بالبَحْثِ والتَّقْيِيدِ، لجاءَ فِيمَا يَضَعُونَهُ فَوائِدُ لاَ تُحْصَىٰ، وَلَخَدَمُوا اللُّغَةَ خِدْمَةً سَنِيَّةً كانَتْ تَرُدُّها عَلَيْهِمْ شُكْراً جَزِيلاً وذِكْراً عَلَى الأَيَّام جَمِيلاً، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَلْبَثُوا بَعْدَ وَضعِ هَذِهِ الكلماتِ أَنْ تَشاغَلُوا بإنْشَادِ القَصائِدِ وإلْقاءِ الخُطَبِ، ثُمَّ خُتِمَ المَجْتَمَعُ عَلَىٰ هَذَا القَدْرِ.

وَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ أَمْرِ هَذَا المُجْتَمعِ، فَقَدْ مَضَىٰ عَلَىٰ وَجْهِهِ، ودَرَجَتْ بَعْدَهُ الأَيَّامُ، ودَبَّتِ الليالي؛ والحاجَةُ في مَكَانِها، والرّغباتُ مُتَطالَّةٌ، والخواطِرُ هائمةٌ، والأَقْلامُ جافَّةٌ، واللُّغَةُ عَلَىٰ مَا كَانَ مِنْ عَهْدِها لَمْ تَسْتَغْنِ بِتِلْكَ الكَلِمَاتِ العِشْرِينَ، ولا وُجِدَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ أَجْرَىٰ لها ذِكْراً، ولا أَخْطَرَ لِلنَّظرِ في أَمْرِها فِكْراً، فَكأَنَّ ذَلِكَ المُجْتَمِعَ إِنَّمَا عُقِدَ لِتَثْبِيطِ العَزائِمِ عَنْ نَهْضَتِها وَقَطْعِ آخِرِ عِزقٍ مِنْ الأملِ، وكأَنَّ أَرْبابَهُ نَفَرٌ مِنْ الأَطِبَّاءِ اجْتَمَعُوا

للائتِمَارِ عَلَىٰ عَلِيلٍ، فَكَانَ قُصَارَىٰ مَا فِي طِبِّهم أنْ قَضَوْا باليأْسِ مِنْهُ، ثُمَّ خَرَجُوا وَهُمْ يَقُولُونَ: عَظَّمَ اللَّهُ أَجْرَكُمْ فِي الفَقِيدِ.

فَبَقِي الآن، إمّا أَنْ نُسَجِّلَ بِمَوتِ اللُّغة ومَوْتِ الآمالِ مَعها وَاليَأْسُ إحدى الغَنِيمَتَيْنِ، وإمَّا أنْ نَسْتَأْنِفَ العَزْمَ ونجدِّدَ السَّعْيَ في إحياءِ مَا ٱنْدَثَرَ مِنْهَا وتَدَارِكِ مَا طَرَأَ عَلَيْهَا مِن الثُلَم، وَهُوَ ما لاَ تَزالُ الآمالُ فِيهِ مَنوطَةً بِهِمَمِ رِجالِ هَذَا القُطْرِ، إنْ نَشِطُوا له، وتَفَرَّغُوا للاشْتِغالِ بِهِ، وتَنَبَّهُوا لِمَكانِ اللُّغَةِ مِنْ الأُمَّةِ، وَأَنَّها هِيَ عُنْوانُها والفَضْلُ الَّذِي تَتَمَّيزُ بِهِ مِنْ سائِرِ الأُمَمِ، بل اللُّغَةُ هِيَ الأُمَّةُ بِعَيْنِهَا، فَكَمَا تُشَخِّصُ تاريخَها وَعلومَها وعاداتِها وعباداتِها، فَإِنَّها تُشَخِّصُ الأُمَّةَ بِنَفْسِها، وَبِها يُشارُ إِلَيْهَا، وَيُدَلُّ عَلَيْهَا، وذَلِكَ فَضْلاً عَنْ أَنَّهَا هِيَ مَجْمَعُ أُلْفَتِها، وَالوَصْلَةُ الحِسِّيَّةُ بَيْنَ آحادِها وجماعاتِها، فَهِيَ عِلَّةُ الضَّمِّ الحقِيقِيَّةُ بَيْنِها، والجامِعَةُ الطبيعيَّةُ الَّتِي بِهَا يُسْتَتَبُّ مَعْنَىٰ المَدَنِيَّةِ، وإذا تَفَطَّنْتَ للمرادِ مِنْ قَوْلِهِمْ: الإنْسانُ مَدَنيٌّ بالطَّبْعِ، شَفَّ لَكَ عَنْ حَقِيقَةِ هَذَا القَوْلِ وتَبَيَّنْتَ موضِعَ اللُّغَةِ مِنْ الحالَةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ. وَاعْتَبِرَ ذَلِكَ فِي الأُمَمِ الأُورُوبِيَّةِ لِهَذَا العَهْدِ، فَإِنَّها عَلَىٰ اتحادِ أَكْثَرِها فِي النِحْلَةِ الدِّينيَّةِ وَمَا يَصِلُ بينها

مِنْ لُحْمَةِ النَّسَبِ، إِنَّمَا تَتَمَيَّزُ الجِنْسِيَّةُ عِنْدَهَا بِاللُّغَةِ، وَهِيَ الفَصْلُ الفارِقُ بَيْنَ أُمَّةٍ وَأُمَّةٍ، وَعَلَيْهَا مَدارُ الوَحْدَةِ الوَطَنِيَّةِ وصيانَةِ المَصْلَحَةِ الأُمِّيَّةِ، وَمَا لَمْ تَتَّحِدِ الأُمَّتَانِ مِنْهَا فِي اللُّغَةِ لاَ يُؤْمَنُ انْتِفَاضُ إِحْداهُمَا عَلَىٰ الأُخْرَىٰ، وَلَوِ اتَّحَدَتْ بَيْنَهُمَا المَصْلَحَةُ الوَطَنِيَّةُ والجَامِعَةُ السِّيَاسِيَّةَ. بَلِ انْظُرْ إلى الناطِقِينَ بِلِسانِنَا العربيِّ، فَإِنَّهُمْ عَلَىٰ تَبايُنِهِمْ فِي الأَنْسَابِ وَالأَدْيانِ وَالعَوائِدِ إِلىٰ مَا لاَ تَجِدُ لَهُ مَثِيلاً في العالَمِ كُلِّهِ، وَعَلَىٰ مَا بَيْنَهُمْ مِنْ اختلافِ الحالِ السِّيَّاسِيَّةِ وتفاوُتِ المَصَالِحِ الذَّاتِيَّةِ وتضافُرِ دواعِي الشِّقاقَ وَالافْتِرَاقِ، لَمْ تَثْبُتْ لَهُمْ جامِعَةٌ يَنْضَمُّونَ بِهَا وَيَتَأَلَّفُونَ حَوْلَهَا سِوَىٰ اللُّغَةِ، حَتَّىٰ لَقَدْ تَجِدُ مِنَ الدُّخلاءِ فِيها مَنْ هُوَ أَشَدُّ اعْتِصاماً بِهَا وَمُحافَظَةً عَلَيْهَا مِمَّنْ وَرِثَها عَنْ أَوَّلِيَّتِهِ، وَانْتَهَتْ إِلَيْهِ عَنْ غَيْرِ كَلالَةٍ.

بَلْ عِنْدَنَا اليومَ مَا هُوَ أَبْلَغُ مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ مَا نَرَاهُ مِنْ كَثيرٍ مِنْ فِتْيانِنَا الَّذِينَ يَتَلَقَّوْنَ العِلْمَ في المَدَارِسِ الأَجْنَبِيَّةِ، فَإِنَّكَ تَجِدُ كُلَّ فَرِيقٍ مِنْهُمْ قَدْ أُشْرِبَ المَيْلَ إِلىٰ الأُمَّةِ الَّتي يَدْرُسُ فِي لسانِهَا، فَمَنْ تَعَلَّمَ فِي المَدَارِسِ الإِنْكِلِيزِيَّةِ مثلاً، خَرَجَ مَيْلُهُ إِنكليزياً، وكَذَا مِنْ دَرَسَ فِي المَدَارِسِ الفَرَنْسويّة أَوِ الطِّلْيَانِيَّةِ أَوْ غَيْرِها، حَتَّىٰ تَرَاهُ يباهي

بِرجالِ تِلْكَ الأُمَّةِ، وَيَتَبَجَّحُ بأَخْبَارِ مُلُوكِها وَكُبَرائِها وَفَضَائِلِ أَهْلِ العِلْمِ وَالشِّعْرِ مِنْهَا، وَيَقْتَبِسُ كَثِيراً مِنْ أَخْلاقِها وَعاداتِها، وَيَتَشَبَّهُ بِمَشَاهِيرِ أَهْلِهَا، وَمَنْ يَقَعُ فِي نَفْسِهِ مِنْهَا مَوْقِعاً؛ ورُبَّمَا أُشْرِبَ عَقَائِدَ بَعْضِ عُلمائِها وَفَلاَسِفَتِهَا، إلى غَيْرِ ذَلِكَ مِمّا لاَ تَكَادُ تُفَرِّقُهُ فِيهِ عَنْ أَحَدِ أَفْرَادِهَا، بَلْ رُبَّمَا بَلَغَ مِنْ بَعْضِهِمْ أَنْ يَنْزَعَ إِلَىٰ اللَّحَاقِ بِجِنْسِيَّتِهَا وَالانْتِظَام فِي عِدادِ آحادِها، فَيَطْلُبُ مُشَارَكَتَهَا فِي الوَحْدَةِ الحِسِّيَّةِ بَعْدَ الوَحْدَةِ المَعْنَوِيَّةِ، وَهُوَ نِهَايَةُ مَا يُمْكِنُ تَصَوُّرُهُ مِنَ الشَّواهِدِ فِي هَذَا البَابِ.

وَهَذَا الأَمْرُ مِمّا تَنَبَّهَتْ لَهُ الأُمَمُ الفاتِحَةُ مِنْ قَدِيم، وَاتَّخَذَتْهُ قاعِدةً تَجْرِي عَلَيْهَا فِي تَقْرِيرِ فُتُوحِها وَتَوْثِيقِ سُلْطانِها واتِّقَاءِ سَوْرَةِ المَغْلُوبِينَ إِذَا حَزَبَهُم مِنْ نَاحِيَتِها ظُلْمٌ أَوْ سامَتْهم شَيْئاً مِنْ ضُرُوبِ الخَسْفِ، وحَسْبُنَا شاهِداً عَلَيْهِ مَا هُوَ جارٍ لِيَوْمِنَا هَذَا فِي الجَزَائِرِ وتُونُسَ مِنَ البِلاَدِ العَرَبِيةِ، حَيْثُ أُهْمِلَ تَعْلِيمُ اللِّسانِ العَرَبِيِّ فِي المَكَاتِبِ إلاَّ بِمَقْدَارِ مَا يُتَوَصَّلُ به إلى تِلاَوَةِ القُرْآنِ، وَجُعِلَ كُلُّ مَا سِوَىٰ ذَلِكَ بِاللُّغَةِ الفرنسَوِيّةِ، حَتَّى كادَتِ العَرَبِيَّةُ تُتَنَاسَىٰ فِي تِلْكَ الأَقْطارِ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إلاّ مَا يَتَداوَلُهُ العامَّةُ مِنَ اللَّفْظِ المَبْذُوءِ والكَلِمِ السُّوقِيِّ، وغابَتْ عَنْهُمْ محاسِنُهَا

وعلومُها وتواريخُها وآدابُها، وَعَلَىٰ الجُمْلَةِ، فَإِنَّها صَارَتْ عِنْدَهُمْ أَمْراً تافِهاً لا مَعْنَىٰ لَهُ ولاَ رَغْبَةَ فِيهِ، وَهِيَ سائِرَةٌ فِي طَرِيقِ الاضْمِحْلاَلِ بِمَا تَغَلَّبَ عَلِيْهَا مِنَ العُجْمَةِ وشُيوعِها عَلَىٰ أَلْسِنَةِ أَهْلِ البِلادِ، وذَلِكَ فَضْلاً عَمَّا يُبْهِرُهُمْ كُلَّ يَوْمٍ مِنْ اقْتِدارِ الفاتِحِينَ وَمَا يَرَوْنَ مِنْ آثارِ سَطْوَتِهِمْ ونُفُوذِ شَوْكَتِهِمْ وضَخَامَةِ مُلْكِهِمْ، وَمَا لَهُمْ مِنْ ضُرُوبِ التَّفَنُّنِ في العِلْمِ والاخْتِراعِ مِمَّا تَتَعاظَمُهُ نُفُوسُهُمْ يَوْماً بَعْدَ يَوْمٍ، وعَنْ قَلِيلٍ سَتُصْبِحُ هَذِهِ اللُّغَةُ عِنْدَهُمْ كأَنْ لَمْ تَغْنَ بالأَمْسِ وَلَمْ تَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً. وَلِذَلِكَ كَانَ مِنْ أَوْجَبِ الواجِبِ في المُحَافَظَةِ عَلَىٰ بَقَاءِ الأُمَّةِ وصيانَةِ الجِنْسِيَّة بَيْنَهَا، إحياءُ لُغَتِها بَيْنَ عامَّةِ أَهْلِها وتَكْثِيرُ سوادِ أَهْلِ العِلْمِ مِنْهَا والتَّجَافِي بِهَا مَا أَمْكَنَ عَنْ لُغَاتِ الأَعَاجِمِ، إلاَّ الخاصَّةَ الَّذِينَ عَلَيْهِمُ المُعَوَّلُ فِي نَقْلِ عُلُومِهِمْ إِلَيْنَا ونَشْرِها بِلُغَتِنَا، بِحَيْثُ نَلْحَقُ بِهِمْ فِي الحَضَارَةِ دُونَ الجِنْسِيَّةِ. وَهَذَا إِنَّمَا يَتِمُّ اليومَ بأَنْ تَنْهَضَ الأُمَّةُ بَنفْسِهَا لِهَذَا الأَمْرِ الخَطِيرِ وَيَتَجَرَّدَ لَهُ عُقَلاَءُ سَراتِهَا وأَهْلُ العِلْمَ فِيهَا، لاَ يَتَّكِلُون في ذَلِكَ إِلاَّ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، وَلاَ يَصْدُرونَ إِلاّ عَنْ عَزائِمِهِمْ؛ وَإِلاّ فَإِنّ اسْتِنَامَتَهُمْ إلى مَنْ سُلِّمَ إِلَيْهِمْ قِيادُ القَلَم وتَهْذِيبُ الأُمَّةِ فِي القُطْرِ لا يُعَدُّ إِلاَّ ضَرْباً مِنَ التَّغْرِيرِ بِمَصْلَحَتِهِمْ

وَالإعَانَةِ عَلَىٰ اضْمِحْلالِهِمْ؛ وَمَا ظَنُّكَ بِقَوْمٍ بَعْضُهُمْ مغلوبٌ لِسَيْطَرَةِ الأجْنَبِيِّ يَعْمَلُ بِمَا يوعَزُ إِلَيْهِ لاَ بِمَا يَراهُ، وَبَعْضُهُمْ مُنْقادٌ لِسُلْطَانِ التَّعَصُّبِ، وَهُوَ هادِمٌ لأرْكَانِ العِلْم من قواعِدِها، ذاهِبٌ بِرُسومِ الجِنْسِيَّة من أصْلِها، مُغْرِقٌ لهذه الشِرْذِمَةِ الباقِيَةِ في لُجٍّ لاَ يُعرَفُ لَهُ دَرْكٌ ولا ساحِلٌ، وبَعْضُهُمْ مُقِيمٌ في ظِلالِ الجَهْلِ والأُمِّيَّةِ لا يُمَيِّزُ الأَلِفَ مِنَ الرَّاءِ، وَلاَ التَّاءَ مِنَ اليَاءِ... ثُمَّ لِيَعْلَمُوا أنَّ العامِلَيْنِ اللَّذَيْنَ يتنازعان الأُمَّةَ لِهَذَا الوقْتِ لِكِلَيْهِمَا وِجْهَةٌ واحِدَةٌ يلْتَقِيَانِ عِنْدَهَا وَإِنِ اخْتَلَفَ طَرِيقُهُمَا، وغَرَضٌ واحِدٌ يَرْمِيانِ إِلَيْهِ وَإِنْ تبايَنَ مَوْقِفُهُمَا، أَلا وَهُوَ اسْتِئْصَالُ أُرومَةِ الجِنْسِيَّةِ والذَّهابُ بآثارِ الوَطَنِيَّةِ؛ فإنِ اسْتَيْقَظُوا لِمَا أُرْصِدَ لَهُمْ، وبادَرُوا الأَمْرَ قَبْلَ مَوْقِعِهِ، وَإِلاَّ فَهَذِهِ لُغَتُهُمْ عَنه قَلِيلٍ سَتَسْقُطُ مِنْ عَالِمَ الأَقْلامِ وتُسْتَبْدَلُ بِرَطَانَةٍ أعْجَمِيَّةٍ، بَلْ تُصْبِحُ أَلْسِنَتُهُمْ أشْبَهَ بألْسِنَةِ أصْحَاب الصَّرْحِ، وأَشْرَاطُ الأَمْرِ بَادِيَةٌ مِنَ الآن، فَلْيَعْتَبِرُوها، وَإِذَا مضَىٰ عَلَىٰ هَذَا زَمَنٌ يَسيرٌ بَقِيَتِ اللُّغَةُ مَحْصُورةً فِي المساجِدِ والمحاكِم الشَّرْعِيَّةِ، وَلَمْ تَجِدْها فِي المحادَثَاتِ اليوميّةِ إلاَّ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ أقوامٍ مِنَ الفلاَّحِينَ وَأَهْلِ البادِيَةِ لا يُطْلَقُ ٱسْمُ العَرَبِيِّ إلاَّ عَلَىٰ شَراذِمَ مِنْ أُولَئِكَ، وَبِئْسَ الخَلْفُ.

وَصْفُ شِعْرِ شكسبير Shakespeare

«تعريب محمد السُباعي»[١].

شكسبير Shakespeare مِنْحةُ الطبيعة وجَائِزَةُ الدَّهْرِ، أَدّاه إِلينا الحَظُّ فِي سُكوتٍ، فتناوَلْناهُ فِي سكوتٍ، كأَنَّما هُوَ شَيْءٌ صَغِيرُ الشأْنِ، قليلُ الخَطَرِ، وَإِنَّهُ في الواقِعِ النِّعْمَةُ لا تُقدَّرُ، والهِبَةُ لا يُحَدُّ مقدارُهَا ولا يُحْصَرُ.

مِنْ أَسْبَابِ عَظَمَةِ شكسبير براعَةُ تصويرِهِ للأَشْخَاصِ والأشْيَاءِ، وَلاَ أَحْسَبُ أَنَّ إِنساناً يماثِلُهُ فِي تِلْكَ القُوَّةِ المُخْتَرِعَةِ الثَّاقِبَةِ الهادِئَةِ، فإِذَا نَظَرَ إِلىٰ شَيْءٍ لَمْ يَنْظُرْ مِنْهُ إِلىٰ ذَلِكَ الوَجْهِ أَوْ ذَاكَ، بَلْ إِلىٰ صَمِيم لُبِّهِ، وَكأَنَّ ذَلِكَ المَنْظُورَ يَتَحلَّلُ أَمَامَهُ فِي ذَوْبٍ مِنْ الضِّيَاءِ، فَتَنْكَشِفُ لَهُ

---

(١) محمد [بن محمد] السباعي [١٢٩٨ ـ ١٣٥٠هـ = ١٨٨١ ـ ١٩٣١م].

هو أحد كتّاب هذا العصر، الممتازين بالبراعة في الترجمة من الإنكليزية إلى العربية، المعروفين بالتمكُّن في كلتا اللغتين، على قِلَّة المتمكِّنين فيهما معاً، إلا أنَّهُ في ترجمته أميل إلى التندُّر بالغريب وتدوين التراكيب الجَزْلة منه إلى السلاسة والرِّقَّة، ولعاً باللغة العربية، وشَغَفاً بإحيائها، فَمَنْ لا يَنْظُرُ إلى الكتابَةِ بالعَيْنِ التي يَنْظُرِ بها إليها يرىٰ في كتابَتِهِ أحياناً من التَّعْقِيدِ والمُشادَّةِ غير ما يراه. أما كَلِمتُهُ هذه، فهي مقتطَفَةٌ من كتاب «الأبطال» لكارليل، الذي ترجمَه إلى اللغة العربية.

دخائِلُ تركيبهِ وبَواطِنُ بِنَائِهِ، ونَحْنُ نُسَمِّي ذَلِكَ إبداعاً واخْتِراعاً وَخَلْقاً شِعْرِياً، وَمَا هُوَ لَوْ تَأَمَّلْتَ إلاّ النَّظَرُ الدَّقِيقُ المُسْتَوْعِبُ للشَّيْءِ المُحِيطُ بظاهِرِهِ وباطِنِهِ.

ما رواياتُ شكسبير إلاّ ثَمَرَةُ الطَّبِيعَةِ، وَلَهَا جَلالُ الطَّبيعةِ وعُمْقُهَا، وَمَا صناعَتُهُ بصناعَةٍ، إنّما هِيَ وَحْيٌ يَتَدَفَّقُ بِهِ طَبْعُهُ عَفْواً، ويَهْطِلُ بِهِ خاطِرُهُ سَحًّا دِراكاً[١].

إن شكسبير نايٌ تَتناوَلُهُ الطبيعةُ، فَتَتَرَنَّمُ فِيهِ بأشْجَىٰ نغماتِها، وَتُخْرِجُ مِنْهُ أَشْهَىٰ أصواتِها، وَلَعلَّ الأُمَمَ الَّتِي سَتَجِيءُ بَعْدَ آلافِ السِّنِينَ سَتَجِدُ فِي شَكِسْبِيرَ هَذَا مَعَانِيَ جَدِيدَةً وَبَيَاناً لألغازِ حَيَاتِهِم.

كَانَ لِشَكِسْبير حَظُّهُ مِنْ الهُمُومِ وَالأحْزَانِ وقِسْطُهُ مِنَ القُرُوحِ وَالأشْجانِ، وَأَغانِيهِ تَشِفُّ عَمّا كَابَدَهُ مِنْ غُصَصِ الزَّمَنِ، وَتَجَرَّعَ مِنْ مرَارَةِ المِحَنِ. وَقَدْ أفالَ الرَّأْيَ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ كَانَ خِلْواً مِنَ الأَسَىٰ صَفْواً مِنْ القَذَىٰ، فَأَنَّىٰ لِرَجُلٍ أَنْ يُصَوِّرَ أَمْثَالَ هامْلِيتْ وكوريالانَاسْ ومَاكَبِثْ[٢] وغَيْرِ هَذِهِ مِنْ القُلُوبِ المُتَأَلِّمَةِ إلاّ وَقَدْ عَرَفَ قَلْبُهُ الكبيرُ الأَلَمَ.

---

(١) الدِّراك: المتلاحق المتَّصِل.

(٢) أسماءُ أشخاصِ بعض روايات شكسبير.

إِذا خُيِّرْنَا بَيْنَ أَنْ نَتْرُكَ شكسبير أَوْ بِلاَدَ الهِنْدِ، نقولُ سَواءٌ حَكَمْنَا الهِنْدَ أَوْ لَمْ نَحكُمها، فَلاَ غِنَىٰ لَنَا عَنْ شكسبير. فَسَيجِيءُ يَوْمٌ يُصْبِحُ فِيهِ أَبْنَاءُ بريطَانِيَة مُبَعْثَرِينَ فِي نَواحِيَ الكُرَةِ، وَحِينَئِذٍ يَكُونُ شكسبير المَلِكَ الَّذِي يَضُمُّنَا جَمِيعاً.

الشِّعْرُ

«لمصطفى [صادق] الرافعي»[1]

أَوَّلُ الشِّعْرُ اجْتِمَاعُ أَسْبَابِهِ، وَإِنَّمَا يُرْجَعُ فِي ذَلِكَ إِلى طَبْعٍ صَقَلَتْهُ الحِكْمَةُ، وفِكْرٍ جَلاَ صَفْحَتَهُ البَيَانُ. فَمَا الشِّعْرُ إِلاَّ لسانُ القَلْبِ إذا خاطَبَ القَلْبُ، وسَفِيرُ النَّفْسِ إذا ناجَتِ النَّفْسُ؛ وَلاَ خَيْرَ فِي لِسانٍ غَيْرِ مُبينٍ، ولا فِي سَفِيرِ غَيْرِ حَكيمٍ.

---

(١) «مصطفى [صادق بن عبد الرزاق] الرافعي» [١٢٩٨ ـ ١٣٥٦هـ = ١٨٨١ ـ ١٩٣٧م].

شاعر من شعراءِ العَصْرِ المُجِيدِين، وكاتِبٌ من كُتَّابِهِ المُتَأَدِّبينَ؛ وَيذْهَبُ في شِعْرِهِ مذْهَبَ شعراء المعاني، كالمُتَنَبِّي وابْنِ الرُّومِي وغَيْرِهِما من الَّذِينَ يَحْفَلُون بجمالِ المَعْنَى قبل جمالِ الأسلوب، فإنْ صَحَّ له الأَوَّلُ لا يبالي بالثاني، على أَنَّ لَهُ في كثيرٍ من الأَحْيانِ، خُصوصاً في النَّسِيبِ، ما يُعَدّ في طَبَقةِ الإبداعِ، حُسْنَ تَصوُّرٍ، وبَراعَةَ نَظْمٍ، ورِقَّةَ أسْلوبٍ.

ولو كَانَ طَيْراً يَتَغَرَّدُ لَكَان الطَّبْعُ لسانَهُ، وَالرَّأْسُ عُشَّهُ، وَالقَلْبُ رَوْضَتَهُ. وَلَكَانَ غِناؤُهُ ما تَسْمَعُهُ مِنْ أَفْواهِ المُجِيدِينَ مِنْ الشُّعَراءِ. وَحَسْبُكَ بِكلامٍ تَنْصَرِفُ إِلَيْهِ كُلُّ جارِحَةٍ، وَتُضَمُّ عَلَيْهِ كُلُّ جانِحَةٍ، وَيُجْنَىٰ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ لَتَحْسَبَ الشُّعَراءَ مِنَ النَّحْلِ، تَأْكُلُ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ، فَيَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ ألوانُهُ فِيهِ شفاءٌ لِلنَّاسِ.

وَكَأَنَّمَا هُوَ بَقِيَّةٌ مِنْ مَنْطِقِ الإنسانِ ٱخْتَبَأَتْ فِي زاوِيَةٍ مِنَ النَّفْسِ، فَمَا زَالَتْ بِهَا الحواسُّ حَتَّى وَزَنَتْها عَلَىٰ ضَرْباتِ القَلْبِ، وَأَخْرَجَتْها بَعْدَ ذَلِكَ أَلحاناً بِغَيْرِ إيقاع. ألاَ تَرَاهَا ساعَةَ النَّظْمِ كَيْفَ تَتَفَرَّغُ كُلُّهَا، ثُمّ تَتَعَاونُ، كأَنَّمَا تَبْحَثُ بِنُورِ العَقْلِ عَنْ شَيْءٍ غَابَ عَنْهَا فِي سُوَيْدَاءِ الفُؤَادِ وَظُلَمَاتِهِ. لِذَلِكَ كَانَ أَحْسَنُ الشِّعْرِ مَا تَتَغَنَّىٰ بِهِ قَبْلَ عَمَلِهِ، وَهِيَ طَرِيقَةٌ تَفَنَّنَ فِيهَا الشُّعَراءُ حَتَّىٰ لَكَانَ الحُطَيْئَةُ يَعْوِي فِي إِثْرِ القَوافِي عُواءَ الفَصِيلِ في إِثْرِ أُمِّهِ.

وَتَرَىٰ المُجيدَ مِنْ أَهْلِ الغِنَاءِ إذَا رَفَع عَقيرَتَهُ يَتَغَنَّىٰ، ذَهَبَ فِي التحرُّكِ مذاهِبَ، حَتَّى كَأَنَّمَا يَنْتَزِعُ كلَّ نَغْمَةٍ مِنْ مَوْضِعٍ فِي نَفْسِهِ، فَيَتَأَلَّفُ مِنْ ذَلِكَ صَوْتٌ إِذَا أَجَالَ حَلْقَهُ فِيهِ وَقَعَتْ كُلُّ قِطعةٍ مِنْهُ في مِثْلِ مَوْضِعِهَا مِنْ كُلِّ مَنْ يَسْمَعُ، فَلاَ يَلْبَثُ أَنْ يَسْتَفِزَّهُ طَرَبُهُ، كأَنَّمَا انجَذَبَ قَلْبُهُ؛

وتَصْبُو نَفْسُهُ، كأَنَّمَا أُخِذَ حِسُّه. لا فَرْقَ في ذَلِكَ بَيْن أعْجَميٍّ وعَرَبيٍّ. ومِنْ أجْلِ هَذَا تَرَىٰ أَحْسَنَ الأصْواتِ يَغْلِبُ عَلَىٰ كُلِّ طَبْعٍ، وَإِنَّمَا الشاعِرُ والمُغَنِّي في جَذْبِ القُلُوبِ سواءٌ، وَفِي سِحْرِ النُّفُوسِ أكْفَاءُ. إلاّ أَنَّ هَذَا يُوحي إلىٰ القَلْبِ، وذاكَ يَنْطِقُ عَنْهُ. وَأَحَدُهُمَا يَفِيضُ عليهِ، وَالثَّانِي يَأْخُذُ مِنْهُ. وَالوَيْلُ لِكِلَيْهِمَا إذَا لَمْ يُطْرِبْ هَذَا وَلَمْ يُعْجِبْ ذَاكَ.

وَالشِّعْرُ مَوْجُودٌ فِي كُلِّ نَفْسٍ مِن ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ. فَإِنَّكَ لَتَسْمَعُ الفَتاةَ في خِدْرِها، وَالمَرْأَةَ فِي كِسْرِ بَيْتِهَا، وَالرَّجُلَ وَقَدْ جَلَسَ فِي قَوْمِهِ، وَالصَّبِيَّ بَيْنِ إخْوَتِهِ، يَقُصُّونَ عَلَيْكَ أَضْغَاثَ أَحْلامٍ فَتَجِدُ فِي أثْنَاءِ كلامِهِمْ مِن عَبَقِ الشِّعْرِ مَا لَوْ نَسَمْتَهُ لَفَغَمَكَ[1]. وَحَسْبُكَ أنْ تكْسِرَ وِسادَكَ تَتَحدَّثُ إِلَيْهِمْ، فَتراهُ طائِراً بَيْنَ أَمْثالِهِمْ وَفِي فَلْتاتِ أَلْسِنَتِهِم، وَهُوَ كأَنَّمَا قَدْ ضَلَّ أَغْشاشَهُ. وَلَقَدْ نَبَغَ فِيهِ مِنْ نِساءِ هٰذِهِ الأُمَّةِ شُمُوسٌ سَطَعْنَ فِي سَمَاءِ البَيانِ، وَطَلَعْنَ فِي أُفُقِ البلاغَةِ؛ وَلاَ يَزالُ النَّاسُ إلى اليَوْم يَرْوُونَ للخَنْساءِ وَجَنوبَ وعُلَيَّةَ وَعِنان وَنَزْهُونَ وَوَلاَّدةَ وَغَيْرِهِنَّ، وَبِحَسْبِكَ قَوْلُ النُّواسِيِّ:

---

(١) فَغَمَه الطِّيبُ: سَدَّ خياشِيمَهُ.

مَا قُلْتُ الشِّعْرَ حَتَّىٰ رَوَيْتُ لِسِتِّينَ ٱمْرَأَةً، مِنْهُنَّ الخَنْسَاءُ وَلَيْلَىٰ.

ولَوْ كَانَ الشِّعْرُ هَذِهِ الألْفاظَ المَوْزُونَةَ المُقَفَّاةَ لعدَدْنَاهُ ضَرْباً مِنْ قواعِدِ الإعْرَابِ، لا يَعْرِفُهَا إلاَّ مَنْ تَعَلَّمَها، وَلَكِنَّهُ يَتَنَزَّلُ مِنَ النَّفْسِ مَنْزَلَةَ الكلامِ، فَكُلُّ إِنْسانٍ يَنْطِقُ بِهِ، ولا يُقيمُهُ كُلُّ إنسانٍ. وَأَمَّا مَا يَعْرِضُ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ الوَزْنِ والتَّقْفِيَةِ، فَكَمَا يَعْرِضُ للكلامِ مِنَ ٱسْتِقامَةِ التَّرْكِيبِ وَالإعْرَابِ. وَإِنَّكَ إِنَّمَا تَمْدَحُ الكَلاَمَ بِإِعْرَابِهِ، وَلاَ تَمْدَحُ الإعْرَابَ بِالكلامِ.

وَلَمْ أَقْرَأْ أَجْمَعَ فِيهِ مِنْ قَوْلِ حَكِيمِ العَصْرِ، وَإِمَام الإِفْتَاءِ فِي مِصْرَ[١]: «لَوْ سَأَلُوا الحقيقةَ أَنْ تَخْتَارَ لَهَا مَكاناً تُشْرِفُ مِنْهُ عَلَى الكَوْنِ لما ٱخْتَارَتْ غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الشِّعْرِ» وَلاَ فِيمَا قالُوهُ فِي الشُّعَرَاءِ أَجْمَعَ مِنْ قَوْلِ كَعْبِ الأَحْبَارِ: «الشُّعَرَاءُ أناجِيلُهُمْ في صُدُورِهِمْ، تَنْطِقُ أَلْسِنَتُهُمْ بالحِكْمَةِ».

وَلَمْ يَكُنْ لِأوائلِ العَرَبِ مِنَ الشُّعراءِ إلا الأَبْيَاتُ يَقُولُها الرَّجُلُ فِي الحاجَةِ تَعْرِضُ لَهُ، كَقَوْلِ دُويدِ بنِ زَيْدٍ حِينَ حَضَرَهُ المَوْتُ، وهُوَ مِنْ قَدِيمِ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ [من

(١) يُرِيدُ به المَرْحومَ الشَّيْخ محمد عَبْدُه.

الرجز]:

الْـيَـوْمَ يُـبْـنَـىٰ لِـدُوَيْـدٍ بَـيْـتُـهُ

لَـوْ كَـانَ لِـلـدَّهْـرِ بِـلًـى أَبْـلَـيْـتُـهُ

أَوْ كَـانَ قِـرْنِـي وَاحِـداً كَـفَـيْـتُـهُ

وإِنَّمَا قُصِّدَتِ القَصَائِدُ عَلَىٰ عَهْدِ عبد المُطَّلِبِ أَوْ هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ.

وَهُنَاكَ رَفَعَ ٱمْرُؤُ القَيْسِ ذَلِكَ اللِّوَاءَ، وَأَضَاءَ تِلْكَ السَّمَاءَ الَّتِي مَا طاوَلَتْهَا سَمَاءُ. وَهُوَ لَمْ يَتَقَدَّمْ غَيْرَهُ إلا بِمَا سَبَقَ إِلَيْهِ مِمّا ٱتَّبَعَهُ فِيهِ مَنْ جَاءَ بَعْدَهُ. فَهُوَ أَوَّلُ مَنِ ٱسْتَوْقَفَ عَلَىٰ الطُّلُولِ، وَوَصَفَ النِّسَاءَ بِالظِّبَاءِ والمَهَى وَالبِيْضِ، وَشَبَّهَ الخَيْلَ بالعُقْبَانِ والعِصِيِّ، وَفَرَّقَ بَيْنَ النَّسِيبِ وَمَا سِواهُ مِنَ القَصِيدَةِ، وَقَرَّبَ مآخِذَ الكَلام، وَقَيَّدَ أَوابِدَهُ، وَأَجَادَ الاسْتِعارَةَ وَالتَّشْبِيهَ. وَلَقَدْ بَلَغَ مِنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَتَعَنَّتُ عَلَىٰ كُلِّ شاعِرٍ بِشِعْرِهِ.

ثُمَّ تَتابَعَ القارِضُونَ مِنْ بَعْدِهِ، فَمِنْهُمْ مَنْ أَسْهَبَ فَأَجَادَ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَكَبَّ[١] كَمَا يَكْبُو الجوادُ، وَبَعْضُهُمْ كَانَ

(١) أَكَبَّ: انْصَرَعَ.

كَلاَمُهُ وَحْيَ الملاحِظِ، وفريقٌ كانَ مِثْلَ سُهَيْلٍ فِي النُّجُوم، يُعَارِضُها وَلاَ يَجْرِي مَعها. وَلَقَدْ جَدُّوا فِي ذَلِكَ حَتَّىٰ أَنَّ مِنهُمْ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنَّ لِسَانَهُ لَوْ وُضِعَ عَلَىٰ الشَّعْرِ لَحَلَقَهُ، أَوِ الصَّخْرِ لَفَلَقَهُ.

ذَلِكَ أيامَ كانَ لِلْقَوْلِ غُرَرٌ فِي أَوْجَهٍ وَمَواسِمَ، بَلْ أَيَّامَ كانَ مِنْ قَدْرِ الشُّعَرَاءِ أَنْ تَغْلِبَ عَلَيْهِمْ أَلقابُهُمْ بِشِعْرِهِمْ حَتَّى لاَ يُعْرَفُونَ إلاَّ بِهَا، كالمُرَقِّشِ والمُهَلْهِلِ والشَّرِيدِ والمُمَزَّقِ والمُتَلَمِّسِ والنَّابِغَةِ وَغَيْرِهِمْ. ومِنْ قَدْرِ الشِّعْرِ أَنْ كانَتِ القَبيلَةُ إذا نَبَغَ فِيهَا شاعِرٌ أَتَتِ القبائِلُ فَهَنَّأَتْها بِذلك، وَصَنعَتِ الأطْعِمَةَ، وَٱجْتَمَعَ النساءُ يَلْعَبْنَ بِالمَزاهِرِ كَما يَصْنَعْنَ فِي الأَعْرَاسِ. وَأَيَّامَ كَانُوا لاَ يُهَنِّئُونَ إلا بغلامٍ يُولَدُ، أو شَاعِرٍ يَنْبُغُ، أَوْ فَرَسٍ تَنْتُجُ. وَكَانَتِ البناتُ يَنْفُقْنَ بعد الكسادِ إِذا شَبَّبَ بِهِنَّ الشُّعَراءُ.

ولَمْ يَتْرُكِ العربُ شَيْئاً مِمَّا وَقَعَتْ عَلَيْهِ أَعْيُنُهُمْ أَوْ وَقَعَ إِلىٰ آذانِهِمْ أَوِ اعْتَقَدُوهُ في أَنْفُسِهِم إلا نَظَمُوهُ فِي سِمْطٍ مِن الشِّعْرِ، وَادَّخَرُوهُ فِي سَفَطٍ مِنَ البَيَانِ، حَتَّىٰ إِنَّكَ لَتَرَىٰ مَجْمُوعَ أَشْعَارِهِمْ دِيواناً فِيهِ مِنْ عوائِدِهِمْ وَأَخْلاقِهِمْ وَآدابِهِمْ وَأَيَّامِهِمْ، وَمَا يَسْتَحْسِنُونَ وَيَسْتَهْجِنُونَ حَتَّىٰ مِنْ دَوابِّهِم. وَكَانَ القائِلُ مِنْهُمْ يَسْتَمِدُّ عَفْوَ هاجِسِهِ، وَرُبَّمَا لَفَظَ

الكلمَةَ تَحْسَبُها مِنَ الوَحْيِ، وَمَا هِيَ مِنَ الوَحْيِ، وَلَمْ يَكُنْ يُفَاضِلُ بَيْنَهُمْ إلا أَخلاقُهُمْ الغالِبَةُ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ. فَزُهَيْرُ أَشْعَرُهُمْ إذَا رَغِبَ، وَالنَّابِغَةُ إذَا رَهِبَ، وَالأَعْشَىٰ إِذَا طَرِبَ، وعَنْتَرَةُ إِذا كَلِبَ، وَجَريرُ إذا غَضِبَ؛ وَهَلُمَّ جرّاً.

ولِكُلِّ زَمَنٍ شِعْرٌ وشُعَراءُ، وَلِكُلِّ شاعِرٍ مِرآةٌ مِنْ أَيَّامِهِ، فَقَدِ ٱنفَرَدَ ٱمْرُؤُ القَيْسِ بِمَا عَلِمْتَ، واخْتَصَّ زُهَيْرُ بالحَوْلِيَّاتِ، وَاشْتَهَرَ النَّابِغَةُ بالاعْتِذَارَاتِ، وَٱرْتَفَعَ الكُمَيْتُ بالهاشِمِيَّاتِ، وَشَمَخَ الحُطَيْئَةُ بأهاجِيهِ، وسَاقَ جَريرُ قلائِصَهُ، وبَرَّزَ عَدِيٌّ فِي صِفَاتِ المَطِيَّة، وطُفَيْلُ فِي الخَيْلِ، وَالشَّمَّاخُ في الحَمِيرِ، وَلَقَدْ أُنْشِدَ الوليدُ بْنُ عبد الملك شَيْئاً مِن شِعْرِهِ فِيها، فَقَالَ: مَا أَوْصَفَه لَهَا! إنّي لأَحْسَبُ أَنَّ أَحدَ أَبَوَيْهِ كانَ حِماراً... وحَسْبُكَ مِنْ ذِي الرُّمَّةِ، رَئِيسِ المُشَبِّهِينَ الإسْلاَمِيِّينِ، أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «إذَا قُلْتُ كأنْ وَلَمْ أَجِدْ مَخْلَصاً مِنْهَا فَقَطَعَ اللَّهُ لساني» وَلَقَدْ فَتَنَ النَّاسَ ابنُ المُعْتَزِّ بتَشْبِيهاتِهِ، وَأَسْكَرَهُمْ أَبو نُواسٍ بخَمْرِيّاتِهِ، ورَقَّتْ قُلوبُهُم عَلَىٰ زُهْدِيّات أبي العتاهِيةِ، وَجَرَتْ دُمُوعُهُمْ لِمَرَاثِي أبي تَمّام، وَٱبْتَهَجَتْ أَنْفُسُهُمْ بِمَدَائِحِ البُحْتُرِيّ، وَرَوْضِيّات الصَّنَوْبَرِي، وَلَطَائِفِ كُشاجُم.

فَمَنْ رَجَّعَ بَصَرُهُ فِي ذَلِكَ، وَسَلَكَ فِي الشِّعْرِ بِبَصيرَةٍ

المَعَرِّي، وكانَتْ لَهُ أَدَاةُ ٱبْنِ الرُّومِي، وفِيهِ غَزَلُ ابنِ أَبِي رَبِيعَة، وَصَبَابَةُ ٱبْنِ الأَحْنَفِ، وَطَبْعُ ابن بُرْدٍ، وَلَهُ اقْتِدارُ مُسْلِمٍ، وأجْنِحَةُ دِيك الجن، وَرِقَّةُ الجَهْمِ، وفَخْرُ أَبِي فِراسٍ، وحَنِينُ ابْنِ زَيْدُونَ، وَأَنَفَةُ الرَّضِيِّ، وَخَطَراتُ ٱبْنِ هانىء، وَفِي نَفْسِهِ مِنْ فُكَاهَةِ أَبِي دُلامَةَ، وَلِعَيْنَيْهِ بَصَرُ ابنِ خَفَاجَةَ بِمَحاسِنِ الطَّبِيعَةِ، وبَيْنَ جَنْبَيْهِ قَلْبُ أَبِي الطَّيِّب، فَقَدِ اسْتَحَقَّ أَنْ يَكُونَ شاعِرَ دَهْرِهِ وَصَنَّاجَةَ(١) عَصْرِهِ.

وَأَبْرَعُ الشُّعراءِ مَنْ كَانَ خاطِرُهُ هَدَفاً لِكُلِّ نادِرَةٍ، فَرُبَّمَا عَرَضَتْ للشَّاعِرِ أَحوالٌ مِمَّا لاَ يَعْنِي غَيْرَهُ، فَإِذَا عَلِقَ بِهَا فِكْرُهُ تَمَخَّضَتْ عَنِ بَدَائِعَ مِنْ الشِّعْرِ، فجاءَتْ بِهَا كالمُعْجِزَاتِ، وَهِيَ لَيْسَتْ مِن الإِعْجَازِ فِي شَيْءٍ، وَلاَ فَضْلَ للشاعِرِ فِيهَا إِلاَّ أَنَّهُ تَنَبَّهَ لَهَا. ومَنْ شَدَّ يَدَهُ عَلَىٰ هَذَا جَاءَ بالنَّادِرِ مِنْ حَيْثُ لاَ يَتَيَسَّرُ لِغَيْرِهِ وَلاَ يَقْدِرُ هُوَ عَلَيْهِ فِي كُلِّ حِينٍ.

وَلَيْسَ بشاعِرٍ مَنْ إِذَا أَنْشَدَكَ لَمْ تَحْسَبْ أَنَّ سَمْعَهُ مَخْبُوءٌ فِي فؤادِكَ، وَأَنَّ عَيْنَكَ تَنْظُرُ فِي شَغَافِهِ؛ فَإِذَا تَغَزَّلَ أَضْحَكَكَ إِنْ شَاءَ، وَأَبْكَاكَ إِنْ شَاءَ؛ وَإِذَا تَحَمَّسَ فَزِعْتَ

(١) الصَّنَّاجَة: طَبْلٌ معروف.

لِمَسَاقِطِ رَأْسِكَ؛ وَإِذَا وَصَفَ لَكَ شَيْئاً هَمَمْتَ بِلَمْسِهِ حَتَّىٰ إِذَا جِئْتَهُ لَمْ تَجِدْهُ شَيْئاً؛ وَإِذا عَتَبَ عَلَيْكَ جَعَلَ الذَّنْبَ لَكَ أَلْزَمَ مِنْ ظِلِّكَ؛ وَإِذَا نَثَلَ كِنانَتَهُ رَأَيْتَ مَنْ يَرْمِيهِ صَرِيعاً لا أَثَرَ فِيهِ لِقَذِيفَةٍ وَلاَ مُدْيَةٍ، وَلٰكِنَّها كَلِمةٌ فُتِحَتْ عَلَيْهَا عَيْنُهُ، أَوْ وَلَجَتْ إِلىٰ قَلْبه مِنْ أُذُنِهِ فَٱسْتَقَرَّتْ فِي نَفْسِهِ، وَكَأَنَّما ٱسْتَقَرّ عَلَىٰ جَمْرٍ؛ وإذا مَدَحَ حَسِبْتَ الدُّنْيا تُجاوِبُهُ، وَإِذَا رَثَىٰ خِفْتَ عَلَىٰ شِعْرِهِ أَنْ يَجْرِي دُمُوعاً، وَإِذا وَعَظَ اسْتَوْقَفَتِ الناسَ كَلِمَتُهُ وَزَادَتْهُمْ خُشوعاً، وَإِذَا فَخَرَ ٱشْتَمَّ مِنْ لِحْيَتِهِ رَائِحَةَ المُلْكِ فَحَسِبْتَ أَنَّما حَفَّتْ بِهِ الأَمْلاَكُ وَالمَواكِبُ.

وجِماعُ القَوْلِ فِي بَرَاعَةِ الشَّاعِرِ أَنْ يَكُونَ كلامُهُ مِنْ قَلْبِهِ، فَإِنَّ الكَلِمَةَ إذا خَرَجَتْ مِنْ القَلْبِ وقَعَتْ فِي القَلْبِ، وَإِذَا خَرَجَتْ مِنَ اللِّسانِ لَمْ تَتَجاوَزِ الآذانَ.

وَلَقَدْ رَأَيْنَا فِي النَّاسِ مَنْ تَكَلَّفَ الشِّعْرَ عَلَىٰ غَيْرِ طَبْعٍ فِيهِ، فكانَ كالأَعْمَىٰ يَتَناولُ الأَشْياءَ لِيُقِرَّهَا فِي مَواضِعِها، وَرُبَّما وَضَعَ الشَّيْءَ الواحِدَ في مَوْضِعَيْنِ أَوْ مواضِعَ وهو لا يَدْرِي.

وَأَبصَرْنَا فِيهِمْ كَذَلِكَ مَنْ يَجِيءُ باللَّفْظِ المُوَنَّقِ

وَالوَشْي النَّضِيرِ، فإذَا نَثَرتَ أَوْرَاقَهُ لَمْ تَجِدْ فِيهَا إلاَّ ثَمراتٍ فَجَّةً(١).

وَرَأَيْنَا فِي المَطْبُوعِينَ مَنْ أَثْقَلَ شِعْرَهُ بأَنْواعٍ مِنْ المعانِي، فكانَ كالحَسْنَاءِ تَزَيَّدَتْ مِنْ الزِّينة حَتَّىٰ سَمُجَتْ، فَصُرِفَتْ عَنْهَا العُيونُ بِمَا أرادَتْ أنْ تَلْفِتَها بِهِ، عَلَىٰ أَنَّ أَحْسَنَ الشِّعْرِ مَا كَانَتْ زِينَتُهُ مِنْهُ، وكُلُّ ثَوْبٍ لَبِسَتْهُ الغانِيَةُ فَهُوَ مَعرِضُها.

وَهُوَ عِنْدِي أَرْبَعَةُ أَبياتٍ: بَيْتٌ يُسْتَحْسَنُ، وَبَيْتٌ يَسيرُ، وبَيْتٌ يَنْدُرُ، وَبَيْتُ يُجَنُّ بِهِ جُنوناً؛ وَمَا عَدَا ذَلِكَ فَكَالشَّجَرَةِ التي نُفِضَ ثَمَرُهَا، وَجُنِيَ زَهْرُهَا لا يَرْغَبُ فِيهَا إلاّ مَحْتَطِبٌ.

أَمّا مذاهِبُهُ الَّتِي أبانوها من الغَزَلِ وَالنَّسِيبِ وَالمَدْحِ وَالهِجاءِ وَالوَصْفِ وَالرِّثَاءِ وَغَيْرِها، فَهِيَ شُعوبٌ مِنْهُ، وَمَا ٱنْتَهَىٰ المَرْءُ مِنْ مَذْهَبٍ فِيْهِ إلاَّ إلىٰ مَذْهَبٍ، وَلاَ خَرَجَ مِنْ طَرِيقٍ إلاَّ إلى طَرِيقٍ؛ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ؟ وَمَا دَامَتِ الأَعْمَارُ تَتَقَلَّبُ بالنَّاسِ فالشِّعْرُ أَطْوارٌ؛ آوِنَةً تَخْطُرُ فِيهِ نَسَماتُ الصَّبَا مَا بَيْنَ أَفْنَانِ الوَصْفِ إلى أَزْهارِ

---

(١) الفَجُّ من الفواكه: الذي لم يَنْضُجْ.

الغَزَلِ، وَيَتَسَبْسَبُ فيه ماءُ الشَّبابِ مِنْ نَهْرِ الحياةِ إلى مَشْرَعَةِ الأَمَلِ؛ وطَوْراً تَراهُ جَمَّ النَّشاطِ تَكادُ تُصْقَلُ بمائِهِ السُّيُوفُ، وتُفْرَقُ بِحَدِّهِ الصُّفُوفُ؛ وَحِيناً تَجِدُهُ وَقَدْ أَلْبَسَهُ المَشِيبُ ثوبَ الاعْتِبار، وجَمَّلَهُ بِمَسْحَةٍ مَنِ الوَقارِ، وَهُوَ فِي كُلِّ ذَلِكَ يَرْوِي عَنِ الأَيّامِ وَتَرْوِي عَنْهُ، وَمَا أَكْثَرَ فُنُونَ الشِّعْرِ إذا رَوَيْتَها عَنْ أَفانينِ الأَيّامِ.

وَأَمّا مِيزانُهُ، فَاعْمَدْ إلىٰ مَا تُرِيدُ نَقْدَهُ فَرُدَّهُ إلى النَّثْرِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتَ حَذْفَ شَيْءٍ مِنْهُ لاَ يُنْقِصُ مِنْ مَعْنَاه، أَوْ كَانَ في نَثْرِهِ أَكْمَلَ مِنْهُ مَنْظُوماً، فذلك الهَذَرُ بِعَيْنِهِ أَوْ نَوْعٌ مِنْهُ. وَلَنْ يَكونَ الشِّعْرُ شِعْراً حَتَّىٰ تَجِدَ الكَلِمَةَ مِنْ مَطْلَعِها لِمَقْطَعِها مُفْرَغَةً فِي قالَبٍ واحِدٍ مِنْ الإجادَةِ.

ماهِيَّةُ اللُّغَةِ

«لسعادة أحمد فتحي باشا زَغْلُول»[1]

الفِكْرُ حركَةٌ نَفْسيَّةٌ يَحْتاجُ فِي ظُهُورِهِ إلى مَعُونَةِ الجهازِ المَخْصُوصِ الَّذِي يكونُ به الكلامُ. وَعَلَيْهِ، فالكلامُ هُوَ حَرَكَةُ ذَلِكَ الجهازِ المِنْبَعِثَةُ عَنْ مُجرَّدِ الطَّبْعِ، أَوِ

(١) «أحمد فتحي باشا زَغلول» [١٢٧٩ ـ ١٣٣٢هـ = ١٨٦٣ ـ ١٩١٤م].

=

المَدْفُوعَةُ بالإرادةِ للتَّعْبِيرِ عَنْ حَرَكَةٍ مِنْ حَرَكَاتِ النَّفْسِ. يَنْتُجُ مِنْ هَذَا أَنَّ الكَلاَمَ يَتَنَوَّعُ باخْتِلافِ الشّاراتِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَىٰ الأَفْكارِ، وَأَنَّ تِلْكَ الشَّارَاتِ تَنْقَسِمُ إلى قِسْمَيْنِ: طبيعِيَّةٍ وصناعِيَّةٍ.

فَالأُولىٰ: هي الَّتي تَصْدُرُ عَنِ الذَّاتِ مِنْ حَيْثُ هِيَ، أَي بِمُقْتَضَىٰ وُجودِها المادِّي. وَكُلُّ شاراتِ هذا القِسْمِ عَرَضِيَّةٌ، مِثْلُ شَارَاتِ اليَدِ وَالرَّأْسِ وَالعَيْنِ وَبَقِيَّةِ الأَعْضَاءِ، وَمِثْلُ الأَصْوَاتِ الَّتِيْ لَيْسَتْ أَلْفاظاً والكلامِ أَي: المَنْطِق.

وَالثَّانِيَةُ: خارَجَةٌ عَنْ الذَّاتِ، وَهِيَ تَحْدُثُ مِنْ تَأْثِيرِ الإنْسانِ فِي المَادِّيَّاتِ الخارِجَةِ عَنْهُ، وَكُلُّ شاراتِ هَذَا القِسْمِ جَوْهَرِيَّةٌ،بِمَعْنَىٰ أَنَّ لَهَا دَواماً طَوِيلاً كَانَ أَوْ قَصِيراً، كالأَعْلامِ وَالنَّقْشِ وَالرَّسْمِ وَالحَفْرِ وَالكِتابَةِ.

= هو نابِغَةُ الأُمَّةِ العربيّةِ عِلْماً وَفَضْلاً، وَنادِرَتُها ذَكاءً وَفَهْماً، وَأَقْدَرُ كُتَّابِها عَلَىٰ الترْجَمَةِ الصحيحَةِ الفَصِيحَةِ التي لا يَضِيعُ فيها مَعْنَىٰ ولا يَضْطَرِبُ فيها لَفْظٌ، وَما انْتَفَعَتْ هَذِهِ الأُمَّةُ في عَصْرِها الحاضِرِ بِعِلْمِ أَحَدٍ من عُلَمائها انْتِفاعَها بمؤلَّفاتِهِ ومُتَرجماتِهِ، وَيَمْتازُ في كتابَتِهِ بالبيانِ والإيضاحِ وَالدِّقَّةِ في وَضْعِ الأَلْفاظِ بإزاءِ معانِيها، فلا يَتَجَوَّزُ إلا قليلاً، ولا يَتَخَيَّلُ إلا نادِراً، ولا يُغْرِبُ ولا يَتَنَدَّرُ بحالٍ من الأَحْوالِ.

وَمِمَّا تَقَدَّمَ يَتَبَيَّنُ أَنَّ الكلامَ الطَّبِيعِيَّ عامٌّ، لِكَوْنِهِ مَفْهُوماً بذاتِهِ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ وَمِنَ الحَيْوَانِ أحْياناً، كَمَا هُوَ الحالُ بالنَّظَرِ لِشاراتِ الأَعْضاءِ وَأَصْوَاتِ الغَضَبِ أَوِ الاسْتِحْسَانِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكونَ هُنَاكَ ٱتِّفاقٌ سابِقٌ عَلَىٰ مَفْهُومِ تِلْكَ الشَّارَاتِ. وَعَلَىٰ خِلافِ ذَلِكَ الكَلامُ الصِّنَاعِيُّ أَوْ الاتِّفاقِيُّ، لأَنَّهُ عِبَارَةٌ عَنْ مَجْمُوعِ الألفاظِ المَخْصُوصَةِ المَوْضُوعَةِ لِلْمَعَانِي المَخْصُوصَةِ وعَنِ التَراكِيبِ أَو الصِّيَغِ النَّاتِجَةِ مِنْ تَأْلِيفِ هَذِهِ الأَلْفاظِ لتُوَصِّلَ إلىٰ الذِّهْنِ بواسطةِ الأُذُنِ أَوِ العَيْنِ معانِيَ مخصوصَةً مُتَّفَقاً عَلَيْهَا.

وَقَدْ يَتَأَتَّىٰ أَنْ يَكُونَ الكلامُ الصِّنَاعِيُّ عامّاً، أَي: إِنَّ كُلَّ النَّاسِ يُدْرِكُونَ المُرادَ مِنْهُ، كَالرَّسْمِ مَثَلاً، وَعَلَىٰ هَذَا يَتَّضِحُ خَطأُ تَعْرِيفِهِمُ اللُّغَةَ بأَنَّها أَصْوَاتٌ يُعَبِّرُ بِهَا كُلُّ قَوْمٍ عَنْ أغْراضِهِمْ.

وَالصَّحِيحُ أَنَّ اللُّغَةَ هِيَ مَجْمُوعُ العاداتِ المَخْصُوصَةِ الَّتِي تَجْرِي عَلَيْهَا كُلُّ أُمَّةٍ فِي التَّعْبِيرِ عَنْ أَغْرَاضِهَا بِواسِطَةِ الكَلامِ أَوِ الكِتَابَةِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُ مَعْنَىٰ الكلامِ.

وَلاَ يَصحُّ إطلاقُ ٱسْمِ اللُّغَةِ عَلَىٰ ذَلِكَ المَجْمُوعِ إلاّ إذا كَانَتِ النِّسْبَةُ تامَّةً بَيْنَ اللَّفْظِ وَمَدْلولِهِ، لأَنَّ قُوَّةَ اللُّغَةِ

مُتَوَقِّفَةٌ عَلَىٰ شِدَّةِ المُطَابَقَةِ، بِحَيْثُ إِنَّ الأُذُنَ أَوِ العَيْنَ تَرْسُمُ فِي ذِهْنِ السَّامِعِ أَوِ القَارِىءِ صُورَةَ المَدْلُولِ كَمَا هِيَ، ولا يَتِمُّ ذَلِكَ إِلا باجْتِماعِ شُروطٍ ثلاثَةٍ:

الشَّرْطُ الأَوَّلُ: أنْ يَكونَ لِكُلِّ مَدْلولٍ عَلامَةٌ خاصَّةٌ به تَدُلُّ عَلَيْهِ دائِماً وَلاَ تَدُلُّ عَلَىٰ غَيْرِهِ أَبداً.

الشَّرْطُ الثَّانِي: أنْ تَكُونَ هَذِهِ العَلامَةُ قابِلَةً للتَّغَيُّرِ بِتَغَيُّرِ المَدْلُولِ وَتَبعاً لَهُ.

الشَّرْطُ الثَّالِثُ: إنَّها تَكُونَ قَابِلَةً للاشْتِقَاقِ كَمَدْلُولِهَا، فَإِذا اشْتُقَّ مِنْهَا مَدْلولٌ اَشْتُقَّ مِنْهَا عَلاَمَةٌ دَالَّةٌ عَلَيْهِ بِالشُّرُوطِ عَيْنِهَا.

وَبِنَاءً عَلَىٰ ما تَقَدَّمَ تَكُونُ شُروطُ اللُّغَةِ الحَقِيقَةُ بِهَذَا الاسْمِ ثلاثَةً أيْضاً.

الأول: أن يَكُونَ تَعْبِيرُها مُحْكَماً، وذَلِكَ عبارَةٌ عَنْ تَمامِ المُطَابَقَةِ بَيْنَ الدَّالِّ والمَدْلُولِ، وَلاَ سَبِيلَ إِلى هَذَا إلاَّ إذا سَهُلَ اَسْتِعْمَالُ اللَّفْظِ بِقَدْرِ المَعْنَىٰ وَلَمْ يَزِدِ المَعْنَىٰ عَنِ اللَّفْظِ المُسْتَعْمَلِ لأَجْلِهِ، وهَذَا الشَّرْطُ صَعْبُ التَّوفُّرِ، فَمَا وُفِّقَتْ لُغةٌ حَتَّىٰ الآنَ لِنَيْلِ هَذِهِ المَزِيَّةِ، اللَّهُمَّ إلاَّ لُغَةَ عُلماءِ الرِّيَاضَةِ، بَلْ إِنْ اللُّغَاتِ الأُخْرَىٰ لَنْ تنالَها أَبداً.

الثَّانِي: الملابَسَةُ، وهي الخاصَّةُ المَوْجودَةُ فِي الأَلْفاظِ أَوِ التَّراكِيبِ، أي الصِّيَغُ، تِلْكَ الخاصَّةُ الَّتِي يُدْرَكُ بِهَا الفاهِمُ نَظَائِرَ المَدْلُولِ وَنقائِضَهُ، والملابَسَةُ تَقْتَضِي تَحْلِيلَ الفِكْرِ الإِنْسَانِيِّ، وَذَلِكَ غَيْرُ مَيسورٍ عادَةً فِي اللُّغَاتِ الأَصْلِيَّةِ إلا نادِراً.

الثَّالِثُ: الوُضوحُ التَّامُّ، وَهُوَ يَرْجِعُ لِلشَّرْطَيْنِ السَّابِقَيْنِ، وَلِصناعَةِ تَرْتِيبِ الأَلْفاظِ وَتَركِيبِ الجُمَلِ تَرْتِيباً وتَرْكِيباً يَنْتَفِي معهما الإِبْهامُ وَيَرْتَفِعُ الشَّكُّ وَالالْتِباسُ. ومِنَ اللُّغاتِ ما تَمِيلُ بأَهْلِها إِلىٰ الإِغْرابِ في التَّعْبِيرِ، وهذا هُوَ السَّبَبُ في ظُلْمَتِها وَتَعَسُّرِ فَهْمِهَا. وَكُلَّمَا كانَ القَوْلُ طَبِيعيّاً، أي: بَسيطاً، ٱزْدادَ وُضوحاً، فَالبَساطَةُ هِيَ أَمْثَلُ طُرُقِ الكلامِ، عَلَىٰ أَنَّهَا طَرِيقَةُ العِلْمِ وَالواقِعِ، وَهِيَ الَّتِي يَسْهُلُ بِهَا التَّعْبِيرُ عَنِ الأَفْكَارِ وَحَرَكاتِ النَّفْسِ كَمَا يَنْبَغِي.

وَكَأَنِّي بِكُمْ وَقَدِ اسْتَنْتَجْتُمْ مِمّا ذَكَرْتُ إِلى الآن خَطَرَ مَذْهَبِ التَّجوُّزِ أو الاشْتِراك في اللغة، وَذَكَرْتُمْ أَنَّهُ يَذْهَبُ بِجمالها، ويُخْفِي مِنْ وُضوح دَلالَتِها، وَيَجْعَلُهَا ثَقِيلَةً عَلَىٰ أَهْلِها، بَعيدَةَ المَنالِ عَلَىٰ طُلاَّبِها مِنَ الأُمَمِ الأُخْرَىٰ.

سَمِعْتُ كلاماً كَثِيراً في اللُّغاتِ الأَجْنَبِيَّةِ، وَأَنَّ لَهَا أَصْلاً أَوْ أُصُولاً تَرْجِعُ إِلَيْهَا وَتَسْتَمِدُّ رُوحَ التَّجَدُّدِ مِنْهَا،

فَأَهْلُهَا فِي حِلٍّ مِمَّا يَفْعَلونَ؛ وَأَمَّا نَحْنُ فَلا أَصْلَ لِلُغَتِنَا؛ وَيَبْنُونَ عَلَىٰ هَذِهِ المُقَدَّمَةِ نَتِيجَةً هِي أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ لا نُعرِّبَ كلمةً أعْجَمِيَّةً لِنُضِيفَها إلى لُغَتِنَا العَرَبِيَّةِ.

الحَقُّ أَنِّي ما فَهِمْتُ النِّسْبَةَ بَيْنَ تِلْكَ المُقَدَّمَةِ وَهَذه النَّتِيجَةِ، فَإِنِّي أَنْظُرُ إِلىٰ اللُّغَةِ اللاتِينِيَّةِ الَّتِي هِيَ أَصْلُ لُغاتِ أُمَمِ أوروبة المَعْرُوفَةِ بِهَذَا الاسْمِ، مِنْ فَرنساوِيَة وَتِليانيّة وأَنْدَلُسِيّة وَغَيْرِها، فَأَجِدُهَا لِغاتٍ مُمْتَازَةً تماماً عَنْ ذَلِكَ الأَصْلِ، بَلْ أَجِدُ الفرنساوي مِنْ حَيْثُ هُوَ لا يَعْرِفُ كَلِمَةً واحِدَةً مِنْ أَصْلِ لُغَتِهِ، وكَذَلِكَ بَقِيَّةُ مِنْ ذَكَرْنَا، وَأَرَىٰ أَنَّ كُلَّ لُغَةٍ حَيَّةٍ هِيَ لُغَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ قائِمَةٌ بِنَفْسِهَا، لَهَا قَواعِدُ خاصَّةٌ بِهَا وتَرَاكِيبُ وصِيَغٌ تمَيِّزُهَا عَنْ أَصْلِهَا تَماماً، فَإِذا ٱسْتعارُوا لِمُحْدَثٍ جَدِيدٍ ٱسماً مِنْ ذَلِكَ الأَصْلِ، فَإِنَّمَا هُمْ يَسْتَعِيرُونَهُ مِنْ لُغَةٍ أَعْجَمِيَّةٍ بالنَّظَرِ إلى لُغَتِهِمْ. ألا تَرُونَ أَنَّهُمْ لاَ يَقْصُرونَ الاسْتِعارَةَ عَلَىٰ اللُّغَةِ اللاتِينِيَّةِ وَيَتَعَدَّونَها إلى اليونَانِيَّةِ القَدِيمةِ وأَحْياناً يَسْتَعِيرونَ كَلِمَتَيْنِ مِنْ كُلِّ لُغَةٍ كلمة، وَيَنْحِتُونَهما وَيَصْقُلونَهُما ويَدْمِجُونَ هَذا المزيجَ في لُغَتِهِمْ، فَيَصِيرُ جُزْءاً مِنْهَا، وَيُفْسِحُونَ لَهُ في كُتُبِ اللُّغَةِ محلاً بَيْنَ كَلِمَتَيْنِ أَصْلِيَّتَيْنِ بحَسْبِ تَرْتِيبِ حُرُوفِهِ الأَبجَدِيَّةِ.

إِنَّهُمْ يَعْمَلُونَ أَكْثَرَ مِنْ هَذَا. إنَّ لِكُلِّ بَلَدٍ عاداتٍ في

أَكْلِها وَسُكْناها، ولِباسِها وَأَطْوارِهَا، وَيَتْبَعُ ذَلِكَ وُجودُ أَسْماءٍ عِنْدَ قَوْمٍ لِمُسَمَّياتٍ لا يَعْرِفُها قَوْمٌ آخَرونَ، إلاَّ أَنَّ التِّجَارَةَ وَطُرُقَ المُواصَلاتِ تَنْقُلُ هَذِهِ المُسَمَّياتِ أَوْ تَجْعَلُها تُشاهَدُ في أَماكِنِها مِن النازِحِينِ إِلَيْهَا، فَيَرَىٰ أَهْلُ البَلَدِ ما يَروقُ لَهُمْ مِنْ بَعْضِ تِلْكَ الخُصُوصِيّاتِ لِأَهْلِ البَلَدِ الآخَرِ، وَلاَ يَجِدُونَ مِنْ لُغَتِهِمْ نَصِيراً عَلَىٰ التَّعْبِيرِ عَنْهُ تَماماً، لَكِنَّهُمْ لاَ يَحْتَارُونَ وَلاَ يَقْصِدُونَ الاجْتِمَاعَ تِلْوَ الاجْتِمَاعِ وَلاَ يَفْتَرِقُونَ شِيَعاً وَأَحْزاباً، بَلْ يُقْدِمونَ عَلَىٰ تناوُلِ المُسَمَّى وَاسْمِهِ وَيَدْرُجونَ عَلَيْهِ مِنْ ساعَتِهِمْ، فَيَمْتَزِجُ بِلُغَتِهِمْ، وَيَعْرِفُهُ الكُلُّ، وَيَتَحَرَّوْنَ فِي حَدِيثِهِم أَنْ يَلْفِظُوه كَأَنَّهُمْ فِي نُطْقِهِمْ بِهِ مِنْ أَهْلِهِ. وَالأَمْثِلَةُ عَلَىٰ ذَلِكَ لا تُحْصَىٰ، يَعْرِفُهَا كُلُّ مَنْ تَعَلَّمَ لُغَةً واحِدَةً أَجْنَبِيَّةً. هُمْ يَعْمَلُونَ ذَلِكَ حَتَّىٰ فِي العُلومِ، فَتَرَىٰ الحَكِيمَ الفِرَنْسَاوِيَّ وَهُوَ يُقَرِّرُ مَذْهَبَهُ عِنْدَمَا يَأْتِي عَلَى مَا يُخَالِفُهُ مِنْ مَذاهِبِ الأَلمانِ إذا وَصَلَ إلى مَعْنَىً خاصٍّ بأَحِدِهِم لَمْ يفكِّرْ أَنْ يُعَبِّرَ عَنْهُ بِغَيْرِ لَفْظِهِ الألماني، وَهَكَذَا، ثُمَّ يَذْكُرُ بِهَامِشِ كتابِهِ مَعْنَاهُ.

ما كَانَ هَذَا لِيُفْسِدَ لُغةً مِنْ تِلْكَ اللُّغَاتِ، وَلاَ يُثِيرُ عاطِفَةَ الحنانِ وَللإِشْفاقِ عَلَيْهَا، بَلْ مَا ازْدادَتْ لغاتُهُم بِهذا إلاَّ طَلاوَةً وَيُسْراً، بَلْ تَكادُ هَذِهِ الطريقَةُ تَجْرِي عِنْدَ الأُمَمِ

الغربيَّةِ عادَةً لتكونَ الألفاظُ الغريبَةُ عَنْ لُغَتِهِمْ بُرْهاناً عَلَىٰ سَعَةِ مَدَارِكِهِمْ وَرَحْبِ صُدُورِهِمْ لِكُلِّ نافِعٍ وَكُلِّ مُفيدٍ، ولتكونَ دَلِيلاً عَلَىٰ مَصْدَرِ المُسَمَّىٰ وَمُذَكِّرَةً بِجُزْءٍ مِنْ تَرْجَمَتِهِ.

قَالُوا: إنّ ذَلِكَ جائِزٌ عِنْدَهُمْ لِتَماثُلِ أَحْرُفِ هِجائِهِمْ وَاتحادِ صُوَرِها وَأَشْكالها، وَأَمَّا نَحْنُ فلاَ قِبَلَ لَنا بِعَمَلِ مَا يَعْمَلونَ لاخْتِلافِ أحْرُفِ هِجائِنَا وَصُورَهِا وَأَشْكَالِهَا، وَلَسْتُ أَرَىٰ فِي هَذَا الاعْتِراضِ إلاَّ أَنَّهُ دليلُ أَحَدِ أَمْرَيْنِ، فَإمّا شُعورٌ بِعَجْزِنَا عَنْ المَجَارَاة لِفُتورٍ في هِمَّتِنَا أَوْ قُصورٍ فِي معارِفِنا، وَإِمَّا أَنَّ أَحْرُفَ هِجائِنا وَأَشْكالَها وُصُورَها مُحْتاجَةٌ هِيَ أيْضاً إلىٰ الإصْلاحِ لِنَتَمَكَّنَ مِنْ تناوُلِ كلماتِ الغَيْرِ بأشْكالٍ وَصُوَرٍ تَجْعَلُنَا نَنْطِقُ كلماتِهِمْ كَمَا يَنْطِقُون، وَنَنْقُلُ عَنْهُمْ كَمَا هُمْ عَنْ بَعْضِهِمْ يَنْقُلونَ.

نَحْنَ إما عَرَبٌ أَوِ مُسْتَعْرِبُون، وَإِمَا أجانِبُ عَنْ لُغَةِ العَرَبِ أَوْ مُوَلِّدُونَ. فَإنْ كُنَّا الأَوَّلِينَ فَلَنَا حَقُّنَا فِي التَّصرُّفِ بِلُغَتِنا كَمَا تَقْتَضِيهِ مَصْلَحَتُنَا؛ وَإِنْ كُنَّا مُسْتَعْرِبين فَبِحُكْمِ قِيامِنا مقامَ أَصْحَابِ هَذِهِ اللُّغَةِ وَبِكَوْنِنَا وَرِثْنَاهَا عَنْهُمْ بَعْدَ أَنْ بادوا، فَلَيْسَ مَنْ لَهُ أَنْ يُنازِعَنَا فِي ٱسْتِعْمالِ ما كَانَ مُباحاً لآبائِنَا مِنَ قَبْلِنا؛ وَإِنْ كُنَّا أجانِبَ أَوْ مُوَلِّدِين، فَمَنْ لَهُ

أَنْ يُسَيْطِرَ عَلَيْنَا وَيَحْرِمَنَا ثَمَرَةَ الكَدِّ فِي حِفْظِ هَذِه اللُّغَةِ وَتَفْضِيلِها عَلَىٰ غَيْرِها مِنْ سائِرِ اللُّغاتِ فَيُلْزِمَنَا بالبَقَاءِ عَلَىٰ القَدِيم وَيَحْكُمَ عَلَيْنَا بالجمودِ وَٱعْتِقالِ اللِّسانِ.

أَخَذَ العَرَبُ العلومَ عَنْ أَهْلِهَا، وَنَقَلُوهَا إلى لُغَتِهِمْ، فَلَمَّا وَجَدُوا مِنْهَا اسْتِعْصاءً في بَعْضِ المواضِعِ ذَلَّلُوهَا وأَخْضَعُوا الغريبَ عَنْهَا لأحكامِها، فَأَيْسَرَتْ وَدَرَجَتْ بَعْدَ الجُمودِ، فكانَتْ لَهُمْ نِعْمَ النَّصِيرِ عَلَىٰ إِدْرَاكِ مَا طَلَبُوا مِنْ نُورٍ وَعِرْفانٍ.

نَسِينا نَحْنُ أَنَّ زَمانَنَا غَيْرُ زَمانِهِمْ، فَكانُوا أَصْحَابَ حَوْلٍ وَطَوْلٍ وَذَوِي مَجْدٍ وَسُلْطانٍ، ونَحْنُ عَلَىٰ مَا نَعْلَمُ مِنَ الضَّعْفِ وَالانْزِواءِ عَلَىٰ أَنَّهُمْ فِي عِزِّهِمْ وَبُعْدِ فخارِهِمْ وتَمكُّنِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ لَمْ يَعْتَزُّوا بِلُغَتِهِم، فَنَفَرُوا مِنَ العُجْمَةِ لِأَنَّهَا عُجْمَةٌ، بَلِ اسْتَخْدَمُوهَا حَيْثُ وَجَبَ الأَخْذُ بِهَا تَمْكِيناً لِلُغَتِهِمْ وَحَذَراً مِنْ أَنْ يُصِيبَها الوَهْنُ إذا قَعَدُوا بِهَا عَنْ مُجاراةِ تَيَّارِ التَّقَدُّمِ، وَهُمْ أُولو الرَّأْيِ فِيهِ، وَخَوْفاً مِنْ أَنْ يُعيقَهُمُ الجمودُ فِيهَا عَنْ حِفْظِ مَرْكَزِهِمْ العظِيمِ بَيْنَ الأُمَمِ التي كَانَتْ تعاصِرُهُمْ.

أَيَجُوزُ لَنَا أَنْ نَتَخَلَّفَ عَنِ السَّيْرِ فِي طَرِيقِهِمْ وَالاسْتِرْشَادِ بِهَدْيِهِمْ والعَمَلِ بطريقَتِهِمْ بحجَّةِ أَنَّهُمُ ٱنْقَرَضُوا

وَبادوا، فلا حَقَّ لنا في مُتابَعَةِ الرُّقِيِّ، وَلاَ يَجُوزُ أَنْ نَخْطُوَ بَعْدَهُمْ خُطْوَةً إِلى الأَمامِ، لَكِنْ مَنِ الَّذِي اسْتَأْجَرَنَا حُرّاساً مِنَ الخُرْسِ عَلَىٰ هَذِهِ الوَدِيعَةِ؟ وَبِأَيِّ قُوَةٍ أَخْضَعَنَا عَلَىٰ الوُقوفِ هَذَا المَوْقِفَ، مَوْقِفَ الاسْتِكَانَةِ وَقَطْعِ الرَّجاءِ وَفِقْدانِ الهِمَّةِ وَانْحِلالِ العَزَائِمِ؛ أَنَقْصٌ فِي الأفْهَامِ، أَمْ قِصَرٌ فِي الأَجْسام، أَمْ جَهْلٌ بأَنَّا مِنَ البَشَرِ لَنَا كُلُّ حُقوقِ الإنسانِ؟

لَيْسَ لَنَا أَنْ نَتَمَسَّكَ بِالقَدِيم لِقِدَمِهِ، وَإِنْ أَصْبَحَ عَدِيمَ الجَدْوَىٰ، وَإِلاَّ فَأَوْلَىٰ بِنَا أَن نَكُفَّ عَنِ الدَّرْسِ والمُطَالَعَةِ، وَأَنْ نَكْتَفِيَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ بِمَا وَرِثْنَا عَنِ الآباءِ لِنَعِيشَ كَمَا عَاشَ الأَوَّلُون! غَيْرَ أَنِّي أَرْجُوكُمْ أَنْ تَتَعَلَّمُوا الصَّبْرَ فَلاَ تَجْزَعُوا إذا أصابَتْكُمْ مصائِبُ التَّقَدُّمِ، فَتَرِكْتُمْ آخِرَ القَوْمِ، وَلاَ تَجْزَعُوا إذا هَصَرَتْكُمْ عَوامِلُ الرُّقِيِّ فَمُنِيتُمْ بِمَنْ يَقِفُ مُتَفَرِّجاً عَلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ كَالصُّوَرِ المُتَحَرِّكَةِ الناطِقَةِ، لَكِنَّهَا تَتَحَرَّكُ بِحَرَكَةٍ هِيَ عِبارَةٌ عَنِ اهْتِزازِ الشَّيْءِ مَكَانَهُ، وَتَنْطِقُ بِلُغَةٍ دَاثِرَةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ العِلْمِ الَّذِي أَصْبَحَ دَارِجاً عَلَىٰ أَلْسِنَةِ المُتَفَرِّجِينَ.

خافَ خُصومُ مَذْهَبِنا عَلَى اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، وَحَسِبُوهَا طَعاماً سَهْلَ التَّنَاوُلِ وَالهَضْمِ فِي مِعَدِ اللُّغَاتِ الأَعْجَمِيَّةِ،

فَاسْتَجَارُوا مِنَ التَّغْرِيبِ، وَصَاحُوا: إِنَّنَا لا نُطِيقَ ٱسْماً أَعْجَمِيّاً يَدْخُلُ عَلَيْهَا.

أَلَيْسَتْ هِيَ تِلْكَ اللُّغَةَ الحافِلَةَ بالألْفَاظِ وَالتَّرَاكِيبِ العالِيَةِ، وَالْقَوْلِ الفَصِيحِ، المَصُونَةَ بِكِتاب اللّٰهِ تَعَالَىٰ وَسُنَّةِ رَسولِهِ صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ وَهِيَ لَمْ تَتَأَثَّرْ بِبعْضِ كَلِمَاتٍ تَدْخُلُ عَلَيْهَا فِي كُلِّ عام، بَلْ إِنَّ هَذَا العَمَلَ مِمَّا يُؤَيِّدُها، وَيَشُدُّ أَزْرَهَا، وَيَرْفَعُ مَقَامَها بَيْنَ اللُّغاتِ، فَلاَ يَطْمَعُ الأعاجِمُ في اعْتِبارِهَا مِنَ اللُّغاتِ المَيْتَةِ.

قَالُوا: ذَلِكَ يُفْسِدُ عَلَيْنَا لُغَةَ القُرْآنِ، وَلاَ خَوْفَ عَلَىٰ القُرْآنِ مَا دَامَ في الوُجودِ مُسْلِمٌ، ألا تَرَوْنَ أَنَّ القُرْآنَ مَحْفُوظٌ مَصُونٌ عِنْدَ مَنْ لَمْ يَعْرِفِ العَرَبِيَّةِ مِنَ المُسْلِمِينَ؟ إِلَيْكُمُ التُّرْكَ وَالهِنْدَ وَالصِّينَ وَالقُوقازَ والرُّوسية، تِلْكَ أُمَمٌ تَعُدُّ خَلْقاً كَثِيراً مِنَ المُسْلِمِينَ، لاَ يَعْرِفُ الواحِدُ مِنْهُمْ غَيْرَ لُغَةِ أُمَّتِهِ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يَحْرِصُ عَلَىٰ القُرْآنِ أَشَدَّ مِنْ حِرْصِ الجبانِ عَلَىٰ دَمِهِ، أَيُعْجِزُكُمْ أَنْ تُحافِظُوا عَلَىٰ القُرْآنِ بِيَمِينِكُمْ وَتُفْسِحُوا المَجالَ فِي لُغَتِكُمْ لِلتَّقَدُّمِ باليَسارِ لِتَنالُوا السَّعادَتَيْنِ، وَتكُونوا مِنَ النَّاجِحِينَ فِي الدَّارَيْنِ؟

قالُوا: العِلْمُ نافِعٌ.

قالُوا: كَثِيرٌ مِنْهُ مخالِفٌ لِلدِّين.

قالُوا: الحَضارَةُ تُهَدِّدُنَا فَلْنَتَّقِها.

قالُوا: هِيَ تُخَالِفُ الدِّينَ.

قالُوا: حَدَثَتْ مُسْتَحْدَثَاتٌ، فَسَمُّوهَا.

قالُوا: حَرَامٌ عَلَيْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ.

مِنْ جَرّاءِ هَذَا قالَ الفِرَنْجُ: إِنَّا قَوْمٌ جامِدُونَ! وَمَا جُمودُنَا إلاَّ مِنَ الدِّين! فَصِحْنَا مَعَ هَذَا وَقُلْنَا لَهُمْ: بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ ظَالِمُونَ، مَا لَنَا وَلِلدِّينِ نَجُرُّهُ فِي كُلِّ أَمْرٍ، وَنُقِيمُهُ حاجِزاً فِي وَجْهِ كُلِّ باحِثٍ، حَتَّىٰ في الأُمورِ الَّتِي يَأْمُرُ هُوَ بتناوُلِها! يَأْمُرُنَا الدِّينُ بِتَعلُّمِ ما خَلَقَ اللَّهُ، وَأَنْ نَسِيرَ عَلَىٰ سُنَّةِ التَّقَدُّمِ الَّتِي سَنَّهَا لِلْبَشَرِ، وَنَحْنُ كُلَّ يَوْمٍ فِي إِحْجامٍ بِدَعْوَىٰ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مِقْدارَ بُعْدِها عَنِ الحَقِّ وَالصَّوابِ.

عَلَيْكُمْ بِالتَّقَدُّمِ، فَادْخُلُوا أَبوابَهُ المُفَتَّحَةَ أمامَكُمْ، وَلاَ تَتَأَخَّرُوا، فَلَسْتُمْ وَحْدَكُمْ فِي هَذَا الوُجودِ، وَلاَ تَقَدُّمَ لَكِمْ إلاَّ بِلُغَتِكُمْ فَٱغْتَنُوا بِهَا، وَأَصْلِحُوهَا، وَهَيِّؤُها لِتَكونَ آلَةً صَالِحَةً فِيمَا تَبْتَغُونَ، لَكِنْ لا تُكْثِرُوا مِنَ الاشْتِقَاقِ الخارِجِ عَنْ حَدِّ القِياسِ المَعْقُولِ، وَلاَ تُشَوِّهُوا صُورَتَها الجميلَةَ بِتَعَدُّدِ الاشْتِرَاكِ أَوِ التَّجَوُّزِ، ثُمَّ لاَ تَقِفُوا بِهَا مَوْقِفَ الْجُمُودِ؛

وَالعُجْمَةُ تُهَدِّدُهَا عَلَىٰ أَلْسِنَةِ العامَّةِ، وَهِيَ لاَ تَلْبَثُ أَنْ تَدْخُلَ عَلَىٰ لُغَةِ الْخَاصَّةِ. أَقِيمُوا فِي وَجْهِ هَذَا السَّيْلِ الجارِفِ سَدًّا مِنَ الاشْتِقاقِ المَعْقُولِ وَالتَّرْجَمَةِ الصَّحِيحَةِ والتَّعْرِيبِ عِنْدَ الضَّرُورَةِ لِتَكُونُوا مِنَ النَّاجِحِينَ.

حَقِيقَةُ الشِّعْرِ

«للأمِيرِ شَكِيب أَرْسلان»[1]

الشِّعْرُ قَوْلٌ ثَقِيلٌ وعِبْءٌ عَقْلِيٌّ باهِظٌ، لاَ يَسْتَقِلُّ بِهِ سِوَى الخَناذِيذُ[2] القُرَّحُ[3]، وَالمَغاوِيرُ السُّبَّقُ؛ وَلاَ يُجِيدُهُ

---

(١) «الأمير شَكيب أَرْسلانَ» [١٢٨٦ ـ ١٣٦٦هـ = ١٨٦٩ ـ ١٩٤٦م].
شاعِرٌ من عُيونِ شُعراء العَصْر، وكاتِبٌ من أقْدَرِ كتَّابِهِ علَى البيانِ الفَصِيحِ، واللَّفظِ الجَزْلِ، ويَمْتازُ في الصناعَتَيْنِ بسُرْعَةِ البَديهَة، والذَّهابِ مَذْهَبَ الطريقة البَدَوِيَّةِ في الأُسلوب، وهُوَ أَحَدُ عُلَمَاءِ الأَدَبِ الَّذِينَ لا يَنْطِقُونَ إلا عَنْ عِلْمٍ راسِخٍ، وَأَدَبٍ مَكِينٍ، ولَوْ كانَ للأَدَبِ عِنْدَهُ مِنَ الحَظِّ ما للسِّيَاسَةِ لَرَفَعَ من شَأْنِهِ ما قَصَرَتْ عنه أَيْدِي سِواه.

(٢) الخِنْذِيذ: الشاعر المجيد.

(٣) القارح من ذي الحافِر: الذي شَقَّ نابُهُ وطَلَعَ.

إلاّ الناخِعُونَ[١] الكُمَّلُ أُولُو القُوَّةِ الباهِرَةِ، وَالمُنَّةِ[٢] الوَثِيقَةِ، وَالسَّلِيقَةِ الفائِقَةِ، وَالطَّبِيعَةِ الصَّافِيَةِ، الَّتِي لا تُتاحُ إلاَّ للآحادِ، وَلاَ يُؤْتاها إلاَّ الأَفْرَادُ، يَكادُ قائِلُهُ يَتَجَرَّدُ مِنْ عالَمِ المادَّةِ بِقُوَّةِ نَفْسِهِ، وَشُفوفِ حِسِّهِ؛ وَيَلْحَقُ بِالمَلأ النُّورَانِيِّ في مَضاءِ عَزْمِهِ، وَوَرْيِ زَنْدِهِ، وَسُرْعَةِ فِكْرِهِ؛ وَلَوْ كانَتِ الكَهْرَبَائِيَّةُ شَخْصاً لكانَتْ هِيَ الشَّاعِرُ.

وَحَسْبُكَ أَنَّ الأَوَّلِينَ الَّذِينَ لَهُمُ الأَوَّلِيَّةُ فِي البَيانِ كَمَا في الزَّمانِ كانُوا يَحْسَبُونَ الشِّعْرَ قُوَّةً مِنْ وراءِ الطَّبيعَةِ، وَرُبَّمَا جَعَلُوا لَهُ شَياطِينَ. وَكَانَ الشِّعْرُ في الجاهِلِيَّةِ دَوْلَةً وَمُلْكاً، وَإِذا أجادَهُ واحِدٌ تَهَيَّبُوهُ تَهَيُّبَ الأُمراءِ، وَأَجَلُّوهِ إجلالَ الرُّؤساءِ؛ وَإِذا تَذَبْذَبُوا في الإيمانِ بِرَسُولٍ بَهَرَتْهُمْ آياتُهُ، وَأَفْحَمَتْهُمْ مُعْجِزاتُهُ، أَحالُوا إِعجازَهُ عَلَىٰ الشِّعْرِ! كَأَنَّهُ الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ تَنْزِلَ عَنْهَا الآياتُ مِنْ عَتَبَةِ الوَحْيِ. نَعَم! إِنَّ الشِّعْرَ قُوَّةٌ رُوحِيَّةٌ يُفيضُها اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ، فَتُحَلِّقُ بِالشَّاعِرِ تَحْلِيقَ الأَجْنِحَةِ بالطائِرِ، وَتَطوفُ بِهِ في سَبْعِ سَمَواتِ الخيالِ، فَيَرَىٰ الطَّبِيعَةَ فِي

(١) يقال: نَخَع بالأمر: إذا كان به خَبِيراً.

(٢) المُنَّة: القوة.

أَفْخَمِ مَشاهِدِها، وَأَشْمَخِ شُرَفاتِها، وَأَبْهَىٰ مجالِيها، وَأَشْجَىٰ أَصْواتِها، وَأَذْكَىٰ أَعْرافِها، وَيَنْفُثُ ما شاهَدَهُ مِنْ هَذِهِ المَرائي المُجَسَّمَةِ في قوالِبَ مِنَ النُّطْقِ، فَتَقَ اللَّهُ بِهَا لِسانَهُ الهائِلَ، فجاءَتْ شَبيهةً بِمَوْضُوعِها، وَتَحَدَّرَ بِهَا تَحَدُّرَ السَّيْلِ في صَبَبٍ، وَهَتَفَ المَقامُ بِالمُقِيمِ، وَطَلَبَ العُلُوُّ بَعْضُهُ بَعْضاً، وَتجاذَبَتِ البدائِعُ، وَصَدَقَتْ نِسْبَةُ الرَّوائِعِ فَفَصَلَ الكَلامُ عَمَّا شِئْتَ مِنْ فِكْرٍ سامٍ وَمَقامٍ شَرِيفٍ، وَمَا أَرَدْتَ مِنْ مَعْنًى بِكْرٍ وَلَفْظٍ فَحْلٍ؛ لِذَلِكَ قِيلَ: إِنَّ الشِّعْرَ هُوَ لُغَةٌ تَامَّةٌ.

وَإِذَا تَغَلْغَلَ الشَّاعِرُ في أَنْحَاءِ النَّفْسِ وَأَحْناءِ القَلْبِ، وَهامَ في أَوْدِيَةِ الانْفِعَالِ، وَأَخَذَ يُؤَدِّي مِنْ هُنَاكَ مَا يُلْقِيهِ إِلَيْهِ مُضاعَفاً: هَوًىٰ مُلِحٌّ، وَشَوْقٌ هَافٍ، وَحُبٌّ شاغِفٌ، وَتَمَنٍّ وَاصِبٌ، وَتَوَسُّلٌ هالِعٌ، وَرَغْبَةٌ وَرَهْبَةٌ، وَإِيمانٌ كإِيمانِ العَجائزِ؛ ثُمَّ آبَ مِنْ أَوْدِيَةِ إِحساساتِهِ، وَأَعْطافِ فِراساتِهِ، مُفْضِياً بِذَلِكَ إِلىٰ سامِعِيهِ أَشْجَىٰ وَأَصْبَىٰ، وَأَرْقَصَ وَأَبْكَىٰ، وَأَحْرَقَ وَرَوَّىٰ، وَنَضَّرَ وَأَذْوَىٰ، وَأَيْئَسَ وَأَرْجَىٰ، وَأَفْقَرَ وَأَغْنَىٰ، وَأَسْعَدَ وَأَشْقَىٰ، وَبَلَغَ مِنْ كُلِّ مَقامٍ، الغايَةَ القُصْوَىٰ، وَجَذَبَ بِأَفْنانِ سِدْرَةِ المُنْتَهَىٰ.

فَالشِّعْرُ إِذَنْ مَظْهَرُ المَرْءِ في أَسْمَىٰ خَواطِرِ فِكْرِهِ،

وَأَقْصَىٰ عَواطِفِ قَلْبِهِ، وَأَبعَدَ مَرامِي إِدْراكِهِ، وَالشِّعْرُ هُوَ رُؤْيَةُ الإِنْسَانِ الطَّبيعَةَ بِمِرْآةِ طَبْعِهِ، فَهُوَ شُعورٌ عَامٌّ، وَحِسٌّ مُسْتَغْرِقٌ، يَأْخُذُ المَرْءَ بِكُلِّيَتِهِ، وَيَتناوَلُهُ بِجَمِيعِ خَصائِصِهِ حَتَّىٰ يَرُوحَ نَشْوانَ خَمْرَتِهِ، أَسِيرَ رَايَتِهِ، وَيُرِيهِ الأَشْيَاءَ أَضْعافاً مُضاعَفَةً، وَيُصَوِّرُهَا بِأَلْوانٍ ساطِعَةٍ، وَحُلًى مُؤَثِّرَةٍ تَفُوقُ الحقائِقَ، وَرُبَّمَا أَزْرَتْ بِها، وَصَرَفَتِ النَّفْسَ عَنِ النَّظَرِ إِلَيْهَا، فَهُوَ أَحْياناً أَحْسَنُ مِنَ الحُسْنِ، وَأَجْمَلُ مِنَ الجمالِ، وَأَشْجَعُ مِنَ الشَّجَاعَةِ، وَأَعَفُّ مِن العَفافِ، وَإِنَّ الظَّبْيَ في قَصِيدَةٍ غَيْرُ الظَّبْيِ في فَلاةٍ، بَلْ غَيْرُ الظَّبْي في مُلاءَةٍ؛ وَإِنَّ الأَسَدَ فِي مَنْظُومَةٍ غَيْرُ الأَسَدِ فِي مَفَازَةٍ، وَذَلِكَ حَيْثُ كانَ الشِّعْرُ كلاماً يُلْقَىٰ بِلِسانِ الإِحْساسِ، وَنُطْقاً يَنْزِلُ عَنْ وَحْيِ المُخَيِّلَةِ، وَأَوْصافاً يُفْضِي بِهَا الشَّوْقُ، وَإِنَّمَا كَانَتِ المبالَغَةُ زِيادَةً عَلَىٰ الحَقِيقَةِ لِتَمْكِينِ السَّامِعِ مِنَ الوُصولِ إِلىٰ مِقْدارِ الحَقِّ وَالحِرْصِ عَلَىٰ أَنْ لاَ يَنْقَطِعَ مِنْهُ قِسْمٌ عَلَىٰ طَرِيقِ الإِلْقَاءِ، وَفِي أَثْنَاءِ الانْتِقالِ؛ فَكَأَنَّ هَذِهِ الزِّيادَةَ جُعِلَتْ لِتَمْلأَ الفَرَاغَ الواقِعَ بَيْنَ المُدْرِكِ والمُدْرَكِ، حَتَّىٰ لا يَصِلَ إِلىٰ الذِّهْنِ إِلاَّ كامِلاً بِكُلِّ قُوَّتِهِ، وَلاَ يَحُلَّ في العَقْلِ إِلاَّ بِجَمِيعِ حاشِيَتِهِ.

وَلِلشِّعْرِ سَعَةُ المَذْهَبِ وَالتَّفَنُّنِ فِي شُعُوبِ القَوْلِ

بِحَسْبِ ما تَقْتَضِيهِ المطالِبُ، فَهُوَ مَلِكُ الكَلاَمِ، يَتَصَرَّفُ فِيهِ كَيْفَ يَشاءُ، فَبِهِ تَجْسِيمُ المُجَرَّدِ، وتَجْرِيدُ المُجَسَّمِ، وَتَشْبِيهُ المُجَرَّداتِ بِالمَحْسُوساتِ، وَتَلْطِيفُ المَحْسوساتِ إِلىٰ دَرَجَةِ المُجَرَّداتِ؛ فتارَةً يُجَسِّمُ المُجَرَّدَ حَتَّىٰ يكادُ يُحَسُّ وَيُمَسُّ، وَتَقَعُ عَلَيْهِ الأَيْدِي وَتَنْعَكِسُ أَشِعَّةُ نُورِهِ عَلَىٰ العَيْنِ، وَتَهْتَزُّ دقائِقُهُ فَتَهُزُّ بالهواءِ طَبْلَةَ الأُذُنِ، وَطَوْراً يُهَفْهِفُ[1] بِهِ المَلْمُوسُ، وَيُهَلْهَلُ المَحْسُوسُ، حَتَّىٰ يَشِفَّ شُفوفَ البِلَّوْرِ، وَيَسْطعَ مِنْ ورائِهِ النُّورُ؛ فَإِذا شاءَ هَلْهَلَ، وَإِذا شاءَ أَجْزَلَ، وَإِذا شَاءَ أَذَابَ، وَإِذا شاءَ أَجْمَدَ، وَكأَنَّهُ كِيمياءُ الكَلامِ، يُرَكِّبُ من أَجْزائِهِ ما يُرِيدُ لِيُبْرِمَ الصُّورَةَ التي يَرْسِمُها الخَيالُ.

وَعَلَيْهِ، فَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ ذَلاقَةِ المَنْطِقِ، وَقُوَّةِ التَّأْدِيَةِ، وَعُلُوِّ اللِّسانِ المُتَرْجَمِ بِهِ ذَلِكَ الشُّعورِ السَّامِي؛ فَأَنَّىٰ لِلْكلامِ أَنْ يُحِيطَ بِهاتِيكَ الانْفِعالاتِ؟ وَأَنَّىٰ للشَّاعِرِ أَنْ يَتَغَنَّىٰ لِسانُهُ بِكُلِّ ما يَتَغَنَّى به جَنَانُهُ؟ وأَيْنَ الثُّرَيّا مِنْ يَدِ المُتَناوِلِ؟ فَإِنَّ اللُّغَةَ رُموزٌ مَحْدُودَةٌ، وَإِشاراتٌ مَخْصوصَةٌ، وَهِيَ تَطْمَعُ أَنْ تُعَبِّرَ عَمّا في النَّفْسِ البَشَرِيَّةِ، وَالنَّفْسُ

(١) هَفْهَفَهُ: جعله مُهَفْهَفاً، وهو: الضَامِرُ أو الرقيق.

البَشَرِيَّةُ عالَمٌ بِنَفْسِهِ، لا تُدْرِكُ لَهُ البَصِيرَةُ أُفُقاً، وَبَحْرٌ لا تَعْرِفُ لَهُ قَراراً، وَلِذَلِكَ كانَ أَشْعَرُ النَّاسِ أَمْكَنَهُمْ مِنْ هَاتِيكَ الخَيالاتِ وَتِلْكَ العَواطِفِ أَنْ يَزِفَّهَا في أَبْهَجِ حُلاها وَأَسْطَعِ أَلْوانِها، وَهَذَا هُوَ أَتَمُّ النَّاسِ لُغَةً.

فَكَيْفَ لا يَكُونُ بَعْدَ ذَلِكَ الشُّعَرَاءُ أُمَرَاءَ الكَلامِ، وَمُلوكَ الأَلْسِنَةِ؟ وَلاَ يَكونُ لَهُمُ التَّصَرُّفُ بِاللُّغاتِ، وَاليَدُ العُليا في النَّزْعِ وَالإثْباتِ؟ وَالشِّعْرُ يَبْقَىٰ بقاءَ الشَّمْسِ، وَيَسِيرُ مَسِيرَ الأَرْضِ، وَقَدْ رَواهُ الخَلَفُ عَنِ السَّلَفِ، وَتَدارَسَهُ النَّاسُ مِنْذُ أَيَّامِ العَرَبِ البائِدَةِ، وَحَفِظُوا شِعْرَ جَدِيس وَعاد، وَقَدْ مُحِيَتْ رُسومُ إِرَمِ ذاتِ العِماد، وَكانَ مِنْ آلِ ٱمْرِىءِ القَيْسِ ثلاثون مَلِكاً بادُوا وَبادَ ذِكْرُهُمْ وَبَقِيَ ذِكْرُهُ وَحْدَهُ بما أَمْسَكَهُ مِنَ شِعْرِهِ وَمَكَّنَهُ مِنْ قولِهِ السّائِرِ في الأَعْقاب المُتَسَلْسِلِ في الأَيَّامِ تَسَلْسُلَ النُّطَفِ في الأَصْلابِ. وَأَيُّ رَجُلٍ مِنَ اليونانِ بَقِيَ ذِكْرُهُ بَقاءَ ذِكْرِ هُوميرُوس، مَعَ كَوْنِ بَعْضِهِمْ شَكّ في مُجَرّدِ وُجودِهِ؟ بَلْ أَيُّ صَغِيرٍ مِنْ صِغارِ العَرَبِ لا يَسْمَعُ بِذِكْرِ المُتَنَبِّي، وَلاَ يُحِلُّ ٱسْمَهُ في أوائِلِ الأَسْماءِ الَّتِي تَطْرُقُ ذاكِرَتَهُ، وَيَتَعَلَّمُها مُنْذُ طُفولِيَّتِهِ، وقَدْ لا تَعْرِضُ له أَسْماءُ أَشْهَرِ الملوكِ إِلىٰ زَمَنِ كُهولَتِهِ؟

نَعَم! إنَّ الشُّعَراءَ هُمْ سَدَنَةُ هياكِلِ البَيانِ، وَبِهِمْ تُحْفَظُ اللُّغَةُ، وَمِنْهُمْ يُعْرَفُ تَارِيخُ العَقْلِ البَشَرِيِّ، وَعَلَيْهِمْ مُعَوَّلُ القُلوبِ إذا أَصْدَأَتْها الكُرُوبُ، وَإنَّ أَبْقَىٰ آثارِ الآدَمِيِّينَ هُوَ القَوْلُ، وَأَبْقَىٰ أَصْنَافِ القَوْلِ هُوَ الشِّعْرُ، لأَنَّ النَّثْرَ ـ كما يقالُ ـ يتنَاثَرُ تَنَاثُرَ الشَّرَرِ، وَالنَّظْمَ يَرْسَخُ رُسوخَ النَّقْشِ في الحَجَرِ، بَلْ قَدْ تُمْحَىٰ النُّقُوشُ مِنْ صَفْحَاتِ الحَجَرِ وَلاَ تُمْحَىٰ الأَشْعَارُ مِنْ رُؤوسِ البَشَرِ.

مُقابَلَةٌ
بَيْنَ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ وَالشِّعْرِ الإِفْرَنْجِيِّ

«للشيخ نجيب الحدّاد»(١)

الشِّعْرُ هو الفَنُّ الّذِي يَنْقُلُ الفِكْرَ من عالَمِ الحِسِّ إلى

(١) «الشيخ نجيب [بن سُليمان] الحَدَّاد» [١٢٨٣ ـ ١٣١٦هـ = ١٨٦٧ ـ ١٨٩٩م].

كاتِبٌ من أحْسَنِ كتّاب هذا العصر، وشاعِرٌ من أرقِّ شُعرائِهِ، ومُتَرْجِمٌ من أقْدَرِ المُتَرْجِمين على الترجمة السَّهْلَةِ الفَصِيحَةِ السائِغة؛ وَلقَدْ مَرّ على وفاتِهِ بِضْعُ سنين، ولم أَرَ بَيْنَ السُّورِيّين ولا المِصْرِيِّين من سَلَكَ مَسْلَكَهُ في ترجمة الروايات الإفرنجية، ولَوْ لَمْ يَكُنْ له من الآثار إلا رواية «غُصْنُ البان» ورواية «الفرسان الثلاثة» لَكَفاهُ.

عالَمِ الخَيالِ، وَالكَلامُ الَّذِي يُصَوِّرُ أَرَقَّ شَعائِرِ القُلوب عَلَىٰ أَبْدَعِ مِثال؛ وَالحَقِيقَةُ الَّتِي تَلْبَسُ أحْياناً أَثْوابَ المَجازِ، وَالمَعْنَىٰ الكَبِيرُ الَّذِي تُبْرِزُهُ الأَفْكارُ في أَحْسَنِ قوالِبِ الإيجاز، وَأَخْفَىٰ وِجْداناتِ النَّفْسِ تَتَمَثَّلُ لِلْمَرْءِ فَيَحْسَبُها سَهْلَةً وَهِي مُنْتَهَىٰ الإبداع وَالإِعْجاز؛ بَلْ هُوَ الأَنَّةُ الَّتِي تَخْرُجُ من قَلْبِ الثَّكْلانِ، وَالنَّغْمَةُ الَّتِي يَتَرَنَّحُ لِتَرْدِيدِها الطَّرُوبُ النَّشْوانُ، وَالشَّكْوَىٰ الَّتِي تُخَفِّفُ لَوْعَةَ الشّاكِي وَيَأْنَسُ بِها المُحِبُّ الوَلْهانُ؛ بَلْ هُوَ الحِكْمَةُ يَجِدُها الحكيمُ فَيُبْرِزُهَا بِما يَلِيقُ بِهَا من محاسِنِ اللَّفْظِ، وَيُوازِنُ بَيْنَ أَجْزَائِها مُوازَنَةً تُحَبِّبُ وُرودَها عَلَىٰ الأُذُنِ وَتُقَرِّبُ مَنالَها مِنَ الحِفْظِ، وَالجمالُ تَراهُ العَيْنُ فَتُحِبُّ أَنْ تَحْفَظَ ذِكْرَاهُ، فَتُبْقِيهِ صُورَةً ماثلةً يراهُ بها مَنْ لَمْ يَكُنْ قد رَآهُ. وَمَنْ نَظَرَ في تاريخ الشُّعوبِ وسِيرَةِ الأُمَمِ لَمْ يَجِدْ شَعْباً ولا أُمَّةً بَلَغَتْ غايةً من المَدَنِيَّة، أَوْ تَأَخَّرَتْ دَرجاتٍ في الهَمَجِيَّة، إلاَّ كانَ لِلشِّعْرِ مِنْها نَصِيبٌ وَلِلنَّظْمِ بَيْنَ أَفْرادِها سَجِيَّةٌ. يَدُلُّ ذَلِكَ عَلَىٰ أَنَّ الإِنْسانَ شاعِرٌ كما هُوَ ناطِقٌ بِالطَّبْعِ، وَأَنَّ الطَّبِيعَةَ تَقْتَضِي التَّوازُنَ وَالانتظامَ في عناصِرِها وَسائِرِ كائِناتِها وَأَحْوالِها، وَما أَحْسَبُ الشُّحْرُورَ يُغَنِّي والقِمْرِيّ يَنُوحُ إِلاَّ وَلَهُمَا مِنِ انْتِظامِ تغارِيدِهِما طَرَبٌ، وَمِنْ وَزْنِ أَلْحانِهِما سُرُورٌ؛ هُوَ مَسَرَّةُ

الشِّعْرِ في النَّفْسِ، وَطِيبُ أَوْزانهِ عَلَىٰ الأُذُنِ، وَخِفَّةُ تَقْطِيعهِ عَلَىٰ الحَواسِّ. وَما الغِنَاءُ لَوْلاَ تَوازُنُ نَبراتِهِ وَتَشابُهُ إِيقاعِهِ إلاَّ صَوْتٌ مُمِلٌّ لا مَعْنَىٰ لَهُ وَلاَ تأثِيرَ فِيهِ.

وَلَقَدْ أُولِعْتُ بِهذا الفَنِّ مُنْذُ الصِّبىٰ، وصَرَفْتُ لَهُ مِنْ أَوْقاتِ الفَراغِ بُرْهةً طَوِيلَةً، قَرَأْتُ فِيها دَواوِينَ العَرَبِ وَنَظْمَ المُجِيدِينَ مِنْ شُعَرائِهِمْ، ثُمَّ قَرَأْتُ كَثِيراً مِنْ شِعْرِ الفَرَنْسِيس وَشِعْرِ غَيْرِهِمْ مَنْقولاً إِلى لُغَتِهِمْ، كَشِعْرِ اليُونانِ وَالرُّومانِ وَالإِنْكليزِ وَالأَلْمانِ وَالطِّلْيانِ، وَكُلُّهُمْ مِنْ شُعَراءِ الدُّنْيَا المَعْدُودِينَ الَّذِينَ لَمْ تُتَرْجَمْ أَقْوالُهُمْ إِلىٰ اللُّغَةِ الفَرَنْسَوِيَّةِ إلاَّ لِشُهْرَتِها وَإِبْداعِ ناظِمِيها، مثل: هُومِيرُوس وَفِرْجِيل وَتاس وَدَانْتِي وشِكْسْبِير وَشِيلَر وَأمثالِهم مِنْ أَئِمَّةِ الشِّعْرِ الإِفْرَنْجِيِّ الّذِين تُضْرَبُ بِهِمُ الأَمْثالُ، وَيُسْتَشْهَدُ بِأَقْوالِهِمْ فِي كُلِّ مَقال.

وَقَدْ سَأَلَنِي مَنْ لا تَسَعُنِي مُخَالَفَتُهُ أَنْ أَسْتَعِينَ بما تَوصَّلْتُ إِلَيْهِ من قِراءَةِ الشِّعْرَيْنِ العَرَبِيِّ والإِفْرَنْجِيِّ عَلَىٰ وَضعِ مَقالةٍ أُبيِّنُ فيها المَقَابَلَةَ بَيْنَهُمَا، وَأَتَكَلَّمُ عَنْ الفَرْقِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ أَهْلِ الغَرْبِ في مَعَانِي الشِّعْرِ، وَأَنْواعِ إِيرادِهِ، وَأَذْواقِ ناظِمِيهِ، وَطَرائِقِ البَيانِ في مَآخِذِهِ، وَإِبْرازِ المَقاصِدِ مِنْهُ إِلىٰ ما يَتَّصِلُ بِذَلِكَ من قَواعِدِ نَظْمِهِ اللَّفْظِيَّةِ وَالمَعْنَوِيَّةِ

عِنْدَ كُلٍّ مِنَ الفَرِيقَيْنِ. وَهُوَ وَلاَ شَكَّ مَطْلَبٌ عَسِيرٌ وَنِيَّةٌ[١] بَعِيدَةٌ تَقِفُ دُونَ غايَتِهَا سَوابِقُ الأَقْلامِ، وَتَحْسُرُ دُونَ إِدْراكِها بِصائِرُ الأَفْهامِ. إِذْ يَنْبَغِي للكاتِبِ أَنْ يَعْلَمَ لُغَةَ كُلِّ شاعِرٍ مِنْ هَؤُلاَءِ الشُّعَراءِ، وَيَعْرِفُ مَنْزِلَتَهُ الشِّعْرِيَّةَ في أَهْلِ لِسانِهِ، وَيَكُونَ قادِراً عَلَى الحُكْمِ في شِعْرِهِم، وَبَيَانِ الفَرْقِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الشِّعْرِ عِنْدَنَا، مِمَّا يَسْتَلْزِمُ عِلْماً كَبِيراً، وَخِبْرَةً وَاسِعَةً بِجَمِيعِ هَذِهِ اللُّغاتِ.

وَلَكِنَّنِي لَسْتُ في شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَلاَ أَنَا فِي هَذَا البَحْثِ مِنْ حَيْثُ الفَصاحَةُ اللَّفْظِيَّةُ وَالتراكِيبُ اللُّغَوِيَّةُ، بَلْ أَتَعَرَّضُ لِلْكَلامِ فِيهِ مِنْ حَيْثُ المعانِي الشِّعْرِيَّةُ الَّتِي وَقَفْتُ عَلَيْهَا مَنْقُولةً إِلىٰ اللُّغَةِ الفَرَنْسِيَّةِ عَنْ جَمِيعِ هَذِهِ اللُّغَاتِ، وَأُقابِلُ بَيْنَها وَبَيْنَ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ مِنْ هَذَا الجانِبِ المَعْنَوِيِّ فَقَط، أي: مِنْ حَيْثُ إِبرازُ المَعاني العَقْلِيَّةِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَىٰ مَقْدِرَةِ الشَّاعِرِ وَمَنْزِلَتِهِ مِنَ النُّبْلِ والحِكْمَةِ، مَعَ بيانِ شَيْءٍ مِنْ قَواعِدِ الشِّعْرِ في لُغَةِ الفَرَنْسِيس الَّتِي عَنْهَا أَنْقُلُ كُلَّ مَا رَأَيْتُهُ مِنْ شِعْرِ الجَمِيعِ مُمَثَّلاً فِيها بِتَمامِ معانِيهِ.

وَمَا أُنْكِرُ أَنَّ نَقْلَ الشِّعْرِ إِلىٰ النَّثْرِ وَتَصْوِيرَ المعاني

---

(١) النِيَّةُ: الوَجْهُ الَّذِي يَنْوِيهِ المُسافِرُ.

الشِّعْرِيَّةِ في قوالِبَ نَثْرِيَّةٍ، وَلاَ سِيَّمَا إِذَا كَانَتْ تِلْكَ القوالِبِ مِنْ غَيْرِ اللُّغَةِ الَّتِي وُضِعَتْ فِيها، مِمَّا يَحُطُّ قَدْرَ النَّظْمِ وَيَنْزِلُ بِهِ عَنْ رُتْبَةِ البلاغَةِ الَّتِي كانَ يَمْتَازُ بِها في لِسانِهِ الأَصِيلِ، وَلَكِنَّ الشِّعْرَ الإِفْرَنْجِيَّ قَدْ يَكُونُ واحِداً تَقْرِيباً مِنْ هَذَا القَبِيلِ، إِذْ أَكْثَرُ اصْطِلاحاتِهِمُ الكلامِيَّةِ وَضُروبِ تعابِيرِهِمْ اللَّفْظِيَّةِ قَلَّما تَتَفاوَتُ في دَرَجاتِ البَيانِ وَوُجُوهِ الإِيضاحِ والتَّعْبِيرِ، لِأَنَّها كُلَّها تَرْجِعُ إِلىٰ أَصْلٍ واحِدٍ، وَهُوَ اللُّغَةُ اللاتِينِيَّةُ الَّتِي هي أُمُّ لُغاتِهِمْ جَمِيعاً، وَعَنْهَا يُشْتَقُّ أَكْثَرُ أَلْفاظِهِمْ وَمُسَمَّياتِهِمْ وَطُرُقِ الإِنشاءِ عِنْدَهُمْ، بِحَيْثُ إِنَّكَ لَوْ نَقَلْتَ كِتاباً مِنَ الطِّلْيانِيَّةِ مَثَلاً إِلىٰ الفَرَنْساوِيَّة لم تَكَدْ تَحْتَاجُ في نَقْلِهِ إِلىٰ الزِّيادَةِ على تَرْجَمَةِ الأَلْفاظِ بِأَعْيانِها وَمَواضِعِها دُونَ تَغْيِيرٍ يُذْكَرُ في أُسْلوبِ العِبارَةِ أَوْ تَنْسِيقِ مُفْرَداتِها عَلَىٰ الوَجْهِ النَّحْوِي، إِذِ النَّحْوُ في كِلْتا اللُّغَتَيْنِ مُتَقارِبٌ، لا يَكادُ يَتبايَنُ إِلاَّ في النَّادِرِ، وضُرُوبُ البلاغَةِ الإِنْشائِيَّةِ مُتَشابِهَةٌ لا يَكادُ يَخْتَلِفُ فِيها الذَّوْقُ عَنِ الذَّوْقِ إِلاَّ ٱخْتِلافاً يَسِيراً في مَواضِعَ لا تُذْكَرُ. وبِخِلافِ ذَلِكَ اللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ وَغَيْرُهَا من اللُّغَاتِ الشَّرْقِيَّةِ، فَإِنَّ النَّقْلَ عَنْهَا مِثْلُ النَّقْلِ إِلَيْهَا، يَسْتَلْزِمُ تَبْدِيلَ العَبارَةِ كُلِّها بِجَمِيعِ وَضْعِها تَقْرِيباً، وَتَقْدِيمَ كَثِيرٍ مِنْ أَلْفاظِها أَوْ تأخِيرَهُ، وَرُبَّمَا أَدَّىٰ الأَمْرُ

بِالنَّاقِلِ إلىٰ تَغْيِيرِ الأَصْلِ بِجُمْلَتِهِ إلىٰ مَعْنَىً يُقارِبُهُ لِعَدَمِ ٱتِّفَاقِ المعاني بَيْنَ اللُّغَتَيْنِ وَتَبايُنِ أَذْوَاقِ أَهْلِهِمَا في وُجُوهِ التَّعْبِيرِ وَأَسَالِيبِ المَجازِ وَطُرُقِ الاسْتِعَارَةِ، مِمَّا يَرْجِعُ إلىٰ مَأْلُوفِ كُلٍّ مِنَ الفَرِيقَيْنِ في حالِ الحَضارَةِ وَهَيْئَةِ الاْجْتِماعِ. وَلِذَلِكَ كانَ أَكْثَرُ الأَشْعَارِ الإِفْرَنْجِيَّةِ المَنْقُولَةِ إلىٰ اللُّغَةِ الفَرَنْساوِيَّة لا يَفْقِدُ مِنْ جَمالِ مَعانِيهِ الشِّعْرِيَّةِ شَيْئاً سِوَىٰ ما كَانَ عَلَيْهِ من طَلاَوَةِ النَّظْمِ وَرَوْنَقِ القالَبِ الشِّعْرِيِّ، وَكَأَنَّ مَنْ وَقَفَ عَلَىٰ تِلْكَ الأَشْعارِ مَنْقُولَةً إلىٰ هَذِهِ اللُّغَةِ كَأَنَّهُ وَقَفَ عَلَيْهَا في لُغَتِها مِنْ حَيْثُ دِقَّةُ المَعانِي وَٱبْتِكَارُهَا وَدَرَجَةُ ناظِمِها في مَقامِ الشَّاعِرِيَّةِ، وَذَلِكَ لِمَا قَدَّمْنَاهُ مِنِ ٱتِّفاقِ أَكْثَرِ هَذِهِ اللُّغاتِ في أُصولِها وَقُرْبِ المُشابَهَةِ بَيْنَها في بَيانِ العَواطِفِ وَالوِجْداناتِ، وَلا سِيَّمَا وَأَنَّ أَصْحَابَها في نَظْمِهِمْ إِنَّمَا يُعَوِّلُونَ على دِقَّةِ المعانِي وَحَقائِقِ الأَفْكَارِ أَكْثَرَ مِمّا يَعْتَمِدُونَ عَلَىٰ رَشاقَةِ اللَّفْظِ وَزُخْرُفِ الأَسَالِيبِ، إِذْ لُغاتُهُمْ أَضْيَقُ مِنْ لُغَتِنَا كَثِيراً، وَقَلَّمَا تَخْتَلِفُ أَنْواعُ التَّعْبِيرِ عِنْدَهُمْ بِالنِّسْبَةِ إلىٰ ٱخْتِلافِها وَٱسْتِفاضَتِها عِنْدَنَا، بِحَيْثُ أَنَّهُمْ لاَ يَجِدُونَ لإِبْرَازِ المَعْنَىٰ صِيغَةً أَوْ صِيغَتَيْنِ إلاَّ وَجَدْنَا لَهُ نَحْنُ عَشَرَ صِيَغٍ أَوْ أَكْثَرَ، نَتَفَنَّنُ بِها فِي إبرازِهِ، وَتَخْتَلِفُ دَرَجَةُ الشَّاعِرِيَّةِ عِنْدَنَا

بٱخْتِلافِ الإِجَادَةِ وَالتَّقْصِيرِ فِيها، وَهِيَ المَزِيَّةُ الَّتِي ٱمْتَازَتْ بِها لُغَتُنَا العَرِبِيَّةُ عَنْ غَيْرِهَا مِنْ سائِرِ اللُّغَاتِ.

ولاَ بَأْسَ قَبْلَ الدُّخُولِ فِي هٰذِهِ المُقَابَلَةِ التَّفْصِيلِيَّةِ بَيْنَ أَشْعَارِنَا وَأَشْعَارِهِمْ أَنْ أُورِدَ لِلمُطَالِعِ نُبْذَةً إِجْمَالِيَّةً عَنْ أَصْلِ الشِّعْرِ عِنْدَنا وَعِنْدَهُمْ وَدَرَجَاتِ ٱرْتِقائِهِ في سُلَّم الكَمَالِ مِنْ حِينَ نَشْأَتِهِ إِلىٰ هَذَا العَهْدِ، وَمَا تَقَلَّبَ عَلَيْهِ مِنْ أَحْوَالِ المَعانِي وَشُؤُونِهَا بِتَقَلُّبِ الأَيَّامِ عَلَىٰ أَصْحَابِهِ مِنَ الشُّعُوبِ، إِذْ هُوَ مِرْآةُ الأَخْلاقِ وَتاريخُ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ الأُمَمُ في مَراقِي تَقَدُّمِها وحَضارَتِها إِلىٰ الآن.

وَأَبَدَأُ مِنْ ذَلِكَ بما يَقُولُهُ الإِفْرَنْجُ عَنْ أَصْلِ الشِّعْرِ عِنْدَهُمْ، وَكَيْفِيَّةِ تَدَرُّجِهِ وَوُصولِهِ إِلَيْهِمْ، عَلَىٰ سِلْسِلَةٍ أَوَّلُ حَلَقاتِها بَدْءُ الشِّعْرِ في العالَمِ مُنْذُ عَهْدِ آبائِنَا الأَوَّلِينَ، وَآخِرُها ما صَارَ إِلَيْهِ عَلَىٰ عَهْدِ شُعرائِهِمْ في هَذَا العَصْرِ نَقْلاً عَن فكتور هيغو أَكْبَرِ شُعَرَاءِ الفَرَنْسِيس وَأَشْهَرِهِمْ في هَذَا الفَنِّ، قَالَ:

إِنَّ الهَيْئَةَ الاجْتِمَاعِيَّةَ الَّتِي تَعْمُرُ الأَرْضَ اليَوْمَ لَمْ تَكُنْ هِيَ نَفْسُهَا الَّتِي كانَتْ تَعْمُرُهَا مِنْ قَبْلُ، بَلْ إِنَّ المُجْتَمَعَ الإِنْسانِيَّ قَدْ نَشَأَ وَدَرَجَ وَشَبَّ كَمَا يَنْشَأُ الواحِدُ مِنْ أَفْرادِهِ، فَكانَ صَبِيًّا، ثُمَّ صارَ رَجُلاً، ثُمَّ نَحْنُ الآنَ

نَشْهَدُ شَيْخُوخَتَهُ الْكُبْرَىٰ. وَلَقَدْ كَانَ قَبْلَ الأوانِ الَّذِي يُسَمِّيْهِ المُعاصِرُونَ عَهْدَ الخُرافاتِ أوانٌ أَقْدَمُ مِنْهُ، يُسَمِّيهِ السَّلَفُ العَهْدَ العَتِيقَ، وَأَوْلَىٰ بِهِ أَنْ يُسَمَّىٰ عَهْدَ الأَوَّلِينَ، وَبِهِ تَحْصَلُ عِنْدَنَا ثَلاثَةُ عُهُودٍ لِلْمُجْتَمَعِ البَشَرِيِّ مِنْ يَوْمِ نَشْأَتِهِ إِلىٰ هَذَا العَصْرِ. وَلَمَّا كَانَ كُلُّ مُجْتَمَعٍ لَهُ شِعْرٌ بِخُصُوصِهِ يَمْتَازُ بِهِ عَنْ سِواهُ، فَقَدْ رَأَيْنا أَنْ نُبَيِّنَ هُنَا ما كَانَ مِنَ المَزِيَّةِ الشِّعْرِيَّةِ لِكُلِّ عَهْدٍ مِنْ هَذِهِ العُهُودِ الثَّلاثَةِ الَّتِي هِيَ أَطْوارُ الحياةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ، مِنْ بَدْءِ نُشُوئِها، وَهِيَ: عَهْدُ الأَوَّلِينَ وعَهْدُ الخُرافاتِ وَالعَهْدُ الحاضِرُ، وَهُوَ يَشْمُلُ ما كَانَ مِنَ الأَعْصُرِ الوُسْطَىٰ إِلىٰ الآن.

فَلَقَدْ خُلِقَ الإِنْسَانُ جَدِيداً في العَهْدِ الأَوَّلِ، وَخُلِقَ الشِّعْرُ مَعَهُ بالطَّبْعِ، إِذْ هُوَ مَفْطُورٌ عَلَيْهِ، فكانَتْ أَشْعارُهُ الأناشِيدَ وَالأَغَانِي الرُّوحِيَّةَ طِبْقاً لما كَانَ يَرَىٰ حَوْلَهُ مِنْ عَجائِبِ اللَّهِ وَآياتِهِ، ثُمَّ هُوَ قَدْ كانَ قَرِيبَ العَهْدِ بِصُنْعِ اللَّهِ لَهُ، فَكَانَ شِعْرُهُ الصَّلاةَ وَالابْتِهالَ، وَكَانَ لِعُودِ النَّظْمِ عِنْدَهُ ثَلاثَةُ أَوْتارٍ، لا يَرِنُّ عَلَيْهِ سِواهَا، وَهِيَ الخالِقُ وَالخَلِيقَةُ وَالنَّفْسُ. ثُمَّ إِنَّ الأَرْضَ كانَتْ قَفْراً خَالِياً، يَنْقَسِمُ سُكّانُها إِلىٰ أُسَرٍ لا إِلىٰ قَبائِلَ، وَيُسَمَّىٰ حُكّامُها آباءً لا مُلوكاً، وَكَانَ العَيْشُ فِيها عَلَىٰ دَعَةٍ وَسَعَةٍ لَيْسَ فِيهِ ٱجْتِيازُ أَرْضٍ

مَخْصُوصَةٍ وَلاَ شَرِيعَةٌ وَلا نِزَاعٌ، بَلْ هُوَ عِيشَةُ رُعاةٍ رُحَّلٍ هِيَ مَهْدُ كُلِّ حَضَارَةٍ وَمَدَنِيَّةٍ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَكُنْ في شَيْءٍ مِنْهُمَا عَلَىٰ الإِطْلاَقِ، وَكَانَ فِكْرُ المَرْءِ فِيها كَحياتِهِ أَشْبَهَ بِسَحابَةٍ سارِيَةٍ تَتَغَيَّرُ أَشْكالُها وَتَخْتَلِفُ مَجارِيها بِاخْتِلافِ مَا يَهُبُّ عَلَيْهَا مِنَ الرِّياحِ، وَهَذَا هُوَ الإِنْسانُ الأَوَّلُ، بَلِ الشَّاعِرُ الأَوَّلُ، وَيُدْعَىٰ عَهْدُهُ عَهْدَ الخَلِيقَةِ أَوْ عَهْدَ الأَوَّلِينَ.

ثُمَّ تَدَرَّجَ العالَمُ في مَرَاقِي فِطْرَتِهِ الكمالِيَّةِ، فَٱتَّسَعَ نِطاقُ العُمْرانِ، وَٱمْتَدَّتْ حُدُودُ الاجْتِماعِ، فَصارَتِ الأُسْرَةُ قَبِيلةً، وَالقَبِيلَةُ أُمَّةً وَشَعْباً، وَٱلْتَفَّ كُلُّ هَذَا المَجْمُوعِ عَلَىٰ قُطْبٍ واحِدٍ جَعَلَهُ مَرْكَزَ عُمْرانِهِ، فَنَشَأَتْ مِنْ ذَلِكَ الإِماراتُ وَالدُّوَلُ. وَقامَ المُجْتَمَعُ المَدَنِيُّ مَقَامَ القَبَائِلِ الرَّاحِلَةِ، وَٱخْتُطَّ المِصْرُ الواسِعُ مكانَ الحِلَّةِ الصَّغِيرَةِ، وَشُيِّدَ القَصْرُ الرَّفِيعُ مَكَانَ الخَيْمَةِ المَضْرُوبَةِ، وَبُنِيَ الهَيْكَلُ العَظِيمُ في مَوْضِعِ خَيْمَةِ الأَجْتِمَاعِ، وَبَقِيَ أُولَئِكَ الرُّؤُوسُ رُعاةً، وَلَكِنَّهُمْ صَارُوا رُعاةَ شُعوبٍ بَدَلَ القُطْعَانِ، وَاسْتَبْدَلُوا عَصا الرَّاعِي بِالصَّوْلَجانِ. ثُمَّ ضاقَتِ الأَرْضُ بِسُكَّانِها وَشُعُوبِها، فَصَدَمَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً، فكانَتْ مِنْ ذَلِكَ الحُرُوبُ وَالغَاراتُ، وَكَانَ الشِّعْرُ مِرْآةً لِكُلِّ تِلْكَ الأُمورِ تَنْعَكِسُ عَنْهُ، وَتَلُوحُ صُوَرُهَا فِيهِ، فَٱنْتَقَلَ بِهَا مِنْ حَدِّ بَيانِ الأَفْكَارِ إِلَىٰ حَدِّ

وَصْفِ الحَوَادِثِ وَتَصْوِيرِها، فَٱنْتَظَمَ في سِلْكِهِ تاريخُ العُصورِ وَالشُّعُوبِ وَالدُّوَلِ وَتَدْوِينُ المَواقِعِ وَالحُرُوبِ وَالحِكَايَاتِ، وَخَرَجَ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ هُومِيرُوس الشّاعِرُ اليونانِيُّ المَشْهُورُ، وَفِي قَصائِدِهِ وَحْدَها صُوَرُ تِلْكَ الأَعْصُرِ كُلِّها وَبَيانُ وَقائِعِها وَحَوَادِثِها وَوَصْفُ مَشاهِيرِها وَأَبْطالِهَا وَآلِهَتِها طِبْقاً لِما كانَ عَلَيْهِ الشِّعْرُ في ذَلِكَ الحِينِ مِنَ الجَمْعِ بَيْنَ الدِّينِ وَالدُّنْيا وَحَقِيقَةِ التَّارِيخِ وَأَوْهَامِ الخُرافَاتِ.

ثُمَّ دَخَلَ العالَمُ بَعْدَ ذَلِكَ في حالٍ جَدِيدَةٍ، هي النَّصْرانِيَّةُ الَّتِي دَرَجَتْ مِنْ مَهْدِ الشَّرْقِ، فَكَانَ الغَرْبُ مُجْتَمَعَ أَنْوارِها، وَهَدَمَتْ مَبَانِي تِلْكَ الخُرافَاتِ القَدِيمَةِ، وَوَضَعَتْ أَساسَ المَدَنِيَّةِ الصَّحِيحَةِ عَلَىٰ آثارِهَا، وَأَعْلَمَتِ الإِنْسانَ أَنَّ لَهُ حَياتَيْنِ: حَياةً فانِيَةً وَحَياةً خالِدَةً، وَأَنَّهُ مَثَلُ حياتِهِ مُؤَلَّفٌ مِنْ عُنْصُرَيْنِ: حَيَوانٌ وَنُطْقٌ وَنَفْسٌ وَجَسَدٌ، وَفَصَلَتْ بَيْنَ النَسَمِ وَالأَجْسَامِ فَصْلاً بَعِيداً، وَوَضَعَتْ بَيْنَ الخالِقِ وَالمَخْلُوقِ فَرْقاً شاسِعاً، فَٱرْتَقَىٰ بِهَا عَقْلُ الإِنْسانِ مِنْ حالٍ إِلىٰ حالٍ، وَتَحَوَّلَتْ أَخْلاقُهُ الَّتِي هِيَ تِلْوَ عَقائِدِهِ مِنْ صِيغَةٍ إِلىٰ صِيغَةٍ أُخْرَىٰ، وَٱنْتَقَلَ الشِّعْرُ عِنْدَهُ مِنْ دَائِرَةِ الوَهْمِ إِلىٰ حَدِّ الحَقِيقَةِ، وَمِنَ الخيالِ الخُرافِيِّ الكاذِبِ إِلىٰ المَعْنَىٰ الحِسِّيِّ الصَّحِيحِ، حَتَّىٰ بَلَغَ ما هُوَ عَلَيْهِ في هَذَا العَصْرِ. اهـ.

أَمَّا الشِّعْرُ العَرَبِيُّ، فَلَمْ يَكُنْ في شَيْءٍ مِنْ تارِيخِ الشِّعْرِ الإِفْرَنْجِيِّ في تَباعُدِ أَطْوارِهِ وشِدَّةِ التَّبايُنِ في تَنَقُّلِهِ مِنْ حالٍ إِلىٰ حالٍ عَلَىٰ ما بَيَّنَهُ الكاتِبُ الفرَنْسوي فيما نَقَلْنَاهُ مِنْ كَلامِهِ، وَإِنَّمَا هُوَ شِعْرٌ مُنْفَرِدٌ في نَفْسِهِ، نَشَأَ في بِلادِ العَرَبِ بِخُصُوصِها، وَأَجْراهُ اللَّهُ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ العَرَبِ وَحْدَهِمْ دُونَ غَيْرِهِمْ، لَمْ يَأْخُذُوهُ عَنْ أَحَدٍ مُتَسَلْسِلاً كَمَا أَخَذَ الإِفْرَنْج شِعْرَهُمْ عَنِ اليُونانِ وَالرُّومَانِ وَمَنْ قَبْلَهُمَا، وَلَمْ يَأْخُذْ أَحَدٌ عَنْهُمْ كَمَا أَخَذَ عَنْ غَيْرِهِمْ، بَلْ بَقِيَ مُنْحَصِراً فِيهِم، تَناوَلُوهُ إِرْثاً عَنِ الطَّبِيعَةِ في بَداوَتِهِمْ وَلَمْ يُوَرِّثُوهُ أَحَداً مِنْ غَيْرِ قَبائِلِهِمْ وَالنَّاطِقِينَ بِلِسانِهِمْ، وَجُلُّ مَا كَانَ مِنْ تَقَلُّبِ أَطْوارِهِ عِنْدَهُمْ أَنَّهُ لَمَّا ٱنْتَقَلَ إِلىٰ الحَضَرِ، أَوْ لَمَّا انْتَقَلَتْ بَداوَةُ العَرَبِ إِلىٰ الحضارَةِ المَدَنِيَّةِ لَمْ يَطْرَأْ عَلَيْهِ سِوَىٰ تَغْيِيرِ بِزَّتِهِ بِتَنْقِيحِ بَعْضِ أَلْفاظِهِ وَتُخَيُّرِ السَّهْلِ المَأْنُوسِ مِنْهَا وَٱطِّراحِ الكَلِمِ الوَحْشِيِّ الَّذِي تَأْباهُ رِقَّةُ الحَضارَةِ وآدابُ ٱجْتِماعِها، وَأَمَّا ما سِوَىٰ ذَلِكَ مِنْ نَسَقِ نَظْمِهِ ودِيباجَةِ مَعانِيهِ وَطَرائِقِ إِنْشَائِهِ وَبيانِ المَقاصِدِ مِنْهُ، فَإِنَّهُ لَمْ يَكَدْ يَتَغَيَّرُ في شَيْءٍ مِنْهَا إِلاَّ مَا دَعَتْ إِلَيْهِ حالاتُ الحَضارَةِ في بَعْضِ مُصْطَلحاتِها وَمُسْتَحْدَثِ عاداتِها، بَلْ هُمْ لا يَزالُونَ عَلَىٰ المَجْرَىٰ العَربيِّ القَدِيمِ في وَصْفِ

الدِّيارِ والبُكاءِ عَلَىٰ الأَطْلالِ وَالتَّشْبِيبِ بالمَحْبُوبِ وَتَقْدِيمِ الغَزَلِ وَالنَّسِيبِ بَيْنَ أَيْدِي ما يَقْصِدُونَهُ مِنَ الأَغْرَاضِ وَنَظْمِ الحِكَمِ وَالأَمْثالِ في أَثْنَاءِ مَا يَعْرِضُ لَهُمْ مِنْ صُنُوفِ الكَلاَمِ، وَرُبَّمَا خَرَجُوا عَنْ ذَلِكَ إلى ما أَحْدَثَتْهُ عِنْدَهُمُ الحالَةُ الحَضَرِيَّةُ مِنْ وَصْفِ الرِّياضِ وَالقُصُورِ وَمجالِسِ الشَّرابِ وَأَمْثالِهَا مِمَّا لَمْ يَكُنْ مَعْرُوفاً في الجاهِلِيَّةِ أَوْ كَانَ مَخْصُوصاً بالمُتْرَفِينَ مِنْهُمْ مِمَّنِ اتَّفَقَتْ لَهُمْ مِثْلُ تِلْكَ الحالاتِ.

وَبِالْجُمْلَةِ، فَهُمْ قَوْمٌ جَرَىٰ الشِّعْرُ عَلَىٰ أَلْسِنَتِهِمْ كَامِلاً فِيما نَرْوِيهِ عَنْهُمْ، إلاَّ إِذا كانَ قَبْلَ ذَلِكَ شَيْءٌ لَمْ يَبْلُغْنا مِمّا لَمْ يَنْقُلْهُ لنا التارِيخُ، وَلَعَلَّ أَوَّلَ ما نَطَقُوا بِهِ مِنْهُ هذا النَّوْعُ المَعْرُوفُ بِالرَّجَزِ، وَهُوَ مَنْزِلَةٌ بين الشِّعْرِ وَالنَّثْرِ، يَلْتَزِمُونَ في كُلِّ بَيْتٍ مِنْهُ قافِيَتَيْنِ فَقَطَ، عَلَى نَحْوِ ما نَراهُ في الشِّعْرِ الإِفْرَنْجِي لِيَوْمِنَا هَذا، ثُمَّ تَطَرَّقُوا مِنْهُ إِلىٰ سائِرِ الأَوْزَانِ يَلْتَزِمُونَ فِيها القافِيَةَ الواحِدَةَ في جَمِيعِ أَبْيَاتِها.

وَكَانَ شِعْرُهُمْ في أَوَّلِ أَمْرِهِ مَقْصُوراً عَلَىٰ حَوادِثِ أَنْفُسِهِمْ وَالإِبانَةِ عَمّا يُكِنُّهُ الشاعِرُ مِنْ شَكْوَىٰ أَوْ وِجْدانٍ أَوْ حِكَايةِ واقِعَةٍ غَرامِيَّةٍ أَوْ حَماسِيَّةٍ، يُبْرِزُونَ المعاني الشِّعْرِيَّةَ في ذَلِكَ كُلِّهِ كما تُصَوِّرُ لَهُمْ نُفُوسُهُمْ، مُجَرَّدَةً عَنِ

الاخْتِلاقِ، وَدَعْوَىٰ غَيْرِ الحقِيقَة، وَحكايَةِ حَوادِثَ وَهْمِيَّةٍ مِمَّا دَرَجَ عَلَيْهِ المُوَلِّدُونَ بَعْدَ ذَلِكَ؛ وَإِذا خَرَجُوا إِلى المَدْحِ لم يَمْدَحُوا الرَّجُلَ إِلاّ بما فِيهِ، وَلَمْ يَذْكُرُوا مِنْ حَسناتِهِ إِلاَّ ما صَدَرَ عَنْهُ فِعلاً، كما أَنَّهُمْ إِذا رَثَوْا مَفْقُوداً لم يَرْثُوه إِلاَّ بما تَتَفَجَّعُ بِهِ قُلوبُهُمْ مِنَ الحُزْنِ عَلَيْهِ وَبَيانِ أَخْلاقِهِ وَصِفاتِهِ، كَمَا نَرَىٰ ذَلِكَ في قَصائِدِهِمْ الجاهِلِيَّةِ وَالمُخَضْرَمَةِ، كَقَصائِدِ زُهَيْرٍ في هَرِمِ بْنِ سِنَانٍ وَقَصِيدَةِ كَعْبٍ في مَدْحِ الرَّسُولِ وَاسْتِعْطَافِهِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ، فَإِنَّكَ لا تَجِدُ هُناكَ اخْتِلاقاً في المَدْحِ، ولا تَطَرُّفاً في الإِطْراءِ، ولا إِفْراطاً في الثَّناءِ، إِلاَّ ما جَرَىٰ عَلَىٰ طَرِيقِ الاعْتِدالِ؛ وَلَمْ يَخْرُجْ عَنْ حَدِّ المَقْبُولِ السَّائِغِ في الأَفْهامِ، عَلَىٰ غَيْرِ ما صَارَ إِلَيْهِ المَدْحُ بَعْدَ ذَلِكَ من الغُلُوِّ الزَّائِدِ وَكَثْرَةِ التَّشَعُّبِ في إِبرازِ المَعَانِي الخَيَالِيَّةِ، والصُّوَرِ الوَهْمِيَّةِ، والخُرُوجِ تَارَةً إِلىٰ المُحالِ حَيْثُ يَجْعَلُ المادِحُ مَمْدُوحَهُ حاكِماً عَلَىٰ الدَّهْرِ، وَيَضَعُ في يَدَيْهِ أَزِمَّةَ الأَقْدارِ، وَيُقَرِّبُ عَلَيْهِ تَنَاوُلَ النُّجُومِ لَوْ أَرادَها، وَيُوصِلُ حَدَّ حُكْمِهِ إِلىٰ الشَّمْسِ وَالبَدْرِ، تَوَسُّعاً في المعانِي وَتَفَنُّناً في إِيرادِها وَتَصْوِيرِها، كَأَنَّهُمْ لَمَّا انْتَقَلُوا مِنْ حالَةِ البَدَاوَةِ الجاهِلِيَّةِ الَّتِي هِيَ البَساطَةُ والفِطْرَةُ إِلىٰ حالَةِ الحَضارَةِ الَّتِي هِي سُلَّمُ الارْتِقاءِ وَمَدْرَجَةُ التَّأَنُّقِ

فِي سَعَةِ العَيْشِ وَتَرَفِ النِّعْمَةِ، وَرَأَوْا غَيْرَ ما كَانُوا يَأْلَفُونَهُ مِنْ أُبَّهَةِ المُلْكِ وَزِينَةِ الحَضَارَةِ، ٱنْتَقَلَتْ معانِيهُمُ الشِّعْرِيَّةُ أَيْضاً عَلَىٰ هَذَا النَّسَقِ تَدَرُّجاً مَعَهُمْ فِي مراقِي المَدَنِيَّةِ وَجَعَلَ الشَّاعِرُ يُزَخْرِفُ مَعَانِي شِعْرِهِ كَمَا يُزَخْرِفُ مَنْزِلَهُ، وَيَتَفَنَّنُ في إِبْرازِ مَقاصِدِهِ كَمَا يَتَفَنَّنُ في طَعامِهِ وَلِباسِهِ، وَيَرْتَقِي بِها في سُلَّمِ الخَيالِ الَّذِي هُوَ تِلْوَ الحقِيقَةِ كما ٱرْتَقَىٰ في سُلَّمِ الحَضَارَةِ الَّتِي هِيَ رَدِيفُ البَداوَةِ وَالفِطْرَةِ، إِلىٰ أَنْ بَلَغَ الشِّعْرُ عِنْدَنَا مَبْلَغَهُ المَعْرُوفَ لِهَذَا العَهْدِ، لَمْ يَتَحَوَّلْ عَنْ حَقِيقَةِ أَصْلِهِ وَنَسَقِ نَظْمِهِ إلاَّ هَذَا التَّحَوُّلَ النِّسْبِيَّ.

أَمَّا الفَرْقُ الفاصِلُ بَيْنَ الشِّعْرِ عِنْدَنَا وَعِنْدَهُمْ، فَعَلَىٰ نَوْعَيْنِ: لَفْظِيٌّ وَمَعْنَوِيٌّ. أَمَّا اللَّفْظِيُّ، فَهُوَ ما تَعَلَّقَ بِالوَزْنِ وَالقافِيَةِ، فَإِنَّ وَزْنَ الشِّعْرِ عِنْدَهُمْ يَتَأَلَّفُ مِنَ الأَهْجِيَةِ اللَّفْظِيَّةِ، وَهِيَ كُلُّ نَبْرَةٍ صَوْتِيَّةٍ تَعْتَمِدُ عَلَىٰ حَرْفٍ مِنْ حُرُوفِ المَدِّ، سَواءٌ كانَ ذَلِكَ الحَرْفُ وَحْدَهُ أَوْ مُقْتَرِناً بِحَرْفٍ صَحِيحٍ، وَيُسَمُّونَ هَذِهِ الأَهْجِيَةَ في اصْطِلاحِهِمُ الشِّعْرِيِّ «أَقْداماً»، وَبِهَا تَنْقَسِمُ أَبْحُرُ الشِّعْرِ عِنْدَهُمْ عَلَىٰ حَسْبِ أَعْدادِها في البَيْتِ، فَيَكُونُ أَطْوَلُهَا مَا تَرَكَّبَ مِنْ ٱثْنَيْ عَشَرَ هِجاءً، وَهُوَ مَا يُسَمُّونَهُ: الوَزْنَ الإِسْكَنْدَرِي،

نِسْبَةً إلى الإسْكَنْدَرِ؛ وَأَقْصَرُها مِنْ هِجاءٍ واحِدٍ فَقط، بِحَيْثُ يَسُوغُ للشَّاعِرِ عِنْدَهُمْ أَنْ يَنْظِمَ القِطْعَةَ يَكُونُ أَوَّلُ أَبياتِها آثْنِيْ عَشَرَ هِجاءً، ثُمَّ يَنْزِلُ فِيهَا بالتَّدْرِيجِ إِلىٰ أَنْ يَخْتِمُهَا بِهِجاءٍ وَاحِدٍ على ما يُشْبِهُ بَعْضَ التواشِيحِ الغِنائِيَّةِ عِنْدَنَا تَقْرِيباً. وَلَكِنَّ أَكْثَرَ الأَوزانِ شُيُوعاً بَيْنَهُمْ هو الوَزْنُ الإِسْكَنْدَرِيّ، وَمِنْهُ أَكْثَرُ قَصائِدِهِمْ وَرِوَاياتِهِمْ، وَلَكِنْ يُشْتَرَطُ في البَيْتِ الَّذِي يَكُونُ مِنْ هَذَا الوَزْنِ أَنْ يَنْتَهِيَ كُلُّ شَطْرٍ مِنْهُ عِنْدَ الهِجاءِ السَّادِسِ، بِحَيْثُ لا تَنْقَطِعُ الكَلِمَةُ في وَسَطِهِ إِلىٰ شَطْرَيْنِ، بِخِلاَفِ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ الَّذِي يُجَوِّزُ وَصْلَ الشَّطْرَيْنِ مِنْهُ بِكَلِمَةٍ واحِدَةٍ، وَهُوَ المَعْرُوفُ عِنْدَنَا بالمُدَوَّرِ. وَلَكِنَّهُمْ يُخَالِفُونَ العَرَبَ في هَذَا القَيْدِ بِأَنَّهُمْ يَصِلُونَ بَيْنَ البَيْتِ الأَوَّلِ وَالثَّانِي في المَعْنىٰ وَاللَّفْظِ جَمِيعاً، بِأَنْ يَجْعَلُوا الفاعِلَ قافِيَةً للبَيْتِ، وَيَضَعُوا مَفْعُولَهُ في أَوَّلِ البَيْتِ التَّالِي، بِحَيْثُ يَضْطَرُّ القارِىءُ لَهُ أَنْ لا يَقِفَ عِنْدَ القافِيَةِ، بَلْ يَصِلُها بِما بَعْدَها في الإلقاء، وَهُوَ المَذْهَبُ الَّذِي أَنْشَأَهُ فِيكتور هيغو أخِيراً، وَعَلَيْهِ أَكْثَرُ شُعَرائِهِمُ اليَوْمَ، وبخلافِ ذَلِكَ العَرَبُ، فَإِنَّ هَذَا يُعَدُّ عِنْدَهُمْ مِنَ العُيوبِ، وَلاَ يَتَسامَحُونَ بِوُقُوعِ شَيْءٍ مِنْهُ في أَشْعارِهِمْ وَلَوْ وَقَعَ فِي كلامِ أَفْحَلِ شُعَرائِهِمْ، كالنابِغَةِ

الذُّبْيَانِيِّ حَيْثُ يَقُولُ [من الوافر]:

وَهُـمْ وَرَدُوا الـجِـفـارَ عَـلَـىٰ تَـمِـيـمٍ
وَهُـمْ أَصْـحَـابُ يَـوْمِ عُـكَـاظَ أَنِّـي

شَـهِـدْتُ لَـهُـمْ مَـواقِـفَ صـادِقَـاتٍ
شَـهِـدْنَ لَـهُـمْ بِـصِـدْقِ الـوُدِّ مِـنِّـي

ولاَ يَخْفَىٰ أَنَّ إِقامَةَ الوَزْنِ في الشِّعْرِ الإِفْرَنْجِيِّ عَلَىٰ عَدَدِ الأَهْجِيَّةَ مِمّا يُسَهِّلَ نَظْمَهُ كَثِيراً، وَيُبِيحُ لِلشَّاعِرِ أَنْ يُقَدِّمَ وَيُؤخِّرَ في أَلْفاظِ البَيْتِ ما شَاءَ وَيَضَعَ في أَثْنَائِهِ اللَّفْظَةَ الَّتِي يُرِيدُهَا وَلاَ يَخْتَلُّ مَعَهُ الوَزْنُ عَكْسَ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ الَّذِي يَعْتَمِدُ وَزْنُهُ عَلَىٰ التَّفاعِيلِ مِنَ الأَسْبابِ وَالأَوْتَادِ، فَإِنَّ تَقْدِيمَ الحَرْفِ الواحِدِ أَوْ تَأْخِيرَهُ فِيهِ قَدْ يُؤَدِّي إلى ٱخْتِلالِ الوَزْنِ بِجُمْلَتِهِ، أَوْ يُنْقُلُ البَيْتَ مِنْ بَحْرٍ إِلى بَحْرٍ آخَرَ، كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ عِنْدَ أَرْبَابِ هَذَا الفَنِّ.

وَمِمَّا نُخَالِفُ الإِفْرَنْجَ فِيهِ مُخَالَفَةً لَفَظِيَّةً مَسْأَلَةُ القَافِيَةِ، فَإِنَّهَا عِنْدَهُمْ لا تَلْزَمُ الشاعِرَ في أَكْثَرِ مِنْ بَيْتَيْنِ، وَلِذَلِكَ كَانَ شِعْرُهُمْ أَشْبَهَ بِالأَرَاجِيزِ عِنْدَنَا عَلَىٰ ما قَدَّمْنَاهُ قَرِيباً، وَلَكِنَّ لَهُمْ فِيها قَيْداً آخَرَ لا وُجُودَ لَهُ عِنْدَنَا، وَهُوَ أَنَّهُمْ يُقَسِّمُونَ القَوافِي إِلىٰ مُؤَنَّثَةٍ وَمُذَكَّرَةٍ، وَيَقْتَضُونَ أَنْ

تَكُونَ كُلُّ قوافِي القَصِيدَةِ مُؤنَّثَةً فَمُذَكَّرَةً عَلَىٰ التَّوالِي، بِحَيْثُ لا يَتَوالَىٰ بَيْتانِ عَلَىٰ قَافِيَةٍ مُذَكَّرَةٍ أَوْ مُؤَنَّثَةٍ، وَيُرِيدُونَ بِالْقَافِيَةِ المُؤَنَّثَةِ مَا كَانَتْ مَخْتُومَةً بِحَرْفِ عِلَّةٍ، وَبالمُذَكَّرَةِ مَا كَانَتْ مَخْتُومَةً بِحَرْفٍ صَحِيحٍ، فَهُمْ أَبداً يُعاقِبُونَ بَيْنَ هَذِهِ القَوافِي إلى خِتَامِ القَصِيدَةِ.

وَإِنَّما جَعَلُوا أَبْيَاتَ شِعْرِهم عَلَىٰ قوافٍ مُتَعَدِّدَةٍ، لِأَنَّ لُغَتَهُمْ ضَيِّقَةٌ قَلِيلَةُ الأَلْفَاظِ، لا تَتَّسِعُ لالْتِزامِ قَافِيَةٍ واحِدَةٍ في القَصِيدَةِ الطَّويلَةِ عَلَىٰ خِلافِ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ الَّذِي لَهُ مِن ٱتِّساعِ لُغَتِهِ وَٱسْتِفَاضَةِ أَلْفَاظِهَا أَكْبَرُ نَصِيرٍ وَأَوْفَىٰ مَدَدٍ عَلَىٰ تَعَدُّدِ قَوافِيهِ وَالْتِزامِ الحَرْفِ الواحِدِ فِيها. وَمِنَ الغَرِيبِ أَنَّهُمْ مَعَ تَوَسُّعِهِمْ في القافِيَةِ بِكَثْرَةِ تَغْيِيرِها وَعَدَمِ ٱلْتِزامِها وَجَوَازِ تَكْرَارِهَا نَجِدُهُمْ أَكْثَرَ النَّاسِ شَكْوَىٰ مِنْ صُعُوبَتِها وَقِلَّةِ الظَّفَرِ بِالمُحْكَمِ المَتِينِ مِنْهَا، حَتَّىٰ أَنَّ فُولْتِيرَ نَفْسَهُ، وَهُوَ مِنْ أَكْبَرِ شُعَرائِهِمْ، كَانَ يَتَظَلَّمُ مِنْهَا، وَيُسَمِّيها: النِّيرُ الثَّقِيلُ وَالظَّالِمُ الشَّدِيدُ، وَأَنَّ شاعِرَهُمْ بوالو لما امْتَدَحَ مُولِيير الشاعِرَ الرِّوَائِيَّ الشَّهِيرَ، قالَ لَه: «عَلِّمْنِي يا مولِيير أَيْنَ تَجِدُ القَافِيَةَ» وَمَا نُنْكِرُ أَنَّ شُعَرَاءَ العَرَبِ يَفْتَخِرُونَ بِالقَافِيَةِ في شِعْرِهِمْ وَيَتَباهَوْنَ بالوُقوعِ عَلَىٰ المُحْكَمِ مِنْهَا، وَيَمْدَحُونَ شاعِرَهُمْ بِأَنَّ القَوافِي تَنْقادُ لَهُ، وَأَنَّهُ يَضَعُها في

أماكِنِها؛ وَلَكِنْ شَتّانَ بَيْنَ مَنْ يَفْخَرُ بالقافِيَةِ وَهُوَ يَلْتَزِمُها في كُلِّ أَبياتِ قَصِيدَتِهِ، وَبَيْنَ مَنْ يَفْخَرُ بِها وَيَعُدُّهَا نِيراً ثَقِيلاً وَهُوَ لا يَلْتَزِمُهَا إلاَّ في كُلِّ بَيْتَيْنِ مِنْ أَبْيَاتِهِ!

ثُمَّ إنَّ عِنْدَهُمْ خَلا ذَلِكَ نَوْعاً مِنَ الشِّعْرِ يُسَمُّونَهُ «الشِّعْرَ الأَبيَضَ»، وَهُوَ الَّذِي لا يَلْتَزِمُونَ فِيهِ قافِيَةً، بَلْ يُرْسِلُونَهُ إِرْسالاً، وَلاَ يَتَقَيَّدُونَ فِيهِ بِغَيْرِ الوَزْنِ، وَأَكْثَرُ شُيوعِ هذا النَّوعِ عِنْدَ الإِنْكليز، وَعَلَيْهِ أَغْلَبُ مَنْظُومَاتِ شاعِرِهِمْ شكِسْبير أَخْذاً عَنِ الشِّعْرِ القَدِيم.

وَمِنْ اصْطِلاحِهِمْ في النَّظْمِ أَنَّهُمْ يُخَالِفُونَ بَيْنَ أَبيَاتِ القَصِيدَةِ في قَوافِيها، بِأَنَّ يُفَرِّقُوا بَيْنَ كُلِّ بَيْتَيْنِ مِنْ قافِيَةٍ وَاحِدَةٍ بَيْتَيْنِ آخَرَيْنِ مِنْ قافِيَةٍ أُخْرَىٰ عَلَىٰ ما يُشْبِهُ نَسَقَ المُوَشَّحَاتِ الأَنْدَلُسِيَّةِ عِنْدَنَا، إلاَّ أَنَّهُمْ تَوَسَّعُوا في المقارَنَةِ بَيْنَ الأَوزَانِ تَوَسُّعاً زَائِداً، حَتَّىٰ صارُوا يَنْظِمُونَ المَقْطُوعَ الواحِدَ مِنَ الشِّعْرِ عَلَىٰ عِدَّةِ أَوْزانٍ مُخْتَلِفَةٍ لا يَنْطَبِقُ مَجْمُوعُهَا عَلَىٰ الذَّوْقِ السَّمَاعِي، إِذْ بَيْنَمَا الأُذُنُ تَسمَعُ وَزْناً في بَيْتٍ إِذْ بِهَا قَدِ انْتَقَلَتْ فَجْأَةً إِلىٰ وَزْنٍ آخَرَ، وَمِنْهُ إِلىٰ غَيْرِهِ، دُونَ أَنْ تَسْتَقِرَّ عَلَىٰ وَزْنٍ مَعْلُوم، وَهُوَ مِمَّا لا يُوجَدُ عِنْدَنَا إِلاَّ في بَعْضِ المُوشَّحاتِ المَذْكُورَةِ الَّتِي لَمْ يَعُدْ أَحَدٌ يَنْسِجُ عَلَىٰ مِنْوَالِهَا فِي هَذِهِ الأَيَّامِ.

هَذَا مُجْمَلُ مَا نُبَايِنُ الإِفْرَنْجَ فِيهِ مِنْ حَيْثُ اصْطِلاحُ الشِّعْرِ اللَّفْظِيِّ وَمُقْتَضَياتُ قَوَاعِدِهِ وَأَوْضاعِهِ؛ وَأَمَّا مِنَ الجِهَةِ المَعْنَوِيَّةِ، فَأَوَّلُ مَا يُخَالِفُونَنَا فِيهِ أَنَّهُمْ يَلْتَزِمُونَ الحقائِقَ في نَظْمِهِمْ ٱلْتِزاماً شَديداً، وَيَبْعُدُونَ عَنِ المُبالَغَةِ وَالإِطْراءِ بُعْداً شَاسِعاً، فَلاَ تكادُ تَجِدُ لَهُمْ غُلُوّاً وَلاَ إِغْراقاً، وَلاَ تَشْبِيهاً بَعيداً، وَلاَ ٱسْتِعارَةً خَفِيَّةً، وَلاَ خُرُوجاً عَنْ حَدِّ الجائِزِ المَقْبُولِ مِنَ المَعَانِي الشِّعْرِيَّةِ في جَمِيعِ وُجُوهِها وَمقاصِدِها، فَهُمْ مِنْ هَذَا القَبِيلِ أَشْبَهُ بِالْعَرَبِ في جاهِلِيَّتِهِمْ، إِذَا مَدَحُوا لَمْ يُبَالِغُوا، وَإِذَا وَصَفُوا لَمْ يُغْرِبُوا، وَإِذَا شَبَّهُوا لَمْ يُبْعِدُوا في التَّشْبِيهِ، وَإِذا رَثَوْا لَمْ يَتَعَدَّوْا صِفَاتِ المَرْثِيِّ وَأَخْلاقَهُ في المَعانِي السَّهْلَةِ المَقْبُولَةِ، عَلَىٰ خِلافِ مَا صَارَ إِلَيْهِ شِعْرُ العَرَبِ بَعْدَ الإِسْلامِ مِنَ الإِغْرَاقِ وَالغُلُوِّ وَالمُغَالاةِ في الوَصْفِ إِلىٰ ما يَفُوتُ حَدَّ التَّصَوُّرِ وَالإِدْرَاكِ مِمَّا أَشَرْنَا إِلَيْهِ في فاتِحَةِ هَذَا المَقالِ. غَيْرَ أَنَّنا إِذَا خَالَفْنَاهُمْ في أَكْثَرِ هَذَا الأَمْرِ، فَنَحْنُ مَعَهُمْ عَلَىٰ ٱتِّفَاقٍ في بَعْضِ أَطْرَافِهِ، أي: أَنَّهُ يَجُوزُ عِنْدَنا كُلُّ ما يَجُوز عِنْدَهُم مِنْ هَذَا ٱلنَّحْوِ، وَلا يَجُوزُ لَدَيْهِمْ كُلُّ ما لَدَيْنَا مِنْهُ، بِحَيْثُ كُنَّا جامِعِينَ شِعْرَهُمْ مِنْ هَذَا القَبِيلِ وَزَائِدِينَ عَلَيْهِ ما ٱنفَرَدْنَا بِهِ دُونَهُمْ مِنْ ذَلِكَ الإِغْرَابِ، وَكُنَّا نَقْدِرُ أَنْ نَقُولَ:

«أَعْذَبُ الشِّعْرِ أَكْذَبُهُ، وَأَحْسَنُهُ أَصْدَقُهُ» وَهُمْ لا يَقْدِرُونَ أنْ يَقُولُوا إلاَّ أَنَّ أَحْسَنَ الشِّعْرِ أَصْدَقُهُ فَقَطْ.

وَمَنْ وَقَفَ عَلَىٰ ما فِي «دِيوانِ الحماسَةِ» مِنْ شِعْرِ العَرَبِ في الجاهِلِيَّةِ وَصَدْرِ الإسْلاَمِ، وَوَقَفَ عَلَىٰ شِعْرِ الإِفْرَنْجِ اليَوْمَ، رَأَىٰ أَنْ لا فَرْقَ بَيْنَ الشِّعْرَيْنِ في بَساطَةِ المَعانِي، وَصِدْقِ التَّشْبِيهِ، وَحَقائِقِ الوَصْفِ؛ وَعَجِبَ كَيْفَ يَكُونَ كَمالُ الشِّعْرِ عِنْدَ الإِفْرَنْجِ في عِزَّةِ مَدَنِيَّتِهِمْ وَتَمَامِ حَضارَتِهِمْ مُشابِهاً لِبَدْءِ نَشْأَتِهِ عِنْدَ العَرَبِ فِي إِبَّانِ جَاهِلِيَّتِهِمْ وَخُشُونَةِ بَدَاوَتِهِم. عَلَى أَنَّنَا إِذَا شابَهْنَا الإفْرَنْجَ في شِعْرِ جاهِلِيَّتِنَا مِنْ حَيْثُ البَساطَةُ وَالْتِزامُ الحَقائِق، وَبايَنَّاهُمْ كَثِيراً في شِعْرِنا الأَخِيرِ مِنْ عَهْدِ المُتَنَبِّي إلىٰ اليَوْمِ مِنْ حَيْثُ الإِغْرَابُ في المَعَانِي وَالمُغَالاةُ في الوَصْفِ بِمَا يُخْرِجُ الكَلاَمَ عَنْ حَدِّ الحَقِيقَةِ أَحْياناً، أَوْ يُلْبِسُ الحَقِيقَةَ الصَّغِيرَةَ مِنْهُ الثَّوْبَ الطَّوِيلَ الضَّافِي مِنَ المَجازِ وَالإِيهامِ حَتَّىٰ يَكادُ يُنْكِرُها الخاطِرُ وَتَبْدُو لَهُ عَلَىٰ غَيْرِ وَجْهِها المَعْرُوفِ، إلاَّ أَنَّ ذَلِكَ لا يَرِدُ في شِعْرِنَا إلاّ مِنْ بَعْضِ الوُجوهِ المَعْدُودَةِ، كَالغَزَلِ وَالمَدِيحِ وَأَشْبَاهِهِمَا مِمَّا يُوافِقُ الخَيالَ وَيَجْرِي مَعَ وَهْمِ النَّفْسِ، وَيُقْصَدُ بِهِ تَصْوِيرُ الوِجْدانِ الخَفِيِّ أَكْثَرَ مِمَّا يُقْصَدُ بِهِ تَقْرِيرُ الحَقِيقَةِ الرَّاهِنَةِ، وَلِذَلِكَ تَفَنَّنَ فِيهِ شُعَراءُ

العَرَبِ وَتَسابَقُوا إِلى الصُّوَرِ الخَيالِيَّةِ مِنْهُ، يُصَوِّرُونَها في كُلِّ قالَبٍ، وَيَأْتُونَ بِهَا مِنْ كُلِّ سَبِيلٍ، وَقَدْ آنَسُوا مَيْدَانَ الخَيالِ فَسِيحاً فَجالُوا، وَوَجَدُوا مَجالَ القَوْلِ ذَا سَعَةٍ فَقَالُوا، وَسَاعَدَتْهُمْ أَسَالِيبُ اللُّغَةِ وَٱتِّساعُ تَراكِيبِها وَبَلاغَةُ تَعْبِيرِها وَجَزَالَةُ أَلْفَاظِها وَوَفْرَةُ الاسْتِعارَاتِ وَالكِنايَاتِ فِيها، فَأَرْسَلُوا أَفْرَاسَ قَرائِحِهِم مُطْلَقَةَ العِنانِ، وَأَجَالُوا بَصائِرَهُمْ في سَماءِ المَعاني، فَاسْتَنْزَلُوا النَّجْمَ مِنَ العَنانِ. وَأَمَّا مَا سِوَىٰ ذَلِكَ مِنْ تَقْرِيرِ الوَقَائِعِ وَإِيرادِ الحِكَمِ وَضَرْبِ الأَمْثَالِ وَتَصْوِيرِ الحقائِقِ وَوَصْفِ المَشاهِدِ، فَإِنَّهُمْ لاَ يَكَادُونَ يَخْرُجُونَ عَنْ حَدِّ الطَّبِيعَةِ، وَلاَ يَحِيدُونَ عَنْ مَحَجَّةِ الصِّدْقِ وَالقَصْدِ، وَلاَ يَأْتُونَ إلاَّ بِمَا تُلْقِيهِ البَدَاهَةُ وَيُمْلِيهِ الجَنانُ عَلَىٰ اللِّسَانِ، فَهُمْ مِنْ هَذَا القَبِيلِ يُشْبِهُونَ الإِفْرَنْجَ وَإِنْ لَمْ يُشْبِهْهُمُ الإِفْرَنْجُ مِنْ غَيْرِ هَذَا القَبِيلِ. ثُمَّ إِنَّ اصْطِلاحَ الإِفْرَنْجِ أَنْ لا يُقَدِّمُوا شَيْئاً بَيْنَ أَيْدِي أَغْراضِهِمُ الشِّعْرِيَّةِ، بَلْ يَأْتُونَ بِهَا ٱقْتِضاباً مِنْ غَيْرِ تَمْهِيدٍ وَلاَ تَقْدِمَةٍ عَلَىٰ خِلافِ ما يَفْعَلُهُ أَكْثَرُ شُعَراءِ العَرْبِ مِنْ تَقْدِيمِ الغَزَلِ وَالنَّسِيبِ وَالحِكَمِ وَأَمْثالِها أَمامَ ما يَقْصِدُونَ مِنَ المَدْحِ أَوِ الرِّثَاءِ إِلىٰ أَنْ يَخْلُصُوا مِنْهَا إِلَيْهِ، إلاّ أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ بِالأَمْرِ اللازِمِ عِنْدَنا، وَكَثِيراً مَا يَأْتِي الشَّاعِرُ بِغَرَضِهِ في مُفْتَتَحِ قَصِيدَتِهِ دُونَ تَوْطِئَةٍ وَلاَ تَمْهِيدٍ.

وَمِمَّا يُخالِفُونَنَا فِيهِ أَنَّهُمْ يَتَجافَوْنَ عَنِ الفَخْرِ في قَصائِدِهِمْ وَلاَ يَسْتَعْمِلُونَ التمدُّحَ في كَلامِهِمْ، بَلْ يَعُدُّونَهُ عَيْباً وَنَقْصاً خِلافَ العَرَبِ الَّذِينَ صَبَرُوا عَلَىٰ هَذَا الأَمْرِ دَهْراً طَوِيلاً، وَجَعَلُوا لَهُ في أشْعَارِهِمْ باباً خاصّاً، عَلَىٰ أَنَّهُ مَعَ كَوْنِهِ مُباحاً عِنْدَ العَرَبِ، فَهُوَ اليَوْمُ مِنَ المَذاهِبِ المَرْغُوبِ عَنْهَا لِمَا في طبيعَةِ العَصْرِ مِنْ إِبائِهِ إلاّ إِذَا دَعَتْ إِلَيْهِ ضَرُورَةٌ تَدْفَعُ الشَّاعِرَ إِلىٰ مِثْلِهِ في مَقامِ النِّضَالِ وَالمُدافَعَةِ عَنْ الأَحْسَابِ.

وَمِمّا فاقَ الإفْرَنْجُ فِيهِ في مَقامِ الشِّعْرِ وَٱنْفَرَدُوا بِهِ دُونَنَا، نَظْمُ الرِّواياتِ التَّمْثِيلِيَّةِ وَاعْتِدادُهَا مِنْ أَوَّلِ أَبْوابِ الشِّعْرِ وَأَسْمَىٰ دَرَجَاتِهِ وَأَشَدِّها دَلالةً عَلَىٰ براعَةِ الشَّاعِرِ وَحُسْنِ اخْتِراعِهِ، وَهُمْ مُصِيبُونَ فِي هَذَا الاَعْتِقادِ كُلَّ الإِصَابَةِ، لِأَنَّ في نَظْمِ الرِّوايَةِ الشِّعْرِيَّةِ مِنَ الدَّلاَلَةِ عَلَىٰ الفَضْلِ وَالإِبْداع أَكْثَرَ مِمَّا في نَظْمِ الدِّيوانِ مِنَ القَصائِدِ وَالمُقَطَّعاتِ، إِذْ هِيَ تَقْتَضِي حُسْنَ الاخْتِراع في تَأْلِيفِ حِكايَتِها، وَبَراعَةَ النَّظْمِ في وَضْعِ أَبياتِها، وَلُطْفَ التَّصَوُّرِ في بيانِ شَعائِرِ مُمَثِّلِيها وَاخْتِلافِ حَالاتِهِمْ، وَدِقَّةَ تَبْوِيبِ فُصولِها، وَتَوْثِيقِ عُقْدَتِها، وَوَصْلَ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ؛ مِمّا يَسْتَلْزِمُ رَوِيَّةً طَوِيلَةً، وعارِضَةً شَدِيدَةً، وَقُدْرَةً فائِقَةً في

التَّصَوُّرِ وَالنَّظْمِ وَالتَّأْلِيفِ عَلَىٰ غَيْرِ ما تَقْتَضِيهِ القَصائِدُ والمقاطِعُ المُسْتَقِلَّةُ الَّتِي يَقْصِدُ بِهَا الناظِمُ غَرَضاً واحِداً، فَيَأْتِي بِهِ في أَبياتٍ مَعْدُودَةٍ لا يَضْطَرُّ فِيها إِلىٰ عَقْدِ حِكايَةٍ وَلاَ إِلىٰ تَمْثِيلِ عَواطِفَ مُتَعَدِّدَةٍ، وَلاَ إِلىٰ إِقامَةِ نَفْسِهِ في مَوْقِفِ كُلِّ شَخْصٍ مِنْ أَشْخَاصِ الرِّوايَةِ يَتَكَلَّمُ بِلِسانِهِ وَيَنْطِقُ عَنْ شُعُورِهِ وَيَضَعُ في دَوْرِهِ التَّمْثِيلِيِّ مَا كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَقُولَهُ صاحِبُ الدَّوْرِ الأَصِيلِ.

وَقَدِ ٱنْتَقَلَ هَذَا الفَنُّ إِلَيْنَا فِي هَذِهِ الأَيَّامِ، وَٱشْتَغَلَ بِهِ جماعَةٌ مِنَّا، نَظَمُوا فِيهِ الرِّواياتِ الشِّعْرِيَّةَ، وَأَخَصُّهُمُ المَرْحُومُ المَأْسُوفُ عَلَيْهِ الشَّيْخُ خَليلُ اليَازَجِي في رِوَايَتِهِ «المُرُوءَةُ وَالوَفَاءُ» إِلاَّ أَنَّنَا لَمْ نَبْلُغْ فِيهِ مَبْلَغَ الإِفْرَنْجِ بَعْدُ، وَلاَ وَصَلْنَا إِلىٰ ما وَصَلُوا إِلَيْهِ مِنْ دَرَجَةِ كمالِهِ وَإِتْقانِهِ.

وَمِنَ الفَرْقِ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ في نَظْمِ الشِّعْرِ أَنَّنَا نَفُوقُهُمْ في وَصْفِ الشَّيْءِ وَهُمْ يَفُوقُونَنَا في وَصْفِ الحَالَةِ، أَي: إِنَّنَا إِذَا وَصَفْنَا الأَسَدَ أَوِ الفَرَسَ أَوِ القَصْرَ أَوِ الفَتَىٰ الجَمِيلَ أَوِ الغَادَةَ الحَسْنَاءَ أَتَيْنَا في ذَلِكَ بِأَحْسَنَ مِمَّا يَأْتُونَ بِهِ، وَتَوَسَّعْنَا فِيهِ تَوَسُّعاً لا يَقْدِرُونَ هُمْ عَلَىٰ الإِتْيانِ بِمِثْلِهِ؛ وَإِنَّهُمْ

إِذَا وَصَفُوا حالَةً مِنْ قِتالِ رَجُلَيْنِ، أَوْ مَعْرَكَةِ جَيْشَيْنِ، أَوْ مُقابَلَةِ مُحِبَّيْنِ، أَوْ غَرَقِ سَفِينَةٍ، أَوْ مُصابِ قَوْمٍ؛ جَاؤُوا في ذَلِكَ بِأَحْسَنَ مِمّا نَجِيءُ بِهِ، وَتَوَسَّعُوا فِيهِ بِما لاَ نَقْدِرُ أَنْ نَسْبِقَهُمْ إِلَيْهِ. وَمَثِيلُ ذَلِكَ أَنَّ المُتَنَبِّي وَصَفَ الأَسَدَ بِما لا يَقْدِرُ إِفْرَنْجِيٌّ عَلَىٰ وَصْفِهِ بِمِثْلِهِ، وَهِيغو وَصَفَ مَعْرَكَةَ وَاتِرْلُو بِمَا لا يَقْدِرُ شاعِرٌ عَرَبِيٌّ عَلَىٰ الإِتْيَانِ بِنَظِيرِهِ، فَهُمْ بِذَلِكَ أَقْدَرُ عَلَىٰ تَصْوِيرِ الوقائِعِ، وَنَحْنُ أَقْدَرُ عَلَىٰ تَصْوِيرِ الأَعْيَانِ، لأَنَّنَا إِذا وَصَفْنَا الشَّيْءَ بَلَغْنَا مِنْ بَيانِ صِفاتِهِ إِلىٰ أَدَقِّها وَأَخْفاها، وَتَوَصَّلْنا مِنْ إِدْراكِ مَعانِيهِ إِلىٰ أَصْغَرِها وَأَدْناها، حَتَّىٰ لا نُبْقِيَ مِنْهُ باقِيةً، وَلاَ تَفُوتُنا مِنْهُ حَقِيقَةُ وَصْفٍ؛ وَهُمْ إِذا وَصَفُوا حَالَةً أَوْ مَوْقِفاً تَوَصَّلُوا إِلىٰ أَخْفَىٰ دَخائِلِهِ، وأَبَانُوا عَنْ أَدَقِّ خَفاياهُ، وَبَسَطُوا لِعَيْنِ الفِكْرِ ما لا تَكادُ تُبْصِرُهُ عَيْنُ الحِسِّ مِنْ غَوامِضِهِ وَسَرائِرِهِ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ وِجْداناتِ النَّفْسِ إِلىٰ أَقْصاهَا، فَلاَ يُفَوِّتُونَ منها جَلِيلاً وَلاَ دَقِيقاً، وَهِيَ المَزِيَّةُ الَّتِي يَعْتَبِرُونَ الشَّاعِرَ بها، وَنَحْنُ نُشِيرُ إِلىٰ تِلْكَ الشَّعائِرِ إِشارَةَ إِجْمالٍ، وَنَتْرُكُ إِلىٰ القَارِىءِ تَمامَ التَّصَوُّرِ وَالتَّفْصِيل.

هَذَا، وَلَوْ تَتَبَّعْنا بَيانَ كُلِّ فَرْقٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الإِفْرَنْجِ،

مِنْ مِثْلِ البَدِيعِ اللَّفْظِيِّ وَالمَعْنَوِيِّ مِمَّا لا وُجودَ لَهُ عِنْدَهُمْ، وَالتَّفَنُّنِ في إِيرادِ المَعَانِي عَلَىٰ أساليبَ كَثِيرَةٍ مِمَّا ٱنفَرَدْنَا به دُونَهُمْ، وَأَوْرَدْنا عَلَىٰ كُلِّ ذَلِكَ شاهِداً مِنْ كَلاَمِنَا وَكَلامِهِمْ؛ لَضَاقَ بِنَا المجالُ، وَخَرَجَ بِنا نِطاقُ البَحْثِ إلى دَائِرَةٍ أَوْسَعَ مِنْ دَائِرَةِ المَوْضُوعِ، تَسْتَغْرِقُ كِتاباً بِأَسْرِهِ؛ وَلَكِنَّ الَّذِي يُؤْخَذُ مِنْ جُمْلَةِ مَا أَوْرَدْنَاهُ أَنَّهُمْ قَوْمٌ ٱمْتَازُوا عَنَّا بِشَيْءٍ، وَٱمْتَزْنَا عَنْهُمْ بِأَشياءَ، وَأَنَّنَا قَدْ جَمَعْنَا مِنْ شِعْرِهِمْ أَحْسَنَهُ وَلَمْ يَجْمَعُوا مِنْ شِعْرِنا كَذَلِكَ، وَهِيَ وَلاَ شَكَّ مَزِيَّةُ اللُّغَةِ العَربيَّةِ الَّتِي ٱخْتَصَّتْ بِمَا لَمْ تَخْتَصَّ بِهِ لُغَةٌ سِوَاها مِنْ غَزَارَةِ مَوادِّ اللَّفْظِ، وَوَفْرَةِ ضُرُوبِ التَّعْبِيرِ، وَٱتِّساعِ مَذاهِبِ البَيانِ؛ حَتَّىٰ لَقَدْ سَمَّاها الإفرَنْجُ أَنْفُسُهُمْ: «أَتَمَّ لُغَةٍ في العالَمِ» وَكَفَىٰ بِذَلِكَ بَياناً لِفَضْلِها عَلَىٰ سائِرِ اللُّغاتِ وَدَلِيلاً عَلَىٰ فَضْلِ شِعْرِها عَلَىٰ سائِرِ الشِّعْرِ؛ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

نَقْدُ دِيوانِ شَوْقي[1]

«لمحمّد بك المُوَيْلِحي»[2]

(١)

الانْتِقادُ قائِدُ الاجْتِهادِ وَالإِحْسانِ، وَرائِدُ الإجادَةِ وَالإِتْقان؛ وَهُوَ للإِنْسانِ بِمَنْزِلَةِ الصَّيْقَلِ للصَّوارِمِ، وَالصَّيْرَفِ لِلدَّراهِمِ. وَلَوْلاَ النَّقْدُ لما امْتازَ الصَّحِيحُ مِنَ الفاسِدِ، وَلاَ

(١) كُتِبَ هذا النَّقْدُ في أعدادٍ مُتَفَرِّقَةٍ من جريدة «مصباح الشرق»، فَنَنْشُرُهُ على حَسَبِ ترتيبِهِ هناك، وهو يَتَضَمَّنُ نَقْدَ مقدِّمَةِ الدّيوان وجُزْءٍ قليلٍ من الديوان نَفْسِهِ، ثُمَّ انْقَطَعَ النَّقْدُ بَعْدَ ذلك؛ والغَرَضُ مِنْ نَشْرِ هذه الرِّسالة هُنا الإتْيانُ بمثالٍ حَسَنٍ مِنْ أَدَبِ الانْتِقادِ، ودِقَّةِ النَّظَرِ فِيهِ، وجمالِ أسْلوبِ كتابَتِهِ؛ أَمّا ما وراءَ ذَلِكَ مِنْ صِحَّةِ أَوْجُهِ الانتقادِ جَميعِها أَوْ صِحَّةِ بَعْضِها دُونَ بَعْضٍ، فَهُوَ مَبْحَثٌ آخَرُ لا دَخْلَ لَهُ في مَوْضوعِ الاخْتِيار.

(٢) «محمد بك [ابن إبراهيم] المُوَيْلِحِي» [١٢٧٥ ـ ١٣٤٨هـ = ١٨٥٨ ـ ١٩٣٠م].

هو مِنْ أَقْدَرِ كُتّابِ هذا العَصْرِ على الكِتَابَةِ في الأَخْلاقِ وَانْتِقَادِ العادات، وله في التَّرسُّلِ ما لا يكادُ يُجارِيه فيه مُجارٍ، وَأُسْلُوبُهُ في المُتَأَخِّرين أَشْبَهُ شَيْءٍ بأُسْلوبِ الجاحِظِ في المُتَقَدِّمين وَيَمْتازُ في كتابَتِهِ بالاعْتِمادِ في كُلِّ ما يَكْتُبُ على العِلْمِ الجَمِّ، وَالأَدَبِ الغَزيرِ، وَالتَّاريخِ الصَّحِيح.

تَبَيَّنَ الحالي مِنَ العاطِلِ، وَلَما قِيلَ لِلإنْسانِ في كُلِّ عَمَلٍ يَعْمَلُهُ: أَحْسَنْتَ وَأَصَبْتَ؛ وَلَوَقَفَ النَّاسُ في سَبِيلِ الإحْسانِ، وَلَمْ يَهْتَدُوا إلىٰ مَواضِعِ الخَطَأِ وَمَوَاقِعِ الزَّلَلِ. وَلاَ يَكُونُ الإحْسانُ ظاهِراً مُتَبَلِّجاً وَالإتْقانُ واضِحاً مُتَأَلِّقاً، إلاَّ عِنْدَ إطلاقِ الانْتِقادِ وَصِدْقِ القَوْلِ؛ وَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ في إقْبالِ دَوْلَةِ الفَصاحَةِ وَعِزِّ مَقامِ الأَدَبِ، إِذَا أَنْشَأَ رِسالَةً أَوْ نَظَمَ قَصِيدَةً عَرَضَها عَلَى نُقَّادِ الكلامِ، فَاسْتَحْسَنُوا مِنْهَا الحَسَنَ، وَنَبَّهُوهُ إلى القَبِيحِ، فَيَحْذِفُ مِنْهَا مَا لَمْ يَرْضَوْهُ، أَوْ يَرْجِعُ إلىٰ تَهْذِيبِهِ وَتَنْقِيحِهِ، فَتَرْسَخُ فِيهِ مَلَكَةُ الإتْقانِ مَا تَكَرَّرَ عَلَيْهِ الانْتِقادُ حَتَّىٰ بَلَغَ بِكَثِيرٍ مِنَ الشُّعَراءِ أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا لِيَعْرِضُوا قَصائِدَهُمْ عَلَىٰ مَمْدُوحِيهِمْ إلاّ بَعْدَ أَنْ يَنْتَقِدَها وَيَرْضَاهَا مَنْ كَانَ مُكَلَّفاً عَلَىٰ أَبوابِهِمْ بِوَظِيفَةِ الانْتِقادِ مِنْ أَساتِذَةِ الكلامِ وَجَهابِذَةِ البَيان، وَهَذَا أَبو تَمَّام، وَنَاهِيكَ بِعُلُوِّ قَدْرِهِ في الشِّعْرِ، قَدْ وَفَدَ عَلَىٰ عَبْد اللَّهِ بن طاهر بِخُراسان، فَمَدَحَهُ، وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ لا يُجِيزُ شاعِراً إلاَّ إذا رَضِيَهُ أبو العَمَيْثَلُ وأبو سَعِيدِ الضَّرِيرُ، وَكانا على بابهِ لانْتِقادِ الشِّعْرِ، وَكانا رُبَّما أَسْقَطا القَصِيدَةَ بِجُمْلَتِها إذا لَمْ يُرْضِهِمَا البَيْتُ الواحِدُ مِنْها، فَقَصَدَهُما أَبو تَمَّامٍ، وَأَنْشَدَهُمَا القَصِيدَةَ الَّتِي أَوَّلُها [من الطويل]:

هُـنَّ عَـوادِي يُـوسُـفَ وَصَـوَاحِـبُـهْ
فَـعَـزْمـاً فَـقِـدَمـاً أَدْرَكَ الـسُّـؤْلَ طـالِـبُـهْ

فَلَمَّا سَمِعَا هَذَا الابتداءَ أَسْقَطاها، فَسَأَلَهُمَا اسْتِتْمَامِ النَّظَرِ، فَمَرَّا بِقَوْلِهِ:

وَرَكْـبٍ كَـأَطْـرافِ الأَسِـنَّـةِ عَـرّسَـوُا
عَلَىٰ مِثْلِها وَاللَّيْلُ تَسْطُو غَياهِبُهْ
لِأَمْـرٍ عَـلَـيْـهِـمْ أَنْ تَـتِـمَّ صُـدُورُهُ
وَلَـيْـسَ عَـلَـيْـهِـمْ أَنْ تَـتِـمَّ عَـوَاقِـبُـهْ

فَاسْتَحْسَنا هَذَيْنِ البَيْتَيْنِ وَأبياتاً أُخْرَىٰ مِنها، وَهِي:

وَقَـلْـقَـلَ نَـأْيـي مِـنْ خُـراسَـانَ جَـأْشَـهـا
فَقُلْتُ ٱطْمَئِنِّي أَنْضَرُ الرَّوْضِ عَازِبُهْ
إِلـىٰ سـالِـبِ الْـجَـبَّـارِ بَـيْـضَـةَ مُـلْـكِـهِ
وَآمِـلُـهُ عَـادٍ عَـلَـيْـهِ فَـسَـالِـبُـهْ

فَعَرَضَا القَصِيدَةَ عَلَىٰ عَبْدِ اللَّهِ، وَأَخَذَا لَهُ الجائِزَةَ عَلَيْهَا.

كَذَلِكَ كَانَ ٱنتِقادُ الشِّعْرِ وَالأَدَبِ فِي ذَلِكَ العَهْدِ بِهَذِهِ المَنْزِلَةِ العَالِيَةِ مِنَ الاعْتِبارِ وَالاهْتِمَامِ، وَبِهِ راجَتْ سُوقُ الأَدَبِ، وَصَفَا جَوْهَرُ الشِّعْرِ.

ثُمَّ إِنَّكَ إِذا الْتَفَتَّ إِلىٰ حالِ الغَرْبِيِّينَ اليَوْمَ وَجَدْتَ الانْتِقادَ عِنْدَهُمْ أَنْفَعَ الآلاتِ لِتَقَدّمِ العُلومِ وَالفُنونِ وَٱرْتِقاءِ المُخْتَرَعاتِ وَالمُبْتَدَعاتِ، فَلاَ تَخْلُو جَرِيدَةٌ عِنْدَهُمْ مِنْ عامِلَيْنِ مُوَظَّفَيْنِ أَوْ ثلاثَةٍ أَوْ أَرْبَعَةٍ لانْتِقادِ ما يَكُونُ لَهُ قِيمَةٌ مِنْ تَأْلِيفٍ أَوْ تَصْنِيفٍ أَوِ ٱبْتِكارٍ أَوْ ٱبْتِدَاعٍ، حَتَّىٰ أَنَّ المُؤَلِّفَ الّذِي لا يَنْتَقِدُ تأليفَهُ مُنْتَقِدٌ مِنْهُمْ يَعُدُّ نَفْسَهُ ساقِطَ المَنْزِلَةِ بَيْنَ أَقْرانِهِ.

وَمِنْ نَكَدِ الدُّنْيَا عَلَىٰ الأَدَبِ في مِصْرَ أَنَّ أَرْبَابَ الجرائِدِ فِيها لَمْ يَلْتَفِتُوا يَوْماً إِلىٰ هَذَا العَمَلِ النافِعِ، بَلْ جَعَلُوا دَيْدَنَهُمْ التَّغالي وَسُوءَ المُبالَغَةِ في مَدْحِ ما يَظْهَرُ في الوُجودِ مِنْ رِسالَةِ كاتِبٍ، أَوْ قَصِيدَةِ شَاعِرٍ، أَوْ تَأْلِيفِ مُؤَلِّفٍ، أَوْ تَعْرِيبِ مُعَرِّبٍ؛ بِقَطْعِ النَّظَرِ عَمَّا إِذَا كَانَ ما يَمدَحُونَ أَهْلاً لِلْمَدِيحِ وَجَدِيراً بِالثَّنَاءِ، وَنَسُوا أَنَّ هَذِهِ العادَةَ يَنْتُجُ عَنْهَا أَمْرانِ مَذْمُومانِ. أَحَدُهُمَا: أَنَّ مَدْحَ الرَّجُلِ في وَجْهِهِ (وَصِفاتُ الجرائِدِ مَدْحٌ في الوَجْهِ) أَمْرٌ غَيْرُ مَرْضِيٍّ طَالَمَا نَهىٰ عَنْهُ النّاهُونَ، وَحَذَّرَ مِنْهُ المُحَذِّرُونَ.

قَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: «إِذَا مَدَحْتَ أَخَاكَ في وَجْهِهِ فَكَأَنَّمَا أَمْرَرْتَ عَلَىٰ حَلْقِهِ مُوسَىٰ رَمِيضَةً[1]».

---

(١) الرَّمِيضة: الحادة.

وَقَالَ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَوْ مَشَىٰ رَجُلٌ إِلَىٰ رَجُلٍ بِسَيْفٍ مُرْهَفٍ كَانَ خَيْراً لَهُ مِنْ أَنْ يُثْنِيَ عَلَيْهِ فِي وَجْهِهِ» [قال العراقي في «تخريج الإحياء»: لم أجده].

وَقَالَ أَيْضاً لِرَجُلٍ مَدَحَ رَجُلاً في وَجْهِهِ: «عَقَرْتَ الرَّجُلَ، عَقَرَكَ ٱللَّهُ» [هذا قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه، راجع «كنز العمال» رقم: ٩٠١١].

وَوَجْهُ الذَّمِّ لِهَذا المَدْحِ أَنَّهُ يَنْشَأُ عَنْهُ إِعْجابُ المَرْءِ بِنَفْسِهِ وَاغْتِرَارُهُ بِمَنْزِلَتِهِ، فَيَرَىٰ كُلَّ شَيْءٍ فِي نَفْسِهِ حَسَناً، وَيَمْتَلِىءُ بِالباطِلِ ٱخْتِيالاً وَعُجْباً.

قَالَ بَعْضُهُمْ لِرَجُلٍ رَآهُ مُعْجَباً بِنَفْسِهِ: يَسُرُّنِي أَنْ أَكُونَ عِنْدَ النَّاسِ مِثْلَكَ في نَفْسِكَ، وَأَنْ أَكُونَ عِنْدَ نَفْسِي مِثْلَكَ عِنْدَ النَّاسِ. فَتَمَنَّىٰ حَقِيقَةَ مَا يُقَدِّرُهُ ذَلِكَ الرَّجُلُ. ثُمَّ تَمَنَّىٰ أَنْ يَكُونَ عَارِفاً بِعُيوبِ نَفْسِهِ كَمَا يَعْرِفُ النَّاسُ عُيُوبَ ذَلِكَ المُعْجَبِ بِنَفْسِهِ.

وَقَالَتِ الحُكَماءُ: عُجْبُ المَرْءِ بِنَفْسِهِ أَحَدُ حُسّادِ عَقْلِهِ، وَمَنْ رَضِيَ عَنْ نَفْسِهِ كَثُرَ السَّاخِطُ عَلَيْهِ.

وَيَزِيدُ عَلَىٰ ذَلِكَ أَنَّ المَمْدُوحَ يَعْتَقِدُ فِي نَفْسِهِ الإِحْسَانَ وَالإِتْقَانَ وَالإِصابَةَ وَالإِجادَةَ، فَتَقْعُدُ هِمَّتُهُ عَنِ

العَمَلِ، وَيَكْتَفِي بِالدَّرجَةِ الَّتِي وَصَلَ إِلَيْهَا مُتَظَلِّلاً بِظِلالِ ذَلِكَ المَدْحِ.

ومِنْ كلامِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «المَدحُ هُوَ الذَّبْحُ» قَالُوا: لأَنَّ المَذْبُوحَ يَنْقَطِعُ عَنِ الحَرَكَةِ وَالأَعْمالِ، وَكَذَلِكَ المَمْدُوحُ يَفْتُرُ عَنِ العَمَلِ، وَيَقُولُ: قَدْ حَصَلَ فِي القُلوبِ وَالنُّفُوسِ مَا أَسْتَغْنِي بِهِ عَنِ الحَرَكَةِ والجِدِّ.

وَمِنْ أَمْثالِ الحرّاثِينَ: «إِذَا صَارَ لَكَ صِيتٌ بَيْنَ الحَصَّادَةِ فَاكْسِرْ مِنْجَلَكَ».

وَثاني الأَمْرَيْنِ المَذْمُومَيْنِ: أَنَّ المَدْحَ عَلَىٰ حَسْبِ العادَةِ غِشٌّ لِلنَّاسِ مِمَّنْ لاَ يَتَكَلَّفُونَ تَعَبَ الفِكْرِ فِيما إِذَا كَانَ العَمَلُ يَسْتَحِقُّ المَدْحَ أَوْ لاَ يَسْتَحِقُّهُ، فَيَعْتَمِدُونَ عَلَىٰ أَقوالِ المَدِيحِ، وَيَغْفُلُونَ عَنْ قِيْمَةِ المَمْدُوحِ فِي نَفْسِهِ، وَكِلا الأَمْرَيْنِ تَغْرِيرٌ بِالنّاسِ لاَ يَخْفَىٰ مَا فِيهِ مِنَ الضَّرَرِ عَلَىٰ العُلومِ وَالآدابِ.

وَلِمَّا كَانَ حَضْرَةُ الشَّاعِرِ الأَدِيبِ أحمد بك شَوْقي عَزِيزَ المَنْزِلَةِ عِنْدَنا، نُحِبُّ لَهُ التَّقَدُّمَ في الأَدَبِ وَالتَّرَقِّي في أَسالِيبِ البلاغَةِ لِمَا نَأْنَسُهُ فِيهِ مِنَ الذَّكَاءِ وَحُسْنِ الذَّوْقِ وَالانْطِباعِ الفِطْرِيّ عَلَىٰ مَحَبَّةِ الشِّعْرِ، وَكُنَّا نَتَمَنَّىٰ لَهُ أَنْ

يَكُونَ شِعْرُهُ كُلُّهُ لُؤْلُؤاً لاَ يخالِطُهُ حَصى، وَذَهباً خالِصاً لاَ يَشُوبُهُ بَهْرَجٌ، وَكَانَ الانْتِقادُ كَمَا قَدَّمْنا وَكَما يَعْلَمُهُ خَيْرَ وَاسِطَةٍ إِلىٰ الإحْسَانِ وَالإِتْقانِ وَالإِجادَةِ وَالإصابَةِ؛ لا بِدَعَ أَنِ ٱخْتَرْنَا مَعَهُ سُلوكَ هَذَا السَّبِيلِ، سَبِيلِ الانْتِقادِ عَلَىٰ دِيوانِهِ الَّذِي أَهْدَىٰ إِلَيْنَا نُسْخَةً مِنْهُ، عِنَايَةً بِه، وَاعْتِرافاً بِقَدْرِهِ، وَلَمْ نَفْعَلْ بِهِ مَا نَفْعَلُهُ بِغَيْرِه من المَطْبُوعاتِ مِمّا لاَ يَسْتَحِقّ في نَظَرِنا الانْتِقادَ، فلا يَكُونُ لَهُ نَصِيبٌ عِنْدَنَا إلا السُّكُوتُ عَلَيْهِ. وَنَحْنُ لا نَشُكُّ أَنَّ حَضْرَةَ الشَّاعِرِ الفاضِلِ، وَهُوَ العالِمُ بِمَزِيَّةِ الانْتِقادِ في الشَّرْقِ وَالغَرْبِ، لا بُدَّ أَنْ يَقْبَلَ ذَلِكَ مِنَّا أَحْسَنَ قَبُولٍ، وَيَتْبَعَ هَذِهِ الحِكْمَةَ البالِغَةَ وَالمَوْعِظَةَ الحَسَنَةَ: «أَمْرَ مُبْكِياتِكَ لا أَمْرَ مُضْحِكاتِكَ».

(٢)

قِيلَ لِأَفلاطُون: ما لَكَ تُعارِضُ سُقْراطَ في أَقْوالِهِ وَأَنْتَ تُحِبُّهُ؟.

قَالَ: أُحِبُّ سُقراطَ، وَلَكِنِّي أُحِبُّ الحقَ أَكْثَرَ مِنْهُ.

وَعَلَىٰ ذَلِكَ نَبْدَأُ في ما بَدَا لَنَا الكَلامُ عَلَيْهِ مِنْ دِيوانِ حَضْرةِ الشَّاعِرِ الفاضِلِ شَوْقِي بِك، وَنَسْأَلُ ٱللَّهَ أَنْ نَكُونَ مِنَ الدَّاخِلِينَ في مَنِ ٱسْتَغْفَرَ ٱللَّهَ لَهُمْ في آخِرِ

مُقَدَّمَتِهِ بِقَوْلِهِ: «وَأَنا أَسْتَغْفِرُ ٱللَّهَ لي وَلِأَهْلِي وَلِمَنْ يَنْظُرُ إِلىٰ هَذَا الكِتابِ بِعَيْنِ الْكَرِيمِ المُتَجاوِزِ أَوْ المُنْتَقِدِ العَذْلِ».

صَدَّرَ الشّاعِرُ دِيوانَهُ بِمقَدَّمَةٍ طَويلَةٍ تَكَلَّمَ فِيها عَنِ الشِّعْرِ وَعَنْ نَفْسِهِ. أَمّا المُقَدَّمَةُ مِنْ حَيْثُ صِناعَةُ الإِنْشاءِ، وَمِنْ حَيْثُ اللُّغَةُ، فَإِنَّهَا تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ شاعِرٌ لا نَاثِرٌ، وَتَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهَا كَانَتْ تَحْتَاجُ إِلىٰ إِعادَةِ نَظَرٍ لِلتَنْقِيحِ وَالتَّصْحِيحِ، وَلَوْ أَنَّهُ كَانَ يَحْسَبُ لِلانْتِقادِ حِساباً وَلَمْ يَعْتِمِدْ عَلَىٰ الإِطْرَاءِ وَالمَدْحِ وَحْدَهُ مِنْ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدَّعُونَ أَنَّ الانْتِقادَ مِمَّا يُثَبِّطُ الهِمَّةَ، لَكَانَ تَأَمَّلَهَا بِنَفْسِهِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ، أَوْ كَانَ عَرَضَها عَلَىٰ مَنْ يَنْتَقِدُها لَهُ، وَثِقَةُ الإِنْسانِ بِنَفْسِهِ مَجْلَبَةٌ لِلْخَطَإِ، فَإِذَا نَظَرْتَ في الصَّحِيفَةِ الأُولىٰ وَحْدَها وَجَدْتَهُ يَقُولِ فِيها عَنِ الشِّعْرِ: «قالَهُ ٱمْرؤُ القَيْسِ واصِفاً وَحاكِياً، وَضاحِكاً وَباكِياً، وَناسِباً وَغازِلاً». وَالغَازِلُ هُنَا مِنْ قَولِكَ: غَزَلَتِ المَرْأَةُ القِطْنَ وَالكَتَّانَ وَغَيْرَهُمَا، مِنْ بَابِ ضَرَبَ، غَزْلاً: مَدَّتْهُ وَفَتَلَتْهُ خِيطاناً. وَلاَ يَكُونُ ٱمْرُؤُ القَيْسِ «غَازِلاً» إِلاّ إِذا كانَ غَزَلَ أَمْراسَ الكَتَّانِ في قَوْلِهِ [من الطويل]:

فَيَا لَكَ مِنْ لَيْلٍ كَأَنَّ نُجومَهُ

بِكُلِّ مُغارِ الفَتْلِ شُدَّتْ بِيَذْبُلِ

كَأَنَّ الثُّرَيَّا عُلِّقَتْ فِي مَصَامِّهَا
بِأَمْرَاسِ كَتَّانٍ إِلَىٰ صُمِّ جَنْدَلِ

أَمَّا إِذَا كَانَ غَرَضُهُ الغَزَلَ مُحَرَّكاً، فَلاَ يَأْتِي اسْمُ الفاعِلِ مِنْهُ غَازِلاً، وَإِنّما يُقالُ: رَجُلٌ مُتَغَزِّلٌ وَغَزِلٌ. كَكَتِفٌ، وَغَزِيل.

وَقَالَ في الصَّحِيفَةِ نَفْسِها عِنْدَ كلامِهِ عَلَىٰ قَصِيدَةِ أَبي فِرَاسٍ [من الطويل]:

أَرَاكَ عَصِيَّ الدَّمْعِ شِيمَتُكَ الصَّبْرُ
أَمَا لِلْهَوَىٰ نَهْيٌ عَلَيْكَ وَلاَ أَمْرُ

«لَيْستْ إلاَّ عِقْداً تَوحَّدَ سِلْكُهُ، وَتَشَابَهتْ جَوَاهِرُهُ، وَدَقَّ نِظامُهُ؛ تعاوَنَتْ فِيهِ مَلَكَةُ العَرَبِيِّ وَسِلِيقَةُ الشَّاعِرِ عَلَىٰ حُسْنِ الحِكايَةِ». وَكَانَ الصَّوابُ أَنْ يَقُولَ: «سَليقَةُ العَرَبِيِّ وَمَلَكَةُ الشَّاعِرِ»، لأَنَّ المَلَكَةَ لِكُلِّ النَّاسِ، وَالسَّلِيقَةَ لِلْعَرَبِيِّ خاصَّةً؛ قالَ بَعْضُ شُعرائِهِمْ [من الطويل]:

وَلَسْتُ بِنَحْوِيٍّ يَلُوكُ لِسانَهُ
وَلَكِنْ سَلِيقِيٌّ أَقُولُ فَأُعْرِبُ

وَفِي الصَّحِيفَةِ نَفْسِها خَطْأَةٌ مِنْ حَيْثَ التَّارِيخُ، إذْ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ؛ فما زَالَ لِواءَ الشِّعْرِ مَعْقُوداً لأُمَراءِ العَرَبِ

وَأَشْرافِهِمْ». وَأُمراءُ العَرَبِ وَأَشْرافُهُمْ كَانُوا بِمَعْزِلٍ عَنْ نَظْمِ الشِّعْرِ، وَكانُوا يَأْنَفُونَ مِنْ قَوْلِهِ، وَيَعُدُّونَهُ غَيْرَ لائِقٍ بِمقاماتِهِم؛ وَحِكايَةُ حِجْرٍ مَشْهُورَةٌ، وَهِيَ أَنَّهُ غَضِبَ عَلَىٰ ٱبْنِهِ ٱمْرِىءِ الْقَيْسِ لَمَّا سَمِعَ أَنَّهُ يَنْظِمُ الشِّعْرَ، فَأَمَرَ خَادِماً لَهُ أَنْ يَذْهَبَ بِهِ لِيَقْتُلَهُ وَيَأْتِيَه بِعَيْنَيْهِ أَمارَةً عَلَىٰ قَتْلِهِ، فَرَحِمَ الخادِمُ الغُلامَ، فَدَسَّهُ فِي جَبَلٍ، وَرَجَعَ إِلىٰ مَوْلاهُ بِعَيْنَيْ ظَبْيٍ.

وَأَمّا مَا يُنْقَلُ عَنْ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلامُ مِنْ تِلْكَ الأَشْعارِ فَمَكْذُوبٌ عَلَيْهِ.

هَذَا مِنْ حَيْثُ اللُّغَةُ وَالتَّارِيخُ في صَحِيفَةٍ وَاحِدَةٍ، وَأَمَّا مِنْ حَيْثُ الكَلامُ عَنِ الشِّعْرِ، فَإِنَّكَ تَراهُ في المُقَدَّمَةِ مُضطَرِباً مُتَناقِضاً، فَتَارَةً يَرْفَعُ الشِّعْرَ العَرَبِيَّ إِلىٰ دَرَجَةٍ عالِيَةٍ، كَقَوْلِهِ:

«وَكَانَ أَبو العَلاءِ يَصُوغُ الحَقائِقَ في شِعْرِهِ، وَيُوعِي تَجارِبَ الحياةِ في مَنْظُومِهِ، وَيَشْرَحُ حالَةَ النَّفْسِ، وَيَكادُ يَنالُ سَرِيرَتَها، وَمَنْ تَأَمَّلَ قَوْلَهُ مِنْ قَصِيدَةٍ [من الوافر]:

فَلاَ هَطَلَتْ عَلَيَّ وَلاَ بِأَرْضِي

سَحائِبُ لَيْسَ تَنْتَظِمُ البِلادا

وَقابَلَ بَيْنَ هَذَا البَيْتِ وَبَيْنَ قَوْلِ أَبي فِراسٍ [من الطويل]:

مُعَلِّلَتِي بِالوَصْلِ وَالمَوْتُ دُونَهُ

إِذَا مِتُّ ظَمْآناً فَلا نَزَلَ القَطْرُ

ثُمَّ نَظَرَ إِلىٰ الأَوَّلِ كَيْفَ شَرَعَ سُنَّةَ الإِيثارِ، وَبالَغَ في إِظْهارِ رِقَّةِ النَّفْسِ لِلنَّفْسِ، وَٱنْعِطافِ الجِنْسِ نَحْوَ الجِنْسِ؛ وَإِلىٰ الثَّانِي كَيْفَ وَضَعَ مَبْدَأَ الأَثَرَةِ، وَغالَىٰ بِالنَّفْسِ، وَرَأَىٰ لَهَا الاخْتِصاصَ بِالمَنْفَعَةِ في هَذِهِ الدُّنْيَا، تَعِيشُ فِيها جَافِيَةً، ثُمَّ تَخْرُجُ مِنْهَا غَيْرَ آسِيَةٍ؛ عَلِمَ أَنَّ شُعَراءَ العَرَبِ حُكَماءُ، لَمْ تَعْزُبْ عَنْهُمُ الحَقائِقُ الكُبَرُ، وَلَمْ يَفُتْهُمْ تَقْرِيرَ المَبادِىءِ العالِيَةِ، وَأَنَّهُمْ أَقْدَرُ الأُمَمِ عَلَىٰ تَقْرِيبِها مِنَ الأَذْهانِ وَإِظْهارِهَا في أَجْلَىٰ وَأَجْمَلِ صُوَرِ البَيانِ».

وَتَارَةً يَنْزِلُ بِالشِّعْرِ العَرَبِي إِلىٰ أَدْنَىٰ دَرْكَةٍ، فَيَقُولُ:

«إِنِّي قَرَعْتُ أَبْوابَ الشِّعْرِ وَأَنَا لا أَعْلَمُ مِنْ حَقِيقَتِهِ مَا أَعْلَمُهُ الْيَوْمَ، وَلاَ أَجِدُ أَمامِي غَيْرَ دَواوِينَ لِلمَوْتَىٰ لاَ مَظْهَرَ لِلشِّعْرِ فِيهَا، وَقَصائِدَ لِلأَحْياءِ يَحْذُونَ فِيهَا حَذْوَ القُدَماءِ، وَالقَوْمُ في مِصْرَ لا يَعْرِفُونَ مِنَ الشِّعْرِ إِلاّ مَا كَانَ مَدْحاً في مَقامٍ عالٍ».

ثُمَّ قالَ في مَوْضِعٍ آخَرَ عَنِ الشِّعراءِ حَتَّىٰ عَنْ آخِرِ المُتَأَخِّرِينَ:

«وَإِلا فَمِنْ دَوَاوِينِهِمْ مَا يَخْلُقُ أَنْ يَكُونَ المِثالَ المُحْتَذَىٰ في شُعَراءِ الأُمَمِ، كَٱبْنِ الأَحْنَفِ مُرسِلِ الشِّعْرِ كُتُباً في الهَوَىٰ وَرسائِلَ، وَمُتَّخِذِهِ رَسُلاً في الهَوَى وَوَسائِلَ؛ وَكَٱبْنِ خَفاجَةَ شاعِرِ الطَّبِيعَةِ وَمَجْنُونِ لَيْلاها، وَوَاصِفِ بَدائِعِها وَحَلاها؛ وَكَالْبَهاءِ زُهَيْرٍ سَيِّدِ مَنْ ضَحِكَ في القَوْلِ وَبَكَىٰ، وَأَفْصَحِ مَنْ عَتِبَ عَلَىٰ الأَحِبَّةِ وَٱشْتَكَى؛ وَحَسْبُكَ أَنَّهُ لَوِ ٱجْتَمَعَ أَلْفُ شاعِرٍ، يُعَزِّزُهُمْ أَلْفُ ناثِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحِلُّوا شِعْرَ البَهاءِ، أَوْ يَأْتُوا بِنَثْرٍ في سُهُولَتِهِ، لاَنْصَرَفُوا عَنْهُ وَهُوَ كَمَا هُوَ».

وَمَنْ كَانَ نَظَرُهُ في البَهاءِ زُهَيْرٍ وَرَأْيُهُ فِيهِ هَكَذَا، كَيْفَ يَكُونُ رَأْيُهُ في فُحُولِ الشُّعَراءِ كَمُسْلِمِ بْنِ الوَلِيدِ، وَأَبى تَمّام، وَالبُحْتُرِي، وَٱبْنِ الرُّومِي، وَالأَرَّجَانِي؟! ثُمَّ هُوَ بَعْدَ ذَلِكَ يَنْزِلُ بِالشِّعْرِ العَرَبِيِّ إِلىٰ أَنْ يَقُولَ:

«ثُمّ طَلَبْتُ العِلْمَ في أورُبَّةَ، فَوَجَدْتُ فِيها نُورَ السَّبِيلِ مِنْ أَوَّلِ يَوْم، وَعَلِمْتُ أَنِّي مَسْؤُولٌ عَنْ تِلْكَ الهِبَةِ الَّتِي يُؤْتِيها اللَّهُ وَلاَ يُؤْتِيها سِواهُ، وَأَنِّي لا أُؤَدِّي شُكْرَها حَتَّىٰ أُشاطِرَ النَّاسَ خَيْرَاتِها، وَإِذْ كُنْتُ أَعْتَقِدُ أَنَّ الأَوْهَامَ

إِذَا تَمَكَّنَتْ مِنْ أُمَّةٍ كَانَتْ لِباغِي إِبادَتِها كالأُفْعُوانِ، لا يُطاقُ لِقاؤُهُ وَيُؤْخَذُ مِنْ خَلْفٍ بِأَطْرافِ البَنانِ؛ جَعَلْتُ أَبْعَثُ بِقَصائِدِ المَدِيحِ مِنْ أُورُبَّة مَمْلُوءَةً مِنْ جَدِيدِ المَعانِي وَحَدِيثِ الأَسالِيبِ بِقَدْرِ الإِمْكانِ».

وَمَعْنَىٰ هَذَا أَنَّهُ وَجَدَ نُورَ السَّبِيلِ إِلَىٰ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ في أُورُبَة مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ، وَأَنَّهُ وَجَدَ فِي مِصْرَ أَوْهاماً كَالثُّعْبَانِ لا يُؤْخَذُ إِلاّ بِالحِيلَةِ، فَاْحْتَالَ عَلَيْهِ بِقَصائِدِهِ عَلَىٰ الأُسْلُوبِ العَرَبِيِّ الجَدِيدِ الأُورُبِّيّ لإِبادَةِ تِلْكَ الأَوْهامِ الَّتِي تَمَكَّنَتْ مِنَ الأُمَّةِ العَرَبِيَّةِ، وَهَذَا أَغْرَبُ مَا رُوِي! لِأَنَّ الشِّعْرَ أَلفاظٌ وَمَعانٍ، فَالرُّجُوعُ إِلى العَرَبِيَّةِ وَالأَخْذُ عَنْ أَهْلِها واجِبٌ مِنْ جِهَةِ الأَلْفاظِ؛ أَمَّا مِنْ جِهَةِ المَعانِي، فَقَدْ طالَعْنا ما قَدِرْنا عَلَىٰ مُطالَعَتِهِ مِنْ شِعْرِ الغَرْبِيِّينَ فَلَمْ نَجِدْهُمْ أَطْوَلَ باعاً مِنَ الشَّرْقِيِّينَ في المعانِي، بَلِ الشَّرْقِيُّونَ يَفُوقُونَهُمْ فِيها، وَهُمْ إِلىٰ الآن لا يَزَالُونَ في المَعانِي عِيالاً عَلَىٰ اليُونانِيِّينَ وَالفُرْسِ وَالعَرَبِ، يَنْتَحِلُونَها وَيُزَيِّنُونَ بِها أَشْعارَهُم. وَأَمَّا مِنْ جِهَةِ المَواضِيعِ الشِّعْرِيَّةِ وَالتَّغَنِّي بِالطَّبِيعَةِ وَوَصْفِ الكَوْنِ مِمّا يُشِيرُ إِلَيْهِ في مُقَدَّمَتِه، فَهُوَ يُشْهِدُ نَفْسَهُ: «أَنَّ شُعراءَ العَرَبِ حُكماءُ لَمْ تَعْزُبْ عَنْهُمُ الحقائِقُ الكُبَرُ، وَلَمْ يَفُتْهُمْ تَقْرِيرُ المَبادِىءِ العالِيَةِ، وَأَنَّهُمْ

أَقْدَرُ الأُمَمِ عَلَىٰ تَقْرِيبِها مِنَ الأَذْهانِ، وَإِظْهارِها في أَجْلَىٰ وأَجْمَلِ بَيانٍ». وَقَدْ قالَ شُعَراءُ الشَّرْقِ ما قَالُوا في هَذِهِ الأَبْوابِ، فما عَلَىٰ الشَّاعِرِ الجَدِيدِ إلاَّ أَنْ يَتَصَفَّحَ دَواوِينَهُمْ، فَيَجِدَ فِيها ضالَّتَهُ الَّتِي يَنْشُدُها، فَإِنْ رَآهُمْ قَدْ فاتَهُمْ شَيْءٌ أَوْ أَغْفَلُوا باباً في الشِّعْرِ لم يَفْتَحُوهُ، فَلْيَقْرَعْهُ وَلْيُتْحِفْ بِهِ أَهْلَ زَمانِهِ، وَالكَوْنُ وَالطَّبِيعَةُ أَمامَهُ في كُلِّ زَمانٍ وَمَكانٍ، وَهُوَ في غِنَىٰ عَنِ التَّطَوُّحِ بِالشِّعْرِ إِلى أَرْضِ أُورُبَة لِيَسْتَنِيرَ بِنُورِ هُداهَا وَيَحْتَذِيَ الصِّراطَ المُسْتَقِيمَ بِهَا.

هَذَا مَا رَأَيْنَاهُ في القِسْمِ الأَوَّلِ مِنْ مُقَدِّمَةِ الدِّيوانِ، وَسَنُتْبِعُهُ بِمَا نَراهُ في القِسْمِ الثَّانِي الّذِي خَصَّصَهُ الشَّاعِرُ الفاضِلُ لِلْكَلام عَنْ نَفْسِهِ، وَنَحَنُ لا نَشُكُّ في أَنَّهُ يَحْمِلُ كُلَّ كَلاَمِنَا في هَذَا الْبَابِ عَلَىٰ أَحْسَنِ مَحْمَلٍ، فَمَا غَرَضُنَا إلاَّ خِدْمَتُهُ وَخِدْمَةُ الأَدَبِ مَعَهُ، وَهُوَ لِلأَدَبِ خَيْرُ مُساعِدٍ وَمُعِينٍ.

(٣)

مِنَ الأَقْوالِ المَأْثُورَةِ: «أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ قَوْلَةِ أَنا».

وَ«إِذَا أَرَدْتَ أَنْ يُثْنَىٰ عَلَيْكَ فلا تُثْنِ عَلَىٰ نَفْسِكَ».

سَلَكَ الشَّاعِرُ الفاضِلُ في مُقَدِّمَتِهِ في الكَلاَمِ عَلَىٰ

نَفْسِهِ مَسْلَكاً لَمْ تَسْلُكْهُ الشُّعَرَاءُ مِنْ قَبْلِهِ فِي دَواوِينِهِمْ، بَلْ كَانُوا يَتْرُكُونَ لِغَيْرِهِمُ الْكَلاَمَ عَنْهُمْ، وَغايَةُ ما رَأَيْنَاهُ مِنَ الْمُؤَلِّفِينَ لِلْكُتُبِ العَرَبِيةِ أَنَّهُمْ إِذا أَرادُوا الْكَلاَمَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ فَلاَ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ عَنْ أُصُولِهِمْ في الأَدَبِ لا عَنْ أُصولِهِمْ في النَّسَبِ، فَيَذْكُرُ الواحِدُ مِنْهُمْ مِمَّنْ أَخَذَ، وَعَمَّنْ تَلَقَّىٰ، وَعَلَىٰ مَنْ قَرَأَ، وَمَاذَا حَفِظ. أَمَّا الشَّاعِرُ الفَاضِلُ، فَقَدْ ذَكَرَ لِنَفْسِهِ أُصولاً أَرْبَعَةً فِي النَّسَبِ، وَلَمْ يَذْكُرْ لَهُ أَصْلاً وَاحِداً في الأَدَبِ، إِذْ قالَ: «أَنا إِذاً عَرَبيٌّ، تُرْكِيٌّ، يُونانيٌّ، جَرْكَسِيٌّ بِجَدَّتِي لِأَبِي؛ أُصولٌ أَرْبَعَةٌ، في فَرْعٍ مُجْتَمِعَةٌ».

[السريع]

لَيْسَ عَلَىٰ ٱللَّهِ بِمُسْتَنْكَرٍ
أَنْ يَجْمَعَ العَالَمَ في وَاحِدِ

وَكُلُّ مَنْ قَرَأَ كلامَهُ في مُقَدَّمَتِهِ يَراهُ يَدُورُ عَلَىٰ أَرْبَعَةِ أَشْياءَ: الزَّهْوِ، وَالسَّهْوِ، وَالحَشْوِ، وَسلامَةِ النِّيَّةِ.

فَمِنْ قَوْلِهِ في الزَّهْوِ: «مَعْذِرَتِي إِلىٰ الفَرِيقِ الأَوَّلِ أَنَّ مَنْ يَعْرِضُ صُورَتَهُ عَلَىٰ النَّاسِ كَمَنْ يَعْرِضُ وَجْهَهُ عَلَيْهِمْ، وَأَعُوذُ بِاللَّهِ وَبِالْمُحِبِّينَ أَنْ أَكُونَ ذَلِكَ الرَّجُلَ، عَلَىٰ أَنَّ

صُورَتِي ما عِشْتُ بَيْنَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْها، فَإِذَا مِتُّ فَلْيَأْخُذُوها مِنْ أَهْلِي إِذَا جَدَّ بِهِمُ الحِرْصُ عَلَيْها. وَلِلآخَرِينَ أَقُولُ: إِنّي لا أَزالُ في أَوَّلِ النَّشْأَةِ، وَإِنَّ حَياتِي لَمْ تَحْفِلْ بَعْدُ بِالعَجائِبِ، وَلَمْ تَمْتَلِىءْ مِنَ الفَوائِدِ وَلاَ المَصائِبِ حَتَّىٰ أُحَدِّثَ النَّاسَ بِأَخْبارِها، لَكِنِّي لا أَثِقُ بِيَوْمِي الآتِي، وَأَخافُ بَعْدِي رُجُومَ الظَّنِّ وَضَلاَّتِ الأحاديث».

هَذَا هُوَ الزَّهْوُ المُضاعَفُ! وَصُوَرُ المُلُوكِ كما لا يَخْفاهُ في أَيْدِي النَّاس، وَصُوَرُ العُلماءِ وَالشُّعراءِ في هَذَا العَصْرِ في صُدُورِ كُتُبِهِمْ وَدَواوِينِهِمْ، وَتَكَهُّنُهُ بِحِرْصِ النَّاسِ عَلَىٰ صُورَتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ مِنْ ذَلِكَ الزَّهْوِ أَيْضاً.

وَمِنْ قَوْلِهِ في هَذَا البَابِ في ذِكْرِ جَدِّهِ وَجَدَّتِهِ: «حَتَّىٰ تُوُفِّيَ جَدِّي وَهُوَ وَكِيلٌ لِخاصَّةِ الخديوي إسْماعيل باشا، فَأَمَرَ بِنَقْلِ مُرَتَّبِهِ بِرُمَّته إِلىٰ أَرْمَلَتِهِ وَأَنْ يُحْسَبَ ذَلِكَ مَعاشاً لا إِحْساناً»، وَقَوْلِهِ حاكِياً عَنْ نَفْسِهِ في المَدْرَسَةِ التَّجهيزِيَّة: «فَكُنْتُ التِّلميذَ الثَّانِي لِهَذِهِ المَدْرَسَةِ وَأَنا في الخامِسَة عَشرة، وَكَانَ ناظِرُها المَرْحومُ صادِقُ باشا شَنَن قَدْ حَصَلَ لي مِنَ النَّظَارَةِ على المَجَّانِيَّةِ بِوَجْهِ الاسْتِثْناءِ لا عَنْ حاجَةٍ إِلَيْها».

وَمِنَ الزَّهْوِ أيضاً قَوْلُهُ: «أَخَذَتْنِي جَدَّتِي، لِأُمِّي مِنَ

المَهْدِ وَهِي الَّتِي أَرْثِيها في هَذِهِ المَجْمُوعَةِ، وَكَانَتْ مُنْعَمَةً مُوسَرَةً، فَكَفَلَتْنِي لِوالِدَيَّ، وَكَانَتْ تَحْنُو عَلَيَّ فَوْقَ حُنُوِّهِمَا، وَتَرَىٰ لي مَخايِلَ في البِرِّ مَرْجُوَّةً. حَدَّثَتْنِي أَنَّها دَخَلَتْ بِي عَلَىٰ الخديوي إِسماعيل وَأَنَا في الثَّالِثَةِ مِنْ عُمُرِي، وَكَانَ بَصَرِي لا يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ مِنِ اخْتِلالِ أَعْصابِهِ، فَطَلَبَ الخديوي بَدْرَةً مِنَ الذَّهَبِ، ثُمَّ نَثَرَها عَلَىٰ البِسَاطِ عِنْدَ قَدَمَيْهِ، فَوَقَعْتُ عَلَىٰ الذَّهَبِ أَشْتَغِلُ بِجَمْعِهِ وَاللَّعِبِ بِهِ، فَقَالَ لِجَدَّتِه: ٱصْنَعِي مَعَهُ مِثْلَ هَذَا، فَإِنَّهُ لا يَلْبَثُ أَنْ يَعْتادَ النَّظَرَ إِلىٰ الأَرْضِ. قالَتْ: هَذَا دَواءٌ لا يَخْرُجُ إِلاَّ مِنْ صَيْدَلِيَّتِكَ يَا مَوْلاي. قال: جِيئِي به إِلَيَّ مَتَىٰ شِئْتِ، إِنِّي آخِرُ مَنْ يَنْثُرُ الذَّهَبَ في مِصْرَ».

مَنْ كَانَ طبيبُ عَيْنَيْهِ إسماعيلَ، وَصَيْدَلِيَّتُهُ خَزائِنَ مِصْرَ وَهُوَ فِي الثَّالِثَةِ مِنْ عُمُرِهِ، لا بِدَعَ إِذا كانَ الزَّهْوُ تِرْبَ صِباهُ وَرَفِيقَ حَياتِهِ.

وَخِتامُ بابِ الزَّهْوِ قَوْلُهُ عِنْدَ الْكَلاَمِ عَلَىٰ وَفاةِ أَبِيهِ: «كانَتْ وَفاةُ وَالِدِي من نَحْوِ ثلاث سَنَواتٍ، فَكَانَ لي عَجَباً أَنْ وَجَدْتُ بَيْنَ أَوْراقِهِ شَيْئاً كَثِيراً مِنْ مُشَتَّتِ مَنْظُومِي وَمَنْثُورِي، مَا نُشِرَ مِنْها وَمَا لَمْ يُنْشَرْ، قَدْ كَتَبَ بَعْضَهُ بِالحِبْرِ وَالبَعْضَ الآخَرَ بِالرَّصَاصِ، وَالْكُلُّ خَطُّ يَدِ

المَرْحُومِ، وَقَدْ لَفَّهُ في وَرَقَةٍ كُتِبَتْ عَلَيْهَا هَذِهِ العِبارَةُ: «هَذَا مَا تَيَسَّرَ لِي جَمْعُهُ مِنْ أَقْوالَ وَلَدِي أحمد، وَهُوَ يَطْلُبُ العِلْمَ فِي أُورُوبَة، فَكُنْتُ كَأَنِّي أَراهُ، وَإِنِّي آمُرُهُ أَنْ يَجْمَعَهُ ثُمَّ يَنْشُرَهُ لِلنَّاسِ، لِأَنَّهُ لا يَجِدُ بَعْدِي مَنْ يَعْتَنِي بِشُؤُونِهِ، وَرُبَّمَا لا يُوجَدُ بَعْدَهُ مَن يُعْنَىٰ بِالشِّعْرِ وَالآدابِ».

عَلَىٰ هَذَا، فَالشَّاعِرُ في رَأْيِ أَبِيهِ خاتَمُ الشُّعراءِ وَالأُدباءِ!

وَمِنْ بابِ السَّهْوِ عَنْ حُسْنِ التَّعْبِيرِ قَوْلُهُ عَنْ أَبِيهِ في مناقِبِ جَدِّهِ: «ثُمَّ تَداوَلَتِ الأيامُ، وَتعاقَبَ الوُلاةُ الفِخامُ، وَهُوَ يَتَقَلَّدُ المَراتِبَ العالِيَةَ، وَيَتَقَلَّبُ في المناصِبِ السَّامِيَةِ، إلىٰ أَنْ أَقامَهُ سَعِيدُ باشا أَمِيناً للكمارِكِ المِصْرِيَةِ، فكانَتْ وَفاتُهُ في هذا العَمَلِ عَنْ ثَرْوَةٍ راضِيَةٍ بَدَّدَها أَبي في (سَكْرَةِ الشَّبابِ)، ثُمَّ عاشَ بِعَمَلِهِ غَيْرَ نادِمٍ وَلاَ مَحْرُومٍ، وَعِشْتُ في ظِلِّهِ وَأنا وَاحِدُهُ أَسْمَعُ بِمَا كانَ مِنْ سَعَة رِزْقِهِ، وَلاَ أَرانِي في ضِيقٍ حَتَّىٰ أَنْدُبَ تِلْكَ السَّعَةَ، فَكَأَنَّهُ رَأَىٰ لي كَمَا رَأَىٰ لِنَفْسِهِ مِنْ قَبْلُ أَنْ لا أَقْتاتَ مِنْ فَضَلاتِ المَوْتَىٰ».

سَكْرَةُ الشَّبابِ بِإِزاءِ ضَياعِ المالِ مِنْ وَالِدِهِ سَهْوٌ عَنْ حُسْنِ التَّعْبِيرِ، كَانَ يُجِلُّ أَدَبَهُ عنْهُ، وَتَعْبِيرُهُ عَنِ الإِرث بِفَضَلاتِ المَوْتَىٰ سَهْوٌ أَيْضاً عَنْ حُسْنِ التَّعِبيرِ، يَعِزُّ سماعُهُ

عَلَىٰ الوارِثِينَ، لِأَنَّ الإِرْثَ رِزْقٌ مِنَ أَطْهَرِ الأَرْزاقِ مُنْذُ خَلَقَ ٱللَّهُ آدَمَ، فلا يُقالُ لِغَنِيٍّ وَرِثَ مالاً وَلاَ لِمَلِكٍ وَرِثَ مُلْكاً إِنَّهُ يَقْتَاتُ مِنْ فَضَلاتِ المَوْتَىٰ!

وَمِنَ هذا البابِ قَوْلُهُ عِنْدَ ذِكْرِ جَدِّهِ وَجَدَّتِهِ: «وَكانَ الخديوي المُشارُ إِلَيْهِ إِسْماعِيلُ يَقُولُ عَنْهُمَا: لَمْ أَرَ أَعَفَّ مِنْهُ وَلاَ أَقْنَعَ مِنْ زَوْجَتِهِ، وَلَوْ لَمْ يُسَمِّهِ أَبِي حَلِيماً لِحِلْمِه لَسَمَّيْتُهُ عَفِيفاً لِعِفَّتِهِ».

السَّهْوُ في التَّعْبِيرِ هُنَا لا يُغْتَفَرُ لِلأَدِيبِ. سَأَلَ أَحَدُ الأُمراءِ أَدِيباً، فَقَالَ: أَيُّنَا أَكْبَرُ؟ فَقَالَ لَهُ الأَدِيبُ: حَضَرْتُ زَفافَ أُمِّكَ المباركَةِ عَلَىٰ أَبِيكَ الطَّيِّبِ. هُنَا تَحَرَّزَ الشَّاعِرُ مِنْ خِطابِهِ بِأَنَا أَكْبَرُ مِنْكَ أَوَّلاً، وَتَحرَّز ثانِياً فَلَمْ يَقُلْ: أُمُّكَ الطَّيِّبَةُ، بَلْ هَرَبَ مِنْهَا إِلىٰ مَا هُوَ أَلْيَقُ بِالأَدَبِ.

وَمِنْ بابِ السَّهْوِ في التَّعْبِيرِ قَوْلُهُ عَنِ المَغْفُورِ لَهُ تَوْفِيق باشا: «فَتَحَلَّىٰ الحَلِيمُ بِصُورَةِ الغَضَبِ» وَلَيْسَ الغَضَبُ حِلْيَةً يُتَحَلَّىٰ بِها. وَمِنهُ قَوْلُهُ عِنْدَ تَبْشِيرِ المَرْحُومِ تَوفِيقِ باشا لَهُ بِتَعْيِينِ أَبِيهِ مُفَتِّشاً في الخاصَّةِ الخديوية وَالوَعْدِ بِتَعْيِينِهِ هُوَ أَيْضاً: «ثُمَّ مَدَّ إِلَيَّ العَزِيزُ يَدَهُ، فَقَبَّلْتُها وَاجِماً، وَقَدْ غَلَبَ عَلَيَّ السُّرُورُ حَتَّىٰ أَنْسانِي الشِّعْرَ وَكانَ ذَلِكَ وَقْتَهُ».

التَّعْبِيرُ بِالواجِمِ هُنا في غَيْرِ مَوْضِعِه، تَقُولُ: وَجَمَ الرَّجُلُ وُجُوماً: سَكَتَ عَلَىٰ غَيْظٍ، وَقِيلَ: سَكَتَ وَعَجَزَ عَنِ التَّكَلُّمِ مِنْ كَثْرَةِ الغَمِّ وَالْخَوْفِ، وَالواجِمُ: العَبُوسُ المُطْرِقُ لِشِدَّةِ الحُزْنِ، يُقَالُ: ما لي أَرَاكَ وَاقِفاً وَاجِماً؟ وَهُوَ واجِمٌ، وَدَمْعُهُ سَاجِمٌ.

وَمِنْ بابِ سَلامَةِ النِّيَّةِ ما يَحْكِيهِ عَنِ المَرْحُومِ الشَّيْخِ عَلِيٍّ اللَّيْثِي مِنْ قِصَّةِ المَنَامِ وَالخَرْقِ في الإِسْلامِ، قَالَ: «حَدَّثَنِي سَيِّدُ نُدَماءِ هَذَا العَصْرِ المَرْحُومُ الشَّيْخُ عَلِيٌّ اللَّيْثِيُّ، قَالَ: لَقِيتُ أَباكَ وَأَنْتَ حَمْلٌ لَمْ يُوضَعْ بَعْدُ، فَقَصَّ عَلَيَّ حُلُماً رَآهُ في نَوْمِهِ، فَقُلْتُ لَهُ وَأَنا أُمازِحُهُ: لَيُولَدَنَّ لَكَ وَلَدٌ يَخْرِقُ ـ كما تَقُولُ العامَّةُ ـ خَرْقاً في الإِسْلاَمِ. ثُمَّ اتَّفَقَ أَنِّي عُدْتُ الشَّيْخَ في مَرَضِ المَوْتِ، وَكانَتْ في يَدِهِ نُسْخَةٌ مِنْ جَرِيدَةِ الأَهْرَام، فَٱبْتَدَرَ خِطابي يَقُولُ: هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيا أَبِيكَ يا شَوْقِي، فَوَاللَّهِ ما قَالَها قَبْلُ في الإِسْلامِ أَحَدٌ؛ قُلْتُ: وَمَا تِلْكَ يا مَوْلاي؟ قالَ: قَصِيدَتُكَ في وَصْفِ البَالِ الَّتِي تَقُولُ في مَطْلَعِها:

[المقتضب]

حَفَّ كَأْسَهَا الحَبَبُ

فَهْيَ فِضَّةٌ ذَهَبُ»

وَكُلُّ مَنْ عَرَفَ المَرْحُومَ الشَّيْخَ عَلِيَّ اللَّيْثِيَّ وَمَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ المَيْلِ إلى إِرْسَالِ النُّكاتِ المُسْتَظْرَفَةِ أَدْرَكَ لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ مَوْضِعَ النُكْتَةِ في مَسْأَلَةِ الخَرْقِ فِي هَذِهِ القَصِيدَةِ المُتَفَرْنِجَةِ، وَلَوْ كَانَ غَرَضُهُ غَيْرَ التَّنْكِيتِ لقالَ: «لَمْ يَقُلْ مِثْلَهَا الشُّعَراءُ» وَلَمْ يَقُلْ: «لَمْ يَقُلْ أَحَدٌ في الإسْلامِ» فَحَمَلَها الشَّاعِرُ الفاضِلُ بِسَلامَةِ نِيَّتِهِ مَحْمَلَ التَّقْرِيظِ وَالإِطْراءِ.

وَمِمّا يَدْخُلُ في هَذا البَابِ ما نَقَلَهُ عَنِ المَرْحُومِ الشَّيْخِ عَلِيٍّ اللَّيْثِيِّ أَيْضاً عِنْدَ تَكَلُّمِهِ عَلَىٰ اخْتِلالِ أعْصابِ بَصَرِهِ: «وَكَانَ المَرْحُومُ الشَّيْخُ عَلِيٌّ اللَّيْثِيُّ كُلَّمَا ٱلْتَقَتْ عَيْنُهُ بِعَيْنِي يُنْشِدُ هَذَا المِصْرَاعَ لِلمُتَنَبِّي:

[الطويل]

مَحاجِرُ مِسْكٍ رُكِّبَتْ فَوْقَ زِئْبَقِ»

وَأَمَا الحَشْوُ في كلامِهِ، فَنَذْكُرُ مِنْهُ شَيْئاً يَدُلُّ عَلَيْهِ، فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ عِنْدَ ذِكْرِ اسْتِدْعاءِ المَرْحُومِ توفيق باشا لَهُ مِنْ ساحَةِ عابِدِين: «فَخَرَجْتُ قُبَيْلَ الأَصِيلِ في حاجَةٍ لي عَلَىٰ حِمارٍ أَبْيَضَ كَانَ لِوالِدِي».

وَمِنْ قَوْلِهِ عِنْدَ الكَلامِ عَنْ دِراسَتِهِ في باريس:

«أُصِبْتُ بِمَرَضٍ شَدِيدٍ كُنْتُ فِيهِ بَيْنَ الحياةِ وَالمَوْتِ، فَاسْتَخْدَمْتُ مُمَرِّضَةً تَسْهَرُ عَلَيَّ وتَعْمَلُ بِإِشارَتِي في الحَرَكَةِ وَالسَّكْنَةِ، فَكنت أسمعها، وَأَنا في سَكراتِ الحُمَّىٰ، تَقُولُ: أَفِي مِثْلِ هَذَا الشّبابِ تَذْهَبُونَ؟ ثُمَّ تُكَفْكِفُ الدَّمْعَ؛ لَكِنَّ اللَّهَ خَيَّبَ ظُنُونَها، وَمَنَّ عَلَيَّ بِالشِّفاءِ»،

وَمِنْ أَمْثالِ هَذَا الحَشْوِ كَثِيرٌ مِمّا لا يَنْتَفِعُ بِهِ القارِىءُ ولا يَسْتَفِيدُ مِنْهُ السَّامِعُ وَيَضِيقُ بِنَا المُقامُ عَنْ سَرْدِهِ. وَقَدْ آنَ لَنَا أَنْ نَنْتَهِيَ مِنْ نَقْدِ المُقَدَّمَةِ، وَنَبْتَدِىءَ بِنَقْدِ الشِّعْرِ، وَمَوْعِدُنَا الأَعْدادُ الآتِيَةُ.

(٤)

ٱخْتَفَتْ عادَةُ الأنْتِقادِ لِلْكُتُبِ عَنِ النَّاسِ، وَأَلِفَتْ أَذْهانُهُمُ التَّقْرِيظَ مَدْحاً وَإِطْراءً، فَصارَ الانْتِقادُ مَهْجُوراً بَيْنَهُمْ، غَرِيباً فِيهِمْ، حَتَّىٰ ظَنُّوهُ ذامّاً، وَحَسِبُوهُ عاباً، وَلَمَّا وَضَعْنَا دِيوانَ حَضْرَةِ الشَّاعِرِ الفاضِلِ شَوْقِي بك مَوْضِعَ العِنايَةِ وَالاهْتِمَامَ بِهِ، وَشَرَعْنا في انْتِقادِهِ قِياماً بِخِدْمَةِ الأَدَبِ عَلَىٰ عادَةِ الجرائِدِ الغَرْبِيَّةِ في هذا البابِ، وَهِمَ النَّاسُ في أَنَّنا قَصَدْنَا ذَلِكَ مِنْ وَجِهِ التَّحامُلِ، وَلَقَدْ أَخْطَؤُوا في وَهْمِهِمْ، فَإِنَّ صُحْبَتَنا مَعَ هَذَا الصَّاحِبِ الفاضِلِ لَمْ تَزَلْ

عَلَىٰ ما كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ الصَّفاءِ، وَلَمْ يُؤَثِّر عَلَيْهَا الانْتِقادُ شَيْئاً، لِعِلْمِهِ وَلِعِلْمِنا بِأَنَّ الانْتِقادَ دائِرٌ عَلَىٰ ما قِيلَ لا عَلَىٰ مَنْ قالَ، وَلِذَلِكَ ٱسْتَغْرَبْنَا قيامَ مَنْ قامَ لِلرَّدِّ عَلَيْنَا مُسْتَتِرَ الاسْمِ تَحْتَ الأَلِفِ وَالرَّاءِ، وَكِدْنَا نُسِيءُ الظَّنَ بِصاحِبِنا، وَهَمَمْنا بِالرَّدِّ عَلَيْهِ لَوْلاَ أَنْ جَمَعَنَا وَإِيَّاهُ مَجْلِسٌ، فَسَأَلْنَاهُ عَنْ ذَلِكَ الكاتِبِ، فَتَبَيَّنَ لَنَا مِنْهُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُهُ، وَأَنَّهُ لا يَقُولُ بِقَوْلِهِ، وَأَنَّ مَا كَتَبَهُ كَانَ عَلَىٰ غَيْرِ عِلْمٍ مِنْهُ، وَأَنَّهُ لا يَزالُ يَقْدِرُ الانْتِقادَ قَدْرَهُ وَيَحْمِلُهُ عَلَىٰ حُسْنِ الاهْتِمامِ بِدِيوَانِه، فَمِنْ أَجْلِ هَذَا عَدَلْنَا عَنِ النَّقْدِ عَلَىٰ الرَّدِّ، وَطَرَحْنَاهُ في جَانِبِ المُسامَحَةِ وَالإِغْضاءِ كَمَا جَرَتْ عَلَيْهِ عَادَتُنَا مَعَ مَنْ يَتَهافَتُ عَلَيْنا، وَيَتَحَرَّشُ بنا، لِأَنَّنَا لا نَرَىٰ في الكَلامِ مَعَهُ مِنْ فَائِدَةٍ لِلقُرَّاءِ، بَلْ نَجِدُ مِنَ الحِكْمَةِ أَنْ نَمُرَّ بِلَغْوِهِ مَرَّ الكِرامِ تَأَدُّباً بِأَدَبِ القُرْآنِ الكَرِيمِ في قَوْله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [٢٥ الفرقان/ الآية: ٧٢].

وَالآنَ نَأْخُذُ فِي نَقْدِ الشِّعْرِ سَائِلِينَ حَضْرَةَ الشَّاعِرِ الفاضِلِ أَنْ يَكُونَ دَائِمَ الاعْتِقادِ في مَحْضِ نُصْحِنا وَصَفاءِ مَوَدَّتِنا، وَأَنْ لا يَحْمِلَ شَيْئاً مِن كلامِنا مَحْمَلَ السُّوءِ، وَقَدْ قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ تَعالىٰ عَنْهُ: «لا تَظُنَّنَ بِكَلِمَةٍ تَخْرُجُ مِنْ فَمِ أَخِيكَ المُسْلِمِ سُوءاً وأَنْتَ تَجِدُ لها في الخَيْرِ مَحْمَلاً».

قالَ حَضْرةُ الشَّاعِرِ الفاضِلِ في أَوَّلِ الدِّيوانِ مِنْ بابِ «الأَدَبِ وَالتَّاريخ»:

[الخفيف]

خَدَعُوها بِقَوْلِهِمْ حَسْنَاءُ
وَالْغَوانِي يَغُرُّهُنَّ الثَّنَاءُ

قوله: «خَدعُوها» يُفْهَمُ مِنْهُ أَنَّ المُشَبَّبَ بِها غَيْرُ حَسْناءَ، لِأَنَّ الخِداعَ لاَ يَكُونُ بالحَقِيقَةِ، وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَخْدَعَ الشَّوْهاءَ فَقُلْ لَها: حَسْناءُ، وَهُوَ يُنافي قَوْلَهُ في البَيْتِ الثاني:

مَا تَرَاهَا تَنَاسَتِ ٱسْمِيَ لِمَّا
كَثُرَتْ في غَرَامِهَا الأَسْمَاءُ

وَ«خَدَعُوها» بِمَعْنَىٰ: خَتَلُوها، وَأَرادُوا بها المَكْرُوهَ مِنْ حَيْثُ لا تَعْلَمُهُ، وَيُعْجِبُنا مِنْ هَذِهِ القَصِيدَةِ قَوْلُهُ:

يَوْمَ كُنَّا وَلاَ تَسَلْ كَيْفَ كُنَّا
نَتَهَادَىٰ مِنَ ٱلْهَوَىٰ مَا نَشَاءُ

وَعَلَيْنَا مِنَ العَفَافِ رَقِيبٌ
تَعِبَتْ في مِرَاسِهِ الأَهْوَاءُ

جَاذَبَتْنِي ثَوْبِي العَصِيَّ وَقَالَتْ
أَنْتُمُ النَّاسُ أَيُّهَا الشُّعَرَاءُ
فَاتَّقُوا ٱللَّهَ في خِدَاعِ العَذَارَىٰ
فَالعَذَارَىٰ قُلُوبُهُنَّ هَوَاءُ

وَهَذَا مِنْ بَدِيعِ الكَلامِ وَجَيِّدِ الشِّعْرِ.

وَمِمّا نَعُدُّهُ مِنْ مَحاسِنِهِ وَنَرَاهُ مِنَ المَعانِي المُبْتَكَرَةِ [من الوافر]:

سَعَتْ لَكَ صُورَتِي وَأَتَاكَ شَخْصِي
وَسَارَ الظِّلُّ نَحْوَكَ وَٱلْجِهَاتُ
لِأَنَّ الرُّوحَ عِنْدَكَ وَهِيَ أَصْلٌ
وَحَيْثُ الأَصْلُ تَسْعَىٰ المُلْحَقَاتُ
وَهَبْهَا صُورَةً مِنْ غَيْرِ رُوحٍ
أَلَيْسَ مِنَ ٱلْقَبُولِ لَهَا حَيَاةُ

وَمِمّا نَعِيبُهُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ مِنْ أَبياتٍ [من الطويل]:

وَقِطْعَةُ خَدٍّ بَيْنَمَا هِيَ جَنَّةٌ
لِعَيْنَيْكَ يَا رَائِي إذَا هِيَ نَارُ

لِأَنَّ القِطْعَةَ بِغَيْرِ الخَدِّ أَنْسَبُ، وَلَوْ قالَ: صَفْحَةُ خَدٍّ لَكانَ التَّعْبِيرُ أَحْسَنَ وَأَجْمَلَ.

أَمَّا بَقِيَّةُ الأَبياتِ فَهِيَ مِنْ رائِقِ الشِّعْرِ وَرَقِيقِه، وَهِيَ:

إِذَا بَـرَزَتْ وَدَّ الـنَّـهـارُ قَـمِـيـصَـهـا
يُـغَـيِّـرُ بِـهِ شَـمْـسَ الـضُّـحَـىٰ فَـتَـغَـارُ

وَإِنْ نَـهَـضَـتْ لِـلْـمَـشْـي وَدَّ قَـوامَـهـا
نِـسـاءٌ طِـوالٌ حَـوْلَـهـا وَقِـصـارُ

لَـهَـا مَـبْـسَـمٌ عَـاشَ الـعَـقِـيـقُ لِأَجْـلِـهِ
وَعَـاشَـتْ لِآلٍ فـي الـعَـقِـيـقِ صِـغـارُ

وَمِما يُنْتَقَدُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ في أَبياتٍ [من مخلّع البسيط]:

وَكُـــلُّ ذِي هِـــمَّـــةٍ شَـــرِيـــفِ
يَـقُـومُ لِـلْـخَـلْـقِ بِـالـخِـدَامَـهْ

لأَنَّ لَفْظَةَ «خِدامَة» لَيْسَتْ مِنَ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ في شَيْءٍ.

(٥)

قالَ حَضْرَةُ الشَّاعِرِ الفاضِلِ شَوْقِي بك مِنْ قَصِيدَةٍ في باب الوَصْفِ، مِنْ دِيوانِهِ يَصِفُ لَيْلَةَ راقِصَةً في سَرَاي عابِدِين [من المقتضب]:

أَقْبَلَتْ شُمُوسُ ضُحىً
مَا لَهُنَّ مُنْتَقِبُ

الظَّلامُ رَايَتُها.....
وَهِيَ جَيْشُهُ اللَّجِبُ

تَشْبِيهُ الظلام بِالرَّايَةِ لِهَذَا الجَيْشِ اللَّطِيفِ، جَيْشِ شُمُوسِ الضُّحَىٰ، لا مُناسَبَةَ لَهُ إِلاّ إِذَا أَرادَ أَنْ يُشَبِّهَهُ بِجَيْشٍ خُراسَانِيٍّ يَقُودُهُ أَبو مُسْلِم تَحْتَ الرَّايَةِ السَّوْدَاءِ، وَالعَجَبُ لِهَذِهِ الشُّمُوسِ المِسْفِرَةِ التي لَيْسَ لها مُنْتَقِبُ كَيْفَ أَنَّها لَمْ تُمَزِّقْ هَذه الرَّايَةَ؟!

وَقَالَ مِنْها في وَصْفِ العَزِيزِ:
فَهْوَ بَيْنَهُمْ عُمَرُ
وَالوُفُودُ تَنْتَدِبُ

تَشْبِيهُ العَزِيزِ بِعُمَرَ رَضِي اللَّهُ تَعالَىٰ عَنْهُ في هَذَا المَجْلِسِ، مَجْلِسِ الطَّرَبَ وَالعَزْفِ وَالرَّقْصِ وَالقَصْفِ وَالقُدُودِ وَالخُدُودِ وَالصُّدُورِ وَالنُّهُودِ وَالنُّحُورِ وَالعُقُودِ، غَيْرُ لائِقٍ بِالمقَامِ، إِلاَّ إِذَا أَرادَ الشَّاعِرُ بِعُمَرَ عُمَرَ ابْنَ أَبي رَبِيعَةَ.

وَقَالَ مِنْهَا:

فَـــهْـــيَ آنَـــةً صَـــعَـــدٌ
وَهْـــيَ آنَـــةً صَـــبَـــبُ

لا يُقَالُ في اللُّغَةِ: «آنَة» بَلْ يُقالُ: «آوِنَة» وَهِي جَمْعُ: «الأَوانِ» أَو الوَقْتِ وَالحِينِ، يُقَالُ: هُوَ يَفْعَلُ ذَلِكَ آوِنَةً، وَأَنا آتِيهِ آوِنَةً بَعْدَ آوِنَةٍ.

وَمِنْ قَوْلِهِ بَعْدَ أَنْ وَصَفَ المائِدَةَ «البُوفِيه»:

وَالـــطَّـــعَـــامُ حَـــاضِـــرُهُ
وَالـــمَـــزِيـــدُ مُـــنْـــتَـــهَـــبُ

بَـــارِدٌ وَمِـــنْ عَـــجَـــبِ
يُـــشْـــتَـــهَـــىٰ وَيُـــطَّـــلَـــبُ

كَذَا البَيْتُ، وَلَيْسَ مِنَ العَجَبِ أَنْ يُشْتَهَىٰ البارِدُ وَيُطْلَبُ.

وَقَالَ مِنْها:

وَالـــخُـــصُـــورُ وَاهِـــيَـــةٌ
بِـــالـــبَـــنَـــانِ تَـــنْـــجَـــذِبُ

سَـالَـتِ الأَكُـفُّ بِـهَـا
فَـهْـي أَغْـصُـنٌ نُـهُـبٌ

الغُصْنُ لا يُجْمَعُ في اللُّغَةِ إلاَّ عَلَىٰ غُصُونِ وَغِصَنَةٍ وَأَغْصَانِ.

وَمَطْلَعُ هَذِهِ القَصِيدَةِ مِنَ المَطالِعِ البَدِيعَةِ، وَهُوَ:

حَـفَّ كَـأْسَـهَـا الـحَـبَـبُ
فَـهْـيَ فِـضَّـةٌ ذَهَـبُ

وَمِنْ مَحاسِنِهِ فِيها قَوْلُهُ في الخَمْرِ:

رَاحَـةُ الـنُّـفُـوسِ وَهَـلْ
عِـنْـدَ رَاحَـةٍ تَـعَـبُ

يَـا نَـدِيـمُ خِـفَّ بِـهَـا
لا كَـبَـا بِـكَ الـطَّـرَبُ

ومِنْ المَحاسِنِ أَيْضاً قَوْلُهُ:

تَـنْـجَـلـي وَلـي خُـلُـقٌ
يَـنْـجِـلـي وَيَـنْـسَـكِـبُ

وَمِنْهَا في وَصْفِ «السَّرَاي» [أي: القصر]:

أَشَـرْقَـتْ نَـوَافِـذُهُ
فَـهْـي مَـنْـظَـرٌ عَـجَـبُ

وَٱسْـتَـنَـارَ رَفْـرَفُـهُ
وَالـسُّـجُـوفُ وَالـحُـجُـبُ
تَـعْـجَـبُ الـعُـيُـونُ لَـهُ
كَـيْـفَ تَـسْـكُـنُ الـشُّـهُـبُ

البيان

«لأحد الأدباءِ المعاصرِين(١)»

قالَ لي أَحَدُ الوزراءِ الأَذْكِياءِ ذاتَ يَوْمٍ: إِنِّي لَتَأْتِينِي أَحْياناً رِقاعُ الاسْتِعْطافِ فَأَكادُ أُهْمِلُها لما تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مِنَ الأَساليبِ المُنَفِّرَةِ، لَولاَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ يُلْهِمُني نِيَّاتِ كاتِبِيها وأَيْنَ يَذْهَبُونَ. وَلَوْلاَ ذَلِكَ لَكُنْتُ من الظَّالِمِينَ.

ذلك ما يراهُ القارِىءُ في أَكْثَرِ المَخْطوطاتِ الَّتِي يَخُطُّها كاتِبُوها في رسائِلِ الصُّحِفِ ورقاع الشَّكْوىٰ والكُتُبِ الخاصَّةِ والمُؤَلَّفات العامَّة.

---

(١) [هو مصطفى لطفي المَنْفَلوطي نفسه، راجع كتابه: «النظرات» أول الجزء الثاني صفحة: ٥؛ والنصُّ هنا يختلف عن ما نَشَرْتَهُ في «النظرات» طبعة الجفان والجابي، ليماسول، قبرص؛ يختلف ببعض العبارات لا غير، وأبقيت ما نُشِرَ هنا على حالِهِ وهناك على ما استقرَّ عليه].

هَزْلٌ في مَوْضِعِ الجِدِّ، وَجِدٌّ في مَوْضِعِ الهَزْلِ؛ وَإِسْهابٌ في مكانِ الإيجازِ، وَإِيجازٌ في مَكانِ الإِسْهابِ؛ وَجَهْلٌ بِفَرْقِ ما بَيْنَ العِتَابِ وَالتَّأْنِيبِ، وَالانتقامِ وَالتَّأْدِيبِ، وَالاسْتِعْطافِ وَالاسْتِخْفافِ؛ وَقُصورٌ عَنْ إِدْراكِ مَنازِلِ الخِطاب وَمَواقِفِهِ بين السُّوقَةِ وَالأُمَراءِ؛ وَالعُلماءِ وَالْجُهلاءِ؛ حَتّىٰ أَنَّ الكاتِبَ لَيُقِيمُ في الشَّوْكَةِ يُشاكُها مَناحةً لا يُقِيمُها في الفاجِعَةِ يُفْجَعُ بها، وَيَكْتُبُ في الحوادِثِ الصِّغارِ ما يُكْبِرُ أَنْ يَكْتُبَ مِثْلَه في الحوادِثِ الكِبارِ، وَيُخاطِبُ صديقَهُ بما يخاطِبُ بهِ عَدُوَّهُ، وَيُناجِي أَجِيرَهُ بِمِثْلِ ما يُناجِي بِهِ أَميرَهُ.

ذَهَبَ النَّاسُ في مَعْنَىٰ البَيانِ مَذاهِبَ مُتَفَرِّقةً، وَٱخْتَلَفُوا في شَأْنِهِ اخْتِلافاً كَثِيراً، ولا أَدْرِي عَلامَ يَخْتَلِفُونَ، وَإِلىٰ أَيْنَ يَذْهَبُونَ؟ وَهَذَا لَفْظُهُ دَالٌّ عَلَىٰ مَعْنَاهُ دلالةً واضِحَةً لا تَشْتَبِهُ وُجوهُها، وَلا تَتَشَعَّبُ مسالِكُها.

لَيْسَ البَيانُ إلاَّ الإِبانَةَ عن المَعْنَىٰ القائِمِ في النَّفْسِ، وَتَصْويرَه في نَظَرِ القارِئِ أَوْ مَسْمَعِ السَّامِعِ تَصْويراً صَحِيحاً لا يَتَجَاوَزُهُ، ولا يُقَصِّرُ عَنْهُ. فَإِن عَلِقَتْ بِهِ آفةٌ من تَيْنِكَ الآفَتَيْنِ فَهُوَ العَيُّ وَالحَصَرُ.

جَهِلَ البَيَانَ قَوْمٌ فَظَنُّوا أَنَّهُ الاسْتِكْثارُ من غَرِيبِ اللُّغَةِ

ونادِرِ الأَساليبِ، فَأَغَصُّوا بِهَا صُدورَ كِتاباتِهِمْ، وَحَشَوْها في حُلوقِها حَشْواً يَقْبِضُ أَوْدَاجَهَا، وَيَحْبِسُ عَلَيْهَا أَنْفاسَها، فَإِذا قُدِّرَ لَكَ أَنْ تَقْرَأَها وَكُنْتَ مِمَّنْ وَهَبَهُمُ اللَّهُ صَدْراً رَحْباً، وَفُؤاداً جَلْداً، وَجَناناً يَحْتَمِلُ مَا حُمِلَ عَلَيْهِ مِنْ آفاتِ الدُّهورِ وَرَزاياهُ، قَرَأْتَ مَتْناً مُشَوَّشاً مِنْ مُتونِ اللُّغَةِ، أَوْ كِتاباً مُضْطَرِباً مِنْ كُتُبِ المُتَرادِفاتِ.

وَجَهِلَهُ آخَرُونَ فَظَنُّوا أَنَّهُ الهَذَرُ في القَوْلِ، وَالتَبَسُّطُ في الحديثِ، واقِعاً ذَلِكَ مِنْ حالِ الكلامِ وَمُقْتَضَاهُ حيثُ وَقَعَ، فَلاَيَزالونَ يَجْتَرُّونَ بِالْكَلِمَةِ اجْتِرارَ الناقة بِجِرَّتِها[1]. وَيَتَلَمَّظُونَ بها تَلَمُّظَ الشِّفاهِ بِرِيقَتِها، حَتَّى تَسْفُلَ وَتَتَبَذَّلَ، وَحَتَّىٰ ما تَكادُ تُسِيغُها الحُلوقُ، وَلاَ تَطْرِفُ عَلَيْهَا العُيونُ، وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنونَ صُنْعاً.

وَلَقَدْ يُخَيَّلُ لي أَنَّ أَكْثَرَ الكتّابِ في هذا العَصْرِ يَكْتُبونَ لِأَنْفُسِهِمْ أَكْثَرَ مِمّا يَكْتُبونَ للنَّاسِ، وَأَنَّ كِتابَتَهُمْ أَشْبَهُ شَيْءٍ بالأَحَادِيثِ النَّفْسِيَّةِ الَّتِي تَتَلَجْلَجُ في نَفْسِ الإِنْسانِ حِينَما يَخْلُو بِنَفْسِهِ، وَيَأْنَسُ بِوَحْدَتِهِ، فَإِنِّي لاَ أَكادُ أَرَىٰ بَيْنَهُمْ مَنْ يُحْسِنُ أَنْ يَضَعَ فَمَهُ عَلَىٰ أُذُنِ السَّامِعِ

---

(١) الجِرَّة: ما يَجْتَرُّهُ الحَيْوان.

وَضعاً مُحْكَماً، فَيَنْفُثُ في رُوْعِهِ ما يُرِيدُ أَنْ يَنْفُثَ من خواطِرِ قَلْبِهِ، وَهواجِسِ نَفْسِهِ.

البيانُ صِلَةٌ بَيْنَ مُتَكَلِّمٍ يُفْهِمُ، وَسَامِعٍ يَفْهَمُ؛ فَبِمْقدارِ تِلْكَ الصِّلَةِ مِنَ القُوَّةِ وَالضَّعْفِ تَكُونُ مَنْزِلَةُ الكاتِبِ مِن الرِّفْعَةِ وَالسُّقوطِ، فَإِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَكُونَ كاتِباً فَاجْعَلْ هَذِهِ القاعِدَةَ في البيانِ قاعِدَتَكَ، وَٱحْرِصِ الحِرْصَ كُلَّهُ عَلَىٰ أَلاَّ يَخْدَعَكَ عَنْهَا خادِعٌ فَتَسْقُطَ مَعَ السَّاقِطِينَ.

ما أُصِيبَ البَيانُ العَرَبِيُّ بما أُصِيبَ بِهِ إلاَّ مِنْ نَاحِيَةِ الْجَهْلِ بأساليبِ اللّغَةِ العَربِيَّةِ؛ وَلاَ أَدْرِي كَيْفَ يَسْتَطِيعُ الكاتِبُ أَنْ يكونَ كاتِباً عَرَبِيّاً قَبْلَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَىٰ أساليبِ العَرَبِ في أَوْصافِهِمْ وَنُعوتِهِمْ، وَمَدْحِهِمْ وَهَجْوِهِمْ، وَمُحاوَرَاتِهِمْ وَمُساجَلاتِهِمْ، وَقَبْلَ أَنْ يَعْرِفَ كَيْفَ كانُوا يُعاتِبُونَ وَيُؤَنِّبونَ، وَيَعِظُونَ وَيَنْصَحونَ، وَيَتَغَزَّلُونَ وَيَنْسِبُونَ، وَيَسْتَعْطِفونَ وَيَسْتَرْحِمُونَ، وَبِأَيِّ لُغَةٍ يُحاوِلُ أَنْ يَكْتُبَ كِتابَتَهُ إنْ لَمْ يَسْتَمِدَّ تلكَ الرُّوحَ العَرَبِيَّةَ اسْتِمْداداً يَمْلأُ مَا بَيْنَ جوانِحِهِ حتَّىٰ يَتَدَفَّقَ مَعَ المِدادِ مِن أُنْبوبِ يراعِهِ على صفحاتِ قِرْطاسِهِ.

إِنِّي لأَقْرَأُ ما كَتَبَهُ الجاحِظُ وَابْنُ المُقَفَّعِ وَالصَّاحِبُ وَالصَّابِىءُ وَالهَمَذانِيُّ وَالخارَزْمِيُّ وَأَمْثالُهُمْ مِنْ كُتَّابِ العَرِبيَّةِ

الأُولَىٰ، ثُمَّ أَقْرأُ مَا خَطَّهُ هَؤُلاءِ الكاتِبُونَ في هَذِهِ الصُّحُفِ وَالأَسْفارِ فَأَشْعُرُ بِما يَشْعُرُ بِهِ المُنْتَقِلُ دَفْعةً واحِدَةً مِنْ غُرْفَةٍ مُحْكَمَةٌ نَوافِذُها مُسْبَلَةٌ سُتُورُها إِلىٰ جَوٍّ يَسِيلُ قَرّاً وَصِرّاً، وَيَتَرَقْرَقُ ثَلْجاً وَبَرَداً.

ذَلِكَ لِأَنِّي أَقْرأُ لُغَةً لا هِيَ بالعَرَبِيَّةِ فَأَغْتَبِطَ بِها، ولا هي بالعامِيَّةِ فَأَتَفَكَّهَ بِأَحْماضِها وَمُجونِها.

رَأَيْتُ أَكْثَرَ الكاتِبِينَ في هذا العَصْرِ بَيْنَ ٱثْنَيْنِ: إِمَّا رَجُلٌ يَسْتَمِدُّ رُوحَ كِتابَتِهِ مِنْ مُطَالَعَةِ الصُّحفِ وَمَا يشاكِلُها في أسالِيبِها مِنَ المُؤَلَّفاتِ الحَدِيثَةِ وَالرِّواياتِ المُتَرْجَمَةِ، وَرُبَّما كانَ كُتَّابُ تِلْكَ المَخْطوطاتِ أَحْوَجَ إِلىٰ الاسْتِمْدادِ من قارِئِيها. فَإِذَا عَلِقَتْ بِنَفْسِهِ تِلْكَ المَلَكَةُ الصُّحافِيَّةُ أَلْقَى بها في رُوعِ قارِىءِ كتابَتِهِ أَدْوَنَ مِمَا أَخَذَهَا فيُدْلي بِها آخِذُها كَذَلِكَ إلى غَيْرِهِ أَسْمَجَ صُورةً وَأَكْثَرَ تَشْوِيهاً، وَهَكَذَا حَتَّى لا يَبْقَىٰ فِيها من رُوحِ العَرَبِيَّةِ إِلاّ كَمَا يَبْقَىٰ مِنَ الأَطْلاَلِ البَالِيَةِ بَعْدَ كَرِّ الغَداةِ ومَرِّ العَشِيِّ؛ وَإِمَّا طالِبٌ قُصَارَىٰ ما يَأْخُذُهُ عَنْ أُسْتاذِهِ نَحْوُ اللُّغَةِ وَصَرْفُها وَبَدِيعُها وَبيانُها وَرَسْمُها وَإِملاؤُها وَمُفْرَداتُها وَمَتُونُها وَمُؤْتَلِفاتُها وَمُخْتَلِفاتُها وَأَمْثالُ ذَلِكَ من آلاتِها وَأَدواتِها؛ أَمَّا رُوحُها وَجَوْهَرُها، فَإِنَّ أَكْثَرَ أَساتِذَةِ البَيانِ عُلماءُ غَيْرُ أَدباءَ! وَحَاجَةُ

طالِبِ اللُّغَةِ إِلىٰ أُستاذٍ يُفيضُ عَلَيْهِ رُوحَ اللُّغَةِ وَيُوحِي لَهُ بِسِرِّها، وَيُفْضِي إِلَيْهِ بِلُبِّهَا وَجَوْهَرِها أَكْثَرُ مِنْ حاجَتِهِ إِلىٰ أُستاذٍ يُعَلِّمُهُ وَسائِلَها وَآلاتِها. وَعِنْدِي أَنْ لا فَرْقَ بَيْنَ أُسْتاذِ الأَخْلاقِ وَأُسْتَاذِ البَيانِ. فَكَمَا أَنَّ طالِبَ الأَخْلاقِ لا يَسْتَفِيدُهُ إِلاَّ من أُسْتاذٍ كَمُلَتْ أَخْلاقُهُ، وَحَسُنَتْ آدابُهُ، كَذَلِكَ طالِبُ البيانِ لا يَسْتَفِيدُهُ إِلاّ مِنْ أُستاذٍ مُبِينٍ.

ولا يُقْذَفَنَّ في رُوعِ القَارِىءِ أَنِّي أُحاوِلُ ٱسْتِلابَ فَضْلِ الفَاضِلِينَ، أَوْ أَنِّي أُنْكِرُ عَلَىٰ فُصحاءِ هَذِهِ اللّغَةِ ما وَهَبَهُمُ اللَّهُ مِنْ نِعْمَةِ البَيانِ؛ فَمَا هَذَا أَرَدْتُ، وَلاَ إِلَيْهِ ذَهَبْتُ؛ وَإِنَّمَا أَقُولُ: إِنَّ عَشْرَةً مِنَ الكُتَّابِ المُجِيدِين، وَخَمْسَةً مِنَ الشُّعراءِ البارِعِينَ، قَلِيلٌ في بَلَدٍ يقولونَ عنهُ: إِنَّهُ مَهْدُ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ وَمَرْعاها الخَصِيبُ.

وَبَعْدُ؛ فَإِنِّي لا أَرىٰ لَكَ يا طالِبَ البيانِ العَربيّ سَبِيلاً إِلَيْهِ إِلاَّ مُزاوَلَةَ المُنْشَآتِ العَرَبِيَّةِ مَنْثُورِها وَمَنْظُومِها، وَالوُقوفَ بها وُقوفَ المُتَثَبِّتِ المُتَفَهِّم، لا وقوفَ المُتَنَزِّهِ المُتَفَرِّج، فَإِذا رَأَيْتَ أَنَّكَ قَدْ شُغِفْتَ بِهَا، وَكَلِفْتَ بِمُعاوَدَتِها، وَالاخْتِلافِ إِلَيْها، وَأَنْ قَدْ لَذَّ لَكَ مِنْهَا ما يَلَذُّ للعاشِقِ من زَوْرَةِ الطَّيْفِ في غُرَّةِ الظَّلام، فَٱعْلَمْ أَنَّكَ قَدْ أَخَذْتَ مِنَ البَيانِ بِنَصِيبٍ، فَٱمْضِ لِشَأْنِكَ، وَلاَ تَلْوِ على

شَيْءٍ مِمّا وراءَكَ، حَتَّى تَبْلُغَ مِنْ طِلْبَتِكَ ما تُرِيدُ.

ولا تُحَدِّثَنَّكَ نَفْسُكَ أَنِّي أَحْمِلُكَ عَلَىٰ مطالَعَةِ المُنَشآتِ العَرَبِيَّةِ لأُسْلُوبٍ تَسْتَرِقُهُ، أَو تركيبٍ تَخْتَلِسُهُ، فَإِنِّي لا أُحِبُّ أَنْ تَكونَ سارِقاً وَلاَ مُخْتَلِساً عَلَىٰ أَنَّكَ إِنْ ذَهَبْتَ إِلىٰ ما ظَنَنْتَ أَنِّي أَذْهَبُ إِلَيْهِ في نَصِيحَتِكَ لَمْ يَكُنْ دَرَكُكَ دَرَكاً، وَلاَ بيانُكَ بَياناً، وَكَانَ كُلُّ ما أَفَدْتَه[١] مِنْ ذَلِكَ أَنْ تُخْرِجَ لِلنَّاسِ مِنَ البيانِ صُورةً مُشَوَّهَةً لا تَناسُبَ بَيْنَ أَجْزَائِهَا، وَبُرْدَةً مُرَقَّعَةً لا تَشابُهَ بَيْنَ ألوانِها؛ وَإِنَّما أُرِيدُ أَنْ تُحَصِّلَ لِنَفْسِكَ مَلَكَةً في البَيانِ رَاسِخَةً تَصْدُرُ عَنْها آثارُها بِصُورَةٍ واحِدَةٍ حَتَّىٰ لا يَكُونَ شَأْنُكَ شَأْنَ أُولَئِكَ الَّذِينَ قَدْ عَلِقَتْ ذاكِرَتُهُمْ بِطائِفَةٍ مِنْ مَنْثورِ العَرَبِ وَمَنْظُومِهِمْ فَقَنَعُوا بها، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ بَلَغُوا من اللُّغَةِ ما أرادُوا؛ فَإِذا جَدَّ الجِدُّ وَأَرادُوا أَنْفُسَهُمْ على الإِفْصاحِ عَنْ شَيْءٍ مِنْ هَواجِسِ نُفُوسِهِمْ رَجَعُوا إِلى تِلْكَ المَحْفوظَاتِ وَنَبَشُوا عَنْ دَفائِنِها، فَإِنْ وَجَدُوا بَيْنَها ما يَدُلّ عَلَىٰ المَعْنَىٰ الَّذِي يُرِيدُونَهُ اْنتَزَعُوهُ مِنْ مكانِهِ اْنتِزاعاً، وَحَشَرُوهُ في كِتابَتِهِمْ حَشْراً، وَإِلاَّ فَإِمَّا أَنْ يَتَبَذَّلُوا بِاسْتِعْمَالِ التَّراكِيبِ السَّاقِطَةِ المَشْنُوعَةِ،

---

(١) أفاد واْستفاد بمعنىٰ.

أَوْ يَهْجُرُوا تِلْكَ المعانِي إِلى أُخْرَىٰ لا علاقَةَ بَيْنَها وَبَيْنَ سابِقاتِها وَلاحِقاتِها، فَهُمْ لا بُدَّ لَهُمْ مِنْ إِحْدَىٰ السَّوْءَتَيْنِ: إِما فَسَادُ المعاني وَٱضْطِرابُها، أَوْ هُجْنَةُ التراكيبِ وَبَشاعَتُها.

فَاحْرَصِ الحِرْصَ كُلَّهُ عَلَىٰ أَلاَّ تَكُونَ واحِداً مِنْهُمْ، وَاحْذَرْ أَنْ تُصَدِّقَ ما يَقُولونَهُ في تَلَمُّسِ العُذْرِ لأَنْفُسِهِمْ عَنْ ذَلِكَ مِنْ أَنَّ اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ أَضْيَقُ مِنْ أَنْ تَتَّسِعَ لِجميعِ المعاني المُسْتَحْدَثَةِ، وَأَنَّهُمْ ما لَجَؤُوا إِلىٰ التَّبَذُّلِ في التراكِيبِ إِلاَّ لاسْتِحالَةِ التَّرَفُّعِ فيها. فَاللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ أَرْحَبُ صَدْراً من أَنْ تَضِيقَ بِهَذِهِ البَسائِطِ مِنَ المعانِي بَعْدَ ما وَسِعَتْ من دقائِقِ العُلومِ ما لا قِبَلَ لِغَيْرِها باحتمالِهِ، وَقَدَرَتْ مِنْ هواجِسِ الصُّدُورِ وأحادِيثِ النُّفُوسِ وَضمائِرِ السَّرائِرِ عَلَىٰ الَّذِي عيَّتْ بِهِ اللُّغاتُ القادِراتُ.

وَلَيْسَ الشَّأْنُ في عَجْزِ اللُّغَةِ وَضِيقِها، وَإِنَّما الشَّأْنُ في عَجْزِ المُشْتَغِلِينَ بِها عَنِ الاضْطِرابِ في أَرْجَائِها، وَالتَّغَلْغُلِ في طَيَّاتها، وَاقْتِناعِهِمْ مِنْ بَحْرِها بِهَذِهِ البِلَّةِ الَّتِي لا تُثْلِجُ صَدْراً، وَلاَ تَشْفِي أُواماً[1].

وَكُلُّ ما يُؤْخَذُ عَلَيْهَا مِنَ الذُّنُوبِ أَنَّها لاَ تَشْتَمِلُ

---

(١) [الأُوام: حَرُّ العطش].

عَلَىٰ أَعْلام لِهَذِهِ الهَنَاتِ المُسْتَحْدَثَةِ، وَهُوَ في مَذْهَبِي أَقَلُّ الذُّنُوبِ جُرْماً وَأَضْعَفُها شَأْناً، ما دُمْنا نَعْرِفُ وَجْهَ الحِيلَةِ في عِلاجِهِ بِالْاشْتِقاقِ إِنْ وَجَدْنَا السَّبِيلَ إِلَيْهِ، أَو التَّعْرِيبِ وَالوَضْعِ إِنْ عَجَزْنَا عَنِ الاشْتِقاقِ، فَالأَمْرُ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ نَحارَ فِيهِ وَأَصْغَرُ مِنْ أَنْ نَقْضِيَ أَعْمارَنا في الوُقُوفِ بِبابِهِ، وَالأَخْذِ وَالرَّدِّ فِي شَأْنِهِ، وَالمُساجَلَةِ وَالمُنَاظَرَةِ في اخْتِيارِ أَقْرَبِ الطُّرُقِ إِلَيْهِ وَأَجْداها عَلَيْهِ.

وَٱعْلَمْ أَنَّهُ لا بُدَّ لَكَ مِنْ حُسْنِ الاخْتِيارِ فِيما تُرِيدُ أَنْ تُزاوِلَهُ مِنَ المُنْشَآتِ العَرَبِيَّةِ، فَلَيْسَ كُلُّ مُتَقَدِّمٍ يَنْفَعُكَ، وَلاَ كُلُّ مُتَأَخِّرٍ يَضُرُّكَ، وَلاَ أَحْسَبُكَ إِلا وَاقِفاً بَيْنَ يَدَيْ هَذَا الأَمْرِ مَوْقِفَ الحِيْرَةِ وَالاضْطِرابِ، لِأَنَّ حُسْنَ الاخْتِيارِ طِلْبَةٌ تَتَعَثَّرُ بَيْنَ يَدَيْها الآمالُ، وَتُقَطَّعُ دُونَها أَعْناقُ الرِّجالِ، فَٱلْجأْ في ذَلِكَ إِلى فطاحِلِ الأُدباءِ الَّذِينَ تَعْرِفُ وَيَعْرِفُ النَّاسُ لَهُمْ ذَوْقاً سَلِيماً، وَقَرِيحةً صَافِيَةً، وَمَلَكَةً في الأَدَبِ، كَأَنَّهَا مِصْفَاةُ الذَّهَبِ، فَإِنْ فَعَلْتَ وَكُنْتَ مِمَّنْ وَهَبَهُمُ ٱللَّهُ ذَكاءً وَفِطْنَةً وَقَرِيحَةً خِصْبَةً لَيِّنَةً، صالِحَةً لِنَماءِ ما يُلْقَىٰ فِيها مِنَ البُذُورِ الطَّيِّبَةِ، عُدْتَ وَبَيْنَ جَنْبَيْكَ مَلَكَةٌ في البَيانِ راسِخَةٌ، يَتَنَاثَرُ مِنها مَنْثُورُ الأَدَبِ وَمَنْظُومُهُ، تَنَاثُرَ الوُرُودِ وَالأَنوارِ، مِنْ حَدِيقَةِ الأَزْهَارِ.

المُوَازَنَةُ بَيْنَ الشُّعَرَاءِ

«للشيخ محمد المَهْدِي»(١)

قَدْ رَأَيْتُ السَّوادَ الأَعْظَمَ مِنَ المُفَضِّلِينَ مُتَسَرِّعاً في الحُكْمِ جَائِراً، فَقَدْ يَحْكُمُ لِلشَّاعِرِ بِالسَّبْقِ وَهُوَ لَمْ يَرَ مِنْ كلامِهِ إلاَّ القَصِيدَةَ أَوِ القَصِيدَتَيْنِ مِمّا ٱسْتُجِيدَ مِنْ كلامِهِ، وَقَدْ يَحْكُمُ عَلَىٰ غَيْرِهِ بِالتَّأْخُّرِ عَنْهُ لأَنَّ الَّذِي رَآهُ مِنْ كلامِهِ كانَ دُونَ الَّذِي رَأَىٰ مِنْ كَلامِ السَّابِقِ، وَلَوِ ٱطَّلَعَ عَلَىٰ كُلِّ مَا قالَ الشَّاعِرانِ، وَعَلَىٰ أَسْبابِ قَوْلِهِما، وَقَارَنَ بَيْنَ مَعانِيهِما المُتَّحِدَةِ المَوْضُوعِ، وَأَساليبِهِمَا، وَمِقْدَارِ تَأَثُّرِهِمَا بِالحَوادِثِ الَّتِي قالا فِيها الشِّعْرَ، وَحَاذَىٰ البَدِيهَةَ بِالبَدِيهَةِ، وَالرَّوِيَّةَ بِالرَّوِيَّةِ، لَعَدَلَ عَنْ حُكْمِهِ، وَلَمَّا أَطْلَقَ القَوْلَ في التَّفْضِيلِ، بَلْ قَالَ: فُلانٌ أَشْعَرُ في قَصِيدَةِ كَذَا وَمَعْنَىٰ كَذَا،

---

(١) «الشيخ محمد المَهْدِي» [١٢٨٥ ـ ١٣٤٢هـ = ١٨٦٨ ـ ١٩٢٤م].

هوَ أَحَدُ عُلَماءِ اللُّغَةِ العربيَّةِ في هذا العَصْرِ، وَكَبِيرٌ مِنْ كِبارِ أُدَبائِها، وَفَرْدٌ مِنْ أَفْرادِ مُؤَرِّخِيها؛ وَيَمْتَازُ بِحُسْنِ الذَّوْقِ، وَدِقَّةِ النَّظَرِ في الانْتِقادِ. وَهُوَ وَإِنْ كانَ لاَ يَكْتُبُ إلاَّ قَليلاً فَإِلَيْهِ يُنْسَبُ الفَضْلُ في تَخْرِيجِ كَثِيرٍ مِنْ كُتَّابِ هذا العَصْرِ وَتَقْوِيمِ مَلَكاتِهِمْ وَتَهْذِيبِ أَذْواقِهِمْ.

وَالآخَرُ أَجْوَدُ في كَيْتَ مِنْ جِهَةِ المَعْنَىٰ أَوِ الدِّيباجَةِ أَوْ حُسْنِ التَّصْوِيرِ. وَلاَ يُسَوَّغُ لَهُ أَنْ يَحْكُمَ عَلَىٰ الإِطْلاقِ إِلاَّ بَعْدَ أَنْ يَسْتَقْرِىءَ المَحاسِنَ وَالمَساوِىءَ، وَيُقارِنَ بَيْنَ ما لِكُلٍّ مِنَ الشَّاعِرَيْنِ مِنْهُمَا حَتَّىٰ إِذَا ما وَجَدَ أَحَدَهُمَا أَنْضَرَ دِيباجَةً، وَأَبْلَجَ مَعْنًىٰ، وَأَغْزَرَ فُنوناً، وَأَحْضَرَ بَدِيهَةً، وَأَقَلَّ سَقْطاً، وَأَكْثَرَ غَوْصاً عَلَىٰ المَعَانِي، وَأَجْمَلَ أَخْذاً، وَأَوْفَرَ مَادَّةً، حَكَمَ لَهُ عَلَىٰ الآخَرِ حُكْماً يُؤَيِّدُهُ الدَّلِيلُ الصَّحِيحُ وَالذَّوْقُ السَّلِيمُ، لا كَحُكْمِ كَثِيرٍ مِنَ المُفَضِّلِينَ الفُضُولِيِّينَ. وَمِنْهُمْ جماعَةٌ مِنَ النُّحاةِ عَرَضُوا قَوانِينَهُمْ عَلَىٰ بَعْضِ الشِّعْرِ الذَّائِعِ كَشِعْرِ النَّابِغَةِ، فَلَمْ يَتَّفِقْ مَعَ بَعْضِها، فَغَضُّوا مِنْ فَضْله وَنَسُوا أَنَّ قَواعِدَهُمْ مَحْكُومَةٌ بِشِعْرِهِ لا حاكِمَةٌ عَلَيْهِ، وَمِنْهُمْ آخَرُونَ حَمَلَتْهُمُ المُعَاصَرَةُ وَالمُنَافَسَةُ عَلَىٰ الحَطِّ مِنْ شِعْرِ أَقْرانِهِمْ، وَقَدْ قَلَّدَهُمْ في ذَلِكَ بَعْضُ المُؤَلِّفينَ، فَخَاضُوا في أَقْدَارِهِمْ وَهُمْ لا يَشْعُرونَ، وَقَدْ يَنْتَقِدُ الحَضَرِيّ البَدَوِيَّ فَيَعِيبُهُ لِٱخْتِلافِ الذَّوْقَيْنِ، وَرُبَّمَا كانَ البَدَوِيُّ في بادِيَتِهِ أَشْعَرَ مِنَ الحَضَرِيِّ في حَضارَتِهِ.

ولا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الوَازِنُ مِنْ أَهْلِ الذَّوْقِ الصَّحِيحِ وَالاطِّلاعِ الواسِعِ، مُحِيطاً بِكُلِّ ما قالَ الشَّاعِرانِ، بَعِيداً عَنِ الهَوَىٰ وَالتَّقْلِيدِ، دَقِيقَ النَّظَرِ في المُقَابَلَةِ بَيْنَ المَعانِي

وَالأَلْفاظِ، فَيُقارِنُ المُفْرَداتِ وَالأَسَالِيبَ وَالمَعانِي المُخْتَرَعَةَ وَحُسْنَ الخيالِ وَقُبْحَهُ وَالبَراعَاتِ وَالمَخَالِصَ وَالمَقَاطِعَ وَالأَخْذَ وَٱلابْتِداعَ؛ وَأَنْ يَذْكُرَ تَعْلِيلَ كُلِّ تَحْسِينٍ أَوْ تَقْبِيحٍ بِما يُقْنِعُ حَتَّىٰ يَرْسُمَ لِلنَّظَرِ ما يُهَيِّيءُ لَهُ الحُكْمَ، فَلاَ يَسَعُهُ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ عَلَىٰ آخِرِ المُوازَنَةِ إِلاّ النُّطْقُ بِالْحُكْمِ قَبْلَ سَماعِهِ كَمَا فَعَلَ أَبو القاسِمِ الحَسَنُ بْنُ بِشْرِ بْنِ يَحْيَىٰ الآمِدِي في كتابِ «المُوازَنَةِ بَيْنَ أبي تَمَّامٍ وَالبُحْتُرِيِّ» فَإِنَّهُ قالَ: لَسْتُ أُفْصِحُ بِتَفْضِيلِ أَحَدِهِما عَلَىٰ الآخَرِ، لَكِنِّي أُقَارِنُ بَيْنَ قَصِيدَتَيْنِ مِنْ شِعْرِهِما إِذا اتَّفَقتَا في الوَزْنِ وَالقافِيَةِ وَإِعْرابِ القَافِيَةِ وَبَيْنَ مَعْنًىٰ وَمَعْنًىٰ، فَأَقُولُ: أَيُّهُمَا أَشْعَرُ في تِلْكَ القَصِيدَةِ وَذَلِكَ المَعْنَىٰ؟ ثُمَّ ٱحْكُمْ أَنْتَ عَلَىٰ جُمْلَةِ ما لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا إِذا ٱسْتَطَعْتَ عِلْماً بِالجَيِّدِ وَالرَّدِيءِ.

ثُمَ ذَكَرَ مَساوِىءَ الشَّاعِرَيْنِ، فَسَرَدَ سَرِقَاتِ أَبي تَمَّامٍ وَإِحالاتِهِ وَغَلَطَهُ وَساقِطَ شِعْرِهِ وَقُبْحَ ٱسْتِعارَاتِهِ وَتَجْنِيسِهِ وَٱضْطِرابَ وَزْنِهِ، ثُمَّ ذَكَرَ ما وَجَدَهُ مِنْ ذَلِكَ لِلبُحْتُرِيِّ، وَقَارَنَ بَيْنَ ما افْتَتَحَ بِهِ القَوْلَ مِنَ الوُقوفِ عَلَىٰ الدِّيارِ وَوَصْفِها وَالسَّلام عَلَيْهَا وَالدُّعاءِ لها إِلىٰ غَيْرِ ذَلِكَ، وَنَبَّهَ عَلَىٰ الجَيِّدِ وَفَضْلِهِ عَلَىٰ الرَّدِيءَ، وَبَيَّنَ عِلَلَ ذَلِكَ، ثُمَّ قالَ:

وَبَقِي ما لَمْ يُمْكِنْ إخْراجُهُ إلىٰ البَيانِ، وَهُوَ ما لا يُعْرَفُ إلاَّ بالدُّرْبَةِ، ثُمَّ ضَرَبَ المَثَلَ بِالفارِسَيْنِ وَالجارِيَتَيْنِ، تَتَساوَيانِ في كُلِّ شَيْءٍ مِنَ الصِّفاتِ الحَسَنَةِ، وَمَعَ هَذَا يُفَضِّلُ إحْداهُما عَلَىٰ الأُخْرَىٰ المُجَرِّبُونَ ولا يَسْتَطِيعونَ بَيانَ ذَلِكَ، ثُمَّ ذَكَرَ مِيزانَ المُوازَنَةِ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَصْحَابِ الذَّوْقِ السَّلِيمِ، فَحَقُّهُ النَّظَرُ في الوُجُوهِ الَّتِي فَضَّلَ بِها الأَئِمَّةُ شِعْرَ أَوْسِ بْنِ حِجْرٍ عَلَىٰ النَّابِغَةِ الجَعْدِيِّ مَثَلاً، فَإنْ عَرَفَها فَضَّلَ عَلَىٰ مُقْتَضاهَا، وَحَكَمَ حُكْماً مَقْبُولاً، وَإلاَّ فَحَسْبُهُ أَنْ يَكُونَ مَعَ الجُمْهُورِ.

أَمَّا فائِدَةُ المُقارَنَاتِ فَتَحْصِيلُ مَلَكَةِ الأَدَبِ وَصِحَّةِ النَّقْدِ وَكَشْفِ القِنَاعِ عَنِ المَحَاسِنِ لِتُحْتَذَىٰ، وَالمَقابِحِ لِتُجْتَنَبْ، وَكَما أَنَّ اللِّسانَ لا يَمْرُنُ عَلَىٰ النُّطْقِ بِالصَّوابِ إلاَّ بِالمُحاكاةِ كَذَلِكَ الذِّهْنُ لا يَمْرُنُ عَلَىٰ الفَهْمِ الصَّحِيْحِ، وَلاَ يَجُولُ في مَيْدانٍ فَسِيحٍ مِنَ المَعانِي، وَلاَ يُقَدِّرُ الأَشْياءَ قَدْرَها إلاَّ بِالمُقارَناتِ الَّتِي تُمَثِّلُ في النَّفْسِ لِكُلِّ شاعِرٍ صُورَةً، وَتُقَرِّرُ لَهُ حُكْماً غَيْرَ مُزَعْزَعٍ وَلاَ مُدافَعٍ، وَلَوْ أَنَّ المُتَقَدِّمِينَ عُنُوا بِهَذَا المَوْضُوعِ عِنايَتَهُمْ بِسِوَاهُ لِمَا بَقِيَ كَثِيرٌ مِنّا مُضْطَرِباً اضْطِرابَهُمْ في مَقادِيرِ الشُّعَرَاءِ.

ضَرُورَةُ التَّعْرِيبِ

«للشيخ محمد الخُضَرِي»[١]

يَقُولُونَ: إنَّ الحَقَّ في التَّعْرِيبِ إنَّمَا كَانَ لِأُمَّةٍ سَلَفَتْ وَبادَتْ فَلَمْ يَبْقَ لَها مِنْ أَثَرٍ، وَإِنَّ ما كَانَ يُباحُ لِلأَعْرابِ في بَوادِيهِمْ عَلَىٰ قِلَّةِ حاجِهِمْ لا يُباحُ مِثْلُهُ لَنَا في القُرُونِ المُتَأَخِّرَةِ عَلَىٰ كَثْرَةِ الحاجِ؛ وَهَذَا كُلُّهُ بَنُوهُ عَلَىٰ قَاعِدَةٍ لاَ أَساسَ لها، وَهِيَ تَشْبِيهُ اللُّغَةِ بِالدِّينِ في التَّمامِ، فَكَمَا أَنَّ اللَّهَ سُبْحانَهُ أَتَمَّ دِينَهُ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكَذَلِكَ العَرَبُ قَدْ أَتَمَّتْ وَضْعَ لُغَتِها، وَلَمْ يَبْقَ مِنْ بَعْدِهِمْ مَنْ يَحِقُّ لَهُ أَنْ يُضِيفَ إِلَيْهَا كَلِمَةً جَدِيدَةً، كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ لِمُسْلِمٍ أَنْ يُضِيفَ عَلَىٰ دِينِهِ حُكْماً جَدِيداً.

---

(١) «الشيخ محمد [بن عَفيفي الباجُوري] الخُضَرِي» [١٢٨٩ ـ ١٣٤٥هـ = ١٨٧٢ ـ ١٩٢٧م]

شَيْخٌ مِن جِلَّةِ شُيوخِ العَصْرِ، وعالِمٌ مِنْ أَكْبَرِ العُلماءِ بِالشَّرِيعَةِ وَالتَّارِيخِ وَالأَدَبِ، وَكاتِبٌ مِنْ أَفْرادِ الكُتَّابِ، مَعْرُوفٌ بِالمَتانَةِ وَالدِّقَّةِ وَجَمالِ الأُسْلُوبِ وَقُوَّةِ الحُجَّةِ، وَيَمْتَازُ بِاسْتِنارَةِ ذِهْنِهِ وَحُبِّهِ لِلإِصْلاحِ وَبُغْضِهِ لِلجُمُودِ عَلَىٰ كُلِّ قديمٍ في العِلْمِ أَوِ الدِّين، وَلَهُ في الاجْتِماعِيَّاتِ وَالمباحِثِ الدِّينِيَّةِ من الرَّسائِلِ ما يَسْمُو بِهِ إِلىٰ مَنْزِلَةِ المُصْلِحِينَ.

لَكِنَّ الفَرْقَ بَيْنَ الأَمْرَيْنِ ظاهِرٌ، فَإِنَّ الدِّينَ وَضْعٌ إِلٰهِيٌّ شَرَّعَهُ مَنْ لَهُ حَقُّ التَّشْرِيعِ وَالإِلْزامِ، وَهُوَ اللَّهُ سُبْحانَهُ وَتَعالَىٰ، وَأَتَمَّ وَضْعَهُ عَلَىٰ قَواعِدَ راسِخَةٍ وَأَساسٍ ثابِتٍ، فَلَمْ يَبْقَ لِأَحَدٍ مَجالٌ أَنْ يَزِيدَ عَلَىٰ هَذِهِ القَواعِدِ أَوْ يَنْقُصَ مِنْها، أَمَّا اللُّغَةُ، فَالمَقْصِدُ مِنْها الإِبانَةُ وَالإِفْصاحُ، وَهِيَ مِنْ وَضْعِ الأَفْرادِ، تَتَجَدَّدُ بِتَجَدُّدِ الحاجاتِ.

وَلَيْسَ مِنْ قَصْدِي أَنْ أَبْحَثَ الآنَ في أَمْرِ اللُّغاتِ أَهِيَ تَوْقِيفِيَّةٌ أَمْ وَضْعِيَّةٌ؟ فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا فَرَغَ مِنْهُ العُلماءُ وَٱنْتَهَىٰ بِهِمُ البَحْثُ إِلىٰ الرَّأْيِ الثّانِي حَتَّى أَنَّ كَثِيراً مِنْ أَصْحابِ الرَّأْيِ الأَوَّلِ قَالُوا: إِنَّ المُرادَ بِما وُضِعَ أَوَّلاً هُوَ الكَلِماتُ الَّتِي تَدُلُّ عَلَىٰ مِثْلِ السَّماءِ وَالأَرْضِ وَالهواءِ مِمَّا هُوَ مَوْجُودٌ مُنْذُ وُجِدَ الإِنْسانُ، أَمّا ٱدِّعاءُ أَنَّ الأَلْفاظَ الدّالَّةَ عَلَىٰ المُخْتَرَعاتِ وَالمُحْدَثاتِ مِمّا عَلِمَهُ الإِنْسانُ الأَوَّلُ آدَمُ صَلواتُ اللَّهِ عَلَيْهِ فَهُوَ مُكابَرَةٌ لِلْمَحْسُوسِ.

وَمَتَىٰ ثَبَتَ أَنَّها تَتَجَدَّدُ بِتَجَدُّدِ الحاجَةِ، فَالمُحْتاجُ مِنَ المُتَمَسِّكِينَ بِها مَتَىٰ عَلِمَ أُصولَها وَلَهْجَتَها لَهُ حَقُّ التَّعْرِيبِ بِالضَّرُورَةِ كَما كانَ هَذا الحَقُّ لِسَلَفِهِ.

وَلاَ أَدْرِي ما الفَرْقُ بَيْنَ مَنْ عُلِّمَ اللُّغَةَ تَلْقِيناً مِنْ أَبِيهِ وَأُمِّهِ وَبَيْنَ مَنْ عُلِّمَها مِنْ مُعَلِّمٍ غَيْرِهِما، وَٱعْتادَها بَعْدَ ذَلِكَ

في كلامِهِ وَكِتابَتِهِ حَتَّىٰ صارَتْ لَهُ مَلَكَةً بِحَيْثُ يُمْكِنُهُ أَنْ يَقِفَ ساعَةً فَيَخْطُبُ بِها مِنْ غَيْرِ أَنْ يَحِيدَ عَنْ طَرِيقِها، وَيَكْتُبُ كِتاباً صَحِيحاً يُقْرَأُ في ساعاتٍ أَوْ أَيَّامٍ.

إِنَّ الَّذِينَ يُخالِفُونَنِي في الرَّأْيِ وَيَقُولونَ بالتَّوَسُّعِ في ٱسْتِعْمالِ المُفْرَداتِ لا يَنْجُونَ مِنْ تَغْيِيرِ الأَوْضاعِ وَالدَّلالاتِ العَرَبِيَّةِ.

هُمْ بِلا شَكٍّ يَتَّفِقُونَ مَعِي أَنَّ حَقَّ التَّغْيِيرِ لِلحَاجَةِ ثابِتٌ لَنَا، وَمَتَىٰ اتَّفَقْنَا عَلَىٰ نَيْلِ هَذَا الحَقِّ لَمْ يَبْقَ إِلاَّ التَّخَيُّرُ بَيْنَ سَهْلٍ وَأَسْهَلَ وَمُفِيدٍ وَتَامِّ الإِفادَةِ. وَلا مِراءَ في أَنَّ اللَّفْظَ الَّذِي وَضَعَهُ واضِعُهُ لِلدَّلالَةِ عَلَىٰ شَيْءٍ ٱخْتَرَعَهُ أَسْهَلُ في الدَّلالَةِ وَأَتَمُّ في الإفادَةِ، لِأَنَّهُ وُضِعَ بِإِزائِهِ تَماماً، كما وُضِعَ لَفْظُ الإِبْرِيقِ بِإِزاءِ تِلْكَ الأَداةِ الَّتِي نَعْرِفُها، بِخِلافِ الكَلِمَةِ الَّتِي نَتَصَيَّدُها مِنْ مَواتِ اللُّغَةِ، فَإِنَّها إِمَّا أَنْ تَكُونَ مَوْضُوعَةً لِشَيْءٍ هُوَ أَعَمُّ، فَنُخَصِّصُها، وَيَلْزَمُنا إِيجادُ القَرِينَةِ لِلدَّلالَةِ عَلَىٰ ما نُرِيدُ، فَنَحْتَاجُ إِلىٰ لَفْظٍ وَقَرِينَةٍ، وَأَمَّا أَنْ تَكونَ مُسْتَعْمَلَةً في شَيْءٍ فِيهِ مُجَرَّدُ مُشابَهَةٍ، كما بَيْنَ الأُوتُومُبِيلِ وَالسَّيَّارَةِ، فَنَحْتَاجُ لاسْتِعْمَالِ لَفْظٍ وَاحِدٍ لِلدَّلالَةِ عَلَىٰ مَعْنَيَيْنِ أَوْ معانٍ كَثِيرَةٍ، فَالسَّيَّارَةُ ٱسْتُعْمِلَتْ لِلدَّلاَلَةِ عَلَىٰ مَعْنَىٰ هُوَ القافِلَةُ أَوِ الرَّكْبُ، فَإِذا قُلْتَ: جاءَتْ سَيَّارَةٌ،

هَلْ يَفْهَمُنِي المخاطَبُ بِمُجَرَّدِ لَفْظِي؟ أَظُنُّ لا. بَلْ لا بُدَّ مَعَ ذَلِكَ مِنْ كَلِمَةٍ أُخْرَىٰ مَبَيِّنَةٍ لِلْمُرادِ.

لاَ أَدْرِي مَا المانِعُ مِنْ أَنْ يَدْخُلَ في اللُّغَةِ تُرام، وَيُقالَ: أَتْرَمَ وَمُتْرَمٌ؛ كَمَا قالوا: لِجامٌ وَأَلْجَمَ وَمُلْجَمٌ.

إِنَّ الكَلِمَةَ الَّتِي نُرِيدُ ٱصْطِيادَها قَدْ وَضَعَها وَاضِعُها بِالضَّرُورَةِ لِتَدُلَّ عَلَىٰ مَعْنَىٰ خاصٍّ، فَإِذا نَحْنُ أَخَذْنَاهَا وَٱسْتَعْمَلْنَاها في شَيْءٍ جَدِيدٍ لَمْ نَكُنْ قَدْ جَرَيْنَا عَلَىٰ لُغَةِ الغَرَبِ، لِأَنَّنَا خالَفْنَا أَوْضَاعَهُمْ وَمَقَاصِدَهُمْ، فَهُمْ وَضَعُوا بَشَكَىٰ وَجمَزَىٰ مَثَلاً لِلنَّاقَةِ السَّرِيعَةِ، فَإِذَا جَعَلْنَا كَلِمَةً مِنْهُمَا بِإِزاءِ التَرامِ نَكُونُ بِلا شَكٍّ وَضَعْنَا وَضْعاً جَدِيداً لَمْ يَسْبِقْنَا إِلَيْهِ سَابِقٌ. وَٱجْتِلابُ مِثْلِ هَذِهِ الأَلْفاظِ بِالنِّسْبَةِ لِمَحْفُوظِ اللُّغَةِ كَوَضْعِ أَلفاظٍ جَدِيدَةٍ مُؤَلَّفَةٍ مِنْ أَحْرُفِ اللُّغَةِ، فَسِيَّانِ في الاعْتِرَاضِ عَلَىٰ رَأْيِهِمْ أَنْ نَقُولَ لِلتُّرامِ: بَشَكَىٰ، وَأَنْ نَقُولَ لَهُ: تُرامٌ؛ لِأَنَّهُمَا كلاهِما اسْتِبْدادٌ بِوَضْعِ اسْمٍ لِمُسَمَّىٰ لَمْ يَكُنْ لَهُ وُجودٌ قَبْلَ الآنَ، إِلاَّ أَنَّ وَجْهَ الضَّرَرِ في الأَوَّلِ ظاهِرٌ كَمَا يَتَّضِحُ وَجْهُ المَنْفَعَةِ في الثَّانِي، فَإِنَّا في الأَوَّلِ نَجْرِي عَلَىٰ خُطَّةٍ لا أَسَاسَ لَهَا مَعَ وَصْفِ الخُروجِ عَنْ أَوْضاعِ المُتَقَدِّمِينَ، وَفِي الثَّانِي نَجْرِي عَلَىٰ خُطَّةٍ ٱتَّبَعَهَا سَلَفُنَا مَعَ الوَضاحَةِ التَّامَّةِ في الاسْمِ وَالمُسَمَّىٰ، وَلاَ أَدْرِي

بَعْدَ ذَلِكَ ما الَّذِي يَدْعُونا إِلىٰ تَعَسُّفِ الطُّرُقِ، وَلَعَلَّهُمْ يَرَوْنَ في ذَلِكَ رَأياً، فَيَقُولُونَ: إِنَّا بِاتِّباعِ الطَّرِيقِ الأَوَّلِ حَافَظْنَا عَلَىٰ مَا بَيْنَ دَفَّتَيْ القَوامِيسِ، فَلَمْ نَحِدْ عَنْهُ قِيْدَ شِبْرٍ، وَلَمْ نَخْرُجْ عَمَّا نَطَقَ بِهِ العَرَبُ في بَوادِيهِمْ، وَفِي ذَلِكَ مِنَ ٱحْتِرَامِ الآباءِ وَإِقْنَاعِ النَّاسِ بِغِنَىٰ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ وَثَرْوَتِها حَتَّىٰ لا يَهْزَأُ بِنَا هازِئٌ، فَيَقُولُ: إِنَّ لُغَةً تَرْبُو عِدَّةُ كَلماتِها عَلَىٰ الثَّمَانِينَ أَلْفاً مُحْتاجَةٌ إِلىٰ ما يُكْمِلُها وَيَسُدُّ ثُلْمَةً فِيها.

أَمّا دَعْوَىٰ أَنَّ هَذَا مُحافَظَةٌ عَلَىٰ ما هُوَ عِنْدَنَا، فَغَيْرُ صَحِيحَةٍ، لِأَنَّها إِنَّما تَكُونُ بِالمُحافَظَةِ عَلَىٰ الاسْمِ وَالمُسَمَّىٰ الّذِي وُضِعَ اللَّفْظُ بِإِزَائِهِ، وَإِذَا لَمْ نَفْعَلْ ذَلِكَ كُنَّا قَدْ خَيَّلْنَا عَلَىٰ النَّاسِ تَخْييلاً لاَ قِيمَةَ لَهُ، وَٱرْتَكَبْنَا في التَّغْيِيرِ مِنْ أَوْضاعِ القَوامِيسِ ما لا يَخْفَىٰ، لِأَنَّنا إِذَا كَتَبْنَا لَفْظاً مِنْ هَذِهِ الأَلْفَاظِ الَّتِي ٱخْتَرْنَا التَّوَسُّعَ فِيها وَاسْتِعْمَالَها لِشَيْءٍ جَدِيدٍ، أَنَذْكُرُ في قَوَامِيسِنا مَعْنَيَيْهَا القَدِيمَ وَالحَدِيثَ، فَنَكُونُ قَدِ ٱبْتَدَعْنَا، وَأَوْقَعْنَا السَّامِعَ وَالمُتَعَلِّمَ في حِيرَةٍ؛ أَمْ نَتْرُكُ ذِكْرَ المَعْنَىٰ القَدِيمِ وَنَقْتَصِرُ عَلَىٰ الحَدِيثِ؟! وَوَصْفُ هَذَا بِالإِفْسَادِ في لُغَةِ المُتَقَدِّمِينَ وَاضِحٌ لا يَحْتَاجُ إِلىٰ بَيانٍ، وَخَيْرٌ مِنْهُ أَنْ نَذْكُرَ لَفْظَ تُرام مَثَلاً بَعْدَ الاتِّفَاقِ عَلَىٰ لَفْظِها،

وَنَذْكُرَ بِجانِبِها مَعْنَاهَا، وَأَنَّهَا مِمّا عُرِّبَ لِلدَّلالَةِ عَلَيْهِ، وَنُبَيِّنَ تَارِيخَ تَعْرِيبِها، فَيَكُونُ مَا وَضَعَهُ المُتَقَدِّمُونَ مَعْرُوفاً وَحْدَهُ، وَمَا أَلْحَقَهُ بِاللُّغَةِ المُتَأَخِّرُونَ مَعْرُوفاً وَحْدَهُ، وَهَذِهِ هي المُحافَظَةُ الحَقِيقيَّةُ عَلَىٰ ما وَرِثْنَاهُ مِنْ سَلَفِنَا.

وَأَمَّا أَنْ يَغْتَرَّ مُغْتَرٌّ بِكَثْرَةِ أَلْفاظِ اللُّغَةِ حَتَّىٰ لا يَحْتاجُ إِلىٰ مَزِيدٍ فَفِيهِ غَلْطَتانِ كُبْرَيانِ، فَإِنَّ الثَّرْوَةَ المَزْعُومَةَ لا نَقُولُ بِها، لِأَنَّا إِنْ طَرَحْنا مِنْهَا المُتَرَادِفَ ما وُجِدَ مَعْنا بَعْدَ ذَلِكَ أَكْثَرُ مِنَ الثُّلُثِ بِهَذا العَدَدِ، فَكَثِيراً ما نَجِدُ المَعْنَىٰ الواحِدَ لَهُ اسْمانِ فَأَكْثَرَ إِلىٰ خَمْس مِئة ٱسْم، كَمَا قَالُوا في السَّيْفِ وَالخَمْرِ وَالهِرِّ وَالعَسَلِ وَمَا شاكَلَ ذَلِكَ، وَهَذِهِ لَيْسَتْ بِثَرْوَةٍ.

وَالثَّرْوَةُ الَّتِي أُسَلِّمُ بِهَا إِنَّما هِيَ في أَسْماءِ المَعاني، وَلَيْسَتْ داخِلَةً فِي مَوْضُوعِ بَحْثِنَا.

وَأَمَّا عَدَمُ الحاجَةِ إِلىٰ مَزِيدٍ فَهَذَا لا تَدَّعِيهِ لُغَةٌ مِنْ لُغَاتِ الأُمَمِ الحَيَّةِ، لِأَنَّ الأُمَمَ كُلَّمَا كَثُرَتْ حاجاتُها، وتَجَدَّدَتْ ٱضْطَرَّتْ إِلىٰ المَزِيدِ مِنَ الأَلْفاظِ في اللُّغَةِ، وَهَذَا هُوَ سِرُّ الحَرَكَةِ الدَّائِمَةِ في لُغاتِ الإِفْرَنْجِ، بِحَيْثُ تَرَوْنَ مَجامِعَهُمْ في شُغُلٍ دائِمٍ لاَ يَأْنَفُونَ أَنْ يَجِدُوا يَوْماً ما في لُغَتِهِمْ كَلِمَةً زَائِدَةً دَلَّتْ عَلَى مَعْنًىٰ جَدِيدٍ، وَأَكْثَرُ أَحْوالِهِمْ

الاسْتِعارَةُ مِنْ غَيْرِ لُغَتِهِمْ. وَإِذَا كُنَّا نَرَىٰ عُقولَنا قَدْ وَقَفَتْ عَنِ الٱخْتِراعِ فَإِنَّا نَرَىٰ أَنفُسَنا فِي حاجَةٍ إِلىٰ ٱسْتِعْمالِ مُخْتَرَعاتِ المُخْتَرِعِينَ وَالتَّعْبِيرِ عَنْهَا.

أَدْوارُ الشِّعْرِ العَرَبِيّ

«لِأَحَدِ الأُدَباءِ المُعاصِرين[1]»

كانَتِ العَرَبُ في جاهِلِيَّتِها أُمَّةً هائِمَةً مُتَبَدِّيَةً عَلَىٰ الفِطْرَةِ البَيْضاءِ النَّقِيَّةِ لا تَعْبَثُ الحَضارَةُ بِجَمالِها، وَلاَ تُغَبِّرُ المَدَنِيَّةُ في وَجْهِها، تَطْلُعُ الشَّمْسُ في آفاقِها فَتَتَبَسَّطُ عَلَىٰ سُهولِها وَحُزُونِها، وَنِجادِها وَوِهادِها، مِنْ حَيْثُ لا تَعْتَرِضُ في سَبِيلِها مِنَ المَظلاَّتِ سُحُبٌ، وَلاَ مِنَ السُّقُوفِ حُجُبٌ، وَيَنْبُتُ نَباتُها حَيْثُ يَجْرِي ماؤها، لا تَعْبَثُ فِيهِ الأَيْدِي بِتَرْبِيعٍ وَلاَ تَدْوِيرٍ، وَلاَ تَقْوِيسٍ وَلاَ تَعْرِيجٍ، وَيَجْرِي ماؤها في سَبِيلِهِ مُتَدَفِّقاً حيث يَنْسابُ بِهِ تَسَلْسُلُهُ وَٱطِّرَادُهُ، لا تَلْوِي بِهِ عَنْ قَصْدِهِ الحفائِرُ، ولا تَنْتَصِبُ في وَجْهِهِ القَناطِرُ، وَيَهِيمُ وَحْشُها في جِبالِها، وَطَيْرُها في أَجْوائِها، مِنْ حَيْثُ لا يَحْبِسُ الأَوَّلَ عَرِينٌ

(١) [هو مصطفى لطفي المَنْفَلُوطي نفسه، راجع «النظرات»، الجزء الثاني ، صفحة: ٢٧١].

مَوْصُودٌ، وَلاَ الآخَرَ قَفَصٌ مَحْدُودٌ؛ وَالشِّعْرُ مِنْ وَراءِ ذَلِكَ كُلِّهِ مِرْآةٌ مَجْلُوَّةٌ تَتَمَثَّلُ فيها تِلْكَ المَناظِرُ الفِطْرِيَّةُ عَلَىٰ طبيعَتِها وَجَوْهَرِها.

يَنْطِقُ العَرَبِيُّ بِمَا يَعْلَمُ، وَيقولُ ما يَفْهَمُ، وَيُصَوِّرُ مَا يَرَىٰ، وَيُحَدِّثُ عَمَّا تَمَثَّلَ في نَفْسِهِ حَدِيثاً صادِقاً لا تَكَلُّفَ فِيهِ ولا تَعَمُّلَ، لِأَنَّ كُلَّ ما هُوَ مُحِيطٌ بِهِ مِنْ هَواءٍ وَماءٍ، وَأَرْضٍ وَسَماءٍ، وَطَعامٍ وَشَرابٍ، وَمَرافِقَ وَأَدَواتٍ، عَلَىٰ الفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ الخَالِصَةِ فَأَحْرَىٰ أَنْ يَكُونَ شِعْرُهُ كَذَلِكَ.

ذَلِكَ كانَ شَأْنُ شِعْرِ العَرَبِيِّ وَالعَرَبُ عَلَىٰ فِطْرَتِهِمْ، وَذَلِكَ مَعْنَىٰ قَوْلِهِمْ: الشِّعْرُ دِيوانُ العَرَبِ؛ لِأَنَّهُ صُورَةُ حياتِهِمُ الاجْتِماعِيَّةِ وَالأَدَبِيَّةِ، وَتِمْثالُ خواطِرِهِمُ الحَقِيقَيَّةِ وَالخَيالِيَّةِ، فَإِنْ ظَنَّ ظَانٌّ أَنَّ التَّماثِيلَ وَالنُّصُبَ، وَالمَخْطُوطاتِ وَالمَنْسُوجاتِ، وَالصُّوَرَ وَالتَّهاوِيلَ، وَبَقايا الآثارِ، وَقِطَعَ الأَحْجارِ، الَّتِي نَراها في خَرائِبِ اليُونانِ وَالرُّومانِ وَالفِينِيقِيِّين وَالفراعِنَةِ، أَدَلُّ عَلَىٰ تَوارِيخ أُولَئِكَ الأَقْوامِ من الشِّعْرِ العَرَبِيِّ عَلَى تاريخِ العَرَبِ، قُلْنَا لَهُ: ما مِنْ دِيوانٍ من دَواوِينِ الأُمَمِ الماضِيَةِ إلاَّ وَتَحَدَّثَ المُؤَرِّخُونَ بِعَبَثِ الأَيْدِي بِهِ، وَلَعِبِها بِسُطورِهِ وَسِجلاَّتِهِ، أَمَّا

الديوانُ العَربيُّ فَصُورَةٌ صَحِيحَةٌ، وَآيَةٌ مُقَدَّسَةٌ، لاَ تَغْيِيرَ فِيها ولا تَبْدِيلَ.

ثُمَّ جَرَتْ بَعْدَ ذَلِكَ جَوارٍ بِالسَّعْدِ وَالنَّحْسِ، فَٱنْتَقَلَتِ الأُمَّةُ العربِيَّةُ من بداوَتِها إِلىٰ حَضارَتِها، وهاجَرَ معها شِعْرُها بِهِجْرَتِها، فَطَلَعَ جَيْشُ المُوَلَّدِينَ يَحْمِلُ لواءَهُ الشاعِران الجليلان: بَشّارٌ وَأَبو نُواسٍ، فَطَرَقُوا معانِيَ لَمْ تَكُنْ مَطْروقَةً، وَنَهَجُوا مناهِجَ لم تَكُنْ مَعْروفَةً، فَقُلْنا: لا بَأْسَ! فَالشِّعْرُ العربيُّ أَوْسَعُ مِنْ أَنْ يَضِيقَ بِحاجاتِ أُمَّتِهِ في جَمِيعِ شُؤونِها وَحالاتِها، حَتّى جاءَ أَبو تَمَّامٍ شَيْخُ المُحَسِّنات اللَّفْظِيَّة، فَسَلَكَ إِلىٰ أَكْثَرِ معانِيهِ البَدِيعَةِ طَرِيقَ اللَّفْظِ المَصْنُوعِ، وَالأُسْلُوبِ المُزَخْرَفِ، فَثَغَرَ في الشِّعْرِ العَربيِّ ثَغْرَةً أَلَحَّ عَلَيْهَا السَّائِرونَ عَلَى إِثْرِهِ مِنْ بَعْدِهِ بِأَظْفارِهِمْ وَأَنْيابِهِمْ حَتَّىٰ صَيَّرُوها باباً أَفْوَهَ، لا يَمْنَعُ ما وراءَهُ، ولا يَدْفَعُ ما أَمامَهُ، فَأَصْبَحَ الشِّعْرُ عَلَىٰ عَهْدِ ٱبْنِ حِجَّة وَٱبْنِ الفَارِضِ وَٱبْنِ مَلِيكٍ وَالصَّفَدِيِّ وَالسِّراج والجَزَّارِ وَالحِلِّي وَأَمْثالِهِمْ، أَشْبَهَ شَيْءٍ بِتِلْكَ الآنِيَةِ الفِضِّيَّةِ أَو الصِّينِيَّةِ التي يَضَعُها المُتْرَفُونَ في زَوايا مجالِسِهِمْ وَعلىٰ أَطْرافِ موائِدِهِمْ، ظَهْراً زَاهِياً، وَبَطْناً خَاوِياً، لا تَشْفي غُلَّةً، وَلاَ تَبِضُّ بِقَطْرةٍ، وَلاَ تُسْمِنُ وَلاَ تُغْنِي مِنْ جُوعٍ. ثُمَّ جاءَ

عَلَىٰ إِثْرِ هَؤلاءِ مَنْ تَدَلَّىٰ إِلىٰ مَنْزِلَةٍ أَدْوَنَ من هَذِهِ المَنْزِلَةِ، فجاؤوا بِشَيْءٍ هُوَ أَشْبَهُ الأَشْيَاءِ بِتِلْكَ المَقايِيسِ وَالتَّفاعِيلِ الَّتِي وَضَعها الخَليلُ مِيزاناً لِلشِّعْرِ، لا يَرُوقُ لَفْظُها، وَلا يُفْهَمُ مَعْناها.

وَعَلَىٰ هَذَا المَوْرِدِ الوَبِيلِ وقَفَ الشِّعْرُ بِضْعَةَ قُرونٍ وِقْفَةً لا يَتَزَحْزَحُ عَنْهَا وَلاَ يَتَحَلْحَلُ، حَتَّىٰ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْهِ مِنْ ملائِكَةِ البيان رُسُلاً في هَذَا العَهْدِ الأَخِيرِ أَخَذُوا بِيَدِهِ، وَنَشَرُوهُ مِنْ قَبْرِهِ، وَنَفَضُوا عَنْهُ غُبَارَهُ، فَأَصْبَحْنَا نَرَىٰ في أَبَرَادِ الْكَثِيرِ مِنْهُمْ أجْسامَ أَبِي نُواسٍ وَأَبي عُبَادَةَ وَأبي تَمَّام والشَّرِيفِ وَبَشَّارٍ، لا فَرْقَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمْ إلاَّ أَنَّ هؤلاء مُقَلِّدُونَ يَتَّبِعُونَ الآثارِ، وَأُولَئِكَ مُبْتَدِعُونَ يَفْتَرِعُونَ الأَبْكارَ.

وَصْفُ كِتَابِ النَّظَرات

«لحافِظ إبْرَاهِيم»

[محمد حافظ بن إبراهيم فهمي المهندس]

(وَهُوَ كِتابٌ أَرْسَلَهُ الكاتِبُ إِلىٰ المُؤَلِّفِ)

قَدِمَ أَحَدُ أَقْيالِ اليَمَنِ إِلى دَارِ النَّدْوَةِ، فَبَصَرَ فِيها بِصَاحِبِ الشَّرِيعَةِ الإِسْلاَمِيَّةِ وَهُوَ إِذْ ذَاكَ غُلامٌ مُراهِقٌ، فَقَالَ لِمَنْ حَضَرَ مِنَ القَوْمِ: إِنَّ هَذَا الغُلامَ يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ بِعَيْنَي

لَبُؤَةٍ وَتَارَةً بِعَيْنَيْ عَذْرَاءَ خَفِرَةٍ، فَلَوْ أَنَّ نَظْرَتَهُ الأُولىٰ كانَتْ سَهْماً لَانْتَظَمَتْ أَفْئِدَتَكُمْ فُؤَاداً فُؤَاداً، وَلَوْ أَنَّ الثَّانِيَةَ كانَتْ نَسِيماً لَأَنْشَرَتْ أَمْواتَكُمْ. وَكَذَلِكَ أَرَاكَ في «نَظَراتِكَ» إِلىٰ قَوْمِكَ أَيُّها الكاتِبُ الكَبِيرُ! فَلَوْلاَ أَنَّكَ غَيْرُ مَعْصُوم، وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَجَلَّ مَقامَ النُّبُوَّةِ عَنِ الأَشْباهِ وَالنَّظَائِرِ، لَقُلْتُ: مَا أَشْبَهَ هَذِهِ بِتِلْكَ؛ وَالسَّلاَمُ.

الإِنْشاءُ وَالعَصْرُ

«لإبراهيم بك المُوَيْلِحِي»[1]

سَمِعْنَا كلاماً يَجْرِي في كَثِيرٍ من مجالِسِ الباحِثِينَ المُدَقِّقين أُولي الأَدَبِ وَالفَضْلِ عَنِ السَّبَبِ الَّذِي وَقَفَ بِصِناعَةِ الإِنْشاءِ وَالتَّحْرِيرِ عِنْدَ هَذَا الحَدِّ مِنَ الضَّعْفِ

(١) «إبراهيم بك [بن عبد الخالق] المُوَيْلِحِي» [١٢٦٢ ـ ١٣٢٣هـ = ١٨٤٦ ـ ١٩٠٦م].

لا أَكُونُ مبالِغاً إنْ قُلْتُ: إنَّ المَرْحُومَ إبراهِيمَ بك المُوَيْلِحِي هُوَ شَيْخُ الكِتابَةِ العَرَبِيَّةِ في هَذَا العَصْرِ، وَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي عَلَّمَ الكُتَّابَ كَيْفَ يَرْقَوْنَ بِلُغَتِهِمْ إِلىٰ المَنْزِلَةِ الَّتِي وَصَلَتْ إِلَيْهَا اليَوْمَ، وَكَيْفَ يُودِعُونَ كِتَابَاتِهِمُ النُّكَاتَ البَدِيعَةَ وَالمَعانِي المُسْتَطْرِفَةَ، وَيَخْرُجُونَ بِهَا مِنْ ذَلِكَ الجُمُودِ القَدِيمِ.

وَالخُمولِ مَعَ تَزايُدِ المَدارِسِ وَٱنْتِشارِ التَّعْلِيم وَكَثْرَةِ المَطابِعِ وَٱتِّساعِ دَائِرَةِ المَطْبُوعَاتِ وَإِطْلاقِ حُرِّيَّةِ القَوْلِ وَتَعَدُّدِ فُنونِ المَطالِبِ وَالمَوَاضِيعِ في هَذَا العَصْرِ خَاصَّةً. وَما بالُنا نَرى دَوائِرَ بَقِيَّةِ الصِّناعاتِ العالِيَةِ تَتَّسِعُ وَتَنْمُو عَلَىٰ نِسْبَتِها وَدَوائِرَ الكَتابَةِ وَالإِنْشاءِ تَضِيقُ وَتَنْكَمِشُ وَتَنْحَطُّ وَلاَ تَرْتَفِعُ، فَلا يَمْضِي عامٌ ولا يَمُرَّ حَوْلٌ إلاَّ وَنَجِدُ دائِرَةَ الطِّبِّ أَوِ الهَنْدَسَةِ أَوِ المُحاماةِ قَدْ دَخَلَ فِيها عَدَدٌ لَيْسَ بِقَلِيلٍ مِنَ الأَطِبَّاءِ أَوِ المُهَنْدِسِينَ أَوِ المُحامِينَ، وَيَنْقَضِي العامُ في إِثْرِ العامِ ولا نَسْمَعُ بِظُهورِ كاتِبٍ وَاحِدٍ يَنْضَمُّ إِلى دَائِرَةِ التَّحْرِيرِ مِنْ بَيْنِ أُولٰئِكَ الأُلوفِ المُؤَلَّفَةِ مِنْ طَلَبَةِ العُلومِ العَرَبِيَّةِ في المَدارِسِ وَغَيْرِها. وَمَا لَنَا نَجِدُ أَهْلَ تِلْكَ الصِّناعاتِ يَسْلُكُونَ سَبِيلَ الإِتْقانِ وَالإِحْسانِ في دَائِرَتِهِمْ عَلَىٰ كُلِّ حالٍ بِمُمارَسَةِ العَمَلِ وَمُزَاوَلَةِ الصَّنْعَةِ، وَنَجِدُ أَهْلَ صِناعَةِ الإِنْشاءِ قَدْ وَقَفُوا عِنْدَ حَدٍّ مَحْدُودٍ وَنُقْطَةٍ مُعَيَّنَةٍ لا يَتَعَدَّوْنَها وَلاَ يَتَخَطَّوْنَها، وَٱرْتَضَوْا لِهَذِهِ الصِّناعَةِ العالِيَةِ وَذَلِكَ العِلْمِ النَّفِيسِ أَنْ يَبْقَىٰ عَلَى الضَّعْفِ وَالخُمُولِ، وَيُقِيمَ على النُّزُولِ وَالهُبُوطِ.

وَلاَ يُقالُ هُنَا: إِنَّ قِلَّةَ الفائِدَةِ المادِّيَّةِ مِنْ هَذِهِ الصِّناعَةِ هي الَّتِي تَصْرِفُ بِوُجُوهِ الطَّلَبَةِ عَنْ طَرِيقِ الإِتْقانِ

فِيها وَالتَّضَلُّعِ مِنْها، فَإِنَّها صِناعَةٌ عامَّةٌ تُطْلَبُ لِذَاتِها، وَيَزْدانُ بِها غَيْرُها من الصِّناعاتِ، وَحُسْنُ النُّطْقِ وَالتَّعْبِيرِ أَمْرٌ يَرْغَبُ فِيهِ كُلُّ إِنسانٍ، وَأَعْظَمُ وُجُوهِ التَّفاضُلِ بَيْنَ البَشَرِ تَنْصَرِفُ إِلىٰ قُوَّةِ البَيانِ وَحُجَّةِ اللِّسانِ.

وَلَيْسَ الاشْتِغالُ بِالصِّناعاتِ الأُخْرَىٰ الَّتِي يُطْلَبُ بِها الرِّزْقُ وَيُسْتَعانُ بِها عَلَىٰ كَسْبِ المالِ لِسَدِّ حاجاتِ المَعِيشَةِ مِمّا يَمْنَعُ مِنْ مُمارَسةِ تلك الصِّناعَةِ الشَّرِيفَةِ وَيُشْغِلُ النَّفْسَ عَنِ التَّحَلِّي بِمَزاياها الجليلة، فَالقاضِي يَحْتاجُ إِلَيْها، وَالمُحامي يَنْتَفِعُ بِها، وَالحاكِمُ لا يَسْتَغْنِي عَنْها، وَجَمِيعُ أَرْبابِ الوَظائِفِ المُتَنَوِّعَةِ وَالمَناصِبِ المُخْتَلِفَةِ لا يَخْلُونَ مِنَ الرَّغْبَةِ فيها، بَلْ لَوْ نَزَلْنا إِلىٰ بَقِيَّةِ أَهْلِ الحِرَفِ وَالمِهَنِ مِنَ التُّجّارِ وَالصُّنَّاعِ وباعَةِ الأَسْواقِ لَوَجَدْناهُمْ يَتَطَلَّعُونَ إِلى المُشارَكَةِ فِيها وَيَتَمَنَّوْنَ الحُظْوَةَ بِها، وَهُمْ في هَمِّ الحِرْفَةِ وَكَدِّ المِهْنَةِ، وَقَدْ عَلِمْنا أَنَّ الرَّجُلَ مِنْ أَهْلِ العُصُورِ السَّالِفَةِ يَكُونُ خَبّازاً وَشاعِراً مُجِيداً، وَيَكُونُ جَزّاراً، وَكاتِباً أَدِيباً، وَيَكُونُ حَدّاداً وَخَطِيباً بَلِيغاً.

فَلاَ يَكُونُ السَّبَبُ إِذَن في ٱنحِطاطِ صِناعَةِ الإِنشاءِ وَالتَّحْرِيرِ وَقِلَّةِ عَدَدِ المُشْتَغِلِينَ بِها؛ رَاجِعاً أَبَداً إِلىٰ ضَعْفِ

الفائِدَةِ المادِّيَّةِ مِنْها وَتَحَوُّلِ النُّفُوسِ عَنْها لالْتِماسِ الرِّبْحِ مِنْ وُجوهِ الصِّناعاتِ الأُخْرَىٰ، وَلاَ لِفَقْدِ الرَّغْبَةِ فِيها لِذَاتِها، فَإِنَّها زِينَةُ كُلِّ صانِعٍ، وَحِلْيَةُ كُلِّ ناطِقٍ، وَغُرَّةِ كُلِّ عِلْمٍ وَفَنٍّ؛ وَإِنَّما السَّبَبُ عِنْدَ جُمْهُورِ الباحِثِينَ هُوَ سُوءُ طَرِيقَةِ التَّعْلِيمِ وَالتَّلْقِينِ لِلْعُلُومِ العَرَبِيَّةِ بَيْنَ طَلَبَةِ المَدَارِسِ وَضعْفِ العِنايَةِ في آخْتِيَارِ الكُتُبِ النَّافِعَةِ للتَّدْرِيسِ. وَلَيْسَ هذا في نَظَرِنا السَّبَبَ الوَحِيدَ لما نشاهِدُهُ من التَّأَخُّرِ وَالانْحِطاطِ في صِناعَةِ الإِنْشَاءِ وَالتَّحْرِيرِ وَقِلَّةِ العامِلِينَ فِيها، فَإِنَّكَ مَهْمَا جِئْتَ بِهِ مِنَ التَّحْسِينِ وَالتَّعْدِيلِ لِطَرِيقَةِ التَّعْلِيمِ لا يَنْفَعُ في تَرْبِيَةِ مَلَكَةِ الإنشاءِ في أَذْهانِ التَّلامِيذِ الَّتِي عَلَيْهَا المُعَوَّلُ في حُسْنِ الصِّنَاعَةِ، لِأَنَّ المُدَّةَ لِدَرْسِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ في المَدارِسِ لا تَكْفِي لِغَيْرِ الحُصُولِ عَلَىٰ أُصولِ اللُّغَةِ وَقَواعِدِها وَلاَ تُفِيدُ في تَكْوِينِ المَلَكَةِ لِشَيْءٍ صالِحٍ، ولاَ يَخْفَىٰ عَن عِلْمِكَ أَنَّ الطالِبَ يَتَجَرَّعُ هَذِهِ القَواعِدَ وَالأُصُولَ في الدَّرْسِ وَلاَ يَكادُ يَسِيغُها وَلاَ يتَناوَلُها إلاَّ كما يَتَناوَلُ المَحْمُومُ مُرَّ الدَّواءِ، ولا تَمْكُثُ في صَدْرِهِ إلاَّ رَيْثَما يَمُجُّها عِنْدَ أَخْذِ الشَّهادَةِ، وَإِنْ هِيَ ثَبَتَتْ في حِفْظِهِ وَرَسَخَتْ في فِكْرِهِ، فَلاَ تَكُونُ على صَفَحاتِ قَلْبِهِ إلاَّ كَمَا هِيَ عَلَىٰ صَفْحاتِ الكُتُبِ، لا يَدْرِكُ وُجوهَ اسْتِعْمالِها، وَلا

يَعْلَمُ أَبوابَ التَّصَرُّفِ بها وَالتَّطْبِيقِ عَلَيْها، فَإِذَا جِئْتَ لَهُ بِصَحِيفَةٍ مِن كِتابٍ لم يَتَوَقَّفْ في إعرابِ أَلْفاظِها عَلَىٰ وَجْهِ الإِحْكامِ وَالصَّوابِ، وَلَكِنَّكَ إذا طَلَبْتَ مِنْهُ أَنْ يَقْرَأَها لَكَ سَرْداً لَمْ يَسْلَمْ عَلَىٰ لِسانِهِ سَطْرٌ واحِدٌ فِيها مِنَ اللَّحْنِ، وَإِذَا أَخَذْتَهُ عَلَىٰ كتابَةِ بِضْعَةِ أَسْطُرٍ في أَيِّ شَأْنٍ كانَ لَمْ تَخْرُجْ مِنْ يَدِهِ خالِيَةً مِنَ الخَطأ.

عَلَىٰ مِثْلِ هَذَا يَخْرُجُ المُتَخَرِّجُونَ في المَدارِسِ، سَواءٌ الفائِزُ مِنْهُمْ بالشَّهادَةِ والخائِبُ فِيها، ثُمَّ يَنْصَرِفُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ إِلىٰ ما يَنْصَرِفُ نَحْوَهُ مِنَ الأَعْمالِ وَالأَشْغالِ الَّتِي تُلْهِيهِ عَنْ كُلِّ صَحِيفَةٍ وَكِتابٍ، وَلا يَجِدُ أَمامَهُ مَجالاً لِنُمُوِّ مَلَكَةِ الإِنْشاءِ، وَلاَ في وَقْتِهِ مُتَّسعاً للانْكِبابِ على مُطالَعَةِ الكُتُبِ النَّافِعَةِ في إتقانِ الصِّناعَةِ، وَلاَ يَرَىٰ بَيْنَ يَدَيْهِ ما يَبْعَثُ فِيهِ الشَّوْقَ وَيُحْيِي الرَّغْبَةَ لِمُمَارَسَتِها وَمُزَاوَلَتِها، فَإِذا هُوَ انْتَهَىٰ في يَوْمِهِ من عَمَلِهِ إِلى بَيْتِهِ ٱشْتَغَلَ فِيهِ بِأَهْلِهِ، وَإِذا خَرَجَ إِلىٰ السُّوقِ ٱشْتَغَلَ فِيهِ بالنَّاسِ، وَالنَّاسُ قَدْ أَصْبَحُوا جَمِيعاً في شُغْلٍ شاغِلٍ، وَهَمٍّ مُتواصِلٍ مِنْ ضُرُوبِ هَذِهِ المَعِيشَةِ الحَدِيثَةِ وَفُنونِ المَدَنِيَّةِ الحاضِرَةِ، فَقَلَّ أَنْ تَرَىٰ فِيهِمْ مَنْ يَجْلِسُ لِمُطالَعَةٍ في كِتابٍ، أَوْ يَلْتَفِتُ إِلىٰ مُحاضَرَةٍ في أَدَبٍ، أَوْ يَحْفَلُ بِمُناظَرَةٍ

في فَنٍّ، فَيَأْخُذُ مَعَهُمْ في طَرِيقِهِمْ، وَيَسِيرُ عَلَىٰ نَهْجِهِمْ، فَتَتَلاشَىٰ مِنْهُ مَلَكَةُ العُلُومِ بَدَلَ أَنْ تَنْمُوَ وَتَنْقُصَ رَغْبَتُهُ فِيها بَدَلَ أَنْ تَزِيدَ. وَالفِكْرُ إِذَا لَمْ يَجِدْ مَا يُنَبِّهُهُ خَمَدَ، وَالذِّهْنُ إذا لم يُصادِفْ ما يُحَرِّكُهُ جَمَدَ.

أَمّا إِذَا ما ابْتَلاهُ ٱللَّهُ بِالدُّخُولِ في خِدْمَةِ الحُكُومَةِ، فَقُلْ: يا ضَيْعَةَ العِلْمِ وَالأَدَبِ! وَيَا بُؤْسَ صِنَاعَةِ الإنشاءِ وَالتَّحْرِيرِ! وَيَا زَوالَ مَلَكَةِ الإِفْصاحِ وَالتَّعْبِيرِ! إِذْ يَتَلَقَّى هُنَاكَ لِساناً جَدِيداً وَلُغَةً حَدِيثَةً لا يَهْتَدِي فِيها إِلىٰ قاعِدَةٍ وَلاَ تَرْتَبِطُ بِرابِطَةٍ، وَلاَ تَفْضُلُ لُغَةَ البَرابِرَةِ إلا بِأَنَّها تُسْطَرُ دُونَها وَتُدَوَّنُ؛ فَيَضْطَرُّ المِسْكِينُ أَنْ يَمْحُوَ مِنْ ذِهْنِهِ جَمِيعَ مَا تَعلَّمَهُ وَتَلَقَّاهُ من قواعِدِ اللُّغَةِ وَأُصولِها، وَيَحْمَدُ ٱللَّهُ في نَفْسِهِ عَلَىٰ زَوَالِ الحاجَةِ إِلَيْها وَحُسْنِ خَلاصِهِ مِنْ عَناءِ التَّذْكِرَةِ لها وَطُولِ الاشْتِغالِ بِهَا. وَلَوْ أَنَّهُ ذَهَلَ يَوْماً وَجاءَ في بَعْضِ عَمَلٍ بُجُمْلَةٍ صَحِيحَةٍ وَعِبارَةٍ مُسْتَقِيمَةٍ في اللُّغَةِ، وٱنحَرَفَ عَنْ ذَلِكَ اللِّسانِ المُصْطَلَحِ عَلَيْهِ شَيْئاً قَلِيلاً لأَصْبَحَ عُرْضَةً لِلتَّهَكُّمِ عَلَيْهِ وَالاسْتِهْزاءِ بِهِ بَيْنَ العُمَّالِ، فَيَعْمَدُ إِلىٰ التَّوْبَةِ مِنَ الذَّنْبِ، وَيَمْتَنِعُ عَنْ مُعاوَدَةِ الإِثْمِ، وَلاَ يَجِدُ لَهُ مِنْ سَبِيلٍ إِلاَّ أَنْ يَجْرِيَ مَعَهُمْ في مِضْمارِهِمْ، وَيَأْخُذَ بِلِسانِهِمْ، فَيَأْمَنُ مِنْ مَكْرِهِمْ.

فَأَنْتَ تَرَىٰ عَلَىٰ هَذِهِ الحالِ أَنَّ السَّبِيلَ إِلَىٰ تَرْبِيَةِ مَلَكَةِ الإِنْشَاءِ قَبْلَ الخُرُوجِ مِنْ المَدْرَسَةِ غَيْرُ مُيَسَّرَةٍ، وَبَعْدَ الخُرُوجِ مِنها مُتَعَذِّرَةٌ، وَأَنَّ مُزَاوَلَةَ الأَعْمالِ وَمُخَالَطَةَ النَّاسِ تُعِينُ عَلَىٰ زَوَالِها وَتَبْعَثُ عَلَىٰ خُمُودِها. إلاَّ أَنَّهُ قَدْ بَقِيَ لَدَيْنَا مَعَ ذَلِكَ بابٌ كانَ يُرْجَىٰ مِنْهُ النَّجَاحُ في نُمُوِّ تِلْكَ المَلَكَةِ، وَالتَّدَرُّجُ إِلَىٰ إِتْقانِ صِناعَةِ التَّحْرِيرِ، وَهُوَ بَابُ الصُّحُفِ وَالجرائِدِ، فَإِنَّ النَّاسَ إِنْ كانُوا قَدْ غَفَلُوا عَنْ مُطالَعَةِ الكُتُبِ وَأَهْمَلُوا النَّظَرَ في بُطُونِ الدَّفاتِرِ، فَإِنَّهُمْ اسْتَبْدَلُوهَا في أَوْقَاتِ فَراغِهِمْ بِمُطالَعَةِ الجَرائِدِ المُنْتَشِرَةِ عَلَىٰ الأَيْدِي في كُلِّ يَوْم، وَأَصْبَحَتِ النُّفُوسُ مُتَوَلِّعَةً شَدِيدَةَ التَّوَلُّعِ بِالوُقُوفِ عَلَىٰ أَخْبَارِها وَالتَّسَامُرِ بِأَقْوالِها، وَصارَتْ بَيْنَهُمْ شَيْئاً مِنْ لَوازِمِ المَعِيشَةِ في كُلِّ يَوْم، لا يَصْبِرُونَ عَنْها وَلاَ يَسْتَغْنُونَ عَنْ تِلاوَتِها، وَأَقامُوها لَدَيْهِمْ مَقامَ كُلِّ سِفْرٍ وَكِتابٍ، وَتَعَلَّقَتْ نُفُوسُهُمْ بهذا الشَّيْءِ الحاضِرِ عَلَىٰ الدَّوامِ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ في كُلِّ مَكانٍ، فَكَانَ المَأْمولُ أَنَّ طُولَ انْكِبابِهِمْ عَلَىٰ مُطالَعَتِها عِنْدَ كُلِّ صَباحٍ وَمَساءٍ يَنْتَهِي عَلَىٰ مُرُورِ الزَّمَنِ فِيهِمْ بِاكْتِسابِ مَلَكَةِ الإِنْشَاءِ وَسُرْعَةِ الوُصولِ إِلىٰ المَنْزِلَةِ الرَّفِيعَةِ في حُسْنِ التَّعْبِيرِ وَالتَّحْبِيرِ، وَلَكِنْ مِنْ سُوءِ الحَظِّ أَنْ الجَرَائِدَ السَّائِرَةَ لَمْ تَلْتَفِتْ إِلىٰ هَذَا الغَرَضِ

الجَلِيلِ، وَلَمْ تَعْمَلْ لِهَذا المَقْصَدِ النَّبِيلِ، وَلَمْ يَرَ أَرْبابُها أَنْ يُتْعِبُوا أَنْفُسَهُمْ وَيَكُدُّوا خَواطِرَهُمْ للتَّفَنُّنِ في بَلاغَةِ القَوْلِ وَفَصاحَةِ التَّعْبِيرِ وَانْتِقاءِ الأَلْفاظِ وَتَنْوِيعِ التَّرْكِيبِ وَتَجْدِيدِ الأُسْلُوبِ وَمَا شابَهَ ذَلِكَ مِنْ مَحاسِنِ هَذِهِ الصِّناعَةِ الَّتِي تُشَوِّقُ النفُوسَ، وَتَطْرَبُ إِلَيْها القُلُوبُ، وَتَأْخُذُ بِمَجامِعِ اللُّبِّ، وَيَلْطُفُ تَناوُلُها عَلَىٰ المَلَكاتِ، وَتَحِنُّ القَرائِحُ إِلىٰ ٱقْتِباسِها وَتَحْرِصُ الأَذْهانُ عَلَىٰ ٱقْتِنائِها، فَتَتَوَلَّعُ النُّفُوسُ بِمَحَبَّةِ الاشْتِغالِ بها، وَتَنْصَرِفُ الأَفْكارُ إِلىٰ التَّرَقِّي في مَراقِيها، وَتَتَكَوَّنُ فِيها مِنْ إِدْمانِ المُطالَعَةِ بِضاعَةٌ نَفِيسَةٌ تَذْهَبُ بِالنَّاسِ إِلىٰ طَلَبِ التَّزَيُّدِ مِنْها، فَيَحْلُو لَهُمُ الرُّجُوعُ إِلىٰ مُراجَعَةِ كُتُبِ الأَقْدَمِيْنِ وَيَلَذُّ لَهُمْ صَرْفُ أَوْقاتِهِمْ في ٱجْتِناءِ ثَمَراتِها، وَيَنْتَهِي بِهِمُ الأَمْرُ إِلىٰ التَّوَغُّلِ في أَبْوابِ الصِّناعَةِ وَالوُصولِ إِلىٰ جَمِيلِ الإِحْسانِ، وَالإِتْقانِ فِيها، فَيَنْبُغُ فِيهِمُ النَّوابَغُ مِنَ الفُصَحاءِ وَالبُلَغاءِ، وَيَكْثُرُ بَيْنَنا عَدِيدُ الكُتَّابِ وَالأُدَباءِ.

بَلْ رَأَيْنا أَرْبابَ الجرائِدِ قَدْ وَقَفُوا هُمْ أَيْضاً في بابِ التَّحْرِيرِ عِنْدَ حَدٍّ مَحْدُودٍ، وَقَعَدُوا عِنْدَ نُقْطَةٍ مُعَيَّنَةٍ، وَدارُوا بِأَقْلامِهِمْ في دائِرَةٍ واحِدَةٍ لاَ يَخْرُجُونَ مِنْها، وَلاَ يَتَوَسَّعُونَ فِيها، وَكادُوا يَصِلُونَ في وَحْدَةِ التَّعْبِيرِ، وَاصْطِلاحِ التَّحْرِيرِ،

وَتَكْرِيرِ الجُمَلِ وَالأَلْفَاظِ بِعَيْنِهَا في كُلِّ يَوْمٍ، وَفِي كُلِّ بَابٍ، إِلىٰ مُصْطَلَحٍ مِنَ اللُّغَةِ يُشابِهُ مُصْطَلَحَ لُغَةِ الحُكومَةِ، وَإِنَّمَا يَفْضُلُهُ بِسَلامَتِهِ مِنَ اللَّحْنِ وَحْدَهُ عَلَىٰ وَجْهٍ عامٍّ. وَقَدْ صارَتْ تِلْكَ الجُمَلُ وَالتَراكِيبُ المُعَيَّنَةُ لِطُولِ إِعادَتِها وَتَكْرارِهَا رَاسِخَةً ثابِتَةً في جَمِيعِ الأَذْهَانِ، فَلاَ يَشْتَغِلُ فِكْرُ كاتِبِها في تَسْطِيرِها، وَلاَ يَحْتَاجُ جامِعُ حُروفِها إِلىٰ مراجَعَتِها، وَلاَيُمْعِنُ قارِئُها بِنَظَرِهِ فِي مُطالَعَتِها، فَهِيَ مُشْتَرَكَةٌ في الأَذْهانِ، وَمُتَمَثِّلَةٌ لِلأَنْظَارِ، وَقَدِ ٱهْتَدَىٰ بَعْضُ أَصْحابِ المطابِعِ إِلىٰ سَبْكِ كَثِيرٍ مِنْ تِلْكَ الجُمَلِ وَالمُرَكَّباتِ قِطْعَةً واحِدَةً في قوالِبَ مِنْ نُحاسٍ تَخْفِيفاً لِلْعَمَلِ وَٱسْتِرْباحاً لِلْوَقْتِ. وَإِذَا شَعَرَ أَرْبابُ الجرائِدِ يَوْماً بِهَذا الإِخْلالِ وَالإِفسادِ في الصِّنَاعَةِ، قالُوا: إِنَّ لَنَا فِيهِ عُذْراً وَاضِحاً وَشَفِيعاً ظاهِراً، وَهُوَ أَنَّنا إِذَا سَلَكْنا طَرِيقَ التَّفَنُّنِ وَالإِبْداعِ في التَّحْرِيرِ وَالإِنْشاءِ عَسُرَ عَلَىٰ القُرّاءِ فَهْمُ ما نَكْتُبُهُ لَهُمْ، فَلاَ يَسْتَرِيحُونَ إِلىٰ المُطالَعَةِ، وَلاَ يَسْتَفِيدُونَ مِنَ المَوَاضِيعِ، فَنَحْنُ مُضْطَرُّونَ إِلىٰ الوُقُوفِ عِنْدَ هَذَا الحَدِّ البَسِيطِ. وَفَاتَهُمْ أَنَّ الوَاجِبَ عَلَىٰ الكُتَّابِ المُجِيدِينَ الَّذِينَ يَضَعُونَ أَنْفُسَهُمْ أَمَامَ القَارِىءِ في مَوْضِعِ الهادِي وَالمُرْشِدِ وَمَقَامِ المُرَبِّي وَالمُعَلِّمِ أَنْ يَرْتَفِعُوا بِذِهْنِ القَارِىءِ إِلىٰ دَرَجَةِ

أَذهانِهِمْ، لا أَنَّهُمْ يَنْزِلُونَ بِأَفْكارِهِمْ إِلىٰ دَرَجَةِ أَفْكارِهِ.

نَقْدُ الدُّرَّةِ اليَتِيمَةِ

«للشيخ إبراهيم [بن ناصيف] اليازِجي»

[١٢٦٣ ـ ١٣٢٤هـ = ١٨٤٧ ـ ١٩٠٦م]

أُهْدِيَتْ إِلَيْنا نُسْخَةٌ مِنْ هَذِهِ الرِّسالَةِ الأَنِيقَةِ، وَهِيَ مِنْ تَأْلِيفِ الكاتِبِ البَلِيغِ المَشْهُورِ عَبْدِ اللَّهِ ٱبن المُقَفَّعِ، أَوْدَعَها فُنُوناً مِنَ الحِكْمَةِ وَآدابِ المُخَالَقَةِ وَالمُعاشَرَةِ، وَما يَنْبَغِي لِلإِنْسانِ أَنْ يَتَزَيَّا به مِنَ الأَخْلاقِ في مُصاحَبَةِ الحُكّام، وَمَخالَّةِ الأَصْدِقاءِ، وَمُداراةِ الشَّانِئِينَ وَالحُسَّادِ، وَما يَسْلُكُهُ مِنَ الطُّرُقِ لاتِّقاءِ الأَعْداءِ وأَصْحابِ الطَّوائِلِ، وَالتَّسَبُّبِ إِلىٰ النَّيْلِ مِنْهُمْ، وَرَدِّ كَيْدِهِمْ إِلَيْهِمْ. وَكُلُّ ذَلِكَ مِمَّا لَقَّنَتْهُ التَّجْرِبَةُ، وَأَعانَتْهُ عَلَيْهِ الحِنْكَةُ، وَأَرْشَدَهُ إِلَيْهِ ذَكاءُ قَلْبِهِ، وَتَوَصَّلَ إِلَيْهِ بِعَيْنِ النَّقْدِ وَالاعْتِبارِ، وَتَتَبُّعِ الأُمُورِ بِالنَّظَرِ الصَّادِقِ وَالقَلْبِ الحافِظِ، بَحَيْثُ كانَ لا تَمُرُّ بِهِ واقِعَةٌ وَلاَ يَجْرِي أَمامَهُ أَمْرٌ إِلاَّ تَمَثَّلَ فِيهِ عِبْرَةً، وَانْتَزَعَ مِنْهُ حِكْمَةً، وَاسْتَفَادَ بِهِ بَصِيرَةً، فَأَتَىٰ في عَامَّةِ الكِتابِ بِما لَمْ يُسْبَقْ إِلَيْهِ، وَلَمْ يَجْمَعْهُ مِنْ قَبْلِهِ جَامِعٌ. وَلاَ غَرْوَ أَنْ يَصْدُرَ مِثْلُ ذَلِكَ عَنْ هَذَا الرَّجُلِ الكَبِيرِ عَلَىٰ ما ٱشْتُهِرَ بِهِ مِنْ سَعَةِ

عَقْلِهِ، وَبُعْدِ نَظَرِهِ، وَغَزَارَةِ عِلْمِهِ، وَقُوَّةِ عَارِضَتِهِ، وما عُرِفَ بِهِ مِنْ بلاغَةِ الكَلَامِ، وَسِحْرِ البيان، وَالحِكْمَةِ الرَّائِعَة؛ وَكَيْفَ لا وَهُوَ مُعَرِّبُ كِتابِ «كَلِيلَةَ وَدِمْنَةَ» المَشْهُورِ الَّذِي لَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُ فِيهِ إِلا أَنَّهُ كَسَاهُ مِنْ دِيباجَةِ لَفْظِهِ وَوَشْي بَيانِهِ ما كَانَ بِهِ نَسِيجَ وَحْدِهِ في التَّصانِيفِ العَرَبِيَّةِ فَضْلاً عَنِ المُعَرَّبَةِ، وَمَا لا يَزالُ بِهِ عَلَىٰ الدَّهْرِ جَدِيداً لا تَبْلِيهِ اللَّيالي وَلاَ تُغَيِّرُهُ الأَيَّامُ لَكفاهُ دَلِيلاً عَلَىٰ غَزارَةِ فَضْلِهِ وَرآسَتِهِ بَيْنَ أَرْبابِ البَلاغَةِ وَأُمراءِ الإِنْشاءِ.

وَلا بَأْسَ أَنْ نُورِدَ هُنا لَمْعَةً يَسِيرَةً في المُقَابَلَةِ بَيْنَ كلامِهِ في هَذِهِ الرِّسَالَةِ وَعِبارَتِهِ في تَعْرِيبِ «كَلِيلة وَدِمْنَة» لا نَقْصِدُ بِذَلِكَ غَيْرَ فائِدَةِ النَّقْدِ وما يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِن اسْتِخْراجِ الحقائِقِ وَإِرْشادِ البَصائِرِ، فَإِنَّ مَنْ تَتَبَّعَ الكِتَابَيْنِ بِالنَّظَرِ النَّقَّادِ، وَتَصَفَّحَ أُسْلُوبَهُمَا بِالذِّهْنِ الشَّفَّافِ، وَٱعْتَبَرَ بَعْضَهُمَا بِبَعْضٍ، فَلاَ جَرَمَ أَنَّهُ يَرَىٰ كَلامَهُ في «كَلِيلَةَ وَدِمْنَةَ» أَخْلَصَ أَلْفاظاً، وَأَنْقَىٰ دِيباجَةً، وَأَنْصَعَ أَلْواناً، وَأَشَدَّ ٱنسِجاماً، حَتَّىٰ تَرَىٰ عِبارَتَهُ هُناكَ جَوْهَراً صَافِياً، وَنَسَقاً مُطَّرِداً لا يَتَوَقَّفُ دُونَها الفَهْمُ، وَلاَ تُجْهَدُ عِنْدَها الرَّوِيَّةُ، وَلاَ يَعْتَرِضُ بَيَانَهُ فِيها لَبْسٌ وَلاَ إِشْكالٌ. وَإِذا ٱعْتَبَرَ كلامَهُ في «الدُّرَّةِ» وَجَدَ كَثِيراً مِنْهُ غَيْرَ خَالِصٍ مِنَ التَّعْقِيدِ

وَالاَضْطِرابِ، قَلِقَ الأُسْلُوبِ، صَعْبَ الاسْتِخْراجِ، غَيْرَ نَضِيجٍ عَلَىٰ الجُمْلَةِ، وَلاَ مُنَقَّحِ العِبارَةِ. بَلَىٰ! إِنَّ النَّسِيجَ في كِلا الْكِتابَيْنِ وَاحِدٌ، وَطَبَقَةَ الكَلامِ لا تَخْتَلِفُ، وَلَكِنَّ هُناكَ مِنَ الانْدِماجِ وَالسَّلاسَةِ وَٱنْقِيادِ الأَغْراضِ وَٱضْطِرادِ السَّبْكِ ما لا تَجِدُهُ هُنَا. وَلَعَلَّ ذَلِكَ إِذَا تَتَبَّعْتَ أَسْبابَهُ وَارِدٌ مِنْ كَثْرَةِ تَدَاوُلِ الأَيْدِي لِذاكَ دُونَ هَذَا، فَكَانَ مَثَلُهُ مَثَلَ الدِّينارِ الَّذِي كَثُرَ التَّعامُلُ بِهِ وَطالَ تَنَقُّلُهُ مِنْ يَدٍ إِلىٰ يَدٍ حَتَّىٰ أَزالَتِ الأَيْدِي حُرْشَتَهُ وَعَادَ أَمْلَسَ ناعِماً. وَذَلِكَ أَنْ كتابَ «كَلِيلَةَ وَدِمْنَةَ» قَدْ رُزِقَ مِنَ الشُّهْرَةِ وَالاَسْتِحْسَانِ وَإِجْماعِ العُقُولِ عَلَىٰ إِيثاره ما لم يُرْزَقْهُ كِتابٌ في بابِهِ، وَهُوَ إِلىٰ اليَوْمِ أَشْهَرُ مِنْ نارٍ عَلَى عَلَمٍ. وَلاَ تَكادُ تَرَىٰ مُتَأَدِّباً إلا وَقَدِ ٱطَّلَعَ عَلَيْهِ وَشُغِفَ بِهِ، وَطالَما كانَ مَوْضِعَ ٱرْتِياحِ لِلْمُلُوكِ وَالرُّؤَساءِ وَالعُلَماءِ وَالأُدَباءِ، وَقَدْ كَثُرَتْ عِنَايَتُهُمْ بِهِ، وَخَدَمُوهُ خِدْمَةً لَمْ يُخْدَمْها كِتابٌ، فَما مِنْهُمْ إلاَّ مَنِ ٱنْتَسَخَهُ أَوِ ٱسْتَنْسَخَهُ، فَضْلاً عَمَّنْ نَظَمَهُ مِنْ شُعَرائِهِمْ، فَكَانَ النَّاسِخُ مِنْ أَهْلِ الذَّوْقِ وَالْبَصَرِ بَالإِنْشاءِ إِذَا رَأَىٰ فِيهِ مَنْقَفاً أَزالَهُ أَوْ أَوداً أَقَامَهُ، فَلَمْ يُغادِرُوا فِيهِ عِبارَةً نافِرةً ولاَ لَفْظَةً قَلِقَةً ولا تَرْكِيباً ثَقِيلاً، بِحَيْثُ إِنَّهُ عَلَىٰ تَمادِي الزَّمَنِ وَتَكَرُّرِ النُّسَخِ تَمَّ تَهذِيبُهُ وَتَنْقِيحُهُ. وَالَّذِي يَدُلُّكَ عَلَىٰ صِحَّةِ ما

نَقُولُ أَنَّكَ لا تَكادُ تَجِدُ نُسْخَتَيْنِ مِنْهُ تَتَواطآنِ عَلَىٰ لَفْظٍ واحِدٍ، حَتَّىٰ أَنَّ دُساسِي كانَ بَيْنَ يَدَيْهِ سَبْعُ نُسَخٍ مِنْهُ، كُلُّ واحِدَةٍ مبايِنَةٌ للأُخْرَىٰ. وَهَذَا مِمَّا يَدُلُّ عَلَى فَضْلِ هذا الكِتابِ ولا يَغُضُّ مِنْ قَدْرِ مُعَرِّبِهِ شَيْئاً، إِذِ الكَلامُ لا يَزالُ كلامَهُ، وَالأُسْلُوبُ أُسْلُوبَهُ، وَبِمقابَلَتِهِ «الدُّرَّةِ» الَّتِي نَحْنُ فِي الكلامِ عَلَيْها يَظْهَرُ لَكَ مِصْداقُ ذَلِكَ، وَتَرىٰ أَنْ دِيباجَتَهُ مَعَ ما تَبَدَّلَ عَلَيْها مِنَ النُّقُوشِ وَالزَّخارِفِ لم يَتَبَدَّلْ مَتْنُها وَلاَ تَنَكَّرَ لَوْنُها، وَلَكِنَّهَا ما زالَتْ تُعْرَفُ لِأَوَّلِ لَمْحَةٍ لا تَغِيبُ عَنْ مَعْرِفَةِ النَّاقِدِ وَتَمْيِيزِ العارِفِ.

عَلَىٰ أَنَّا لا نُنْكِرُ أَنَّ أَكْثَرَ ما فِي عِبارَةِ «الدُّرَّةِ» مِنَ السُّقْمِ وَالاضْطِرابِ إِنَّما وَرَدَ عَلَيْهَا مِنْ قِبَلِ النُّسَّاخِ، وَشَتَّانَ ما بَيْنَ صَنِيعِهِمْ هُنَا وَصَنِيعِهِمْ هُنَاكَ، وَلَكِنَّ كُلَّ ناسِخٍ إِنَّما فَعَلَ بِمِقْدَارِ عِلْمِهِ، فَإِنَّ الَّذِينَ نَسَخُوا هَذِهِ الرِّسالَةَ لَمْ يَعْدُوا في الأَكْثَرِ حالَ سائِرِالنَّاسِخِينَ مِمَّنْ لا عِلْمَ لَهُمْ بِمَا يَنْسَخُونَ. وَالَّذِينَ تولَّوا نَسْخَ «كَلِيلة وَدِمْنَة» كَانَ الكَثِيرُونَ مِنهُمْ مِنْ فُحولِ أَهْلِ الإِنْشاءِ وَالمَعْرِفَةِ بِأَسْرارِ اللُّغَةِ وَأَساليبِ الكَلامِ، فَلاَ عَجَبَ أَنْ جاءَ كُلٌّ مِنْ نُسَخِ الكِتَابَيْنِ عَلَىٰ ما وَصَفْنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَإِثْباتاً لما ذُكِرَ، وَتَنْزِيهاً لِعَهْدِ المُؤَلِّفِ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا

جَاءَ في هَذِهِ الرِّسالَةِ، نَنْقُلُ هُنَا بَعْضَ المواضِعِ الَّتِي أَشَرْنا إِلَيْها مِما أَفْسَدَهُ تَحْرِيفُ النُّسَّاخِ وَمَا لَعَلَّهُ ٱجْتَمَعَ إِلَيْهِ مِنْ أَغْلاطِ الطَّبْعِ الَّتِي هي فاشِيَةٌ في كُتُبِنَا العَرَبِيَّةِ، لا يَكادُ يَسْلَمُ مِنْها كِتابٌ. وَالَّتِي هِيَ وَلاَ جَرَمَ أَعْظَمُ ضَرْبَةٍ عَلَىٰ المُصَنِّفِينَ وَالكُتَّابِ.

فَمِنْ ذَلِكَ ما جاءَ في صفحة ٩، وَهِيَ الصَّفْحَةُ الأُولَىٰ مِنَ الرِّسَالَةِ: «غَيْرَ أَنَّ الَّذِي نَجِدُ في كُتُبِهِمْ هُوَ المُنْتَحَلُ في آرائِهِمْ وَالمُنْتَقَىٰ مِنْ أَحادِيثِهِمْ» فَإِنَّ قَوْلَهُ: «المُنْتَحَلُ في آرائِهِمْ» غَرِيبٌ في هَذَا المَوْضِعِ، لاَ يَسْتَقِيمُ لَهُ مَعْنًى، وَلاَ هُوَ مِمَّا يَحْتَمِلُهُ سِياقُ الكلامِ، وَصَوابُهُ: «المُنْتَخَلُ» بالخاء المُعْجَمَةِ، وَهُوَ بِمَعْنَىٰ المُنْتَقَىٰ الوارِدِ بَعْدُ مَعَ تَبْدِيلِ لَفْظِ «في» بِلَفْظِ «مِن»، وَهُوَ الوَجْهُ السَّدِيدُ الَّذِي لا غُبارَ عَلَيْهِ كَمَا تَرَىٰ.

وَمِنْ ذَلِكَ في صفحة ١٠: «في تَحْرِيرِ صُنُوفِ العِلْمِ وَتَقْسِيمِ أَقْسامِهِ وَتَجْزِئَةِ أَجْزائِها وَتَوْضِيحِ سُبُلِها وَتَبْيِينِ مَآخِذِهِم» فَإِنَّ هَذِهِ المُخَالِفَةَ في صِيَغِ الضَّمَائِرِ لا وَجْهَ لَهَا، بَلْ مِنْها ما يُفْسِدُ المَعْنَىٰ كَمَا تَرَىٰ، وَالوَجْهُ إِيرادُها جَمِيعاً بِلَفْظِ التَّذْكِيرِ وَالإِفْرادِ عَوْداً عَلَىٰ العِلْمِ.

وَفِي صفحة ١١: «وَٱعْلَمْ أَنَّ مِنَ العَجَبِ أَنْ يُبْتَلَىٰ الرَّجُلُ بِها (أي: بِالإِمارَةِ)، فَيُرِيدُ أَنْ يَنْتَقِصَ مِنْ ساعاتِ نَصَبِهِ وَعَمَلِهِ، فَيَزِيدُها في ساعاتِ دَعَتِهِ وَشَهْوَتِهِ» فَقَوْلُهُ: «مِنَ العَجَبِ» لا مَعْنَىٰ لَهُ في هَذا المَقامِ كَما تَرَىٰ، ولا ما ذَكَرَهُ بَعْدَهُ مِمّا فِيهِ عَجَبٌ، إِذْ أَكْثَرُ النَّاسِ عَلَىٰ هَذا السَّبِيلِ مِنْ إِيثاره الدَّعَةِ وَاللَّذَةِ. بَلِ الأَظْهَرُ أَنَّ الأَصْلَ: «مِنَ العَجْزِ» فَأَبْدَلَهُ النَّاسِخُ سَهْواً أَوْ عَمْداً، لِأَنَّهُ لَمْ يَفْهَمْ مَعْنَىٰ العَجْزِ هُنَا، وَهُوَ نَقِيضُ الجُرْأَةِ. فَٱنْثَلَمَ بِذَلِكَ المَعْنَىٰ، وَتَشَوَّهَتْ صُورَتُهُ كَمَا تَرَىٰ.

وفي صفحة ١٣: لِئَلاً يَنْتَشِر مِنْ ذَلِكَ ما يَجْتَرِىءُ بِهِ سَفِيهٌ أَوْ يَسْتَخِفُّ لَهُ شَأْنٌ» وَلاَ مَعْنَىٰ لِلشَّأْنِ هُنَا كَما تَرَىٰ، وَالصَّوابُ: «شَانِىءٌ».

وَفِي الصَّفْحَةِ نَفْسِها: «وَٱعْلَمْ أَنَّكَ ما شُغِلْتَ مِنَ رَأْيِكِ بِغَيْرِ المُهِمِّ أَزْرَىٰ بِالمُهِمِّ » شُكِّلَتِ الشِّينُ مِنْ «شُغِلَتْ» بِالضَّمِّ فَتَنَكَّرَ المَعْنَىٰ وَٱضْطَرَبَتْ سِلْسَلَةُ الْكَلاَمِ، لأَنَّ «ما» صارَتْ عَلَىٰ هَذا شَرْطِيَّةً زمانِيَّةً، وَالمَقْصُودُ أَنْ تَكُونَ ٱسْماً مَوْصُولاً يَرْجِعُ إِلَيْهِ ضَمِيرٌ مَحْذُوفٌ بَعْدَ «شَغَلَتْ» وَذَلِكَ عَلَىٰ حَدِّ قَوْلِهِ بَعْدُ: «وَمَا صَرَفْتَ مِنْ مالِكِ بِالباطِلِ فَقَدْتَهُ حِينَ تُرِيدُهُ لِلْحَقِّ، وَمَا عَدَلْتَ بِهِ مِنْ

كَرامَتِكَ إِلىٰ أَهْلِ النَّقْصِ أَضَرَّ بِكَ في العَجْزِ عَنْ أَهْلِ الفَضْلِ».

وَفِي صفحة ١٦: «لاَ يَلُومَنَّ الوَالِي عَلَىٰ الزَّلَّةِ مَنْ لَيْسَ بِمُتَّهَمٍ عَلَىٰ الحِرْصِ عَلَىٰ رِضاهُ» وَالصَّوابُ: «في الحِرْصِ»،

وَفِي صفحة ١٨: «لا يَعْرِفَنَّكَ الوُلاةُ بِٱلْهَوَىٰ في بَلْدَةٍ مِنْ البُلْدَانِ وَلاَ قَبِيلَةٍ مِنَ القَبائِلِ، فَيُوشِكُ أَنْ تَحْتَاجَ فِيها إِلىٰ حِكايَةٍ، أَوْ مُشاهَدَةٍ، فَتُتَّهَمُ في ذَلِكَ» وَفِيهِ خَطَأٌ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَكَانَهُ، وَإِلاَّ فَهَذَا الكَلاَمُ لا يُمْكِنُ أَنْ يَصْدُرَ عَنْ قَلَمِ المُؤَلِّفِ. ثُمَّ إِنَّ قَوْلَهُ: «في بَلْدَةٍ مِنَ البُلْدَانِ» فِيهِ تَحْرِيفٌ بِزِيادَةِ التَّاءِ عَلَىٰ «بَلْدَةٍ» لأَنَّ فَعْلة لا تَجْمَعُ عَلَىٰ فُعْلان، وَإِنَّما البُلْدانَ جَمْعُ بَلَدٍ، مِثْلُ حَمَل وحُمْلان، وَجَمْعُ البَلْدَةِ بلادٌ.

وَفِي صفحة ٢٠: «لا تَحْضِرَنَّ عِنْدَ الوَالي كَلاماً لا يَعْنِي وَلاَ يُؤْمَرُ بِحُضُورِهِ إِلاَّ لِعِنَايَةٍ بِهِ أَوْ يَكُون جَواباً بِالشَّيْءِ سُئِلْتَ عَنْهُ» وَفِي هَذَا الكلامِ مِنَ الاضْطِرابِ وَالإِبهامِ ما لا يَخْفَىٰ، وَلا تُعِينَ حُروفُهُ عَلَىٰ مَعْرِفَةِ أَصْلِهِ، بَيْدَ أَنَّ قَوْلَهُ: «جَواباً بِالشَّيْءِ» فِيهِ تَكْرارُ حَرْفَيْنِ، وَصَوابُهُ: «جَواباً لِشَيْءٍ».

وَمِثْلُهُ في صفحة ٢٢: «إِذَا قَالَ لَكَ السَّائِلُ: ما إِيَّاكَ سَأَلْتُ، أَوْ قَالَ لَكَ المَسْؤُولُ عِنْدَ المَسْأَلَةِ يُعادِلُهُ بِها دُونَكَ».

وَفي صفحة ٢٤: «فَلَيْسَتْ عَلَيْهِ مَؤُونَةٌ في تَبذُّلِ يَتَبَذَّلُ لَهُ عِنْدَهُ» وَفِيهِ زِيادَةُ لامٍ، وَالصَّوابُ: «يَتَبَذَّلُهُ عِنْدَهُ».

وَفِي الصَّفْحَةِ نَفْسِها بَعْدَ ما ذُكِرَ: «أَوْ رَأَىٰ يَسْتَزِلُّهُ مِنْهُ» وَالصَّوابُ: «يَسْتَنْزِلُهُ».

وَأَمْثالُ ذَلِكَ كَثِيرةٌ في الكِتابِ ذاهِبَةٌ كُلَّ مَذْهَبٍ ما بَيْنَ نَقْصٍ وَتَبْدِيلٍ وَإِحالَةٍ لِبَعْضِ الكَلِمِ عَنْ مَواضِعِهِ مِمّا تَنَكَّرَتْ بِهِ صُوَرُ التَّراكِيبِ وَٱلْتَبَسَتْ وُجُوهُ المَعاني وَذَهَبَ ما فِيهِ مِنَ الفَصَاحَةِ وَالسَّبْكِ. وَأَنْتَ خَبِيرٌ بِأَنَّ ما يوصَفُ مِنَ الكُتُبِ بالسُّقَمِ وَالغَثَاثَةِ أَوْ بِالتَّكَلُّفِ وَالتَّعْقِيدِ، لاَ يَسْتَلْزِمُ أَنْ تكُونَ كُلُّ عِبارَةٍ فِيهِ كَذَلِكَ، وَلَكِنَّ ٱلجُمْلَةَ الواحِدَةَ، بَلْ اللَّفْظَةَ الواحِدَةَ في الصَّفْحَةِ إِذَا نَزَلَتْ في غَيْرِ مَنْزِلِها، فَقَدْ تَكُونُ كافِيَةً لِأَنْ تَخْدِشَ رَوْنَقَها وَتُشَوِّهَ سائِرَ ما فِيها مِنَ المحاسِنِ، كالوَجْهِ الجميلِ إِذَا كَانَ عَلَىٰ إِحْدَىٰ عَيْنَيْهِ كَوْكَبٌ، أَوْ في إِحْدَىٰ وَجْنَتَيْهِ قَرْحَةٌ، فَقَدْ تَنْبُو العَيْنُ عَنِ النَّظَرِ إِلَيْهِ وَإِنْ كَانَ سائِرُهُ سَلِيماً لا عَيْبَ فِيهِ.

لا جَرَمَ أَنَّ ذَلِكَ لِمِمَّا يَشْعُرُ لَهُ بِالأَسَفِ كُلُّ مَنْ

عانَىٰ هَذَا الشَّأْنَ، أَيْ شَأْنَ الْكِتابَةِ وَالتَّأْلِيفِ، وَتُمَثِّلُ ما بَذَلَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ مِنَ الإِغْرَاقِ في النَّظَرِ وَتَحَرَّىٰ مِنَ الصِّحَّةِ وَالإِحْكَامِ في وَضعِ هَذَا الكِتَابِ الَّذِي هُوَ نَتِيجَةُ تَجارِبِهِ وَثَمَرَةُ عَقْلِهِ وَمَعْرِضُ بَيانِهِ. وَكَمْ مِثْلُهُ مِنَ السَّلَفِ مِمَّنْ لَوْ عَادُوا اليَوْمَ وَعَايَنُوا ما صارَتْ إِلَيْهِ مُصَنَّفَاتُهُمْ، وَمَا مُنِيَتْ بِهِ مِنْ صُنُوفِ الجَدْعِ وَالصَّلْمِ لَتَمَنَّوا أَنَّهُمْ لَمْ يُجْرُوا فِيها قَلَماً وَلَمْ يُعْمِلُوا فِيها فِكْراً.

فَاللَّهَ أَيُّها النَّاسُ في أَماناتِ أُولَئِكَ الأَقْوامِ! إِنَّكُمْ كُنْتُمْ عَلَيْهَا أَنْتُمُ المُؤْتَمَنِينَ، وَإِنَّهُمْ لَيْسُوا بِشاهِدِي أَمْرِكُمْ، فَٱرْحَمُوهُمْ! إِنَّهُمْ كانُوا لِلرَّحْمَةِ أَهْلاً، وَكانوا مِنَ المُحْسِنِينَ. وَٱعْلَمُوا أَنَّ ما وَقَعَ إِلَيْكُمْ مِنْ تِلْكَ الأَوْرَاقِ لَيْسَ مِمّا أَنْبَتَهُ التُّرابُ، وَسَقاهُ السَّحابُ، وَأَنْضَجَتْهُ الشَّمْسُ وَالضَّبابُ. وَلَكِنَّهُ مِمَّا أُضْنِيَتْ فِيهِ الأَجْسادُ، وَأُفْنِيَتِ العُيُونُ بِالسُّهادِ، وَصُدِّعَتْ لِأَجْله الرُّؤُوسُ، وَأُذِيبَتِ الأَدْمِغَةُ عَلَىٰ صَفْحاتِ الطُّرُوسِ. وَإِنَّهُ لَمِمَّا بِيعَتْ بِهِ الأَعْمارُ، فَلا تَبِيعُوهُ بَيْعَ الرَّخِيصِ؛ وَبُذِلَتْ لِأَجْلِهِ الدُّنْيا، وَهِيَ أَحَقُّ مَا ضَنَّ بِهِ حَرِيصٌ. وَإِنَّمَا فَعَلَ أَرْبابُهُ ذَلِكَ بُغْيَةَ الذِّكْرِ حَتَّىٰ إِذَا فَنِيَتْ أَعْيانُهُمْ عاشُوا بالأَثَرِ. وَلِكَيْ يُعْرَفُوا بِصُوَرِ عُقُولِهِمْ إِذَا ذَهَبَتِ الأَجْسادُ وَبَقِيَتْ بَيْنَ أَيْدِينا مِنْهُمْ تِلْكَ الصُّوَرُ. تَاللَّهِ ما

الأَرَضَةُ الَّتِي تَأْكُلُ الكِتَابِ فَتُمَزِّقُهُ بَدادَ، وَلا النَّارُ الَّتِي تَحْرِقُهُ فَتُصَيِّرُهُ إِلىٰ الرَّمادِ، وَلاَ الماءُ الَّذِي يُغْرِقُهُ فَيَضْرِبُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الوُجُودِ بِالأَسْدادِ؛ بِأَضَرَّ عَلَيْهِ مِمَّنْ يُحَرِّفُ عِبارَاتِهِ، وَيُبَدِّلُ حَسَناتِهِ، وَيَنْسُخُ محاسِنَ آياتِهِ. وَإِنَّ ذَهَابَ الكِتابِ جُمْلَةً بِدَاهِيَةٍ مِنْ نَوازِلِ القَدَرِ، وَضَياعَ فَضْلِ مُؤَلِّفِهِ وَمَا يَرْجُو أَنْ يُبْقِي بِهِ مِنْ جَمِيلِ الأَثَرِ؛ لَأَهْوَنُ عَلَىٰ قَلْبِهِ مِنْ أَنْ يُنْشَرَ بَعْدَهُ بَيْنَ أَيْدِي النَّاقِدِينَ، وَقَدْ حُمِلَ عَلَيْهِ مِنَ العُيُوبِ ما يَجْعَلُهُ عُرْضَةً لِلْمُفَنِّدِينَ، وَغَرَضاً لِسِهامِ المُنَدِّدِينَ.

عَصَمَنَا ٱللَّهُ مِمَّا تَزِلُّ بِهِ أَقلامُنَا، إِنَّها الزَّلَّةُ البَاقِيَةُ عَلَىٰ كُرُورِ اللَّيالِ؛ وَكَفانا شَرَّ مَنْ يُفْسِدُ آثارَنَا مِنْ بَعْدِنا، إِنَّهُ كَفَىٰ العَبْدَ مَا يَتَوَقَّعُ مِنْ فسادِ كَيَانِهِ وَمَصِيرِهِ إِلىٰ الانْحِلالِ؛ وَحَسْبُنَا ٱللَّهُ وَكِيلاً، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ.

جَوْهَرُ الشِّعْرِ

«لابراهيم بك [ابن عبد الخالق] المُوَيْلِحِي»

[١٢٦٢ ـ ١٣٢٣هـ = ١٨٤٦ ـ ١٩٠٦م]

تَمْضِي القُرُونُ وَالدُّهُورُ وَالنَّاسُ يَقُولُونَ الشِّعْرَ وَيَنْشُدُونَهُ وَيَسْمَعُونَهُ وَيَشْرَحُونَهُ وَيَنْقُدُونَهُ، وَهُمْ مَذاهِبُ شَتَّىٰ في تَعْرِيفِهِ، فَإِذا بَحَثَ الباحِثُ في أَقْوالِهِمْ لَمْ يَقِفْ

مِنْها عَلَىٰ تَعْريفٍ للشِّعْرِ تَرْتاحُ إِلَيْهِ نَفْسُهُ. وَالباحِثُونَ المُدَقِّقُونَ يَنْظُرُونَ إِلىٰ الشِّعْرِ وَتَأْثِيرِ وَقْعِهِ في النَّفْسِ مِنْ وَجْهَيْنِ: مِنْ حَيْثُ هُوَ كَلامٌ مَوْزُونٌ، وَمِنْ حَيْثُ هُوَ حالَةٌ مِنْ حالاتِ النَّفْسِ.

أَمَّا الوَزْنُ، فَهُوَ تَأْلِيفُ عِدَّةِ أَصْواتٍ عَلَىٰ نَمَطٍ تَحُسُّ بِهَا الأُذُنُ صَوْتاً إِثْرَ صَوْتٍ، حَتَّى إِذا أَتَتْ عَلَىٰ الأَخِيرِ مِنْهَا تَذَكَّرَتْ أَوَّلَها، وَٱسْتَخْلَصَتْ مِنْ هَذَا وَحْدَةً تَلْتَقِطُها دَفْعَةً وَاحِدَةً، وَهُوَ مَا يُسَمُّونَهُ في عُرْفِ المُوسِيقِيِّين بِالتَّنْسِيقِ وَالانْسِجام. وَهُوَ في تَأْلِيفِ الأَصْواتِ لِحاسَّةِ الأُذُنِ يُماثِلُ التَّعادُلَ وَالتَّوافُقَ بَيْنَ أَشْكَالِ الأَجْسامِ لِحاسَّةِ البَصَرِ؛ فَالبَيْتُ المَوْزُونُ ظَرْفٌ مُوسِيقِيٌّ في الشِّعْرِ كَقَصَبَةِ النَّافِخِ في آلاتِ الطَّرَبِ.

وَأَمَّا مِنْ حَيْثُ هُوَ حالَةٌ مِنْ حالاتِ النَّفْسِ، فَنَقُولُ: إِنَّ في النَّفْسِ مَسْحَةً عُلْوِيَّةً هِيَ الجمالُ وَالبَهاءُ الباطِنِيُّ تَظْهَرُ عَلَيْهَا عِنْدَ صَفاءِ النَّفْسِ وَخُلُوِّها مِنْ شَوائِبِ الأَكْدَارِ، وَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ لا يَنْتَابُها إِلاَّ حِيناً بَعْدَ حِين ظَنَّتْهُ شَيْئاً طارِئاً عَلَيْها مِنَ الخارِجِ، فَلِهَذا نَسَبَ القُدَماءُ تَجَلِّي ذَلِكَ البَهاءُ وَالجَمالُ إِلىٰ أَرْواحٍ أُخْرَىٰ تَمْتَزِجُ بِالنَّفْسِ. فكانَ شُعراءُ اليُونانِيِّينَ وَالرُّومانِيِّينَ يُسَمُّونَها (المـوز) (Les

(Muses) وَيُفَسِّرُونَها بآلِهَةِ الشِّعْرِ، وَطالما كانُوا يَسْتَدْعُونَها عِنْدَ إرادَةِ قَوْلِ الشِّعْرِ، وَهَذَا (هومير) و(ازيوت) و(سيمونيد) و(سفوكل) و(أوريبيد) و(فرجيل) و(لكريس) و(هوراس): كُلُّهُمْ يُنَادُونَ تِلْكَ الآلِهَةَ وَيَسْتَعِينُونَ بِهَا عَلَىٰ زَعْمِهِمْ في مطالِعِ قَصائِدِهِمْ كما تَراهُ في شِعْرِهِمْ.

ومَذْهَبُ العَرَبِ في أَنَّ لِكُلِّ شاعِرٍ شَيْطاناً يُلْقِي إِلَيْهِ الشِّعْرَ مَذْهَبٌ مَشْهُورٌ، وَالشُّعراءُ كافَّةً عَلَيْهِ. قَالَ بَعْضُهُمْ [من الرجز]:

إِنِّي وَإِنْ كُنْتُ صَغِيرَ السِّنِّ
وَكانَ في الْعَيْنِ نُبُوٌّ عَنِّي
فَإِنَّ شَيْطانِي أَمِيرُ الْجِنِّ
يَذْهَبُ بي في الشِّعْرِ كُلَّ فَنِّ

وَقالَ حَسَّانُ بْنُ ثابِتٍ شاعِرُ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [من المتقارب]:

إِذَا مَا تَرَعْرَعَ فِينَا الغُلامُ
فَمَا إِنْ يُقَالَ لَهُ مَن هُوَهْ
إِذَا لَمْ يَسُدْ قَبْلَ شَدِّ الإِزَارِ
فَذَلِكَ فِينَا الَّذِي لا هُوَهْ

وَلِي صاحِبٌ مِنْ بَنِي الشَّيْصَبَانِ
فَطَوْراً أَقُولُ وَطَوْراً هُوَهْ

وَكَانُوا يَزْعُمُونَ أَنَّ ٱسْمَ شَيْطانِ الأَعْشَىٰ: مِسْحَلٌ وَٱسْمَ شَيْطانِ المُخَبَّلَ: عَمْرو، قَالَ الأَعْشَى [من الطويل]:

دَعَوْتُ خَلِيلي مِسْحَلاً وَدَعُوا لَهُمْ
جِهِنَّامَ جَدْعاً لِلْهَجِينِ المُذَمَّمِ

وقالَ آخرُ [من الطويل]:

لَقَدْ كَانَ جِنِّيُّ الفِرَزْدَقِ قُدْوَةً
وَمَا كَانَ فِينَا مِثْلُ فَحْلِ المُخَبَّلِ
وَلاَ في القَوافِي مِثْلُ عَمْرٍو وَشَيْخِهِ
وَلاَ بَعْدَ عَمْرٍو شاعِرٌ مِثْلُ مِسْحَلِ

وقال أَبو النجْمِ [من الطويل]:

إِنِّي وَكُلُّ شاعِرٍ مِنَ البَشَرْ
شَيْطانُهُ أُنْثَىٰ وَشَيْطاني ذَكَرْ

وَأَنْشَدَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضِ الرُّجَّازِ [من الرجز]:

إِنَّ الشَّياطِينَ أَتَوني أَرْبَعَهْ
في غَلَسِ اللَّيْلِ وَفِيهِمْ زَوْبَعَهْ

وَقَالَ الفَرَزْدَقُ يَصِفُ قَصِيدَةً لَهُ [من البسيط]:

كَـأَنَّـهـا الـذَّهَـبُ الْـعِـقْـيَـانُ حَـبَّـرَهـا
لـسـانُ أَشْـعَـرِ خَـلْـقِ الـلَّـهِ شَـيْـطـانـا

فَإِذَا تَجَلَّىٰ جمالُ الرُّوح في الإِنْسانِ، وَصَفَتْ نَفْسُهُ، وكانَتْ مُمْتَلِئَةً مِنْ قَبْلُ بِأَطْرافِ المعارِفِ وَالفُنُونِ مُطَّلِعَةً عَلَىٰ التواريخ والحوادِثِ والقِصَصِ والمُحاضَراتِ وَالنُّكاتِ وبَدائعِ المَشاهِدِ الطبيعِيَّةِ والصِّناعِيَّةِ، وكانَ لَها مِنَ التَّجارِبِ نَصِيبٌ وافِرٌ، وَكَانَ لـهـا وقـوفٌ عَلَى مُخْتَلِفِ الطِّباعِ وَالأَخْلاقِ؛ فاضَتْ مِنْهَا المَعَانِي البَدِيعَة، فَإِذَا وَضَعَها في الألفاظِ المُحْكَمَةِ التي لا تَطُولُ المَعْنَىٰ وَلاَ تَقْصُرُ عَنْهُ، فَأَفْرَغَها في قالَبِ الوَزْنِ، ٱجْتَمَعَ حُسْنُ المَعْنَىٰ مع ٱنْسِجامِ اللَّفْظِ في ٱنْسِجامِ الوَزْنِ، فَذَلِكَ هُوَ بَيْتُ الشِّعْرِ.

وَالشِّعْرُ هُوِ إِظْهَارُ ما خَفِيَ من الحقائِقِ المَعْنَوِيَّةِ وَتَوْضِيحُها للسَّامِعِ تَوْضِيحاً يُجَلِّيها عَلَيْهِ بِوُجُوهٍ مُخْتَلِفَةٍ وَتَجْدِيدِ ما أَخْلَقَ تَكْرَارُ النَّظَرِ إِلَيْهِ بهاءَهُ من المَوْجُوداتِ كما قالَ ٱمْرُؤُ القَيْسِ في وَصْفِ الأَسِنَّةِ التي يَراها الإِنسانُ كُلَّ ساعةٍ [من الطويل]:

وَمَـسْـنُـونَـةٍ زُرْقٍ كَـأَنْـيـابِ أَغْـوالِ

فَكَساها كِساءً قَشِيباً مِنَ التَّأْثِيرِ، وَجَعَلَ لِبَهائِها في النَّفْس سُلْطاناً جَدِيداً. ولو خُيِّرَتِ الحَقِيقةُ أَنْ تُشْرِفَ عَلَىٰ الناسِ مِنْ أَجْمَلِ مكانٍ لما ٱخْتارَتْ إلاَّ أَنْ تُشْرِفَ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْتِ الشِّعْرِ [من البسيط]:

وَالْحُسْنُ يَظْهَرُ في شَيْئَيْنِ رَوْنَقُهُ
بَيْتٌ مِنَ الشِّعْرِ أَوْ بَيْتٌ من الشَّعَرِ

وعلىٰ ذَلِكَ، فالشِّعْرُ مَوْجُودٌ في غَرِيزَةِ كُلِّ إِنسانٍ، وَكلُّ إِنسانٍ شاعِرٌ، وَلَيْسَ كُلُّ ناظِمٍ شاعِراً، وَيُوجَدُ الشِّعْرُ في المَنْثُورِ كَمَا يُوجَدُ في المَنْظُومِ إذا نَشَأَ عَنْهُ تَأثيرٌ في النَّفْسِ، وَمِثْلُ ذلك ما نَراهُ مِنَ الشِّعْرِ في كلامِ البَدَوِيِّ، وَقَدْ سُئِلَ عَن مِقْدارِ غَرامِهِ بصاحِبَتِه، فَقَالَ: إِنِّي لأَرَىٰ القَمَرَ عَلَىٰ جِدارِها أَحْسَنَ مِنْهُ عَلَىٰ جُدْرانِ النَّاسِ. وَكَقَوْلِ الآخَرِ: ما زِلْتُ أُرِيها القَمَرَ حَتَّىٰ إذا غابَ أَرَتْنِيهِ. وَكَمَا تَراهُ في قِصَّةِ محمودٍ الغَزْنَوِيِّ، وَقَدْ فَتَحَ بَلَداً، فَجاءَ أَهْلُها يَطْلُبُونَ مِنْهُ أَنْ لا يَكْسِرَ أَصْنامَهُمْ، وَعَرَضوا عَلَيْهِ مالاً عَظِيماً، فَاسْتَشَارَ بَعْضَ خاصَّتِهِ، فَأَشارُوا عَلَيْهِ أَنْ يَبِيعها مِنْهُمْ إلاّ وَاحِداً قَالَ لَهُ: أَتُرِيدُ أَنْ يقالَ بَعْدُكَ أَنَّ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلامُ كاسِرُ الأَصْنامِ وَمَحْمُودَ بائِعُ الأَصْنام؟ فَفَعَلَتْ هَذِهِ الكَلِمَةُ في نَفْسِهِ فِعْلاً رَفَضَ به ما كَانَ مُحْتاجاً إِلَيْهِ

مِنْ تِلْكَ الكُنُوزِ الَّتِي عَرَضُوها عَلَيْهِ.

وَمِنْ المَوْزُونِ مَا لَيْسَ بِشَعَرٍ كما نَراهُ في كَثِيرٍ مِنَ القَصائِدِ الَّتِي يُقَيِّدُ فِيها أرْبابُها أَلْفاظاً بِقُيُودِ الوَزْنِ، فَيَضَعُونَ في ذَلِكَ الظَّرْفِ المُوسِيقي ما يَذْهَبُ بِحُسْنِ ٱنسِجامِهِ، كما يَتَوَضَّحُ ذلك جَلِيّاً في أَشْعارِ المُتُونِ الَّتي رَبَطُوا بها قَواعِدَ العُلومِ بِالوَزْنِ لِيَسْهُلَ حِفْظُها وَسِواها مِنْ نَظْمِ الشُّعراءِ الَّذِينَ لم يَكْمُلِ الاسْتِعْدادُ في نُفُوسِهِمْ لِسُلطانِ الشِّعْرِ.

وَصْفُ نَهْجِ البلاغَةِ

«للشَّيخِ محمد عَبْدُه»[1]

أَوْفَىٰ لِي حُكْمُ القَدَرِ بَالاطِّلاعِ عَلَىٰ كِتَابِ «نَهْجِ البَلاغَةِ» صُدْفَةً بِلاَ تَعَمُّلٍ، أَصَبْتُهُ عَلَىٰ تَغَيُّرِ حَالٍ، وَتَبَلْبُلِ

---

(١) «الشيخ محمد عبده [حسن خير الله] [١٢٦٦ ـ ١٣٢٣هـ = ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م].

هُوَ رَحِمهُ اللَّهُ أَكْتَبُ العُلَماءِ، وَأَعْلَمُ الكتّابِ في هذا العَصْرِ، بَلْ لا أعرفُ فَقِيهاً بَعْدَ ٱنقضاءِ دَوْلَةِ الأئمّة المُجْتَهِدين في صَدْرِ الإسلامِ أَقْدَرَ منه على الكتابَةِ الأدبية، وله في كتابَتِهِ مَزِيَّةُ العُلوِّ والمتانَةِ وسَعَةُ المادة اللغوية والاقتدارُ على الحجَّة التي لا تُدْفَعُ.

بالٍ، وَتَزاحُمِ أَشْغالٍ، وعُطْلَةٍ مِنْ أَعْمَالٍ. فَحَسِبْتُهُ تَسْلِيَةً، وَحِيلَةً لِلتَّخْلِيَةِ؛ فَتَصَفَّحْتُ بَعْضَ صَفَحاتِهِ، وَتأَمَّلْتُ جُمَلاً مِنْ عِبارَاتِهِ؛ مِنْ مَواضِعَ مُخْتَلِفاتٍ، وَمَواضِيعَ مُتَفَرِّقاتٍ، وَكَانَ يُخَيَّلُ لِي في كُلِّ مَقَامٍ أَنَّ حُرُوباً شَبَّتْ، وَغَاراتٍ شُنَّتْ، وَإِنَّ لِلْبَلاغَةِ دَوْلَةً، وَلِلْفَصَاحَةِ صَوْلَةً؛ وَإِن لِلأَوهامِ عُرَامَةً[1]، وَلِلرِّيَبِ دَعَارَةً[2]؛ وَإِنَّ جَحَافِلَ الخَطَابَةِ، وَكَتَائِبَ الذَّرَابَةِ؛ فِي عُقُودِ النِّظَامِ، وَصُفُوفِ الانْتِظَامِ؛ تُنافِحُ بِالصَّفِيحِ الأَبْلَجِ[3]، وَالقَوِيمِ الأَمْلَجِ[4]؛ وَتَمْتَلِجُ[5] المُهَجَ، بِرَوائِعِ الحُجَجِ؛ وَتَفُلُّ دَعَارَةَ الوَساوِس، وَتُصِيبُ مَقاتِلَ الخَوَانِسِ[6]؛ فَمَا أَنا إِلاَّ وَٱلْحَقُّ مُنْتَصِرٌ، وَالْبَاطِلُ مُنْكَسِرٌ؛ وَمَرْجُ الشَّكِ في خُمُودٍ، وَهَرْجُ الرَّيْبِ في رُكُودٍ؛ وَأَنَّ مُدَبِّرَ تِلْكَ الدَّوْلَةِ، وَباسِلَ تِلْكَ ٱلصَّوْلَةِ؛ هُوَ حَامِلُ لِوَائِها الغَالِبُ، أَميرُ المُؤْمِنِينَ عَلِيٌّ ٱبْنُ أَبي طالِبٍ؛ بَلْ كُنْتُ كُلَّما

---

(١) العُرامَة: الشَّراسةُ.

(٢) الدَّعارَة: سُوءُ الخُلُق.

(٣) الصَّفِيح: السيف؛ والأَبْلَج: اللامِعُ البَياضِ.

(٤) الرُّمح الأَمْلَج: الأَسْمر.

(٥) تَمْتَلِجُ: تَمْتَصُّ.

(٦) الخوانِسُ: خواطِرُ السُّوءِ تَسْلُكُ مِنَ النَّفْسِ مسالِكَ الخَفاءِ.

أَنْتَقَلْتُ مِنْ مَوْضِعٍ إِلىٰ مَوْضِعٍ أُحِسُّ بِتَغَيُّرِ المَشَاهِدِ، وَتَحَوُّلِ المَعَاهِدِ؛ فَتَارَةً كُنْتُ أَجِدُني في عَالَمٍ يَغْمُرُهُ مِنَ المَعانِي أَرواحٌ عَالِيَةٌ، فِي حُلَلٍ مِنَ العِبَارَاتِ الزَّاهِيَةِ؛ تَطُوفُ عَلَىٰ النُّفُوسِ الزَّاكِيَةِ، وَتَدْنُو مِنَ القُلُوبِ الصَّافِيَةِ؛ تُوحِي إِلَيْهَا رَشَادَهَا، وَتُقَوِّمُ مِنْهَا مُنَآدَها؛ وَتَنْفِرُ بِهَا عَنْ مَدَاحِضِ المَزَالِّ، إِلىٰ جَوَادِّ الفَضْلِ وَالكَمَالِ؛ وَطَوْراً كَانَتْ تَتَكَشَّفُ لِي الجُمَلُ عَنْ وُجُوهٍ باسِرَةٍ، وَأَنْيابٍ كاشِرَةٍ وَأَرْوَاحٍ في أَشْبَاحِ النُّمورِ، وَمَخَالِبِ النُّسُورِ؛ وَقَدْ تَحَفَّزَتْ لِلوِثابِ، ثُمَّ انقَضَّتْ لِلاخْتِلابِ؛ فَخَلَبَتِ القُلُوبَ عَنْ هَوَاهَا، وَأَخَذَتِ الخَوَاطِرَ دُونَ مَرْمَاهَا؛ وَٱغْتَالَتْ فاسِدَ الأَهْواءِ، وَباطِلَ الآراءِ؛ وَأَحْياناً كُنْتُ أَشْهَدُ أَنَّ عَقْلاً نُورانِيّاً، لا يُشْبِهُ خَلْقاً جَسَدَانِيّاً؛ فَصَلَ عَنِ المَوْكِبِ الإِلَهِيِّ، وَٱتَّصَلَ بِالرُّوحِ الإِنْسَانِيِّ؛ فَخَلَعَهُ عَنْ غَاشِيَاتِ الطَّبِيعَةِ وَسَما بِهِ إِلىٰ المَلَكُوتِ الأَعْلَىٰ، وَنَمَا بِهِ إِلىٰ مَشْهَدِ النُّورِ الأَجْلَىٰ؛ وَسَكَنَ به إِلىٰ عَمَارِ جَانِبِ التَّقْدِيسِ، بَعْدَ اسْتِخْلاصِهِ مِنْ شَوَائِبِ التَّلْبِيسِ؛ وَآناتٍ كَأَنِّي أَسْمَعُ خَطِيبَ الحِكْمَةِ، يُنادِي بِأَعْلِياءِ الْكَلِمَةِ، وَأَوْلِياءِ أَمْرِ الأُمَّةِ؛ يُعَرِّفُهُمْ مَوَاقِعَ الصَّوابِ، وَيُبَصِّرُهُمْ مَوَاضِعَ الارْتِيابِ، وَيُحَذِّرُهُمْ

مَزَالِقَ الاضْطِرابِ؛ وَيُرْشِدُهُمْ إِلىٰ دَقَائِقِ السِّيَاسَةِ، وَيَهْدِيهِمْ طَرِيقَ الْكِيَاسَةِ، وَيَرْتَفِعُ بِهِمْ إِلىٰ مِنَصَّاتِ الرَّآسَةِ؛ وَيُصْعِدُهُمْ شَرَفَ التَّدْبِيرِ، وَيُشْرِفُ بِهِمْ عَلَىٰ حُسْنِ المَصِيرِ.



بَابُ
الأَدَبِ وَالْحِكْمَةِ

قِسْمُ المَنْظُومِ



الكَرَمُ

«لحاتِمِ الطَّائِيِّ»(١)

[الطويل]

أَمَــاوِيَّ إِنَّ الــمَــالَ غَــادٍ وَرَائِــحُ
وَيَبْقَىٰ مِنَ المالِ الأَحادِيثُ وَالذِّكْرُ

أَمَــاوِيَّ إِنِّــي لا أَقُــولُ لِــسَــائِــلٍ
إِذَا جَاءَ يَوْماً حَلَّ في مَالِنا النَّذْرُ

أَمَــاوِيَّ إِمَّــا مــانِــعٌ فَــمُــبَــيَّــنٌ
وَإِمَّـا عَـطـاءٌ لا يُـنَـهْـنِـهُـهُ الـزَّجْـرُ

أَمَـاوِيَّ إِنْ يُـصْـبِـحْ صَـدَايَ بِـقَـفْـرَةٍ
مِـنَ الأَرْضِ لا مَـاءٌ لَـدَيَّ ولاَ خَـمْـرُ

تَـرَيْ أَنَّ مَـا أَنْـفَـقْـتُ لَـمْ يَـكُ ضَـرَّنِـي
وَأَنَّ يَـدِي مِـمَّـا بَـخِـلَـتْ بِـهِ صِـفْـرُ

(١) «حاتم [بن عبد الله] الطائي» [... ـ ٤٦ق.هـ = ... ـ ٥٧٨م].

هُوَ أَحَدُ شُعراءِ الجاهِلِيَّةِ المُجِيدِين، وَأَكْثَرُ شِعْرِهِ في تأييدِ ذَلِكَ الخُلُقِ العَظِيمِ، خُلُقِ الجُودِ وَالإِحْسانِ الذي كان مُتَجَمِّلاً به.

الإِيثَارُ

«لحاتِمِ الطَّائِيِّ أَيْضاً»

[الطويل]

وَمَا أَنا بِالسَّاعِي بِفَضْلِ زِمَامِها
لِتَشْرَبَ ماءَ الحَوْضِ قَبْلَ الرَّكائِبِ

وَمَا أَنا بِالطَّاوِي حَقِيبَةَ رَحْلِهَا
لِأَبْعَثَها خَفًّا[١] وَأَتْرُكَ صَاحِبِي

إِذَا كُنْتَ رَبًّا لِلْقَلُوصِ فَلاَ تَدَعْ
رَفِيقَكَ يَمْشِي خَلْفَها غَيْرَ رَاكِبِ

أَنِخْها فَأَرْدِفْهُ فَإِنْ حَمَلَتْكُمَا
فَذَاكَ وَإِنْ كَانَ العِقَابُ[٢] فَعاقِبِ

---

(١) يُقالُ: خَفَّ في سَفَرِهِ خَفّاً: إذا قَلَّ ثِقَلُهُ.

(٢) يُقالُ: عاقَبَ فلانٌ فلاناً في الرَّاحِلَةِ: إذا رَكِبَ هو مَرَّةً ورَكِبَ الآخَرُ أُخْرَىٰ.

ذَمُّ الغِيبَةِ

«لِكَعْبِ بْنِ زُهَيْرٍ»[١]

[السريع]

مَـقَـالَـةُ الـسُّـوءِ إِلَـىٰ أَهْـلِـهَـا
أَسْـرَعُ مِـنْ مُـنْـحَـدَرٍ سَـائِـلِ
وَمَـنْ دَعَـا الـنَّـاسَ إِلَـىٰ ذَمِّـهِ
ذَمُّـوهُ بِـٱلْـحَـقِّ وَبِـالـبَـاطِـلِ[٢]

ذَمُّ الغَيْرَةِ

«لِبَعْضِ الشُّعَراءِ المُتَقَدِّمِينَ»

[السريع]

مَـا أَحْـسَـنَ الـغَـيْـرَةَ فـي حِـيـنِـهـا
وَأَقْـبَـحَ الـغَـيْـرَةَ فـي كُـلِّ حِـيـنِ

---

(١) «كَعْبُ بن زُهَيْر» [... ـ ٢٦هـ = ... ـ ٦٤٥م].
هُوَ أَحَدُ الشُّعراءِ المُخَضْرَمِين، وصاحِبُ اللامِيَّةِ المشْهُورَةِ الَّتِي مَدَحَ بها النبيَّ ﷺ، وهي إحْدَىٰ المَشُوباتِ، وَقد وَرِثَ الشِّعرَ عن أبيه زُهَيْرِ بن أَبِي سُلْمَىٰ أَحَدِ أَصْحابِ المُعَلَّقَات.

(٢) [وتنسب هذه الأبيات أيضاً إلى عبد الله بن محمد، ابن المعتز (٢٤٧ ـ ٢٩٦هـ = ٨٦١ ـ ٩٠٩م)].

مَــنْ لَــمْ يَــزَلْ مُــتَّــهِــمــاً عِــرْسَــهُ
مُــنَــاصِــبــاً فِــيــهــا لِــرَيْــبِ الــظُّــنُــونِ
أَوْشَــكَ أَنْ يُــغْــرِيــهَــا بِــالَّــذِي
يَــخَــافُ أَنْ يُــبْــرِزَهــا لِــلْــعُــيُــونِ
حَــسْــبُــكَ مِــنْ تَــحْــصِــيــنِــهــا وَضْــعُــهــا
مِــنْــكَ إِلَــىٰ عِــرْضٍ صَــحِــيــحٍ وَدِيــنِ
لا تَــطَّــلِــعْ مِــنْــكَ عَــلَــىٰ رِيــبَــةٍ
فَــيَــتْــبَــعَ الــمَــقْــرُونُ حَــبْــلَ الــقَــرِيــنِ[1]

فَضْلُ الأَناةِ

«لِلقُطَامِي»[2]

[البسيط]

لَــيْــسَ الــجَــدِيــدُ مُــقِــيــمــاً فــي بَــشَــاشَــتِــهِ
إِلاّ قَــلِــيــلاً وَلاَ ذُو خُــلَّــةٍ يَــصِــلُ

---

(١) جَمَعَتْ هذه الأَبياتُ القَلِيلَةُ جَمِيعَ ما تَفَرَّقَ في كِتاباتِ الكُتَّابِ الاجْتِماعِيّينَ الَّذِينَ يُنْشِئُونَ المَقالاتِ وَيُدَوِّنُونَ الكُتُبَ في هذا المَعْنَىٰ الصَّغِيرِ، وَهُوَ أَنَّ السَّبِيلَ الوَحِيدَ إِلىٰ عِفَّةِ المَرْأَةِ وَاسْتِقامَتِها عِفَّةُ زَوْجِها واستقامَتُهُ، وَأَنَّ سُوءَ الظَّنِّ بها أَكْبَرُ باعثٍ لها على الوقوعِ فيما اتُّهِمَتْ بِهِ.

(٢) «القُطَامِي» [بِفَتحِ القاف وضَمِّها] [... ـ نحو ١٣٠هـ = ... ـ نحو ٧٤٧م]. =

وَالْـعَـيْـشُ لا عَـيْـشَ إِلاَّ مَـا تَـقَـرُّ بِـهِ
عَـيْـنٌ وَلاَ حَـالٌ إِلاَّ سَـوْفَ تَـنْـتَـقِـلُ

وَالـنَّـاسُ مَـنْ يَـلْـقَ خَـيْـراً قَـائِـلُـونَ لَـهُ
مَـا يَـشْـتَـهِـي وَلِأُمِّ الـمُـخْـطِـىءِ الـهَـبَـلُ[1]

قَـدَ يُـدْرِكُ الـمُـتَـأَنِّـي بَـعْـضَ حَـاجَـتِـهِ
وَقَـدْ يَـكُـونُ مَـعَ الـمُـسْـتَـعْـجِـلِ الـزَّلَـلُ

= هو عَمْرو بن تُيَيْم [بل عُمَيْر بن شُيَيْم] التَّغْلِبي، كان نَصْرانِياً، معاصِراً للأخْطَل، وَلَه شِعْرٌ يُعَدُّ من الطبقة الأولىٰ، وهو أحَدُ أصْحابِ المَشُوباتِ، وَمَشُوبَتُهُ مَطْلَعُها:

إِنّـا مُـحَـيُّـوكَ فَـاسْـلَـمْ أَيُّـهـا الـطَّـلَـلُ
وَإِنْ بَـلِـيـتَ وَإِنْ طـالَـتْ بِـكَ الـطُّـوَلُ

(١) يَتَضَمَّنُ هذا البيتُ أَصْدَقَ حَقيقةٍ من حقائِقِ رُوحِ الاجْتماعِ، وهي أَنَّ الناسَ يجرون في الحُكْم على الرِّجالِ على أحْكام المصادَفات والاتِّفاقاتِ، فَمَنْ ساعَدَهُ الحَظُّ فَنَجَحَ فهو عِنْدَهُمْ أَعْقَلُ النَّاسِ، وَإِنْ كانَ أَجْهَلَهُمْ؛ ومن هَفا في حياتِهِ هَفْوةً فخابَ في عَمَلِهِ فهو عندهم أجْهَلُ النَّاسِ، وَإِنْ كانَ أعْقَلَهُمْ.

السَّعادَةُ

«لِبَعْضِ الشُّعَراءِ المُتَقَدِّمِينَ»

[نسبه بَعْضُهُمْ لحسان بن ثابت]

[الطويل]

وَلَيْسَ الغِنَىٰ وَالفَقْرُ مِنْ حِيلَةِ الفَتَىٰ
وَلَـكِـنْ أَحـاظٍ قُـسِّـمَـتْ وَجُـدُودُ

إذَا الـمَـرْءُ أَعْـيَـتْـهُ الـمُـرُوءَةُ نـاشِـئـاً
فَـمَـطْـلَـبُـهـا كَـهْـلاً عَـلَـيْـهِ شَـدِيـدُ(١)

وَكَـأَيٍ(٢) رَأَيْـنَـا مِـنْ غَـنِـيٍّ مُـذَمَّـمٍ
وَصُـعْـلُـوكِ قَـوْمٍ مَـاتَ وَهُـوَ حَـمِـيـدُ

وَإِنَّ آمْـرَأً يُـمْـسِـي وَيُـصْـبِـحُ سَـالِـمـاً
مِـنَ الـنَّـاسِ إلاّ مَـا جَـنَـىٰ لَـسَـعِـيـدُ

---

(١) يُشِيرُ في هذا البَيْتِ إِلى قاعِدَةٍ من قواعِدِ التَّرْبِيَةِ، وَهي أَنَّ التَّرْبِيَةَ على الأخْلاقِ الكَرِيمَةِ إنْ لم تَكُنْ في زَمَنِ الصِّغَرِ فَقَلَّمَا تُفِيدُ بعد ذلك.

(٢) [في الأصل: وكائن].

كَرَمُ الضِّيَافَةِ

«لِبَعْضِ الشُّعراءِ المُتَقَدِّمِينَ»

[الطويل]

أُضاحِكُ ضَيْفِي قَبْلَ إِنْزالِ رَحْلِهِ
وَيَخْصُبُ عِنْدِي وَالمَحَلُّ جَدِيبُ

وَمَا الخِصْبُ لِلأَضْيَافِ أَنْ يَكْثُرَ القِرَىٰ
وَلَكِنَّمَا وَجْهُ الكَرِيمِ خَصِيبُ

التَّجَلُّدُ

«لِبَعْضِ الشُّعَرَاءِ المُتَقَدِّمِينَ»

[البسيط]

قَدْ عِشْتُ في النَّاسِ أَطْواراً عَلَىٰ طُرُقٍ
شَتَّىٰ وَقاسَيْتُ فِيهَا اللِّينَ وَالفَظَعَا

لاَ يَمْلأُ الهَوْلَ صَدْرِي قَبْلَ مَوْقِعِهِ
وَلاَ أَضِيقُ بِهِ ذَرْعاً إِذَا وَقَعَا

القَنَاعَةُ

«لِلعَتَّابِي»[١]

[الطويل]

تَـلُـومُ عَـلَـىٰ تَـرْكِ الـغِـنَـىٰ بـاهِـلِـيَّـةٌ
زَوَىٰ[٢] الفَقْرُ عَنْهَا كُلَّ طَرْفٍ وَتَالِدِ

رَأَتْ حَوْلَها النِّسْوانَ يَرْفُلْنَ فِي الثَّرَىٰ
مُـقَـلَّـدَةً أَعْـنـاقُـهـا بِـالـقَـلائِـدِ

أَسَـرَّكِ أَنِّـي نِـلْـتُ مـا نَـالَ جَـعْـفَـرٌ
مِنَ العَيْشِ أَوْ مَا نَالَ يَحْيَىٰ بْنُ خَالِدِ

وَأَنَّ أَمِـيـرَ الـمُـؤْمِـنِـيـنَ أَغَـصَّـنِـي[٣]
مُـغَـصَّـهـمـا بِـالـمُـرْهَـفـاتِ الـبَـوارِدِ

دَعِـينِـي تَـجِـئْـنِـي مِـيـتَـتِـي مُـطْـمَـئِـنَّـةً
وَلَـمْ أَتَـجَـشَّـمْ هَـوْلَ تِـلْـكَ الـمَـوارِدِ

---

(١) «العَتَّابي» [... ـ ٢٢٠هـ = ... ـ ٨٣٥م].
هو كُلْثوم بن عَمْرو، أَحَدُ مَشْهُوري الشعراءِ في عصر الرَّشِيدِ العبَّاسِي وأَوْلادِهِ، وشِعْرُهُ لا يَرْتَقِي إلى الجيد ولا يَنْحَطُّ إلى الرَّدِيء.

(٢) زوىٰ الشَيْءَ عَنْهُ: نحَّاهُ وصَرَفَهُ.

(٣) أغصَّهُ بكذا: جعله يَغَصُّ به.

رَأَيْتُ رَفِيعَاتِ الأُمُورِ مَشُوبَةً
بِمُسْتَوْدَعاتٍ في بُطُونِ الأَساوِدِ(١)

مَكارِمُ الأَخْلاقِ

«لِبَعْضِ الشُّعراءِ المُتَقَدِّمِين»

[الطويل]

يُعاتِبُنِي في الدَّيْنِ قَوْمِي وَإِنَّمَا
دُيُونِيَ في أَشْيَاءَ تُكْسِبُهُمْ حَمْدَا

أَسُدُّ بِهِ مَا قَدْ أَخَلُّوا وَضَيَّعُوا
ثُغُورَ حُقُوقٍ ما أَطَاقُوا لَهَا سَدَّا

وَفِي جَفْنَةٍ مَا يُغْلَقُ البَابُ دُونَهَا
مُكَلَّلَةٍ لَحْماً مُدَفَّقَةٍ ثُرْدَا(٢)

وَفِي فَرَسٍ نَهْدٍ عَتِيقٍ(٣) جَعلْتُهُ
حِجاباً لِبَيْتِي ثُمَّ أَخْدَمْتُهُ عَبْدَا

وَإِنَّ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَ أَبِي
وَبَيْنَ بَنِي عَمِّي لَمُخْتَلِفٌ جِدَّا

---

(١) الأساود: نوعٌ من الحَيّات.

(٢) الجَفْنة: القَصْعة؛ والثُّرُدُ، جمع ثَرِيدٍ.

(٣) الفَرَس النَّهْدُ: القَوِيُّ؛ وَالعَتِيقُ: الكَرِيمُ.

فَإِنْ أَكَلُوا لَحْمِي وَفَرْتُ لُحُومَهُمْ
وَإِنْ هَدَمُوا مَجْدِي بَنَيْتُ لَهُمْ مَجْدَا

وَإِنْ ضَيَّعُوا غَيْبِي حَفِظْتُ غُيُوبَهُمْ
وَإِنْ هُمْ هَوَوْا غَيِّي هَوَيْتُ لَهُمْ رُشْدَا

وَإِنْ زَجَرُوا طَيْراً بِنَحْسٍ تَمُرُّ بِي
زَجَرْتُ لَهُمْ طَيْراً تَمُرُّ بِهِمْ سَعْدَا[1]

وَلاَ أَحْمِلُ الحِقْدَ القَدِيمَ عَلَيْهِمُ
وَلَيْسَ رَئِيسُ القَوْمِ مَنْ يَحْمِلُ الحِقْدَا

لَهُمْ جُلُّ مالِي إِنْ تَتَابَعَ لي غِنَىً
وَإِنْ قَلَّ مالِي لَمْ أُكَلِّفْهُمُ رِفْدَا[2]

وَإِنِّي لَعَبْدُ الضَّيْفِ ما دَامَ نَازِلاً
وَمَا شِيمَةٌ لِي غَيْرُهَا تُشْبِهُ العَبْدَا

---

(١) يريدُ أَنَّهُمْ إِذا أَرادُوا به شَرّاً أرادَ بِهِمْ خَيْراً.

(٢) الرِّفْدُ: العَطاءُ.

الصَّفحُ وَالإِغضاءُ

«للشَّرِيفِ الرَّضِيِّ»[1]

[الطويل]

وَكَمْ صَاحِبٍ كَالرُّمْحِ زَاغَتْ كُعُوبُهُ[2]
أَبَىٰ بَعْدَ طُولِ الغَمْزِ أنْ يَتَقَوَّما

تَقَبَّلْتُ مِنْهُ ظَاهِراً مُتَبَلِّجاً
وَأَدْمَجَ دُونِي باطناً مُتَجَهِّماً[3]

وَلَوْ أَنَّنِي كَشَّفْتُهُ عَنْ ضَمِيرِهِ
أَقَمْتُ عَلَىٰ مَا بَيْنَنَا اليَوْمَ مَأْتَمَا

---

(١) «الشَّرِيفُ الرَّضِي» [محمد بن الحسين] [٣٥٩ ـ ٤٠٦هـ = ٩٧٠ ـ ١٠١٥م].
هُوَ أَحَدُ شُعراءِ الطَّبَقَةِ الأُولَىٰ، ولَهُ في شِعْرِهِ مَذْهَبٌ خاصٌّ بِهِ لَمْ يَتَّبِعْ فيه أحداً، قَدْ جَمَعَ فيه بين البَداوَةِ والحضارَةِ وَالجَلالِ وَالجَمالِ، وإنْ صَحَّ أنَّ له في كتاب «نَهْجُ البلاغة»، شَيْئاً كثيراً، كانَ أكْتَبَ الكُتَّابِ، كما أنَّهُ أشْعَرُ الشعراء.

(٢) زاغَ: مال؛ وكُعُوبُ الرُّمح: عُقَدُهُ.

(٣) تَجَهَّمَهُ: استَقْبَلَهُ بوجْهٍ كريهٍ.

دَعِ الـمَـرْءَ مَـطْـوِيـاً عَـلَـىٰ مَـا ذَمَـمْـتَـهُ
وَلاَ تَـنْـشُـرِ الـدَّاءَ الـعُـضَـالَ فَـتَـنْـدَمَـا
إِذَا الـعُـضْـوُ لَـمْ يُـؤْلِـمْـكَ إِلاّ قَـطَـعْـتَـهُ
عَـلَـىٰ مَـضَـضٍ لَـمْ تُـبْـقِ لَـحْـمـاً وَلاَ دَمَـا

أَدَبُ الحَدِيثِ

«لأبي تمّامٍ»

[الكامل]

مَـنْ لِـي بِـإِنْـسَـانٍ إِذَا أَغْـضَـبْـتُـهُ
وَجَـهِـلْـتُ كـانَ الـحِـلْـمُ رَدَّ جَـوابِـهِ
وَإِذا طَـرِبْـتُ إِلـىٰ الـمُـدامِ شَـرِبْـتُ مِـنْ
أَخْـلاقِـهِ وَسَـكِـرتُ مِـنْ آدابِـهِ
وَتَـراهُ يُـصْـغِـي لِـلْـحَـدِيـثِ بِـقَـلْـبِـهِ
وَبِـسَـمْـعِـهِ وَلَـعَـلَّـهُ أَدْرَىٰ بِـهِ[1]

---

(١) في هذا البَيْتِ أَدَبٌ رَقِيقٌ من آداب العِشْرَةِ قَلَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَسْتَطِيعُ الصَّبْرَ عَلَيْهِ، وَلا أَعْرِفُ في الرِّياءِ نَوعاً مُسْتَحْسَناً غير هذا النَّوعِ.

الرِّياءُ

«لابْنِ الرُّومي»

[السريع]

أَعْـلَـمْ بِـأَنَّ الـنَّـاسَ مِـنْ طِـيـنَـةٍ
يَـصْـدُقُ فـي الـثَّـلْـبِ لَـهَـا الـثَّـالِـبُ

لَـوْلاَ عِـلاجُ الـنَّـاسِ أَخْـلاقَـهُـمْ
إِذاً لَـفَـاحَ الـحَـمَـأُ الـلازِبُ[1]

العِفَّةُ

«لِلَيلَى الأَخْيَلِيَّة»[2]

[الطويل]

وَذِي حَـاجَـةٍ قُـلْـنَـا لَـهُ لا تَـبُـحْ بِـهـا
فَـلَـيْـسَ إِلَـيْـهَـا مـا حَـيِـيـتَ سَـبِـيـلُ

(١) الحَمَأُ: الطِّينُ المُنْتِنِ؛ واللازِب: اللاصِقُ المُتداخِلُ.

(٢) «لَيْلَى [بنت عبد الله] الأَخْيَلِيَّة» [... ـ نحو ٨٠هـ = ... ـ نحو ٧٠٠م].

لا شكَّ أنّها والخَنْسَاءَ أَشْعَرُ الشَّواعِرِ، وَلِلَيْلَى من الشِّعْرِ في المديح والغَزَلِ ما يُشْبِهُ شِعْرَ الرِّجالِ أحْياناً.

لنا صَاحِبٌ لا يَنْبَغِي أَنْ نَخُونَهُ
وَأَنْتَ لِأُخْرَىٰ صَاحِبٌ وخَلِيلُ(١)

القَنَاعَةُ

«لابنِ الرُّومي»

[الخفيف]

مَرْحَباً بِالْكَفافِ يَأْتِي عَفِيًّا
وَعَلَىٰ المُتْعِباتِ ذَيْلُ العَفاءِ(٢)

ضِلَّةٌ لِأَمْرِي يُشَمِّرُ فِي الجَمْـ
ـعِ لِعَيْشٍ مُشَمِّرٌ لِلْفَنَاءِ

يَحْسَبُ الحَظَّ كُلَّهُ فِي يَدَيْهِ
وَهُوَ مِنْهُ عَلَىٰ مَدَىٰ الجَوْزَاءِ

لَيْسَ فِي آجِلِ النَّعِيمِ لَهُ حَظٌّ
وَمَا ذَاقَ عاجِلُ النَّعْماءِ

---

(١) لا أعرِفُ كنايَةً أفضَلَ من هذه الكِنايَةِ في قَوْلِها: وذِي حاجَةٍ؛ والبيتُ الثاني أفضلُ مقالٍ يُؤْتَىٰ بِهِ دَلِيلاً على شَرَفِ أخْلاقِ المرأةِ العربيَّةِ ومَعْرِفَتِها بالأصْلِ الأوَّلِ من أُصُولِ حُقُوقِ الزَّوجِيَّةِ، وَإِنَّها إنْ لم تَنْفِرْ من الفَحْشَاءِ عِفَّةً فإنَّها تَجْتَنِبُها وفاءً.

(٢) عَفِيّاً، أَي: عَفْواً.

ذَلِـكَ الـخـائِـبُ الـشَّـقِـيُّ وَإِنْ كَـا
نَ يَـرَىٰ أَنَّـهُ مِـنَ الـسُّـعَـداءِ

حَـسْـبُ ذِي إِرْبَـةٍ[1] وَرَأْيٍ جَـلِـيٍّ
نَـظَـرَتْ عَـيْـنُـهُ بِـلا غُـلَـوَاءِ[2]

صِـحَّـةُ ٱلْـجِـسْـمِ وَالـجَـوارِحِ وَالـعِـرْ
ضِ وَإِحْـرَازِ مُـسْـكَـةَ الـحَـوْبَـاءِ[3]

القَنَاعَةُ

«لِبَعْضِ الشُّعَرَاءِ المُتَقَدِّمِينَ»

[وَيُنسَبُ لِأَبِي العَتَاهِيَة]

[الطويل]

أُحِبُّ الـفَـتَـىٰ يَـنْـفِـي الـفَـواحِـشَ سَـمْـعُـهُ
كَـأَنَّ بِـهِ عَـنْ كُـلِّ فـاحِـشَـةٍ وَقْـرَا

سَلِيمَ دَوَاعِي الـصَّـدْرِ لا بـاسِـطاً أَذَىٰ
وَلاَ مَـانِـعـاً خَـيْـراً وَلاَ قَـائِـلاً هُـجْـرَا

---

(١) الإِرْبة: الدَّهاءُ وَالحِيلَة.

(٢) الغُلَواء: الغُلُوّ.

(٣) المُسْكَة: ما يُمْسِكُ النَّفْسَ مِنْ غِذَاءٍ، وَغَيْرِهِ؛ والحَوْباءِ: النَّفْسُ.

إِذَا مَـا أَتَـتْ مِـنْ صـاحِـبٍ لَـكَ زَلَّـةٌ
فَـكُـنْ أَنْـتَ مُـحْـتَـالاً لِـزَلَّـتِـهِ عُـذْرَا

غِنَىٰ النَّفْسِ مَا يَكْفِيكَ مِنْ سَدِّ خَلَّةٍ
فَإِنْ زَادَ شَيْئاً عَادَ ذَاكَ الغِنَىٰ فَقْرَا

حُبُّ البَنِينَ

«لِبَعْضِ الشُّعَراءِ المُتَقَدِّمِينَ»

[البسيط]

لَـوْلاَ أُمَـيْـمَـةُ لَـمْ أَجْـزَعْ مِـنَ الـعَـدَمِ
وَلَـمْ أَجُبْ في اللَّيَالِي حِنْدِسَ الظُّلَمِ

وَزَادَنِي رَغْبَةً فـي الـعَـيْشِ مَـعْـرِفَـتِي
أَنَّ الـيَـتِـيـمَـةَ يَـجْـفُـوهَـا ذَوُو الـرَّحِـمِ

أُحـاذِرُ الـفَـقْـرَ يَـوْمـاً أَنْ يُـلِـمَّ بِـهَـا
فَيَهْتِكَ السِّتْرَ عَنِ لَحْمٍ عَلَىٰ وَضَمِ

تَـهْـوَىٰ حَـيـاتِـي وَأَهْـوَىٰ مَـوْتَـهـا شَـفَـقـاً
وَالـمَـوْتُ أَكْـرَمُ نَـزَّالٍ عَـلَـىٰ الـحُـرَمِ

كِتْمانُ السِّرِّ

«لِمِسْكِينٍ الدَّارِمِيِّ»[١]

[الطويل]

وَفِتْيَانُ صِدْقٍ لَسْتُ مُطْلِعَ بَعْضِهِمْ
عَلَىٰ سِرِّ بَعْضٍ غَيْرَ أَنِّي جِمَاعُها[٢]

لِكُلِّ ٱمْرِىءٍ شِعْبٌ مِنَ القَلْبِ فَارِغٌ
وَمَوْضِعُ نَجْوَىٰ لا يُرامُ اطِّلاعُهَا[٣]

يَظَلُّونَ شَتَّىٰ فِي البَلادِ وَسِرُّهُمْ
إِلىٰ صَخْرَةٍ أَعْيَىٰ الرِّجالَ انْصِداعُهَا

---

(١) «مِسْكِينُ [ربيعة بن عامر] الدَّارِمي» [... ـ ٨٩هـ = ... ـ ٧٠٨م].

كانَ شاعِراً فَحْلاً مُجِيداً، وكان شَرِيفاً، عالي الهِمَّة، يَتَشَيَّعُ لمعاوية وَيَنْصُرُهُ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ سَهَّلَ عليه مفاتَحَةَ النَّاسِ بِبَيْعَةِ وَلَدِهِ يَزِيدَ من بَعْدِهِ، إِذْ قالَ:

إِذَا المِنْبَرُ الغَرْبِيُّ خَلاهُ رَبُّهُ
فَإِنَّ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ يَزِيدُ

(٢) يُقال: الخَمْرُ جِماعُ الإِثمِ، لأَنَّها جامِعَةٌ لِكُلِّ أَصْنافِهِ.

(٣) اطَّلع الأَمْرَ: عَلِمَهُ.

الشُّورَىٰ

«لبشّار بن بُرْدٍ»

[الطويل]

إِذَا بَلَغَ الرَّأْيُ النَّصِيحَةَ فَٱسْتَعِنْ
بِعَزْمِ نَصِيحٍ أَوْ بِتَأْيِيدِ حَازِمِ
وَلاَ تَجْعَلِ الشُّورَىٰ عَلَيْكَ غَضَاضَةً
مَكَانُ الخَوَافِي نَافِعٌ لِلْقَوادِمِ[1]
وَخَلِّ الهُوَيْنا للضَّعِيفِ وَلاَ تَكُنْ
نَؤُوماً فَإِنَّ الحَزْمَ لَيْسَ بِنَائِمِ
وَمَا خَيْرُ كَفٍّ أَمْسَكَ الغِلُّ أُخْتَهَا
وَمَا خَيْرُ سَيْفٍ لَمْ يُؤَيَّدْ بِقَائِمِ
وَحَارِبْ إِذَا لَمْ تُعْطَ إِلاّ ظُلاَمَةً
شَبَا الحَرْبِ خَيْرٌ مِنْ قَبُولِ المَظَالِمِ

---

(١) غَضاضَة: مَذلَّة؛ والخوافي: صِغارُ الرِّيشِ في مُؤَخَّر الجناح؛ وَالقَوادِم: كِبارُهُ في مُقدَّمِهِ. يريدُ أنَّ المُسْتَشِيرَ لا يَجْمُلُ بِهِ أَنْ يَزْدَرِي برأي المُشِيرِ، فَرُبَّ صَغِيرٍ يُحْتاجُ إِلَيْهِ كما تَحْتَاجُ القَوادِمُ إلى الخوافِي. [وفي رواية: فإنّ الخوافي قوّةٌ للقوادم].

وَأَدْنِ عَلَىٰ القُرْبَىٰ المُقَرِّبِ نَفْسَهُ
وَلاَ تُشْهِدِ الشُّوْرَىٰ ٱمْرأً غَيْرَ كاتِمِ
فَإِنَّكَ لا تَسْتَطْرِدُ الهَمَّ بِالمُنَىٰ
وَلاَ تَبْلُغُ العَلْيَا بِغَيْرِ المَكارِمِ
إِذَا كُنْتَ فَرْداً هَرَّكَ[1] القَوْمُ مُقْبِلاً
وَإِنْ كُنْتَ أَدْنَىٰ لَمْ تَفُزْ بِالغَنائِمِ
وَمَا قَرَعَ الأَقْوَامَ مِثْلُ مُشَيَّعٍ[2]
أَرِيبٍ وَلاَ جَلَّى العَمَىٰ مِثْلُ عَالِمِ

المَغْفِرَةُ

«لِأَبِي العَتاهِيَةِ»[3]

[الكامل]

إِنِّي شَكَرْتُ لِظَالِمِي ظُلْمِي
وَغَفَرْتُ ذَاكَ لَهُ عَلَىٰ عِلْمِي

---

(١) يقال: هَرَّهُ الكلب: إذا نَبَحَه.

(٢) المُشَيَّع: الشُّجاع.

(٣) «أَبو العَتَاهِيَة» [١٣٠ ـ ٢١١هـ = ٧٤٨ ـ ٨٢٦م].
هو أبو إسحاق إسماعيل بن القاسِم، شاعِرٌ مَطْبُوعٌ رَقِيقٌ مُجِيدٌ في الزُّهْدِ والمَدِيحِ والحِكْمَةِ، ويُعَدُّ في طَبَقَةِ بَشّار وأبي نواس، ولا أَحْسَبُهُ يَبْلُغُ هذا المَبْلَغَ كُلَّهُ.

وَرَأَيْتُهُ أَسْدَىٰ إِلَيَّ يَداً
لَمَّا أَبَانَ بِجَهْلِهِ حِلْمِي
رَجَعَتْ إساءَتُهُ عَلَيْهِ وَإِحْـ
ـسَانِي فَعادَ مُضَاعَفَ الجُرْمِ
وَغَدَوْتُ ذَا أَجْرٍ وَمَحْمَدَةٍ
وَغَدَا بِكَسْبِ الظُّلْمِ وَالإِثْمِ
فَكَأَنَّمَا الإِحْسانُ كانَ لَهُ
وَأَنَا المُسِيءُ إِلَيْهِ في ٱلْحُكْمِ
مَا زَالَ يَظْلِمُنِي وَأَرْحَمُهُ
حَتَّىٰ بَكَيْتُ لَهُ مِنَ الظُّلْمِ

إكْرامُ النَّفْسِ

«لابْنِ مُطَيْرٍ»[1]

[الطويل]

وَمَنْ يَتَّبِعْ ما يُعْجِبُ النَّفْسَ لَمْ يَزَلْ
مُطِيعاً لَهَا في فِعْلِ شَيْءٍ يَضِيرُهَا

---

(١) «ابن مُطَيْر» [... ـ ١٦٩هـ =... ـ ٧٨٥م].
هو الحسين بن مُطَيْر، من مُخَضْرَمي الدولتين الأموية والعبّاسية، وشِعْرُهُ على قِلَّتِهِ غايَةٌ في المَتانَةِ والعذوبةِ، وله في النَّسِيبِ أَرَقُّ الشِّعْر وَأَسْلَسُهُ.

فَـنَـفْـسَـكَ أكْـرِمْ مِـنْ أُمُـورٍ كَـثِـيـرَةٍ
فَـمَـا لَـكَ نَـفْـسٌ بَـعْـدَهـا تَـسْـتَـعِـيـرُهَـا

السَّعَادَةُ النَّفْسِيَّةُ

«لِبَشَّار»

[الطويل]

وَمَـا خَـابَ بَـيْـنَ ٱللَّـهِ وَالـنَّـاسِ عَـامِـلٌ
لَهُ فِي التُّقَىٰ أَوْ فِي الـمَـحَامِدِ سُوقُ
وَلاَ ضَـاقَ فَـضْـلُ ٱللَّـهِ عَـنْ مُـتَـعَـفِّـفٍ
وَلَـكِـنَّ أَخْـلاقَ الـرِّجَـالِ تَـضِـيـقُ

ٱلحُرِّيَّةُ

«لأَبِي تَمَّامٍ»

[الطويل]

سَأَصْرِفُ وَجْهِي عَنْ بِلادٍ غَدَا بِهَا
لِـسَـانِـيَ مَـغْـقُـولاً وَقَـلْـبِـي مُـقْـفَـلا
وَإِنَّ صَـرِيـحَ الـحَـزْمِ وَالـرَّأْيِ لامْـرِئٍ
إِذَا بَـلَـغَـتْـهُ الـشَّـمْـسُ أَنْ يَـتَـحَـوَّلا

عاقِبَةُ الجَهالَةِ

«لأَبِي نُواسٍ»[١]

[الكامل]

وَلَقَدْ نَهَزْتُ مَعَ الْغُوَاةِ بِدَلْوِهِمْ
وَأَسَمْتُ[٢] سَرحَ اللَّهْوِ حَيْثُ أَسَامُوا

وَبَلَغْتُ مَا بَلَغَ ٱمْرُؤٌ بِشَبَابِهِ
فَإِذَا عُصَارَةُ كُلِّ ذَاكَ أَثَامُ

الصَّداقَةُ الكَاذِبَةُ

«لأبي تَمَّامٍ»

[الكامل]

إِنْ شِئْتَ أَنْ يَسْوَدَّ ظَنُّكَ كُلُّهُ
فَأَجِلْهُ في هَذَا السَّوادِ الأَعْظَمِ

---

(١) «أبو نُواس» [١٤٦ ـ ١٩٨هـ = ٧٦٣ ـ ٨١٤م].
هو الحسن بن هانيء الحَكمي، سَيِّدُ المُحْدَثِين، والمُبْتَكِرُ الأَوَّلُ لحضارَةِ الشِّعْرِ ومَدَنِيَّتِهِ، وصاحِبُ المعاني الغريبَةِ الَّتِي لم يُسْبَقْ إِلَيها في الأثوابِ الرَّقِيقَةِ التي لا يُجارَىٰ فيها.

(٢) أسام ناقته: أَرْعاها.

لَيْسَ الصَّدِيقُ بِمَنْ يُعِيرُكَ ظَاهِراً
مُتَبَسِّماً عَنْ بَاطِنٍ مُتَجَهِّمِ

الثِّقَةُ

«لِبَعْضِ الشُّعَراءِ المُحْدَثِين»

[المنسرح]

فِيَّ انْقِبَاضٌ وَحِشْمَةٌ فَإِذَا
صَادَفْتُ أَهْلَ الوَفَاءِ وَالْكَرَمِ
أَرْسَلْتُ نَفْسِي عَلَىٰ سَجِيَّتِها
وَقُلْتُ مَا قُلْتُ غَيْرَ مُحْتَشِمِ

مَكارِمُ الأَخْلاقِ

«لِلشَّرِيفِ الرَّضِي»

[الطويل]

يَصُولُ عَلَيَّ ٱلْجَاهِلُونَ وَاعْتَلِي
وَيُعْجِمُ فِيَّ القَائِلُونَ وَأُعْرِبُ
يَرَوْنَ احْتِمالِي غُصَّةً وَيَزِيدُهُمْ
لَواعِجُ ضِغْنٍ أَنَّنِي لَسْتُ أَغْضَبُ
وَقُورٌ فَلاَ الأَلْحَانُ تَأْسِرُ عَزْمَتِي
وَلاَ تَمْكُرُ الصَّهْباءُ بِي حِينَ أَشْرَبُ

وَلا أَعْـرِفُ الـفَـحْـشَـاءَ إلاَّ بِـوَصْـفِـهَـا
وَلاَ أَنْـطِـقُ الـعَـوْرَاءَ وَالْـقَـلْـبُ مُـغْـضَـبُ

تَـحْـلُّـمٌ عَـنْ كَـرِّ الـقَـوَارِضِ شِـيـمَـتِـي
كَـأَنَّ مُـعِـيـدَ الـذَّمِّ بِـالـمَـدْحِ مُـطْـنِـبُ

لِسَانِي حَصَاةٌ يَقْرَعُ الجَهْلَ بالحِجَا
إِذَا نَـالَ مِـنِّـي الْـعَـاضِـهُ[1] الـمُـتَـأَوِّبُ

وَلَـسْـتُ بِـرَاضٍ أَنْ تَـمَـسَّ عَـزَائِـمِـي
فُـضَـالاتِ ما يُـعْـطِـي الـزَّمانُ وَيَـسْـلُـبُ

غَـرائِـبُ آدابٍ حَـبَـانِـي بِـحِـفْـظِـهـا
زَمانِـي وَصَـرْفُ الـدَّهْـرِ نِـعْـمَ الـمُـؤَدِّبُ

القَنَاعَةُ

«لأبي تَمَّامٍ»

[الكامل]

مَـنْ زاحَـفَ الأَيَّـامَ ثُـمَّ عَـبَـا[2] لَـهَـا
غَـيْـرَ الـقَـنَـاعَـةِ لَـمْ يَـزَلْ مَـفْـلُـولا

---

(١) العاضِهُ: الكاذِبُ.

(٢) عَبَا: أَعَدَّ وَهَيَّأَ.

مَنْ كَانَ مَرْعَىٰ عَزْمِهِ وَهُمُومِهِ رَوْضُ
الأَمَانِي لَمْ يَزَلْ مَهْزُولاَ
لَوْ جَازَ سُلْطَانُ القُنُوعِ وَحُكْمُهُ
في الأَرْضِ ما كَانَ القَلِيلُ قَلِيلا

الصَّدِيقُ

«لأَبِي العَتاهِيَةِ»

[الطويل]
عَذِيرِي مِنَ الإِنْسانِ لا إِنْ جَفَوْتُهُ
صَفَا لِي وَلا إِنْ صِرْتُ طَوْعَ يَدَيْهِ
وَإِنِّي لَمُشْتَاقٌ إِلىٰ ظِلِّ صَاحِبٍ
يَرُوقُ وَيَصْفُو إِنْ كَدَرْتُ عَلَيْهِ

كَلِماتٌ في الحِكْمَةِ

«لِلمَعَرِّي»[1]

[الطويل]
أَيَأْتِي نَبِيٌّ يَجْعَلُ الْخَمْرَ طَلْقَةً[2]
فَتَحْمِلَ شَيْئاً مِنْ هُمُومِي وَأَحْزَانِي

---

(١) «المَعَرِّي» [٣٦٣ ـ ٤٤٩هـ = ٩٧٣ ـ ١٠٥٧م].
هو أحمد [بن عبد الله] بن سليمان، الشاعر الفيلسوف المشهور، غَلَبَ عِلْمُهُ على شِعْرِهِ فلم يجيء مَطْبُوعاً إلا نادراً، على أَنَّهُ أَقْدَرُ مَنْ نَظَمَ الحِكْمَةَ في الشِّعْرِ، وَقَلَّ أنْ يُجِيدَ ذَلك أحدٌ.

(٢) طَلْقَةً: حَلالاً.

وَهَيْهَاتَ لَوْ حَلَّتْ لَمَا كُنْتُ شَارِباً
مُخَفِّفَةَ في الحِلْمِ[1] كَفَّةَ مِيزانِي

المَلِكُ أَجِيرُ الرَّعِيَّةِ

[الكامل]

مُلَّ المُقَامُ فَكَمْ أُعاشِرُ أُمَّةً
أَمَرَتْ بِغَيْرِ صَلاحِها أُمَرَاؤُهَا
ظَلَمُوا الرَّعِيَّةَ وَاسْتَجَازُوا كَيْدَها
فَعَدَوْا مَصالِحَهَا وَهُمْ أُجَرَاؤُهَا

رِيَاءُ الوُعَّاظِ

[الوافر]

رُوَيْدَكَ قَدْ غُرِرْتَ وَأَنْتَ حُرٌّ
بِصاحِبِ حِيلَةٍ يَعِظُ النِّسَاءَ
يُحَرِّمُ فِيكُمُ الصَّهْبَاءَ صُبْحاً
وَيَشْرَبُهَا عَلَىٰ عَمْدٍ مَسَاءَ

(١) الحِلْمُ هنا: العَقْلُ.

يَقُولُ لَكُمْ غَدَوْتُ بِلا كِساءٍ
وَفِي لَذَّاتِها رَهَنَ الكِساءَ
إِذَا فَعَلَ الفَتَىٰ مَا عَنْهُ يَنْهَىٰ
فَمِنَ جِهَتَيْنِ لا جِهَةٍ أَسَاءَ

لا عِلاَجَ لِشُرُورِ العالَمِ

[الطويل]

إِذَا كَانَ عِلْمُ النَّاسِ لَيْسَ بِنَافِعٍ
وَلاَ دَافِعٍ فَالخُسْرُ لِلعُلَماءِ
قَضَىٰ ٱللَّهُ فِينَا بِالَّذِي هُوَ كائِنٌ
فَتَمَّ وَضاعَتْ حِكْمَةُ الحُكَماءِ

سُلْطانُ العَقْلِ

[الخفيف]

يَرْتَجِي النَّاسُ أَنْ يَقُومَ إِمَامٌ
نَاطِقٌ فِي الكَتِيبَةِ الخَرْسَاءِ
كَذَبَ الظَّنُّ لا إِمامَ سِوَىٰ العَقْـ
ـلُ مُشِيراً في صُبْحِهِ وَالمَساءِ

إِنَّـمَـا هَـذِهِ الـمَـذَاهِـبُ أَسْـبَـا
بٌ لِـجَـلْـبِ الـدُّنْـيَـا إِلـىٰ الـرُّؤَسـاءِ

رِياءُ العُبَّادِ

[الطويل]

لَعَلَّ أُنَاساً في المَحارِيبِ خُوِّفُوا
بِآيٍ كَنَاسٍ في المَشَارِبِ أَطْرَبُوا
إذا رَامَ كَيْداً بِالصَّلاةِ مُقِيمُهَا
فَتارِكُهَا عَمْداً إِلىٰ ٱللَّهِ أَقْرَبُ

شُرُورُ العَالَمِ

[السريع]

يَـحْـسُـنُ مَـرْأَىٰ لِـبَـنِـي آدَمٍ
وَكُـلُّـهُـمْ فـي الـذَّوْقِ لا يَـعْـذُبُ
مـا فِـيـهِـمُ بَـرٌّ ولا نـاسِـكٌ
إلاّ إِلـىٰ نَـفْـعٍ لَـهُ يَـجْـذُبُ
أَفْـضَـلُ مِـنْ أَفْـضَـلِـهِـمْ صَـخْـرَةٌ
لاَ تَـظْـلِـمُ الـنَّـاسَ وَلاَ تَـكْـذِبُ

المَوْتُ طَهارَةٌ مِنَ الْحَيَاةِ

[المتقارب]

أَيَــا جَـسَــدَ الـمَـرْءِ مَـاذَا دَهَـاكَ
وَقَـدْ كُـنْـتَ مِـنْ عُـنْـصُـرٍ طَـيِّـبِ
تَـصِـيـرُ طَـهُـوراً إذا مَـا رَجَـعْـتَ
إِلـى الأَصْـلِ كَـالـمَـطَـرِ الـصَّـيِّـبِ

قِسْمَةُ الأَرْزَاقِ

[الطويل]

لَـقَـدْ جَـاءَنـا هَـذَا الـشِّـتَـاءُ وَتَـحْـتَـهُ
فَـقِـيـرٌ مُـعَـرًّىٰ أَوْ أَمِـيـرٌ مُـدَوَّجُ
وَقَـدْ يُـرْزَقُ الـمَـجْـدُودُ أَقـواتَ أُمَّـةٍ
وَيُـحْـرَمُ قُـوتـاً واحِـدٌ هُـوَ أَحْـوَجُ

ذَمُّ الْبِطالَة

[الطويل]

وَيُـعْـجِـبُـنِـي دَأْبُ الَّـذِيـنَ تَـرَهَّـبُـوا
سِوَىٰ أَكْلِهِمْ كَدَّ النُّفُوسِ الشَّحائِحِ

فَمَا حَبَسَ النَّفْسَ المَسِيحُ تَعَبُّداً
وَلَكِنْ مَشَىٰ في الأَرْضِ مِشْيَةَ سائِحِ

الرِّفْقُ بالحَيْوَانِ

[الطويل]

لَقَدْ رَابَنِي مَغْدَىٰ الفَقِيرِ بِجَهْلِهِ
عَلَىٰ ٱلعِيْرِ ضَرْباً سَاءَ مَا يَتَقَلَّدُ
يُحَمِّلُهُ ما لا يَطِيقُ فَإِنْ وَنَىٰ
أَحالَ عَلَىٰ ذِي فَتْرَةٍ يَتَجَلَّدُ

أَيْنَ الحَقِيقَةُ؟

[البسيط]

نُفَارِقُ العَيْشَ لَمْ نَظْفَرْ بِمَعْرِفَةٍ
أَيُّ المَعاني بِأَهْلِ الأَرْضِ مَقْصُودُ
لَمْ تُعْطِنا العِلْمَ أَخْبارٌ يَجِيءُ بِهَا
نَقْلُ وَلاَ كَوْكَبٌ في الأَرْضِ مَرْصُودُ
وَٱبْيَضَّ مَا ٱخْضَرَّ مِنْ نَبْتِ الزَّمانِ بِنَا
وَكُلُّ زَرْعٍ إِذَا مَا هَاجَ مَحْصُودُ

حَقِيقَةُ الإِيمانِ

[البسيط]

مَا الخَيْرُ صَوْمٌ يَذُوبُ الصَّائِمُونَ لَهُ
وَلاَ صَلاةٌ وَلاَ صُوفٌ عَلَىٰ ٱلْجَسَدِ
وَإِنَّمَا هُوَ تَرْكُ الشَّرِّ مُطَّرَحاً
وَنَفْضُكَ الصَّدْرَ مِنْ غِلٍّ وَمِنْ حَسَدِ

خُرَافاتُ النِّسَاءِ

[الكامل]

سَأَلَتْ مُنَجِّمَهَا عَنِ الطِّفْلِ الَّذِي
فِي المَهْدِ كَمْ هُوَ عَائِشٌ مِنْ دَهْرِهِ
فَأَجَابَهَا: مِئَةٌ لِيَأْخُذَ دِرْهَماً
وَأَتَىٰ الحِمامُ وَلِيدَهَا فِي شَهْرِهِ

رَاحَةُ المَوْتِ

[الكامل]

قَدِمَ الفَتَىٰ وَمَضَىٰ بِغَيْرِ تَئِيَّةٍ
كَهِلالِ أَوَّلِ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِهِ
لَقَدِ ٱسْتَرَاحَ مِنَ الحَيَاةِ مُعَجَّلٌ
لَوْ عَاشَ كَابَدَ شِدَّةً فِي دَهْرِهِ

العِفَّةُ

[الكامل]

أَحْسِنْ جِوَاراً لِلْفَتَاةِ وَعُدَّها
أُخْتَ السَّمَاكِ عَلَىٰ دُنُوِّ الدَّارِ
كَتَجاوُرِ العَيْنَيْنِ لَنْ تَتَلاقَيَا
وَحِجازُ بَيْنَهُمَا قَصِيرُ جِدَارِ

بَقَاءُ المادَّةِ

[البسيط]

مَضَىٰ الأَنَامُ فَلَوْلاَ عِلْمُ حَالِهِمُ
لَقُلْتُ قَوْلَ زُهَيْرٍ أَيَّةَ سَلَكُوا
في المُلْكِ لَمْ يَخْرُجُوا عَنْهُ وَلاَ ٱنْتَقَلُوا
مِنْهُ فَكَيْفَ ٱعْتِقَادِي أَنَّهُمْ هَلَكُوا

الصَّبرُ عَلَىٰ الأَذَىٰ

[الطويل]

إِذا قَالَ فِيكَ النَّاسُ مَا لا تُحِبُّهُ
فَصَبْراً يَفِيءُ وُدُّ العَدُوِّ إِلَيْكَا
وَقَدْ نَطَقُوا مَيْناً عَلَىٰ ٱللَّهِ وَٱفْتَرَوْا
فَمَالَهُمْ لا يَفْتَرُونَ عَلَيْكَا

الدِّينُ المُعَامَلَةُ

[الكامل]

سَبِّحْ وَصَلِّ وَطُفْ بِمَكَّةَ زَائِراً
سَبْعِينَ لا سَبْعاً فَلَسْتَ بِنَاسِكِ
جَهِلَ الدِّيانَةَ مَنْ إذا عَرَضَتْ لَهُ
أَطْمَاعُهُ لَمْ يُلْفَ بِالمُتَمَاسِكِ

تَأْوِيلُ الفُقَهاءِ

[الطويل]

جَهِلْتُ، أَقَاضِي الزِّيِّ أَكْثَرُ مَأْثَماً
بِمَا نَصَّهُ أَمْ شَاعِرٌ يَتَغَزَّلُ
فَكَمْ مِنَ فَقِيهٍ خَابِطٍ في ضَلالَةٍ
وَحُجَّتُهُ فِيهَا الكِتَابُ المُنَزَّلُ
فَمَا لِعَذَابٍ فَوْقَكُمْ لا يَعُمُّكُمْ
وَمَا بَالُ أَرْضٍ تَحْتَكُمْ لا تُزَلْزَلُ

تَعْلِيمُ المَرْأَةِ

[السريع]

إنْ نَشَأَتْ بِنْتُكَ فِي نِعْمَةٍ
فَأَلْزِمْنهَا البَيْتَ وَالمِغْزَلا

ذَلِــكَ خَــيْــرٌ مِــنْ سِــوارٍ لَــهَــا
وَمِــنْ عَــطَــايَــا وَالِــدٍ أَجْــزَلا

الرِّفْقُ بِالعِمْيَانِ

[الكامل]

عِمْيَانُكُمْ قَرَأَتْ عَلَىٰ أَجْدَاثِكُمُ
وَأُتُــوا لَــكُــمْ بِــالــبِــرِّ مَــنْ آتــاكُــمْ
أَحْيَاؤُكُمْ بَخِلَتْ عَلَيْهِمْ بِالنَّدَىٰ
فَــبَــغَــوْهُ بِــالــفُــرْقَــانِ مِــنْ مَــوْتَــاكُــمْ

مُساعَدَةُ الضُّعفاءِ

[الطويل]

تَصَدَّقْ عَلَىٰ الأَعْمَىٰ بِأَخْذِ يَمِينِهِ
لِتَهْدِيَهُ وَٱمْنُنْ بِإِفْهامِكَ الصُّمَّا
وَلاَ تَكُ مِمَّنْ قَرَّبَ العَبْدَ شَارِخاً[١]
وَضَيَّعَهُ إِذْ صَارَ مِنْ كِبَرٍ هِمَّا[٢]

---

(١) الشَّارِخ: الفَتَىٰ في أَوَّلِ صِباه.

(٢) الهِم: الشَّيْخُ الفاني.

حُكْمُ العَادَةِ

[الطويل]

إِذَا أُلِفَ الشَّيْءُ ٱسْتَهَانَ بِهِ ٱلْفَتَىٰ
فَلَمْ يَرَهُ بُؤْسَىٰ يُعَدُّ ولا نُعْمَىٰ
كَٱنْفَاقِهِ مِنْ عُمْرِهِ وَمَسَاغِهِ
مِنَ الرِّيقِ عَذْباً لا يُحِسُّ لَهُ طُعْما

الجَرَائِمُ

[البسيط]

لا تُحْدِثِ القَتْلَ في كَفٍّ وَلا قَدَمِ
وَلاَ تُعَرِّضْ مَدَىٰ الدُّنْيَا لِسَفْكِ دَمِ
وَخَلِّ مَنْ صَوَّرَ الأَشْبَاحَ مُقْتَدِراً
يُحِلُّهَا فَهْوَ رَبُّ الدَّهْرِ وَالقَدَمِ

خُرَافَةُ الرَّمَّالِينَ

[الوافر]

أَمَا لِأَمِيرِ هَذَا المِصْرِ عَقْلٌ
يُقِيمُ عَنِ الطَّرِيقِ ذَوِي النُّجُومِ
فَكَمْ قَطَعُوا السَّبِيلَ عَلَىٰ ضَعِيفٍ
وَلَمْ يُعْفُوا النِّسَاءَ مِنَ الهُجُومِ

إذا ٱفْتَكَرَ اللَّبِيبُ رَأَىٰ أُمُوراً
تَرُدُّ الضَّاحِكَاتِ إِلَىٰ الوُجُومِ

ذَمُّ الشَّرابِ

[الوافر]

يَقُولُ النَّاسُ إِنَّ الخَمْرَ تُودِي
بِمَا فِي الصَّدْرِ مِنْ هَمٍّ قَدِيمِ
وَلَوْلاَ أَنَّهَا بِاللُّبِّ تُودِي
لَكُنْتُ أَخُ المَدامَةِ وَالنَّدِيمِ

تَبَرُّجُ النِّساءِ

[الرجز]

شَرٌّ عَلَىٰ المَرْأَةِ مِنْ حَمَّامِهَا
إِرْسَالُكَ الفاضِلَ مِنْ زِمامِهَا
وَمَشْيُهَا تَضْرِبُ فِي أَكْمامِهَا
يَفُوحُ رَيَّا الطِّيبِ مِنْ أَمَامِهَا
زَائِرَةَ المَسْجِدِ فِي إِلْمَامِهَا
تَأْتَمُّ وَالخَيْبَةُ فِي ٱئْتِمَامِهَا

ذَمُّ النَّسْلِ

[المنسرح]

يَـا أُمَّـةً فـي الـتُّرابِ هَـامِـدَةً
تَـجَـاوَزَ ٱلـلَّـهُ عَـنْ سَـرَائِـرِكُـمْ

يَـا لَـيْـتَـكُـمْ لَـمْ تَـطَـوْا إِمَـاءَكُـمُ
وَلاَ دَنَـوْتُـمْ إِلَـى حَـرَائِـرِكُـمْ

إِنِ ٱسْـتَـرَحْـتُـمْ مِـمّـا نُـكـابِـدُهُ
فَـنَـحْـنُ مِـنْ بَـعْـدُ فـي جَـرَائِـرِكُـمْ

حِكْمَةُ الزَّكاةِ

[البسيط]

يَـاقُـوتُ مـا أَنْـتَ يَـاقُـوتٌ وَلاَ ذَهَـبٌ
فَـكَـيْـفَ تُـعْـجِـزُ أَقْـوامـاً مَـسَـاكِـيـنَـا

وَأَحْـسَـبُ الـنَّـاسَ لَـوْ أَعْـطَـوْا زَكـاتَـهُـمْ
لَـمَـا رَأَيْـتَ بَـنـي الإعْـدَامِ شَـاكِـيـنَـا

الحِلْمُ

«لِبَعْضِ الشُّعراءِ المُتَقَدِّمِينَ»

[وَيُنْسَبُ لأبي العتاهية]

[الطويل]

وَلَسْتُ بِمِفْرَاحٍ إِذَا الدَّهْرُ سَرَّنِي
وَلاَ جَازِعٍ مِنْ صَرْفِهِ المُتَقَلِّبِ
وَلاَ أَتَمَنَّىٰ الشَّرَّ وَالشَّرُّ تَارِكِي
وَلَكِنْ مَتَىٰ أُحْمَلُ عَلَىٰ الشَّرِّ أَرْكَبِ

أَلَمُ المَوْتِ

«لِلمُتَنَبِّي»

[الخفيف]

إِلْفُ هَذَا الهَوَاءُ أَوْقَعَ فِي الأَنْـ
ـفُسِ أَنَّ الحِمَامَ مُرُّ المَذَاقِ
وَالأَسَىٰ قَبْلَ فُرْقَةِ الرُّوحِ عَجْزٌ
وَالأَسَىٰ لا يَكُونُ بَعْدَ الفِرَاقِ

حُبُّ الحَيَاةِ

«لِلمُتَنَبِّي أَيضاً»

[الطويل]

أَرَىٰ كُلَّنا يَبْغِي ٱلْحَيَاةَ بِسَعْيِهِ
حَرِيصاً عَلَيْهَا مُسْتَهاماً بِهَا صَبَّا
فَحُبُّ الجَبَانِ النَّفْسَ أَوْرَدَهُ التُّقَىٰ
وَحُبُّ الشُّجاعِ النَّفْسَ أَوْرَدَهُ الحَرْبَا
وَيَخْتَلِفُ الرِّزْقانِ وَالفِعْلُ وَاحِدٌ
إِلَىٰ أَنْ يُرَىٰ إِحْسانُ هَذَا لِذَا ذَنْبَا

الشَّجَاعَةُ

«لِلمُتَنَبِّي أَيضاً»

[الخفيف]

وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ المَوْتِ بُدٌّ
فَمِنَ العَجْزِ أَنْ تَكُونَ جَبَانَا
كُلُّ مَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الصَّعْبِ في الأَنْـ
ـفُسِ سَهْلٌ فِيهَا إِذَا هُوَ كَانَا

الأَشْرارُ حَرْبُ الأَخْيَارِ

«لِبَعْضِ الشُّعراءِ المُتَقَدِّمِينَ»

[الطويل]

لَـقَـدْ زَادَنِـي حُـبـاً لِـنَـفْـسِـيَ أَنَّـنِـي
بَغِيضٌ إِلىٰ كُلِّ ٱمْرِئٍ غَيْرِ طائِلِ

إِذَا مَـا رَآنِـي قَـطَّـعَ الـطَّـرْفَ دُونَـهُ
وَدُونِي فِعْلَ العَارِفِ المُتَجاهِلِ

مَـلأْتُ عَـلَـيْـهِ الأَرْضَ حَـتَّـىٰ كَـأَنَّـهَـا
مِنَ الضِّيقِ فِي عَيْنَيْهِ كَفَّةُ حَابِلِ

وَإِنِّـي شَـقِـيٌّ بِـالـلِّـئَـامِ وَلاَ تَـرَىٰ
شَقِياً بِهِمْ إِلاّ كَرِيمَ الشَّمَائِلِ

تَحَيُّنُ الفُرْصَةِ

«لأَبِي العَتاهِيةِ»

[الكامل]

كَـمْ مِـنْ مُـؤَخِّـرِ غَـايَـةٍ قَـدْ أَمْـكَـنَـتْ
لِـغَـدٍ وَلَـيْـسَ غَـدٌ لَـهُ بِـمُـواتِ

حَـتَّـىٰ إِذَا فَـاتَـتْ وَفـاتَ طِـلاَبُـهَـا
ذَهَبَتْ عَلَيْهَا نَفْسُهُ حَسَرَاتِ

تَـأْتِـي الـمَـكـارِهُ حِـيـنَ تَـأْتِـي جُـمْـلَـةً
وَأرَىٰ الـسُّـرُورَ يَـجِـيءُ فـي الـفَـلَـتَـاتِ

الإباءُ

«لِبَعْضِ الشُّعَرَاءِ المُحْدَثِينَ»

[الكامل]

لا تَـشْـكُـوَنَّ لِـعَـاذِلٍ أَوْ عَـاذِرٍ
حَـالَـيْـكَ فـي الـسَّـرَّاءِ وَالـضَّـرَّاءِ
فَـلِـرَحْـمَـةِ الـمُـتَـوَجِّـعِـينَ غَـضَـاضَـةٌ
فـي الـنَّـفْـسِ مِـثْـلُ شَـمَـاتَـةِ الأَعْـداءِ

الحُبُّ المُعْتَدِلُ

«لِلشَّرِيفِ الرَّضِيِّ»

[الطويل]

أُحِبُّكَ بِـالـطَّـبْـعِ الـبَـعِـيـدِ مِـنَ الـحَـجَـا
وَأَقْـلاكَ بِـالـعَـقْـلِ الـبَـرِيءِ مِـنَ الـخَـبْـلِ
فَأَنْـتَ صَـدِيـقِـي إِنْ ذَهَـبْـتُ إِلـىٰ الـهَـوَىٰ
وَأَنْـتَ عَـدُوِّي إِنْ رَجَـعْـتُ إِلـىٰ الـعَـقْـلِ

عِزَّةُ النَّفْسِ

«لِبَعْضِ الشُّعَرَاءِ المُتَقَدِّمِينَ»

[الطويل]

تُكَلِّفُنِي إِذْلالَ نَفْسِي لِعِزِّها
وَهَانَ عَلَيْهَا أنْ أُهَانَ لِتَكْرُمَا

تَقُولُ سَلِ المَعْرُوفَ يَحْيَىٰ بْنَ أَكْثَمٍ
فَقُلْتُ سَلِيهِ رَبَّ يَحْيَىٰ بْنِ أَكْثَمَا

كَلِماتٌ

«لِمَحْمُود باشا سَامي البَارُودِي»(١)

دَخائِلُ القُلوبِ

[الطويل]

تَحَمَّلْتُ خَوْفَ المَنِّ كُلَّ رَزِيئَةٍ
وَحَمْلُ رَزَايَا الدَّهْرِ أَحْلَىٰ مِنَ المَنِّ

وَعَاشَرْتُ أَخْدَاناً فَلَمَّا بَلَوْتُهُمْ
تَمَنَّيْتُ أَنْ أَبْقَىٰ وَحِيداً بِلا خِدْنِ

---

(١) «[محمود سامي بن حسن حسني] البارودي» [١٢٥٥ ـ ١٣٢٢هـ = ١٨٣٩ ـ ١٩٠٤م].

هُوَ شَيْخُ شُعراءِ هَذَا العَصْرِ، وَأَوَّلُ مَنْ أَحْيَا سُنَّةَ الشعر العربيِّ بعد ما دَارت به الأيامُ دَوْرَتَها.

إِذَا عَرَفَ المَرْءُ القُلُوبَ وَمَا ٱنْطَوَتْ
عَلَيْهِ مِنَ البَغْضَاءِ عَاشَ عَلَىٰ ضِغْنِ
يَرَىٰ بَصَرِي مَنْ لا أَوَدُّ لِقَاءَهُ
وَتَسْمَعُ أُذْنِي ما تَعافُ مِنَ اللَّحْنِ

تَقَلُّبَاتُ الأَيَّامِ

[الكامل]

وَلَقَدْ تَبَيَّنْتُ الأُمُورَ بِغَيْرِها
وَأَتَىٰ عَلَىٰ النَّقْضِ وَالإِبْرَامُ
فَإِذَا السُّكُونُ تَحَرُّكٌ وَإِذَا الخُمُو
دُ تَلَهُّبٌ وَإِذَا السُّكُوتُ كَلامُ
وَإِذَا الحَيَاةُ وَلاَ حَيَاةَ مَنِيَّةٌ
تَحْيَىٰ بِهَا الأَجْسَادُ وَهِيَ رِمَامُ
هَذَا يَحُلُّ وَذَاكَ يَرْحَلُ كَارِهاً
عَنْهُ فَصُلْحٌ تَارَةً وَخِصَامُ
فَالنُّورُ لَوْ بَيَّنْتَ أَمْرَكَ ظُلْمَةٌ
وَالبَدْءُ لَوْ فَكَّرْتَ فِيهِ خِتَامُ

جَرَيَانُ المَقادِيرِ

[الطويل]

يَوَدُّ الفَتَىٰ ما لا يَكُونُ طَمَاعَةً
وَلَمْ يَدْرِ أَنَّ الدَّهْرَ بِالنَّاسِ قُلَّبُ
وَلَوْ عَلِمَ الإِنْسانُ مَا فِيهِ نَفْعُهُ
لَأَبْصَرَ مَا يَأْتِي وَمَا يَتَجَنَّبُ
وَلَكِنَّها الأَقْدَارُ تَجْرِي بِحُكْمِهَا
عَلَيْنَا وَأَمْرُ الغَيْبِ سِرٌّ مُحَجَّبُ

شُرُورُ العالَمِ

«لأَحمد شَوْقي بِك»[1]

[الطويل]

أُنَاسٌ كَمَا تَدْرِي وَدُنْيَا بِحالِها
وَدَهْرٌ رَخِيٌّ تَارَةً وَعَسِيرُ

---

(١) «[أحمد] شَوْقِي [بن علي] [١٢٨٥ ـ ١٣٥١هـ = ١٨٦٨ ـ ١٩٣٢م].

أَشْهَرُ شُعراءِ العربِيَّةِ في العَصْرِ الحاضِرِ وَأَقْدَرُهُمْ عَلَىٰ التصوُّراتِ البديعَةِ وَالخيالات الشِّعرية العالِيَةِ، وهو يُشْبهُ المُتَنَبِّي في أَنَّهُ يَرْتَقي حتى لا يساويه أَحَدٌ، وَقَدْ يَصِلُ أَحْياناً إِلى مَنزلَةٍ لا يَرْضَىٰ بها مَنْ هُوَ في مَنْزِلَتِهِ.

وَأَحْـوالُ خَـلْـقٍ غـابِـرٍ مُـتَـجَـدِّدٍ
تَـشَـابَـهَ فِـيـهـا أَوَّلٌ وَأَخِـيـرُ

تَـمُـرُّ تِـبَـاعـاً فـي الـحَـيـاةِ كَـأَنَّـهَـا
مَـلاعِـبُ لا تُـرْخَـىٰ لَـهُـنَّ سُـتُـورُ

وَحِرْصٌ عَلَىٰ الدُّنْيَا وَمَيْلٌ مَعَ الهَوَىٰ
وَغِـشٌّ وَإِفْـكٌ فِـي الـحَـيَـاةِ وَزُورُ

وَقَـامَ مَـقَـامَ الـفَـرْدِ فـي كُـلِّ أُمَّـةٍ
عَـلَـىٰ الـحُـكْـمِ جَـمٌّ يَـسْـتَـبِـدُّ غَـفِـيرُ

وَحُـوِّرَ قَـوْلُ الـنَّـاسِ: مَـوْلَـىٰ وَعَـبْـدُهُ
إِلَـىٰ قَـوْلِـهِـمْ مُـسْـتَـأْجَـرٌ وَأَجِـيـرُ

كَلِماتٌ

«لإسماعيل باشا صَبْري»[1]

المَوْتُ وَالحَياةُ

[الخفيف]

إِنْ سَئِمْتَ الحَياةَ فَٱرْجِعْ إِلىٰ الأَرْ
ضِ تَنَمْ آمِناً مِنَ الأَوْصَابِ

تِلْكَ أُمٌّ أَحْنَىٰ عَلَيْكَ مِنَ الأُ
مِّ الَّتِي خَلَّفَتْكَ لِلأَتْعَابِ

لا تَخَفْ فَالمَماتُ لَيْسَ بِمَاحٍ
مِنْكَ إِلاَّ ما تَشْتَكِي مِنْ عَذَابِ

كُلُّ مَيْتٍ بَاقٍ وَإِنْ خَالَفَ العُنْـ
ـوَانَ مَا نُصَّ في غُضُونِ الكِتَابِ

وَحَياةُ المَرْءِ ٱضْطِرابٌ فَإِنْ مَا
تَ فَقَدْ عَادَ سَالِماً لِلتُّرَابِ

---

(١) «إسْماعيل باشا صَبْري» [١٢٧٠ ـ ١٣٤١هـ = ١٨٥٤ ـ ١٩٢٣م] أَحدُ شُعراءِ الطَّبَقَةِ الأولى في هذا العَصْرِ، وَيَمْتَازُ بِجَمالِ مُقطَّعاتِهِ وعذوبَةِ أُسلوبِهِ إلى ما لا يُجارِيهِ فِيهِ مجارٍ، وحُسْنِ تصوّراتِهِ وخلابَةِ خيالاتِهِ، وَهُوَ أَجْوَدُ ما يَكُونُ إذا نَطَقَ بكلمةِ الحِكْمَةِ أو أرسَلَ بَيْتَ النَّسيبِ.

رَاحَةُ المَوْتِ

[مجزوء الكامل]

يَـا مَـوْتُ خُـذْ مَـا أَبْـقَـتِ الـ
أَيَّـامُ وَالـسَّـاعَـاتُ مِـنِّـي
بَـيْـنِـي وَبَـيْـنَـكَ خُـطْـوَةٌ
إِنْ تَـخْـطُـهَـا فَـرَّجْـتَ عَـنِّـي

الوَفَاءُ

[الطويل]

إِذَا خَـانَـنِي خِـلٌّ قَـدِيـمٌ وَعَـقَّـنِي
وَفَـوَّقْـتُ يَـومـاً فـي مَـقـاتِـلِـهِ سَـهْـمِـي
تَـعَـرَّضَ طَـيْـفُ الـوِدِّ بَـيْـنِـي وَبَـيْـنَـهُ
فَـكَـسَّـرَ سَـهْـمِـي فَـٱنْـثَـنَـيْـتُ وَلَـمْ أَرْمِ

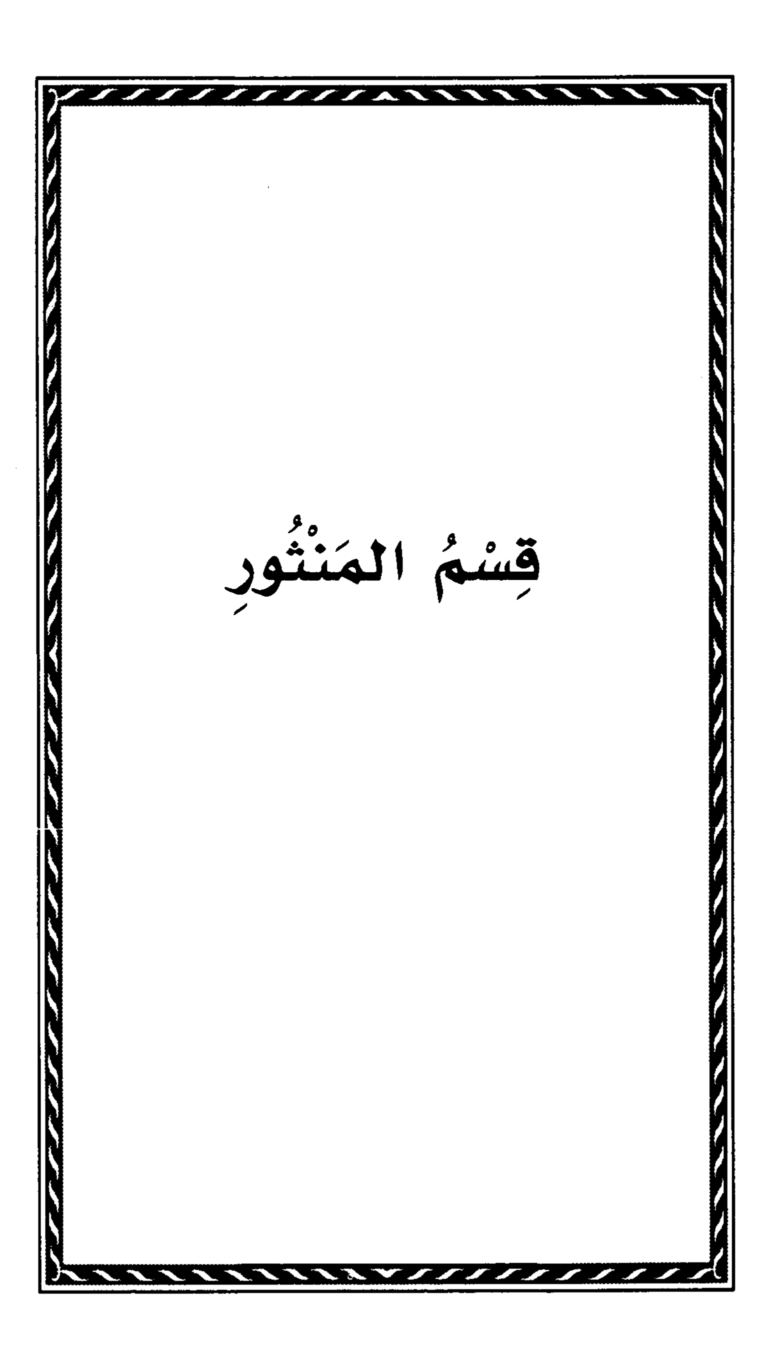
سِجْنُ الفَضِيلَةِ

«لِحافِظِ إِبْرَاهِيم»

[المتقارب]

نَـعِـمْـنَ بِـنَـفْـسِـي وَأَشْـقَـيْـنَـنِـي
فَـيَـا لَـيْـتَـهُـنَّ وَيَـا لَـيْـتَـنِـي

خِلالٌ نَزَلْنَ بِخِصْبِ النُّفُو
سِ فَرَوَيْتُهُنَّ وَأَظْمَأْنَنِيْ
تَعَوَّدْنَ مِنِّي إِباءَ الْكَرِيمِ
وَصَبْرَ الْحَلِيمِ وَتِيهَ الغَنِيْ
وَعَوَّدْتُهُنَّ نِزالَ الخُطُوبِ
فَمَا يَنْثَنِينَ وَمَا أَنْثَنِيْ
إِذَا مَا لَهَوْتُ بِلَيْلِ الشَّبَابِ
أَهَبْنَ بِعَزْمِي فَنَبَّهْنَنِيْ
فَمَا زِلْتُ أَمْرَحُ فِي قَدِّهِنَّ
وَيَمْرَحْنَ مِنِّي بِرَوْضٍ جَنِيْ
إِلَىٰ أَنْ تَوَلَّىٰ زَمانُ الشَّبَابِ
وَأَوْشَكَ عُودِيَ أَنْ يَنْحَنِيْ
فَيَا نَفْسُ إِنْ كُنْتِ لا تُوقِنِينَ
بِمَعْقُودِ أَمْرِكِ فَٱسْتَيْقِنِيْ
فَهَذِي الفَضِيلَةُ سِجْنُ النُّفُوسِ
وَأَنْتِ الْجَدِيرَةُ أَنْ تُسْجَنِي



قِسْمُ المَنْثُورِ



وَصَايَا حِكْمِيَّة

«من أعرابِيَّةٍ لِوَلَدِهَا»

أَيْ بُنَيَّ! إِيَّاكَ وَالنَّمِيمَةَ، فَإِنَّهَا تَزْرَعُ الضَّغِينَةَ وَتُفَرِّقُ بَيْنَ المُحِبِّينَ. وَإِيَّاكَ وَالتَّعَرُّضَ لِلعُيُوبِ فَتُتَّخَذَ غَرَضاً، وَخَلِيقٌ أَنْ لا يَثْبُتَ الغَرَضُ عَلَىٰ كَثْرَةِ السِّهام، وَقَلَّمَا ٱعْتَوَرَتِ السِّهامُ غَرَضاً إلاّ كَلَمَتْهُ حَتَّىٰ يَهِيَ[1] ما ٱشْتَدَّ مِنْ قُوَّتِهِ. وَإِياكَ وَالْجُودَ بِدِينِكَ وَالبُخْلَ بِمالِكَ. وَإِذا هَزَزْتَ فَٱهْزُزْ كَرِيماً يَلِنْ لِهِزَّتِكَ، وَلاَ تَهْزُزْ لِئِيماً، فَإِنَّ ٱلصَّخْرَةَ لا يَنْفَجِرُ مَاؤُهَا. وَمَثِّلْ لِنَفْسِكَ مِثالَ ما ٱسْتَحْسَنْتَ مِنْ غَيْرِكَ فَٱعْمَلْ بِهِ، وَمَا ٱسْتَقْبَحْتَ مِنْ غَيْرِكَ فَٱجْتَنِبْهُ، فَإِنَّ المَرْءَ لاَ يَرَىٰ عَيْبَ نَفْسِهِ. وَمَنْ كانَتْ مَوَدَّتُهُ بِشْرَهُ وَخَالَفَ ذَلِكَ مِنْهُ فِعْلُهُ كَانَ صَدِيقُهُ مِنْهُ عَلَىٰ مِثْلِ الرِّيحِ في تَصَرُّفِها. وَالغَدْرُ أَقْبَحُ ما تعامَلَ بِهِ النَّاسُ بَيْنَهُمْ. وَمَنْ جَمَعَ الْحِلْمَ وَالسَّخَاءَ فَقَدْ أَجَادَ الحُلَّةَ رِيطَتَها وَسِرْبَالَها[2].

---

(١) وَهَىٰ: ضَعُفَ.

(٢) الرِّيطَة: كُلُّ ثَوْبٍ رَقِيقٍ يُشْبه المِلْحَفَةَ؛ وَالسِّرْبال: القَمِيصُ.

أَدَبُ الزَّوْجَةِ

«لِأَعْرابِيَّةٍ تُوصِي ٱبْنَتَها لَيْلَةَ البِنَاءِ بِهَا»

أَيْ بُنَيَّةُ! إِنَّ الوَصِيَّةَ لَوْ تُرِكَتْ لِفَضْلِ أَدَبٍ تَرَكْتُهَا لِذَلِكَ مِنْكِ، وَلَكِنَّهَا تَذْكِرَةُ الغَافِلِ، وَمَعُونَةُ العاقِلِ. أَيْ بُنَيَّةُ! إِنَّكِ فَارَقْتِ بَيْتَكِ الَّذِي مِنْهُ خَرَجْتِ، وَعُشَّكِ الَّذِي فِيهِ دَرَجْتِ، إِلىٰ وَكْرٍ لَمْ تَعْرِفِيهِ، وَقَرِينٍ لَمْ تَأْلِفِيهِ؛ فَكونِي لَهُ أَمَةً يَكُنْ لَكَ عَبْداً، وَٱحْفَظِي لَهُ خِصالاً عَشْراً؛ أَمَّا الأُولَىٰ وَالثَّانِيَةُ فَاصْحَبِيهِ بِالقَنَاعَةِ، وَعَاشِرِيهِ بِحُسْنِ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَأما الثَّالِثَةُ وَالرَّابِعَةُ فَالتَّفَقُّدُ لِمَوْضِعِ عَيْنِهِ وَأَنْفِهِ، فَلاَ تَقَعْ عَيْنُهُ مِنْكِ عَلَىٰ قَبِيحٍ، وَلاَ يَشُمُّ مِنْكِ إِلاَّ أَطْيَبَ رِيحٍ؛ وَأَمَّا الخَامِسَةُ وَالسَّادِسَةُ فَالتَّفَقُّدُ لِوَقْتِ مَنامِهِ وَطَعامِهِ، فَإِنَّ تَواتُرَ الجُوعِ مَلْهَبَةٌ، وَتَنْغِيصَ النَّوْمِ مَغْضَبَةٌ؛ وَأَمَّا السَّابِعَةُ وَالثَّامِنَةُ فَالاحْتِراسُ بِمالِهِ، وَالإِرْعاءُ عَلَىٰ حَشَمِهِ وَعِيَالِهِ، وَمِلاكُ الأَمْرِ فِي المالِ حُسْنُ التَّقْدِيرِ، وَفِي العِيالِ حُسْنُ التَّدْبِيرِ؛ وَأَمَّا التَّاسِعَةُ وَالعَاشِرَةُ فلا تَعْصِيَنَّ لَهُ أَمْراً، وَلاَ تُفْشِيَنَّ لَهُ سِرًّا، فَإِنَّكِ إِنْ خَالَفْتِهِ أَوْغَرْتِ صَدْرَهُ، وَإِنْ أَفْشَيْتِ سِرَّهُ لَمْ تَأْمَنِي غَدْرَهُ. ثُمَّ إِياكِ وَالفَرَحَ بَيْنَ يَدَيْهِ إِذَا كَانَ مُهْتَمّاً، وَالكَآبَةَ بَيْنَ يَدَيْهِ إِذَا كَانَ فَرِحاً، فَإِنَّ الخَصْلَةَ الأُولَىٰ مِنَ التَّقْصِيرِ، وَالثَّانِيَةَ مِنَ التَّكْدِيرِ. وَكُونِي أَشَدَّ النَّاسِ لَهُ

إِعْظاماً، يَكُنْ أَشَدَّهُمْ لَكِ إِكْراماً. وَأعْلَمِي أَنَّكِ لا تَصِلِينَ إِلَىٰ مَا تُحِبِّينَ حَتَّىٰ تُؤْثِرِي رِضاهُ عَلَىٰ رِضَاكِ وَهَوَاهُ عَلَىٰ هَوَاكِ، فِيما أَحْبَبْتِ وَكَرِهْتِ، وَاللَّهُ يَخِيرُ لَكِ.

كَلِماتٌ في الأَخْلاقِ

«لِعَلي ٱبْنِ أَبي طَالِبٍ»(١)

عُلوُّ الهِمَّةِ

أَكْرِمْ نَفْسَكَ عَنْ كُلِّ دَنِيَّةٍ وَإِنْ سَاقَتْكَ إِلىٰ الرَّغَائِبِ، فَإِنَّكَ لَنْ تَعْتَاضَ بِمَا تَبْذُلُ مِنْ نَفْسِكَ عِوَضاً، وَلا تَكُنْ عَبْدَ غَيْرِكَ وَقَدْ جَعَلَكَ ٱللَّهُ حُرًّا، وَمَا خَيْرُ خَيْرٍ لا يُنَالُ إِلاَّ بِشَرٍ، وَيُسْرٍ لا يُنالُ إِلاّ بِعُسْرٍ؛ وَإِيَّاكَ أَنْ تُوجِفَ بِكَ(٢) مَطَايا الطَّمَعِ فَتُورِدَكَ مَناهِلَ الهَلَكَةِ، وَإِن ٱسْتَطَعْتَ أَلاَّ

---

(١) «علي ابن أبي طالِبٍ» [٢٣ق.هـ - ٤٠هـ = ٦٠٠ - ٦٦١م]. [هو أَميرُ المؤْمِنِينَ، رابعُ الخلفاء الراشدين، وأَحَدُ العشرة المُبَشَّرِين، وابن عَمِّ النبي محمد ﷺ وصِهْرُهُ، وأحد الشجعان الأبطال، ومن أكابر الخطباء والعلماء بالقضاء، وأول الناس إسلاماً بعد السيدة خديجة].

هو أَفْصَحُ قُرَشِيٍّ إذا خَطَب أَوْ كَتَبَ، وَلِصِدْقِهِ وَإخلاصِهِ أَثَرٌ في تَأْثِيرِ كتاباتِهِ عامَّةً وزُهْدِيَّاتِه خاصَّةً.

(٢) وَجَفَ البعيرُ: عَدا وأَسْرَعَ.

يَكُونَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱللَّهِ ذُو نِعْمَةٍ فَٱفْعَلْ، فَإِنَّكَ مُدْرِكٌ قِسْمَكَ، وَآخِذٌ سَهْمَكَ، وَإِنَّ اليَسِيرَ مِنَ ٱللَّهِ سُبْحانَهُ وَتَعالَىٰ أَكْرَمُ وَأَعْظَمُ مِنَ الكَثِيرِ مِنْ خَلْقِهِ، وَإِنْ كانَ كُلٌّ مِنْ عِنْدِهِ.

حُسْنُ العِشْرَةِ

ٱحْمِلْ نَفْسَكَ مِنْ أَخِيكَ عِنْدَ صَرْمِهِ عَلَىٰ الصِّلَةِ، وَعِنْدَ صُدُودِهِ عَلَىٰ اللُّطْفِ وَالمُقَارَبَةِ، وَعِنْدَ جُمودِهِ عَلَىٰ البَذْلِ، وَعِنْدَ تَباعُدِهِ عَلَىٰ الدُّنُوِّ، وعِنْدَ شِدَّتِهِ عَلَىٰ اللِّينِ، وَعِنْدَ جُرْمِهِ عَلَىٰ العُذْرِ؛ حَتَّى كَأَنَّكَ لَهُ عَبْدٌ، وَكَأَنَّهُ ذُو نِعْمَةٍ عَلَيْكَ؛ وَإِيَّاكَ أَنْ تَضَعَ ذَلِكَ في غَيْرِ مَوْضِعِهِ، أَوْ أَنْ تَصْنَعَهُ مَعَ غَيْرِ أَهْلِهِ.

الاعْتِدَالُ

أَعْجَبُ ما فِي الإِنْسانِ قَلْبُهُ، وَلَهُ مَوادُّ مِنَ الحِكْمَةِ وَأَضْدَادٌ مِنْ خِلافِها، فَإِنْ سَنَحَ لَهُ الرَّجاءُ أَذَلَّهُ الطَّمَعُ، وَإِنْ هَاجَهُ الطَّمَعُ أَهْلَكَهُ الحِرْصُ، وَإِنْ مَلَكَهُ اليَأْسُ قَتَلَهُ الأَسَفُ، وَإِنْ عَرَضَ لَهُ الغَضَبُ ٱشْتَدَّ بِهِ الغَيْظُ، وَإِنْ سَعِدَ بِالرِّضَا نَسِيَ التَّحَفُّظَ، وَإِن أَتَاهُ الخَوْفُ شَغَلَهُ الحَذَرُ، وَإِنِ ٱتَّسَعَ لَهُ الأَمْنُ ٱسْتَلَبَتْهُ الغِرَّةُ(١)، وَإِنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ فَضَحَهُ

(١) الغِرَّة: الغَفْلَةُ.

الجَزَعُ، وَإِنِ ٱسْتَفَادَ مالاً أَطْغَاهُ الغِنَىٰ، وَإِنْ عَضَّتْهُ فَاقَةٌ بَلَغَ بِهِ البَلاءُ، وَإِنْ جَهَدَ بِهِ الجُوعُ قَعَدَ بِهِ الضَّعْفُ، وَإِنْ أَفْرَطَ فِي الشِّبَعِ كَظَّتْهُ البِطْنَةُ، فَكُلُّ تَقْصِيرٍ بِهِ مُضِرٌّ، وَكُلُّ إِفراطٍ لَهُ قاتِلٌ.

أَدَبُ الحاشِيَةِ

«لأَحَدِ الأمُراءِ العَبّاسِيِّينَ»

فِي وَصِيَّتِهِ إِلى أَحَدِ رِجالِ خاصَّتِهِ

يَا عَبْدَ ٱللَّهِ! كُنْ عَلَىٰ ٱلْتِماسِ الحَظِّ بِالسُّكُوتِ أَحْرَصَ مِنْكَ عَلَىٰ ٱلْتِماسِهِ بِالكَلام، فَإِنَّهُمْ قالُوا: إِذَا أَعْجَبَكَ الكَلامُ فَٱصْمُتْ، وَإِذَا أَعْجَبَكَ الصَّمْتُ فَتَكَلَّمْ. وَٱعْلَمْ أَنَّ أَصْعَبَ المُلوكِ مُعامَلَةً الجَبَّارُ الفَطِنُ المُتَفَقِّدُ، فَإِنِ ٱبْتُلِيتَ بِصُحْبَتِهِ فَٱحْتَرِسْ، وَإِنْ عُوفِيتَ فَاشْكُرِ اللَّهَ عَلَىٰ السَّلامَةِ، فَإِنَّ السَّلامَةَ أَصْلُ كُلِّ نِعْمَةٍ. لا تُساعِدْنِي عَلَىٰ ما يَقْبُحُ بي وَلاَ تَرُدَّنَّ عَليّ خَطأً في مَجْلِسٍ، وَلاَ تُكَلِّفْنِي جَوابَ التَّشْمِيتِ وَالتَّهْنِئَةِ، وَدَعْ عَنْكَ: كَيْفَ أَصْبَحَ الأَميرُ؟ وَكَيْفَ أَمْسَىٰ؟ وَكَلِّمْني بِقَدرِ مَا أَسْتَنْطِقُكَ، وَٱجْعَلْ بَدَلَ التَّقْرِيظِ لِي صَوابَ الاسْتِماعِ مِنِّي. وَٱعْلَمْ أَنَّ صَوابَ الاسْتِماعِ أَحْسَنُ مِنْ صَوابِ القَوْلِ، وَإِذَا سَمِعْتَنِي أَتَحَدَّثُ

فَلا يَفُوتَنَّكَ مِنْهُ شَيْءٌ، وَأَرِني فَهْمَكَ إِيَّاهُ في طَرْفِكَ وَوَجْهِكَ، فَمَا ظَنُّكَ بِالمَلِكِ وَقَدْ أَحَلَّكَ مَحَلَّ المُعْجَبِ بِمَا يُسْمِعُكَ إِيّاهُ وَأَحْلَلْتَهُ بِمَحَلِّ مَنْ لا تَسْمَعُهُ مِنْهُ. وَلا تَسْتَدْعِ الزِّيادَةَ مِنْ كلامِي بِمَا تُظْهِرُ مِن ٱسْتِحْسانِ مَا يَكُونُ مِنِّي، فَمَنْ أَسْوأُ حَالاً مِمَّنْ يَسْتَلِذُّ المُلُوكَ بِالباطِلِ؟!

كَلِماتٌ في الآدَابِ

«لابْنِ المُقَفَّعِ»(١)

دَعْوَىٰ العِلْمِ

ٱسْتَحْيِ الحَياءَ كُلَّهُ مِنْ أَنْ تُخْبِرَ صَاحِبَكَ أَنَّكَ عَالِمٌ وَأَنَّهُ جَاهِلٌ، مُصَرِّحاً أَوْ مُعَرِّضاً، وَإِنِ ٱسْتَطَلْتَ عَلَىٰ الأَكْفَاءِ فلا تَثِقَنَّ مِنْهُمْ بِالصَّفاءِ، فَإِنْ آنَسْتَ مِنْ نَفْسِكَ فَضْلاً فَتَحَرَّجْ أَنْ تَذْكُرَهُ أَوْ تُبْدِيهِ. وَٱعْلَمْ أَنَّ ظُهورَهُ مِنْكَ بِذَلِكَ

---

(١) «ابن المُقَفَّعِ» [١٠٦ ـ ١٤٢هـ = ٧٢٤ ـ ٧٥٩م].

هو عَبْدُ اللَّهِ بْنُ المُقَفَّعِ، أَكْتَبُ كُتَّابِ العربيَّةِ في الأَدَبِ والحِكْمَةِ، وَمَذْهَبُهُ في الكِتابَةِ أَعْدَلُ المَذاهِبِ وَأَقْوَمُها لِطلاوَتِهِ وسلاسَتِهِ وبُعْدِهِ عَنِ الأَسْجَاعِ وَالتَّكاليفِ، ولا يُوجَدُ لَهُ نَظِيرٌ في طريقَتِهِ إلا الجاحظُ وَعَبْدُ الحميدِ وَسَهْلُ بْنُ هارون وَقَلِيلٌ مِنْ أَمْثالِهِمْ.

الوَجْهِ يُقَرِّرُ لَكَ في قُلُوبِ النَّاسِ مِنَ العَيْبِ أَكْثَرَ مِمَّا يُقَرِّرُ لَكَ مِنَ الفَضْلِ. وَٱعْلَمْ أَنَّكَ إِنْ صَبَرْتَ وَلَمْ تَعْجَلْ ظَهَرَ ذَلِكَ مِنْكَ بِالْوَجْهِ الجَمِيلِ المَعْرُوفِ. وَلاَ يَخْفِيَنَّ عَلَيْكَ أَنَّ حِرْصَ الرَّجُلِ عَلَىٰ إِظْهَارِ مَا عِنْدَهُ وَقِلَّةِ وَقارِهِ في ذَلِكَ بَابٌ مِنَ البُخْلِ وَاللُّؤْمِ، وَأَنَّ مِنْ خَيْرِ الأَعْوانِ عَلَىٰ ذَلِكَ السَّخَاءَ وَالتَّكَرُّمَ.

أُصولُ الأَخْلاقِ

يَا طَالِبَ الأَدَبِ! ٱعْرِفِ الأُصولَ وَالفُصولَ، فَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ يَطْلُبُونَ الفُصُولَ مَعَ إِضَاعَةِ الأُصولِ، فَلاَ يَكُونُ دَرَكُهُمْ دَرَكاً. وَمَنْ أَحْرَزَ الأُصولَ ٱكْتَفَىٰ بِهَا عَنِ الفُصُولِ، وَإِنْ أَصابَ الفَضْلَ بَعْدَ إِحْرازِ الأَصْلِ فَهُوَ أَفْضَلُ. فَأَصْلُ الأَمْرِ في الدِّينِ أَنْ تَعْتَقِدَ الإِيمانَ عَلَىٰ الصَّوابِ، وَتَجْتَنِبَ الكبائِرَ، وَتُؤَدِّي الفَرِيضَةَ؛ فَٱلْزَمْ ذَلِكَ لُزُومَ مَنْ لا غَنَاءَ بِهِ عَنْهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ أَنَّ حُرِمَهُ هَلَكَ. ثُمَّ إِنْ قَدَرْتَ أَنْ تُجاوِزَ ذَلِكَ إِلىٰ التَّفَقُّهِ في الدِّينِ وَالعِبَادَةِ فَهُوَ أَفْضَلُ وَأَكْمَلُ. وَأَصْلُ الأَمْرِ في إِصْلاحِ الجَسَدِ أَلاَّ تَحْمِلَ عَلَيْهِ مِنَ المَآكِلِ وَالمَشَارِبِ وَالبَاهِ إِلا خِفَافاً، وَإِنْ قَدَرْتَ عَلَىٰ أَنْ تَعْلَمَ جَمِيعَ مَنافِعِ الجَسَدِ وَمَضَارِّهِ وَالانْتِفاعِ بِذَلِكَ فَهُوَ أَفْضَلُ. وَأَصْلُ الأَمْرِ في

الْبَأْسِ أَلاَّ تُحَدِّثَ نَفْسَكَ بَالإِدْبارِ وَأَصْحابُكَ مُقْبِلُونَ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ، ثُمَّ إن قَدَرْتَ أَنْ تَكُونَ أَوَّلَ حَامِلٍ وَآخِرَ مُنْصَرِفٍ مِنْ غَيْرِ تَضْيِيعٍ لِلْحَذَرِ فَهُوَ أَفْضَلُ. وَأَصْلُ الأَمْرِ في الجُودِ أَلاَّ تَضِنَّ بِالحُقُوقِ عَلَىٰ أَهْلِها، ثُمَّ إِنْ قَدَرْتَ أَنْ تَزِيدَ ذَا الحَقِّ عَلَىٰ حَقِّهِ وَتَطُولَ عَلَىٰ مَنْ لا حَقَّ لَهُ فَافْعَلْ، فَهُوَ أَفْضَلُ. وَأَصْلُ الأَمْرِ في الكَلامِ أَنْ تَسْلَمَ مِنَ السَّقَطِ بِالتَّحَفُّظِ، ثُمَّ إِنْ قَدَرْتَ عَلَىٰ بَارِعِ الصَّوَابِ فَهُوَ أَفْضَلُ. وَأَصْلُ الأَمْرِ في المَعِيشَةِ أَلاَّ تَنِيَ عَنْ طَلَبِ الحلالِ وَأَنْ تُحْسِنَ التَّقْدِيرِ لِمَا تَفِيدُ[1]، وَمَا تُنْفِقُ، وَلا يَغُرَّنَّكَ مِنْ ذَلِكَ سَعَةٌ تَكُونُ فِيها، فَإِنَّ أَعْظَمَ النَّاسِ في الدُّنْيَا خَطَراً أَحْوَجُهُمْ إِلىٰ التَّقْدِيرِ. وَالمُلُوكُ أَحْوَجُ إِلىٰ التَّقْدِيرِ مِنَ السُّوقَةِ، لِأَنَّ السُّوقَةَ قَدْ يَعِيشُ بِغَيْرِ مَالٍ، وَالمُلُوكُ لا قِوامَ لَهُمْ إلا بِالمَالِ، ثُمَّ إِنْ قَدَرْتَ عَلَىٰ الرِّفْقِ وَاللُّطْفِ في الطَّلَبِ وَالعِلْمِ بِالمَطالِبِ فَهُوَ أَفْضَلُ.

شَرَفُ المُرُوءَةِ

لا يَعْجَبَنَّكَ إِكْرَامُ مَنْ يُكْرِمُكَ لِمَنْزِلَةٍ أَوْ سُلْطانٍ، فَإِنَّ السُّلْطَةَ أَوْشَكُ أُمُورِ الدُّنْيَا زَوالاً، وَلاَ يَعْجَبَنَّكَ إِكْرامُهُمْ

(١) تَفِيدُ، أَي: تَسْتَفِيدُ.

إِيَّاكَ لِلنَّسَبِ، فَإِنَّ الأَنْسَابَ أَقَلُّ مَناقِبِ الخَيْرِ غَنَاءً عَنْ أَهْلِهَا في الدِّينِ وَالدُّنْيَا، وَلَكِنْ إِذا أُكْرِمْتَ عَلَىٰ دِينٍ أَوْ مُرُوءَةٍ، فَذَلِكَ فَلْيُعْجِبْكَ، فَإِنَّ المُرُوءَةَ لاَ تُزَايِلُكَ في الدُّنْيَا وَالدِّينَ لا يُزايِلُكَ في الآخِرَةِ.

سِيَاسَةُ الاقْتِصَادِ

ٱعْلَمْ أَنَّ رَأْيَكَ لا يَتَّسِعُ لِكُلِّ شَيْءٍ فَفَرِّغْهُ لِلْمُهِمِّ، وَإِنَّ مالَكَ لا يُغْنِي النَّاسَ كُلَّهُمْ فَٱخْتَصَّ بِهِ ذَوِي الحُقُوقِ، وَإِنَّ كَرَامَتَكَ لا تُطِيقُ العَامَّةَ فَتَوِّجْ بِهَا أَهْلَ الفَضَائِلِ، وَإِنَّ لَيْلَكَ وَنَهَارَكَ لا يَسْتَوْعِبانِ حاجَاتِكَ وَإِنْ دَأَبْتَ فِيهَا، وَإِنَّهُ لَيْسَ لَكَ إِلىٰ أَدَائِها سَبِيلٌ مَعَ حَاجَةِ جَسَدِكَ إِلى نَصِيبِهِ مِنْهُمَا، فَأَحْسِنْ قِسْمَتَهُمَا بَيْنَ دَعَتِكَ وَعَمَلِكَ، وَٱعْلَمْ أَنَّكَ مَا شَغَلْتَ مِنْ رَأْيِكَ بِغَيْرِ المُهِمِّ أَزْرَىٰ بِالمُهِمِّ، وَمَا صَرَفْتَ مِنْ مالِكَ بِالباطِلِ فَقَدْتَهُ حِينَ تُرِيدُهُ لِلْحَقِّ، وَمَا عَدَلْتَ بِهِ مِنْ كَرامَتِكَ إِلى أَهْلِ النَّقْصِ أَضَرَّ بِكَ فِي العَجْزِ عَنْ أَهْلِ الفَضْلِ، وَمَا شَغَلْتَ مِنْ لَيْلِكَ وَنَهارِكَ فِي غَيْرِ الحاجَةِ أَزْرَىٰ بِكَ في الحاجَةِ.

الشُّورَىٰ

لا يُقْذَفَنَّ في رُوعِكَ أَنَّكَ إِنِ ٱسْتَشَرْتَ الرِّجالَ ظَهَرَ لِلنَّاسِ مِنْكَ الحاجَةُ إِلَىٰ غَيْرِكَ، فَإِنَّكَ لَسْتَ تُرِيدُ الرَّأْيَ

للافْتِخَارِ بِهِ، وَلَكِنْ تُرِيدُهُ للانْتِفَاعِ بِهِ، وَلَوْ أَنَّكَ مَعَ ذَلِكَ أَرَدْتَ الذِّكْرَ كَانَ أَحْسَنَ الذِّكْرَيْنِ وَأَفْضَلَهُمَا عِنْدَ أَهْلِ الفَضْلِ أَنْ يُقَالَ: لا يَتَفَرَّدُ بِرَأْيِهِ دُونَ ٱسْتِشَارَةِ ذَوِي الرَّأْيِ.

رِضَى النَّاسِ

إِنَّكَ إِنْ تَلْتَمِسْ رِضاءَ جَمِيعِ النَّاسِ تَلْتَمِسْ مَا لا يُدْرَكُ، وَكَيْفَ يَتَّفِقُ لَكَ رَأْيُ المُخْتَلِفِينَ؟ وَمَا حاجَتُكَ إِلىٰ رِضَاءِ مَنْ رِضاهُ الجَوْرُ؟ وَإِلىٰ مُوافَقَةِ مَنْ مُوَافَقَتُهُ الضَّلالَةُ وَالْجَهَالَةُ؟ فَعَلَيْكَ بِالتِمَاسِ رِضاءِ الأَخْيارِ مِنْهُمْ وَذَوِي العَقْلِ، فَإِنَّكَ مَتَىٰ تُصِبْ ذَلِكَ تَضَعْ عَنْكَ مَؤُونَةَ مَا سِوَاهُ.

الصَّدَاقَةُ

ٱبْذِلْ لِصَدِيقِكَ دَمَكَ وَمَالَكَ، وَلِمَعْرِفَتِكَ رِفْدَكَ وَمَحْضَرَكَ، وَلِلْعَامَّةِ بِشْرَكَ وَتَحَنُّنَكَ، وَلِعَدُوِّكَ عَدْلَكَ، وَٱضْنُنْ بِدِينِكَ وَعِرْضِكَ عَنْ كُلِّ أَحَدٍ.

الصَّبْرُ

ذَلِّلْ نَفْسَكَ بِالصَّبْرِ عَلَىٰ جَارِ السُّوءِ وَجَلِيسِ السُّوءِ، فَإِنَّ ذَلِكَ مَا لا يَكَادُ يُخْطِئُكَ، فَإِنَّ الصَّبْرَ صَبْرانِ: صَبْرُ الرَّجُلِ عَلَىٰ مَا يَكْرَهُ، وَصَبْرُهُ عَمَّا يُحِبُّ؛ فَالصَّبْرُ عَلَىٰ المَكْرُوهِ أَكْثَرُهُمَا وَأَشْبَهُهُما أَنْ يَكُونَ صاحِبُهُ مُضْطَرًّا.

وَٱعْلَمْ أَنَّ اللِّئَامَ أَصْبَرُ أَجْساداً، وَالْكِرَامَ أَصْبَرُ نُفُوساً، وَلَيْسَ الصَّبْرُ المَمْدُوحُ أَنْ يَكُونَ جَلَدُ الرَّجُلِ وَقَاحاً، أَوْ رِجْلُهُ قَوِيَّةً عَلَىٰ المَشْيِ، أَوْ يَدُهُ قَوِيَّةً عَلَىٰ العَمَلِ، فَإِنَّمَا هَذَا مِنْ صِفَاتِ الحَمِيرِ، وَلَكِنْ أَنْ يَكُونَ للنَّفْسِ غَلُوباً، وَلِلأُمورِ مُحْتَملاً، وَفِي الضَّرِّ مُتجَمِّلاً، وَلِنَفْسِهِ عِنْدَ الرَّأْيِ وَالحِفَاظِ مُرْتَبِطاً، وَلِلْحَزْمِ مُؤْثِراً، وَلِلْهَوَىٰ تارِكاً، وَلِلْمَشَقَّةِ الَّتِي يَرْجُو عاقِبَتَها مُسْتَخِفّاً، وَعَلَىٰ مُجاهَدَةِ الأَهْواءِ وَالشَّهَوَاتِ مُوَاظِباً.

سُكْرُ الرِّضَىٰ والغَضَبِ

ٱعْلَمْ أَنَّ مِنَ النَّاسِ نَاساً كَثِيراً يُبْلُغُ مِنْ أَحَدِهِمُ الغَضَبُ إِذَا غَضِبَ أَنْ يُحْمِلَهُ ذَلِكَ عَلَىٰ الكُلُوحِ وَالتَّقْطِيبِ في وَجْهِ غَيْرِ مَنْ أَغْضَبَهُ، وَسُوءِ اللَّفْظِ لِمَنْ لا ذَنْبَ لَهُ، وَالعُقُوبَةِ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ يَهُمُّ بِعُقُوبَتِهِ وَسُوءِ المُعاقَبَةِ باليَدِ وَاللِّسَانِ لِمَنْ لم يَكُنْ يُرِيدُ به إِلاَّ دُونَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْلُغُ بِهِ الرِّضَىٰ إِذَا رَضِيَ أَنْ يَتَبَرَّعَ بِالأَمْرِ ذِي الخَطَرِ[1] لِمَنْ لَيْسَ بِمَنْزِلَةِ ذَلِكَ عِنْدَهُ، وَيُعْطِيَ مَنْ لَمْ يَكُنْ يُعْطِيهِ، وَيُكْرِمَ مَنْ لا حَقَّ لَهُ وَلاَ مَوَدَّةَ؛ فَٱحْذَرْ هَذَا البَابَ كُلَّهُ، فَإِنَّهُ لَيْسَ

(١) الخَطَرُ: المَنْزِلَةُ وَالقَدْرُ.

أَحَدٌ أسْوَأَ حالاً مِنْ أَهْلِ القُدْرَةِ الَّذِينَ يُفْرِطُونَ بِاقْتِدَارِهِمْ في غَضَبِهِمْ وَسُرْعَةِ رِضاهُمْ، فَإِنَّهُ لَوْ وُصِفَ بِصِفَةِ مَنْ يُتَلَبَّسُ بِعَقْلِهِ أَوْ يَتَخَبَّطُهُ المَسُّ مَنْ يُعاقِبُ فِي غَضَبِهِ غَيْرَ مَنْ أَغْضَبَهُ وَيَحْبُو عِنْدَ رِضاهُ غَيْرَ مَنْ أَرْضاهُ، لَكَانَ جَائِزاً في صِفَتِهِ.

الاَحْتِمالُ

ٱعْلَمْ أَنَّكَ سَتُبْتَلَىٰ مِنْ أَقْوام بِسَفَهٍ، وَإِنَّ سَفَهَ السَّفِيهِ سَيَطَّلِعُ لَكَ مِنْهُ، فَإِنْ عَارَضْتَهُ أَوْ كَافَأْتَهُ بِالسَّفَهِ، فَكَأَنَّكَ قَدْ رَضِيتَ مَا أَتَىٰ بِهِ، فَٱجْتَنِبْ أَنْ تَحْتَذِي مِثالَهُ، فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ عِنْدَكَ مَذْمُوماً فَحَقِّقْ ذَمَّكَ إِيَاهُ بِتَرْكِ مُعارَضَتِهِ، فَأَمَّا أَنْ تَذُمَّهُ وَتَمْتَثِلَهُ فَلَيْسَ ذَلِكَ لَكَ.

الرِّفْعَةُ في التَّواضُعِ

إِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَنْ تُنْزِلَ نَفْسَكَ دُونَ غايَتِكَ في كُلِّ مَجْلِسٍ وَمَقام وَمَقالٍ وَرَأْيٍ وَفِعْلٍ فَٱفْعَلْ، فَإِنَّ رَفْعَ النَّاسِ إِيَّاكَ فَوْقَ المَنْزِلَةِ الَّتِي تَحُطُّ إِلَيْهَا نَفْسَكَ وَتَقْرِيبَهُمْ إِيَّاكَ في المَجْلِسِ الَّذِي تَباعَدْتَ عَنْهُ، وَتَعْظِيمَهُمْ مِنْ أَمْرِكَ مَا لَمْ تُعَظِّمْ، وَتَزْيِينَهُمْ مِنْ كلامِكَ وَرَأْيِكَ مَا لَمْ تُزَيِّنْ؛ هُوَ الْجَمالُ.

الحَسَدُ

لِيَكُنْ مِمَّا تَصْرِفُ بِهِ الأَذَىٰ وَالعَذابَ عَنْ نَفْسِكَ أَلاّ تَكُونَ حَسُوداً، فَإِنَّ الحَسَدَ خُلُقٌ لَئِيمٌ، وَمِنْ لُؤْمِهِ أَنْ يُوَكَّلَ بِالأَدْنَىٰ فَالأَدْنَىٰ مِنَ الأَقارِبِ وَالأَكْفاءِ الخُلَطاءِ، فَلْيَكُنْ مَا تُقابِلُ بِهِ الحَسَدَ أنْ تَعْلَمَ أَنْ خَيْرَ مَا تَكُونُ حِينَ تَكُونُ مَعَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْكَ، وَأَنَّ غُنْماً لَكَ أَنْ يَكُونَ عَشِيرُكَ وَخَلِيطُكَ أَفْضَلَ مِنْكَ في العِلْمِ فَتَقْتَبِسَ مِنْ عِلْمِهِ، وَأَفْضَلَ مِنْكَ فِي القُوَّةِ فَيَدْفَعُ عَنْكَ بِقُوَّتِهِ، وَأَفْضَلَ مِنْكَ في المالِ فَتَفِيدَ[1] مِنْ مَالِهِ، وَأَفْضَلَ مِنْكَ في الْجَاهِ فَتُصِيبُ حَاجَتَكَ بِجَاهِهِ، وَأَفْضَلَ مِنْكَ فِي الدِّينِ فَتَزْدَادُ صَلاحاً بِصَلاحِهِ.

الصِّدْقُ

لِيَعْرِفْ إِخْوانُكَ وَٱلعامَّةُ أَنَّكَ إِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ إِلىٰ أَنْ تَفْعَلَ مَا لاَ تَقُولَ أَقْرَبُ مِنْكَ إِلىٰ أَنْ تَقُولَ مَا لاَ تَفْعَلُ فَعَلْتَ، فَإِنّ فَضْلَ القَوْلِ عَلَىٰ الفِعْلِ عارٌ وَهُجْنَةٌ، وَفَضْلَ الفِعْلِ عَلَىٰ القَوْلِ زِينَةٌ.

فُضُولُ النَّظَرِ

ٱعْلَمْ أَنَّ مِنْ أَوْقَعِ الأُمُورِ في الدِّيْنِ وَأَنْهَكِهَا لِلْجَسَدِ

---

(١) تَفِيدُ، أي: تَسْتَفِيدُ.

وَأَتْلَفِها لِلْمالِ وَأَضَرِّها بِالْعَقْلِ وَأَسْرَعِها في ذَهابِ الجَلالَةِ وَالوَقارِ الغَرَامَ بِالنِّسَاءِ، وَمِنَ البلاءِ عَلَىٰ المُغْرَمِ بِهِنَّ أَنَّهُ لا يَنْفَكُّ يَأْجِمُ مَا عِنْدَهُ وَتَطْمَحُ عَيْنَاهُ إِلىٰ مَا لَيْسَ عِنْدَهُ مِنْهُنَّ، وَإِنَّما النِّساءُ أَشْباهٌ، وَمَا يُرىٰ في العُيُونِ وَالقُلُوبِ مِنْ فَضْلِ مَجْهُولاتِهِنَّ عَلَىٰ مَعْرُوفاتِهِنَّ باطِلٌ وَخِدْعَةٌ، بَلْ كَثِيرٌ مِمَّنْ يَرْغَبُ عَنْهُ الرَّاغِبُ مِمَّا عِنْدَهُ أَفْضَلُ مِمَّا تَتُوقُ إِلَيْهِ نَفْسُهُ، وَإِنَّمَا المُتَرَغِّبُ عَمَّا فِي رَحْلِهِ مِنْهُنَّ إِلىٰ مَا فِي رِحالِ النَّاسِ كَالمُتَرَغِّبِ عَنْ طَعامِ بَيْتِهِ إِلىٰ مَا فِي بُيوتِ النَّاسِ، بَلِ النِّسَاءُ بِالنِّسَاءِ أَشْبَهُ مِنَ الطَّعامِ بِالطَّعامِ، وَما فِي رِحالِ النَّاسِ مِنَ الأَطْعِمَةِ أَشَدُّ تَفاضُلاً وَتَفاوُتاً مِمّا في رِحالِهِمْ مِنَ النِّسَاءِ. وَمِنَ العَجَبِ أَنَّ الرَّجُلَ الَّذِي لا بَأْسَ في لُبِّهِ يَرَىٰ المَرْأَةَ مِنْ بَعِيدٍ مُتَلَفِّفَةً في ثيابِها، فَيُصَوِّرُ لَهَا في قَلْبِهِ الحُسْنَ وَالجَمالَ حَتَّىٰ تَعْلَقَ بِها نَفْسُهُ مِنْ غَيْرِ رُؤْيَةٍ وَلاَ خَبَرٍ مُخْبِرٍ، ثُمَّ لَعَلَّهُ يَهْجُمُ مِنْهَا عَلَىٰ أَقْبَحِ القُبْحِ، وَأَدَمِّ الدَّمامَةِ، فَلا يَعِظُهُ ذَلِكَ عَنْ أَمْثالِها، وَلا يَزَالُ مَشْغُوفاً بِما لَمْ يَذُقْ حَتَّىٰ لَوْ لَمْ يَبْقَ فِي الأَرْضِ غَيْرُ ٱمْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ لَظَنَّ أَنَّ لَهَا شَأْناً غَيْرَ شَأْنِ مَا ذَاقَ، وَهَذَا هُوَ الحُمْقُ وَالشَّقَاءُ.

الثِّقَةُ بِالأَصْدِقَاءِ

إِنْ رَأَيْتَ صَاحِبَكَ مَعَ عَدُوِّكَ فَلاَ يُغْضِبَنَّكَ ذَلِكَ،

فَإِنَّمَا هُوَ أَحَدُ رَجُلَيْنِ، إِنْ كَانَ رَجُلاً مِنْ إِخْوانِ الثِّقَةِ فَأَنْفَعُ مَواطِنِهِ لَكَ أَقْرَبُهَا مِنْ عَدُوِّكَ، لِشَرٍّ يَكْفِيهِ عَنْكَ، وَعَوْرَةٍ يَسْتُرُهَا مِنْكَ، وَغائِبَةٍ يَطَّلِعُ عَلَيْهَا لَكَ؛ فَأَمَّا صَدِيقُكَ فَمَا أَغْنَاكَ أَنْ يَحْضُرَهُ ذُو ثِقَتِكَ، وَإِنْ كانَ رَجُلاً مِنْ غَيْرِ خاصَّةِ إخْوانِكَ فَبأَيِّ حَقٍّ تَقْطَعُهُ عَنِ النَّاسِ وَتُكَلِّفُهُ أَنْ لا يُصاحِبَ وَلاَ يُجَالِسَ إِلاَّ مَنْ تَهْوَىٰ.

غَرَائِزُ النَّاسِ

إِذَا أَقْبَلَ إِلَيْكَ مُقْبِلٌ بِوِدِّهِ فَسَرَّكَ أَلاَّ يُدْبِرَ عَنْكَ، فَلاَ تُنْعِمَ الإِقْبَالَ عَلَيْهِ وَالتَّفَتُّحَ لَهُ، فَإِنَّ الإِنْسَانَ طُبِعَ عَلَىٰ ضَرَائِبِ لُؤْمٍ، فَمِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَرْحَلَ عَمَّنْ لَصِقَ بِهِ، وَيَلْصَقَ بِمَنْ رَحَلَ عَنْهُ.

آفَةُ الفَقْرِ

إِذَا ٱفْتَقَرَ الرَّجُلُ ٱتَّهَمَهُ مَنْ كَانَ لَهُ مُؤْتَمِناً، وَأَساءَ به الظَّنَّ مَنْ كَانَ يَظُنُّ بِهِ حَسَناً، فَإِذا أَذْنَبَ غَيْرُهُ ظَنُّوهُ وَكَانَ لِلتُّهْمَةِ وَسُوءِ الظَّنِّ مَوْضِعاً، وَلَيْسَ مِنْ خَلَّةٍ هِيَ لِلغَنِيِّ مَدْحٌ إِلاَّ وَهِي لِلْفَقِيرِ عَيْبٌ، فَإِنْ كَانَ شُجاعاً سُمِّيَ أَهْوَجَ، وَإِنْ كَانَ جَوَاداً سُمِّيَ مُفْسِداً، وَإِنْ كَانَ حَلِيماً سُمِّيَ ضَعِيفاً، وَإِنْ كَانَ وَقُوراً سُمِّيَ بَلِيداً، وَإِنْ كَانَ لَسِناً سُمِّيَ مِهْذَاراً، وَإِنْ كَانَ صَمُوتاً سُمِّيَ عَيِيّاً.

المَوَدَّةُ

المَوَدَّةُ بَيْنَ الأَخْيَارِ سَرِيعٌ اتِّصالُها بَطِيءٌ انْقِطاعُها، وَمَثَلُ ذَلِكَ كَمَثَلِ كُوبِ الذَّهَبِ الَّذِي هُوَ بَطِيءُ الانْكِسَارِ هَيِّنُ الإِصْلاحِ؛ وَالمَوَدَّةُ بَيْنَ الأَشْرَارِ سَرِيعٌ انْقِطاعُها بَطِيءٌ اتِّصالِها، كَالْكُوزِ مِنَ الفَخَّارِ يَكْسُرُهُ أَدْنَىٰ عَبَثٍ، ثُمَّ لاَ وَصْلَ لَهُ أَبداً؛ وَالْكَرِيمُ يَمْنَحُ مَوَدَّتَهُ عَنْ لُقْيَةٍ وَاحِدَةٍ أَوْ مَعْرِفَةِ يَوْمٍ، وَاللَّئِيمُ لا يَصِلُ أَحَداً إلاَّ عَنْ رَغْبَةٍ أَوْ رَهْبَةٍ.

الحِقْدُ

مَثَلُ الْحِقْدِ في الْقَلْبِ إِذا لَمْ يَجِدْ مُحَرِّكاً مَثَلُ الْجَمْرِ المَكْنُونِ، إِذَا لَمْ يَجِدْ حَطَباً فَلَيْسَ يَنْفَكُّ الْحِقْدُ مُتَطَلِّعاً إِلَىٰ الْعِلَلِ كما تَبْتَغِي النَّارُ الحَطَبَ، فَإِذَا وَجَدَ عِلَّةً اسْتَعَرَ، فَلا يُطْفِئُهُ حُسْنُ كلامٍ وَلاَ لِينٌ وَلا رِفْقٌ وَلا خُضُوعٌ وَلا تَضَرُّعٌ وَلاَ مَصانَعَةٌ وَلاَ شَيْءٌ دُونَ تَلَفِ الأَنْفُسِ وَذَهابِ الأَرْواحِ.

الحَزْمُ

الرِّجَالُ ثَلاثَةٌ: حَازِمٌ وَأَحْزَمُ مِنْهُ وَعاجِزٌ. فَالحازِمُ مَنْ إِذا نَزَلَ بِهِ الأَمْرُ لَمْ يَدْهَشْ لَهُ، وَلَمْ يَذْهَبْ قَلْبُهُ شُعَاعاً، وَلَمْ تَعْيَ بِهِ حِيلَتُهُ وَمَكِيدَتُهُ الَّتِي يَرْجُو بِها المَخْرَجَ مِنْهُ. وَأَحْزَمُ مِنْ هَذَا المِقْدَامُ ذُو العُدَّةِ الَّذِي يَعْرِفُ الابْتِلاءَ قَبْلَ وُقوعِهِ

فَيُعْظِمُهُ إِعْظاماً، وَيَحْتَالُ لَهُ حِيلَةً حَتَّىٰ كَأَنَّهُ قَدْ لَزِمَهُ، فَيَحْسِمُ الدَّاءَ قَبْلَ أَنْ يُبْتَلَىٰ بِهِ، وَيَدْفَعُ الأَمْرَ قَبْلَ وُقُوعِهِ. وَأَمَّا العَاجِزُ فَهُوَ في تَرَدُّدٍ وَتَمَنٍّ وَتَوَانٍ حَتَّىٰ يَهْلِكَ.

المَوَدَّةُ الكَاذِبَةُ

إِنَّ أَهْلَ الدُّنْيَا يَتَعاطَوْنَ فِيما بَيْنَهُمْ أَمْرَيْنِ وَيَتَوَاصَلُونَ عَلَيْهِما، وَهُمَا ذاتُ النَّفْسِ وَذَاتُ اليَدِ. فَالمُتَبَادِلُونَ ذاتَ النَّفْسِ هُمُ الأَصْفِياءُ. وَأَمَّا المُتَبَادِلُونَ ذاتَ اليَدِ فَهُمُ المُتَعاوِنُونَ الَّذِينَ يَلْتَمِسُ بَعْضُهُمُ الانْتِفاعَ بِبَعْضٍ، وَمَنْ كانَ يَصْنَعُ المَعْرُوفَ بِبَعْضِ مَنَافِعِ الدُّنْيَا فَإِنَّمَا مَثَلُهُ فِيمَا يَبْذُلُ وَيُعْطِي كَمَثَلِ الصَّيَّادِ وَإِلْقَائِهِ الحَبَّ لِلطَّيْرِ لا يُرِيدُ بِذَلِكَ نَفْعَ الطَّيْرِ وَإِنَّمَا يُرِيدُ نَفْعَ نَفْسِهِ.

أَدَبُ الحَدِيثِ

لا تَخْلِطَنَّ بِالجِدِّ هَزْلاً وَلاَ بِالهَزْلِ جِدًّا، فَإِنَّكَ إِنْ خَلَطْتَ بِٱلجِدِّ هَزْلاً هَجَّنْتَهُ، وَإِنْ خَلَطْتَ بِالْهَزْلِ جِدًّا كَدَّرْتَهُ، غَيْرَ أَنِّي قَدْ عَلِمْتُ مَوْطِناً وَاحِداً إِنْ قَدَرْتَ أَنْ تَسْتَقْبِلَ فِيهِ الجِدَّ بِٱلْهَزْلِ أَصَبْتَ الرَّأْيَ وَظَهَرْتَ عَلَىٰ الأَقْرَانِ، وَذَلِكَ أَنْ يَتَوَرَّدَكَ مُتَوَرِّدٌ بِالسَّفَهِ وَالغَضَبِ فَتُجِيبَهُ إِجابَةَ الهازِلِ المُدَاعِبِ بِرَحْبٍ مِنَ الذَّرْعِ وَطلاقَةٍ مِنَ الوَجْهِ وَثَبَاتٍ مِنَ المَنْطِقِ.

الْهَوَىٰ

إِذَا بَدَهَكَ أَمْرانِ لا تَدْرِي أَيُّهُمَا أَصْوَبُ، فَٱنْظُرْ أَيُّهُمَا أَقْرَبُ إِلىٰ هَوَاكَ فَخَالِفْهُ، فَإِنَّ أَكْثَرَ الصَّوَابِ في خِلافِ الهَوَىٰ.

الْكَمَالُ الإِنْسانِيُّ

إِنِّي مُخْبِرُكَ عَنْ صاحِبٍ كانَ أَعْظَمَ النَّاسِ في عَيْنِي، وَكَانَ رَأْسَ مَا أَعْظَمَهُ عِنْدِي صِغَرُ الدُّنْيَا في عَيْنِهِ. كانَ خَارِجاً مِنْ سُلْطانِ بَطْنِهِ فلا يَشْتَهِي ما لا يَجِدُ، وَلاَ يُكْثِرُ إِذا وَجَدَ؛ وَكانَ خَارِجاً مِنْ سُلْطانِ فَرْجِهِ فَلاَ يَدْعُو إِلَيْهِ مُؤونَةً وَلاَ يَسْتخِفُّ لَهُ رأياً وَلاَ بَدَناً. وَكانَ خَارِجاً مِنْ سُلْطانِ الْجَهَالَةِ فَلاَ يُقْدِمُ إِلاَّ عَلَىٰ ثِقَةٍ أَوْ مَنْفَعَةٍ؛ وَكَانَ أَكْثَرَ دَهْرِهِ صَامِتاً، فَإِذَا قَالَ بَذَّ[1] ٱلْقَائِلِينَ؛ وَكَانَ يُرَىٰ مُتَضَعِّفاً مُسْتَضْعَفاً، فَإِذا جَاءَ الجِدُّ فَهُوَ اللَّيْثُ عَادِياً، وَكَانَ لا يَدْخُلُ في دَعْوَىٰ وَلاَ يَشْرَكُ في مِراءٍ وَلاَ يُدْلِي بِحُجَّةٍ حَتَّىٰ يَجِدَ قَاضِياً فَهِماً وَشُهوداً عُدُولاً، وَكَانَ لا يَلُومُ أَحَداً عَلَىٰ مَا قَدْ يَكُونُ العُذْرُ في مِثْلِهِ حَتَّى يَعْلَمَ مَا ٱعْتِذَارُهُ، وَكَانَ لا يَشْكُو وَجَعاً إِلاَّ إِلىٰ مَنْ يَرْجُو عِنْدَهُ البُرْءَ، وَلاَ

---

(١) بَذّ: غَلَبَ.

يَصْحَبُ إلاَّ مَنْ يَرْجُو عِنْدَهُ النَّصِيحَةَ، وَكَانَ لاَ يَتَبَرَّمُ وَلاَ يَتَسَخَّطُ وَلاَ يَتَشَهَّىٰ وَلاَ يَتَشَكَّىٰ وَلاَ يَنْتَقِمُ مِنَ الوَلِيِّ، وَلاَ يَغْفُلُ عَنِ العَدُوِّ، وَلاَ يَخُصُّ نَفْسَهُ دُونَ إخْوانِهِ بِشَيْءٍ مِنَ ٱهْتِمامِهِ وَحِيلَتِهِ وَقُوَّتِهِ. فَعَلَيْكَ بِهَذِهِ الأَخْلاقِ إِنْ أَطَقْتَ، وَلَنْ تُطِيقَ، وَلَكِنَّ أَخْذَ القَلِيلِ خَيْرٌ مِنْ تَرْكِ ٱلْجَمِيعِ.

الأَقْسَامُ

إِنَّمَا يَحْمِلُ الرَّجَلَ عَلَىٰ الحَلْفِ إِحْدَىٰ هَذِهِ الخِلالِ: إِمّا مَهَانَةٌ يَجِدُها في نَفْسِهِ، وَضَرَعٌ وَحاجَةٌ إِلىٰ تَصْدِيقِ النَّاسِ إِيَّاهُ؛ وَإِمَا عَيٌّ بِالْكَلامِ حَتَّىٰ يَجْعَلَ الأَيمانَ لَهُ حَشْواً وَوَصْلاً، وَإِمّا تُهَمَةٌ قَدْ عَرَفَهَا مِنَ النَّاسِ لِحَدِيثِهِ فَهُوَ يُنْزِلُ نَفْسَهُ مَنْزِلَةَ مَنْ لا يُقْبَلُ مِنْهُ قَوْلٌ إلاَّ بَعْدَ جَهْدِ اليَمِينِ، وَإِما عَبَثٌ في القَوْلِ أَوْ إِرْسَالُ اللِّسانِ عَلَىٰ غَيْرِ رَوِيَّةٍ وَلاَ تَقْدِيرٍ.

أَدَبُ التَّربِيَةِ

«لِهارُونَ الرَّشِيدِ»

في وَصِيَّةٍ لَهُ إِلىٰ مُؤَدِّبِ وَلَدِهِ:

يَا أَحْمَرُ! إِنَّ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ قَدْ دَفَعَ إِلَيْكَ مُهْجَةَ نَفْسِهِ، وَثَمَرَةَ قَلْبِهِ، فَصَيِّرْ يَدَكَ عَلَيْهِ مَبْسُوطَةً، وَطاعَتَهُ لَكَ

وَاجِبَةً، وَكُنْ لَهُ بِحَيْثُ وَضَعَكَ أَمِيرُ المُؤْمِنِين. أَقْرِئْهُ القُرْآنَ، وَعَرِّفْهُ الأَخْبَارَ، وَرَوِّهِ الأَشْعَارَ، وَعَلِّمْهُ السُّنَنَ، وَبَصِّرْهُ بِمَوَاقِعِ الكَلاَمِ، وَٱمْنَعْهُ مِنَ الضَّحِكِ إِلاَّ في أَوْقاتِهِ، وَخُذْهُ بِتَعْظِيمِ بَنِي هاشِمِ إِذَا دَخَلُوا عَلَيْهِ، وَرَفْعِ مَجَالِسِ القُوَّادِ إِذَا حَضَرُوا مَجْلِسَهُ. وَلاَ تَمُرَّنَّ بِكَ سَاعَةٌ إِلاَّ وَأَنْتَ مُغْتَنِمٌ فِيهَا فَائِدَةً تُفِيدُهُ إِيَّاهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ تُحْزِنَهُ فَتُمِيتَ ذِهْنَهُ أَوْ تُمْعِنَ في مُسامَحَتِهِ فَيَسْتَحْلِيَ الفَرَاغَ وَيَأْلَفَهُ. وَقَوِّمْهُ ما ٱسْتَطَعْتَ بِالقُرْبِ وَالمُلاَيَنَةِ فَإِنْ أَباهُمَا فَعَلَيْكَ بِالشِّدَّةِ وَالغِلْظَةِ.

الاقْتِصادُ

«لِلبَدِيعِ الهَمَذَانِي»[1]

وَهُوَ كِتابٌ أَرْسَلَهُ إِلىٰ أَحَدِ الوَارِثِينَ:

وَصَلَتْ رُقْعَتُكَ يَا سَيِّدِي وَالمُصَابُ لَعَمْرُ ٱللَّهِ كَبِيرٌ،

---

(١) بَدِيع الزَّمانِ الهَمَذَانِي» [أحمد بن الحُسَيْن] [٣٥٨ ـ ٣٩٨هـ = ٩٦٩ ـ ١٠٠٨م].
هُوَ مِنْ أوائل الكتَّاب في عَصْرِهِ وَأَغْزَرِهِمْ مادَّةً في اللغة والأدَبِ، وَأَحْسَنُ ما كَتَبَ مقاماتُهُ، فَهِيَ أَفْضَلُ مِنْ أَكْثَر رَسائِلِهِ كَما أَنَّها أَفْضَلُ مِنْ كُلِّ ما كَتَبَ الكُتَّابُ من المَقامات بَعْدَها.

وَأَنْتَ بِٱلْجَزَعِ جَدِيرٌ، وَلَكِنَّكَ بِالصَّبْرِ أَجْدَرُ؛ وَالْعَزَاءُ عَنْ الأَعِزَّةِ رُشْدٌ كَأَنَّهُ ٱلْغَيُّ، وَقَدْ مَاتَ المَيْتُ فَلْيَحْيَ ٱلْحَيُّ؛ فَٱشْدُدْ عَلَىٰ مالِكِ بِالخَمْسِ، فَأَنْتَ ٱلْيَوْمَ غَيْرُكَ بِالأَمْسِ؛ قَدْ كَانَ ذَلِكَ الشَّيْخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وَكِيلَكَ، تَضْحَكُ وَيَبْكِي لَكَ؛ وَقَدْ مَوَّلَكَ مِمَّا أَلَّفَ بَيْنَ سُراهُ وَسَيْرِهِ[1]، وَخَلَّفَكَ فَقِيراً إِلَىٰ ٱللَّهِ غَنِيًّا عَنْ غَيْرِهِ؛ وَسَيَعْجُمُ الشَّيْطانُ عُودَكَ[2]، فَإِنِ ٱسْتَلانَهُ رَمَاكَ بِقَوْمٍ يَقُولُونَ: خَيْرُ المَالِ مَا أُتْلِفَ بَيْنَ الشَّرَابِ وَالشَّبَابِ، وَأُنْفِقَ بَيْنَ الحَبابِ[3] وَالأَحْبَابِ؛ وَالعَيْشِ بَيْنَ الأَقْداحِ وَالقِدَاحِ[4]؛ وَلَوْلاَ الاسْتِعمالُ، لَمَا أُرِيدَ المالُ؛ فَإِنْ أَطَعْتَهُمْ فَاليَوْمَ فِي الشَّرابِ، وَغَداً فِي الخَرابِ؛ وَاليَوْمَ وَاطَرَبا لِلكاسِ، وَغَداً وَاحَرْبا مِنَ الإِفْلاسِ؛ يَا مَوْلاَيَ! ذَلِكَ الخارِجُ مِنَ العُودِ يُسَمِّيهِ العاقِلُ فَقْراً، وَالجاهِلُ نَقْراً؛ وَذَلِكَ المَسْمُوعُ مِنَ النَّاي هُوَ اليَوْمَ

(١) مَوَّلَكَ: جَعَلك ذا مالٍ؛ وَالسُّرَىٰ: المَشْيُ بالليل؛ وَالسَّيْرُ: المَشْيُ بالنهارِ.

(٢) يَعْجُمُ: يَعَضُّ. في الأصل يُقال: عَجَمَ عُودَه: إذا عَضَّه بأسنانِهِ لِيعْرِفَ شِدَّتَهُ من لِينِهِ، وَالمرادُ هنا: سَيَخْتَبِرُكَ الشيطانُ.

(٣) حَبابُ الشرابِ: فقاقيعُه التي تَعْلُو سَطْحَه.

(٤) القِداحُ: سهام المَيْسِرِ، ويريدُ هنا لُعَبَ القِمار.

في الآذَانِ زَمْرٌ، وَغَداً في الأبوابِ سَمْرٌ؛ وَالعُمْرُ مع هَذِهِ الآلاتِ سَاعَةٌ، وَالقِنْطَارُ في هَذَا العَمَلِ بضاعَةٌ؛ وَإِنْ لَمْ يَجِدِ الشَّيْطَانُ مَغْمَزاً في عُودِكَ مِنْ هَذَا الوَجْهِ رَماكَ بِآخَرِينَ يُمَثِّلُونَ الفَقْرَ حِذاءَ عَيْنِكَ، فَتُجاهِدُ قَلْبَكَ، وَتُحاسِبُ بَطْنَكَ؛ وَتُناقِشُ عَيْنَكَ، وَتَمْنَعُ نَفْسَكَ، وَتبُوءُ في دُنْيَاكَ بِوزْرِكَ، وَتَرَاهُ في الآخِرَةِ في مِيزانِ غَيْرِكَ. لاَ وَلَكِنْ قَصْداً بَيْنَ الطَّرِيقَيْنِ، وَمَيْلاً عَنِ الفَرِيقَيْنِ؛ لا مَنْعَ وَلاَ إِسْرَافَ؛ وَالْبُخْلُ فَقْرٌ حاضِرٌ، وَضَيْرٌ عاجِلٌ؛ وَإِنَّمَا يَبْخَلُ المَرْءُ خِيفَةَ ما هُوَ فِيهِ؛ فَلْيَكُنْ لِلَّهِ في مالِكَ قِسْطٌ، وَلِلْمُرُوءَةِ قِسْمٌ؛ فَصِلِ الرَّحِمَ مَا اسْتَطَعْتَ، وَقَدِّرْ إذا قَطَعْتَ؛ فَلأَنْ تَكُونَ في جانِبِ التَّقْدِيرِ[1]، خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَكُونَ في جانِبِ التَّبْذِيرِ.

أَيُّهَا المَحْزُونُ

«لمحمَّد بِك المُوَيلحِي»

(١)

لا جدالَ في أنّ الحُزْنَ مِنْ أَشَدِّ أدواءِ النَّفْسِ وَأَعْظَمِ أَمْراضِها، فَهُوَ إِذا نَشَبَ بِأَظْفارِهِ في النَّفْسِ لا يَلْبَثُ

(١) التَّقْدِير: التَّقْتِير.

أَنْ يُمَزِّقَها تَمْزِيقاً، وَيُشَتِّتَها تَشْتِيتاً، فَتَرْتَبِكُ عَلَىٰ الإِنْسانِ مَعِيشَتَهُ، وَتَضْطَرِبُ عليهِ حَياتُهُ، وَيُؤَثِّرُ حُزْنُهُ عَلَيْهِ في كُلِّ جُزْئِيَّةٍ وَكُلِّيَّةٍ حَتَّىٰ يَرَىٰ الدُّنْيَا في عَيْنِهِ أَظْلَمَ من الدُّجَىٰ وَأَضْيَقَ مِنَ سَمِّ الْخِيَاطِ، وَتَكُونُ نَفْسُهُ كَأَنَّها سَمَكَةُ الحِبْرِ فَوْقَ صَفْحَةِ الماءِ تُسَوِّدُ بِما تَمُجُّهُ مِنْ جَوْفِها كُلَّ ما دَنا مِنْها، وَالحَزِينُ يُسَوِّدُ بياضَ عَيْشِهِ بما يَمُجُّهُ عَلَيْهِ مِنَ الأَحْزانِ وَالأَكْدَارِ، وَلِهَذا تَراهُمْ يُشاكِلُونَ بَيْنَ النَّفْسِ الحَزِينَةِ وَالبَدَنِ بما يَلْبَسُونَهُ من ثِيابِ الحِدادِ. وَلَمَّا كانَ دَاءُ الحُزْنِ داءً يَشْتَمِلُ على النَّفْسِ كُلِّها، وَكَانَ عَصِيَّ العِلاجِ أَبِيَّ المراسِ وَجَبَ أَنْ يَعْمَدَ الحَكِيمُ في عِلاجِهِ إِلىٰ أَقْوَىٰ ما يَكُونُ لَدَيْهِ مِنَ الأَدْوِيَةِ المُتَنَوِّعَةِ كَمَا يَفْعَلُ الطَّبِيبُ بالأَمْراضِ المُسْتَعْصِيَةِ في البَدَنِ، وَأَوَّلُ شَرْطٍ في نَفْعِ الدَّواءِ لِلْبَدَنِ أَنْ يُواظِبَ المَرِيضُ عَلَىٰ تَناوُلِهِ لِيُكْمِلَ سَرَيانَهُ فِيهِ، فلا نَفْعَ لما نَعْرِضُهُ عَلَيْكَ أَيُّها المَحْزُونُ مِنْ علاجِ الأَحْزانِ إِنْ لَمْ تَأْخُذْ فِيهِ بِطُولِ المُواظَبَةِ عَلَىٰ التَّدْبِيرِ وَالتَّفْكِيرِ وَكَثْرَةِ الإِمْعانِ وَتَكْرارِ النَّظَرِ وَالأَخْذِ بِالتَّمَرُّنِ حَتَّىٰ يَسْرِيَ في النَّفْسِ وَتَتَغَذَّىٰ بِهِ. وَإِذا كَانَ الإِنْسانُ قادِراً بِقُوَّةِ التَّكْرارِ عَلَىٰ أَنْ يَصْدُرَ عَنْهُ مِنَ الأَفْعالِ العَجِيبَةِ الجِسْمانِيَّةِ والنَّفْسانِيَّةِ ما يُذْهِشُ الأَلبابَ كالَّذِي كانَ يَحْمِلُ ثَوراً عَلَىٰ

عاتِقِهِ وَيَغْدُو بِهِ أَمْيالاً في أعيادِ أثينة. وَكالَّذِي كانَ يَلْعَبُ على ثماني رِقاعٍ للشَّطْرَنْجِ في آنٍ وَاحِدٍ وَهُوَ غائِبٌ عَنْهَا يَلْعَبُ نَوْعاً آخَرَ مِنَ اللُّعَبِ في أنْدِيةِ أَمْرِيكة، فما أَوْلاهُ بأَنْ يَرُوضَ فِكْرَهُ وَيُمَرِّنَهُ عَلَىٰ أَحْكامِ الفَضِيلَةِ وَيُعَوِّدَهُ العَمَلَ بها حَتَّىٰ تَصِلَ بِهِ إِلىٰ الغَايَةِ المَقْصُودَةِ مِنَ السَّعادَةِ. وَلَكِنَّكَ إِذَا قَرَأْتَ ولم تَتَدَبَّرْ، وَنَظَرْتَ وَلم تَتَبَصَّرْ، وَحَفِظْتَ وَلَمْ تَعْتَبِرْ؛ لَمْ تَنْتَفِعْ بِكَثْرَةِ المُطالَعاتِ وَطُولِ المُعالَجاتِ.

وَٱعْلَمْ أَنَّ البَدَنَ مُرْتَبِطٌ بِالنَّفْسِ، وَالنَّفْسَ مُرْتَبِطَةٌ بِالبَدَنِ، وَإِنَّ مَرَضَ النَّفْسِ يُؤَثِّرُ عَلَىٰ البَدَنِ فَيُمْرِضُهُ، وَمَرَضَ البَدَنِ يُؤَثِّرُ عَلَى النَّفْسِ فَيُمْرِضُها. وَقَبْلَ أَنْ نَدْخُلَ مَعَكَ في شَرْحِ شِفَاءِ النَّفْسِ مِنْ أحْزانِها نَبْدَأُ بالْكَلامِ في وُجُوبِ صِحَّةِ البَدَنِ الَّذِي تَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ صِحَّةُ النَّفْسِ. وَغَايَةُ ٱجْتِهَادِ الحَكِيمِ الَّذِي يُرْشِدُ الإِنسانَ إِلىٰ بُلوغِ السَّعادَةِ أَنْ تَكُونَ لَكَ نَفْسٌ سَلِيمَةٌ في جِسْمٍ سَلِيم. وَيَلْزَمُ لِصِحَّةِ البَدَنِ أَنْ يَجْتَنِبَ الإنسانُ كُلَّ إِفْراطٍ في الشَّهَواتِ وَفي كُلِّ ما مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُعْقِبَ ٱضْطِراباً في الفِكْرِ، وَأَنْ يُعَوِّدَ الإنسانُ بَدَنَهُ عَلَىٰ الرِّياضَةِ في كُلِّ يَوْمٍ سَاعَتَيْنِ عَلَىٰ الأَقَلِّ في الهَوَاءِ النَّقِي، وَأَنْ يُكْثِرَ مِنَ الاسْتِحْمامِ بِالماءِ البارِدِ،

وَأَنْ يَتَعَهَّدَ إِفْرازَ الأَخْلاطِ الزَّائِدَةِ عَلَىٰ القانُونِ المَطْلُوبِ، وَأَنْ يُكْثِرَ مِنَ الحَرَكَةِ، فَإِنَّ الحَياةَ في الحَرَكَةِ، وَإِذَا نَظَرْتَ إِلى البَدَنِ مِنْ دَاخِلِهِ وَجَدْتَ ما فِيهِ مِنَ الأَحْشاءِ وَالأَعْضاءِ في حَرَكَةٍ مُسْتَدِيمَةٍ، فَتَرَىٰ القَلْبَ يَقْذِفُ مجموعَ ما في الجِسْمِ من الدَّمِ إلى الأَوْعِيَةِ الكَبِيرَةِ وَالصَّغِيرَةِ في ثماني وَعِشْرِينَ ضَرْبَةٍ من ضَرْباتِهِ، وَتَجِدُ الرِّئَةَ تَعْلُو وَتَنْخَفِضُ بِحَرَكَةٍ سَرِيعَةٍ دُونَها حَرَكَةُ آلَةِ البُخَارِ، وَتُشاهِدُ الأَمْعَاءَ تَنْبَسِطُ وَتَنْقَبِضُ. وَكَذَلِكَ في الجِسْمِ أَعْضَاءٌ وَظِيفَتُها الامْتِصاصُ وَالإِفْرازُ في آنٍ واحِدٍ عَلَىٰ الدَّوامِ. وَلِلْمُخِّ حَرَكَتانِ عَنْدَ كُلِّ ضَرْبَةٍ مِنْ ضَرْباتِ القَلْبِ وَعِنْدَ كُلِّ ٱسْتِنْشاقٍ لِلنَّفَسِ، فَإِذَا ضَعُفَتْ حَرَكَةُ البَدَنِ مِنْ ظاهِرِهِ كما هِيَ الحالُ عِنْدَ الَّذِينَ يَعِيشُونَ عِيشَةَ الرَّفَهِ لَمْ يَتُمَّ التَّوازُنُ بَيْنَها وَبَيْنَ الحَرَكاتِ الَّتِي في باطِنِه، وَوَقَعَ البَدَنُ في الاخْتِلالِ لِأَنَّ حَرَكَةَ الباطِنِ تَحْتَاجُ إِلىٰ المُساعَدَةِ بِحَرَكَةِ الظَّاهِرِ، وَالحَرَكَةُ في الباطِنِ تَطْلُبُ الحَرَكَةَ في الظَّاهِرِ لِيَسْتَقِيمَ النِّظَامُ ولا يَخْتَلَّ في البَدَنِ وَالنَّفْسِ مَعاً. ولاَ نَذُوقُ طَعْمَ الحَياةِ وَلاَ نَصِلُ إِلىٰ شَيْءٍ مِنَ السَّعادَةِ الَّتِي سَخَّرَها لنا الخالِقُ في حياتِنا إلاَّ بِهذا النِّظامِ. وَقَدْ تَرَىٰ الرَّجُلَ ساكِنَ الجِسْمِ وَصَدْرُهُ يَغْلِي بِالغَيْظِ وَيَفُورُ بِالحِقْدِ، فَإذا دَامَ عَلَىٰ

السُّكُونِ لَمْ تَأْمَنْ عَلَيْهِ سُوءَ العاقِبَةِ مِنْ ذَلِكَ الاخْتِلالِ، وَلِهَذا فَإِنَّهُمْ يَنْصَحُونَ الإنسانَ إذا غَضِبَ أَنْ يَأْتِيَ بِحَرَكَةٍ في بَدَنِهِ. وَفِي الحَدِيثِ الشَّرِيفِ: «إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَتَوَضَّأَ» [أبو داود، رقم: ٤٧٨٤] وَفي كلامِ أَرِسْطُو: «فَلْيَسْتَحِمّ بِالماءِ البارِدِ». وَتَرَىٰ الأَشْجارَ لا تَسِيرُ سَيْرَها الطَّبِيعِيَّ في النُّمُوِّ إِذَا لَمْ تُعَرِّضْها لِلْهَواءِ لِتَهْتَزَّ أَغْصَانُها فَتُساعِدَ الحَرَكَةُ في ظاهِرِها حَرَكَةَ نُمُوِّها في باطِنِها.

فَتَعَهُّدُ البَدَنِ بِمَا يُصْلِحُهُ مِنَ الغِذَاءِ وَالنَّظَافَةِ وَالحَرَكَةِ وَسِوَاهَا وَاجِبٌ، وَالسَّيْرُ بِهِ عَلَىٰ قانُونِ الصِّحَّةِ مُتَعَيِّنٌ لِسَلاَمَتِهِ وَسَلامَةِ النَّفْسِ مَعَهُ. وَلاَ تَعْجَبْ للإِسْهابِ مِنَّا في هَذَا البَابِ، فَإِنَّهُ أَصْلٌ مِنْ أُصُولِ مُعالَجَةِ النَّفْسِ، وَمِمَا يَدُلُّكَ عَلَيْهِ أَنَّكَ تَرَىٰ الشَّيْءَ في حالِ ٱنْتِظامِ صِحَّتِكَ فَتَرْتَاحُ إِلَيْهِ نَفْسُكَ وَتَسْتَلِذُّهُ، وَلَكِنَّها إذا رَأَتْهُ في حالَةٍ مِنْ حالاتِ الجِسْمِ المُعْتَلَّةِ ٱنْقَبَضَتْ مِنْهُ وَكَرِهَتْهُ، وَالشَّيْءُ واحِدٌ بِذَاتِهِ لَمْ يَتَغَيَّرْ، وَإِنَّمَا تَغَيَّرَ نِظامُ النَّفْسِ بِاخْتِلالِ نِظام الْجِسْمِ. وَمِنْ هُنَا تَتَّضِحُ لَكَ صِحَّةُ القاعِدَةِ المَشْهُورَةِ بِأَنَّ الأَشْياءَ الخارِجَةَ عَنِ الإِنْسانِ لا قِيمَةَ لها في ذَاتِها، وَأَنَّ طَرِيقَةَ نَظَرِنَا إِلَيْهَا وَكَيْفِيَّةَ قَبُولِنا إِيّاها هي الّتِي تُلْبِسُها لِباسَ الحُسْنِ أَوِ القُبْحِ.

وَقَدْ أَجْمَعَ جِلَّةُ عُلماءِ الأَخْلاقِ عَلَىٰ أَنَّ تِسْعَةَ أَعْشارِ السَّعادَةِ لِلإِنْسانِ قَائِمَةٌ عَلَىٰ ٱعْتِدالِ صِحَّةِ البَدَنِ وَحُسْنِ المُحافَظَةِ عَلَيْهِ، وَأَنَّ سُلْطانَهُ عَلَى النَّفْسِ عَظِيمٌ، تَعْتَلُّ بِاعْتِلالِهِ، وَتَصِحُّ بِصِحَّتِهِ. وَنَرَىٰ كَثِيراً مِنْ أَمْراضِ البَدَنِ تُؤَثِّرُ عَلَىٰ الصِّفاتِ النَّفْسَانِيَّةِ أَعْظَمَ مِنْ تَأْثِيرِها عَلَىٰ ظاهِرِ البَدَنِ، فَيَخْتَلُّ التَّصَوُّرُ وَيَتَبَلَّدُ الذِّهْنُ وَتَتَغَيَّرُ الطِّباعُ. وَمِنَ الجُنُونِ المَحْضِ وَسُوءِ عَمَلِ الإِنْسانِ لِنَفْسِهِ وَتَعَمُّدِ الإِيذاءِ لِنَفْسِهِ وَالضَّرَرِ بِذَاتِهِ أَنْ يُهْمِلَ أَمْرَ بَدَنِهِ، وَيَشْتَغِلَ عَنْهُ بِسَفاسِفِ الأُمُورِ، وَيُنْهِكَهُ في سَبِيلِ المَطالِبِ الباطِلَةِ وَيَجْعَلَهُ فِدْيَةً لِلسَّعْيِ وَرَاءَ المَالِ وَالجاهِ وَالعِلْمِ العَقِيمِ وَالمَجْدِ الزَّائِلِ وَاللَّذَّةِ الوَقْتِيَّةِ.

(٢)

ٱعْلَمْ أَنَّ مَا نَحْنُ بِصَدَدِهِ مِنْ معالَجَةِ الأَحْزانِ يَنْقَسِمُ إِلىٰ قِسْمَيْنِ: مَعْرِفَةِ حَقَائِقِ الأَشْيَاءِ في ذَاتِها وَمَعْرِفَةِ ما تَلَبَّسَ بِالأَذْهَانِ مِنَ الأَوهام الباطِلَةِ فَأَخْطَأَتْ كُنْهَ الحَقِيقَةِ، فَٱنْقَلَبَتْ بِنَا ٱنْقِلاباً أَوْرَثَنَا الشَّقَاءَ وَالبَلاءَ، وَرَمانا في الأَحْزانِ وَالأَكْدارِ. وَنَتِيجَةُ ٱرْتِفاعِ الأَحْزَانِ هي حُصُولُ راحَةِ الحَياةِ، فَقَدْ تَعَيَّنَ عَلَيْنَا البَحْثُ أَوَّلاً عَنْ ماهِيَّةِ هَذِهِ الرَّاحَةِ في مَعِيشَتِنا، وَعَنْ ماهِيَّةِ الأَلَمِ، وَعَنْ حَقِيقَةِ الخَيْرِ

وَحَقِيقَةِ الشَّرِّ، وَهَلْ هَذِهِ الدَّارُ دَارُ أَلَم وَشَقاءٍ خَالِيَةٌ مِنْ أَسْبَابِ السَّعَادَةِ وَالهَناءِ، أَمْ فِيها رَاحَةٌ لِلْعَيْشِ وَسَعادَةٌ لِلْحَياةِ؟ فَنَقُولُ:

إِنَّ اللَّهَ جَلَّتْ قُدْرَتُهُ لَمْ يُرِدْ بِمَخْلُوقاتِهِ شَرًّا في هَذِهِ الدُّنْيَا، وَلَمْ يَجْعَلْها مُسْتَقراً لِلألَم، وَمَطْمُورَةً لِلْعَذَابِ، وَتَعَالَىٰ ٱللَّهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوّاً كَبِيراً، بَلْ جَعَلَها لِأَوْلِيائِهِ دَارَ سَعادَةٍ وَهَناءٍ فانِيَةً، يَرْحَلُونَ مِنْهَا إِلىٰ دَارِ سَعادَةٍ وَهَناء بَاقِيَةٍ. قَالَ ٱللَّهُ تَعالَىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢﴾ [١٠ سورة يونس/ الآية: ٦٢] وَإِنَّما نَحْنُ الَّذِينَ نَجْلُبُ الشَّرَّ لِأَنْفُسِنا وَنُسَوِّدُ عَيْشَنا بِأَيْدِينا، وَمَا فَسَدَ الزَّمَانُ وَإِنَّمَا نَحْنُ الفَاسِدُونَ.

[الخفيف]

كُلَّمَا أَنْبَتَ الزَّمانُ قَناةً
رَكَّبَ المَرْءُ في القَنَاةِ سِنانَا

ٱشْتَبَهَتْ عَلَيْنَا الأُمُورُ، وَٱخْتَلَطَتِ الأَشْياءُ، وَأَخْطَأْنا الحُكْمُ، وَأُخِذْنا بِتَضْلِيلِ المُضِلِّينَ وَأَباطِيلِ المُبْطِلِينَ، فَصِرْنَا لا نُفَرِّقُ بَيْنَ الطَّيِّبِ وَالخَبِيثِ وَالْخَيْرِ وَالشَّرِّ وَالأَلَم وَاللَّذَّةِ وَالضَّارِّ وَالنَّافِعِ، بَلْ أَخَذْنا هَذَا مَكانَ ذَلِكَ، وَصَبَغْنَا الضِّدَّ بِصِبْغَةِ ضِدِّهِ، فَحَوَّلْنَاهُ عَنْ أَصْلِهِ، فَوَقَعْنَا في شَرِّ الْعَذابِ، وَمَنْ خالَفَ الحَقِيقَةَ ـ يَعْنِي: فِطْرَةَ ٱللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ

عَلَيْهَا ـ وَخَرَجَ عَنْهَا، فَأَجْدِرْ بِهِ أَنْ لاَ يَلْقَىٰ فِي دُنْيَاهُ راحَةً وَلاَ في حَيَاتِهِ سَعادَةً.

وَكَما أَنَّهُ لا يُمْكِنُ لِلطَّبِيبِ أَنْ يَعْرِفَ عِلاجَ الأَمْرَاضِ وَشِفَاءَها إِلاَّ بَعْدَ مَعْرِفَةِ تَرْكِيبِ الْجِسْمِ وَالوُقُوفِ عَلَىٰ وَظِيفَةِ كُلِّ عُضْوٍ مِنْهُ، كَذَلِكَ لا بُدَّ لِحَكِيمِ النُّفُوسِ مِنْ تَشْرِيحِ الأَفْكارِ وَمَعْرِفَةِ الخَطَأِ وَالصَّوَابِ فِيهَا لِنِظَامِ صِحَّةِ النَّفْسِ.

وَقَدْ مَضَىٰ بِنا الْكَلامُ عَنْ تَأْثِيرِ ٱخْتِلالِ صِحَّةِ الْجِسْمِ في الفِكْرِ وَمَا يَجِبُ الأَخْذُ بِهِ في تَدْبِيرِ صِحَّةِ البَدَنِ، وَنَتَكَلَّمُ الآنَ عَنْ تَأْثِيرِ ٱخْتِلالِ صِحَّةِ النَّفْسِ في الْفِكْرِ وَالْجِسْمِ مَعاً، وَمَا هُوَ الواجِبُ أَنْ تَأْخُذَ نَفْسَكَ بِهِ في تَدْبِيرِ الصِّحَّةِ الرُّوحانِيَّةِ، فَٱعْلَمْ أَنَّ ٱخْتِلالَ صِحَّةِ الفِكْرِ مَبْعَثُهُ الخَطَأُ في الحُكْمِ عَلَىٰ حَقائِقِ الأَشْيَاءِ، وَالغَلَطُ في تَقْدِيرِها، وَضَعْفُ التَّمْيِيزِ بَيْنَ الصَّحِيحِ وَالفاسِدِ؛ وَصِحَّةُ التَّمْيِيزِ وَتَوازُنُ الفِكْرِ وَمَعْرِفَةُ الأَشْياءِ في ذَاتِها مُجَرَّدَةً عَمَّا يَشُوبُها مِنَ الخَطَأِ وَالوَهْمِ هُوَ مَا نُسَمِّيهِ عَقْلاً، وَهُوَ أَحَدُ الأَرْكانِ الأَرْبَعَةِ لِلفَضِيلَةِ الَّتِي لا تُنَالُ السَّعادَةُ بِدُونِها.

وَقَبْلَ أَنْ نَدْخُلَ فِي بَيانِ حَقائِقِ الأَشْياءِ الَّتِي غَلَبَ عَلَيْهَا وَهْمُ النَّاسِ، فَٱعْتَبَرُوا الضَّارَّ مِنْها نافِعاً، وَالنَّافِعَ

ضارًا، يَلْزَمُ لَنا الْكَلامُ عَنْ هَذِهِ السَّعادَةِ المَطْلُوبَةِ مِنَ الحَياةِ، وَهَذَا الغَرَضُ هُوَ الَّذِي ٱشْتَغَلَ بِهِ الفَلاسِفَةُ مُنْذُ الدَّهْرِ الأَوَّلِ، وَذَهَبُوا فِيهِ مَذَاهِبَ شَتَّىٰ، وَٱخْتَلَفُوا بَيْنَهُمْ اخْتِلافاً بَيِّناً، دَعَا إِلَيْهِ حُبُّ الجَدَلِ وَمَيْلُ كُلِّ واحِدٍ مِنْهُمْ إِلىٰ الانْتِصارِ لِرَأْيِهِ، حَتَّىٰ بَلَغَ بِهِمُ الأَمْرُ أَنْ جَعَلُوا لِلسَّعادَةِ العُظْمَىٰ مِئَتَيْنِ وَتِسْعِينَ وَجْهاً، كُلُّ واحِدٍ مِنْها يَخْتَلِفُ عَنِ الآخَرِ. وَالرَّأْيانِ الغالِبَانِ بَيْنَ تِلْكَ الآراءِ المُخْتَلِفَةِ أَحَدُهما: أَنَّ سَعادَةَ الْحَياةِ هي ذَاتُ الفَضيلَةِ، وَأَنَّهُ يَنْبَغِي لِلإِنْسانِ أَنْ يَسْعَىٰ إِلَيْها بِكُلِّ وَسِيلَةٍ، سَواءٌ وَصَلَ إِلَيْها مِنْ طَرِيق الأَلَمِ أَوْ مِنْ طَرِيقِ اللَّذَّةِ؛ وَثانِيهِما: أَنَّ السَّعادَةَ العُظْمَىٰ هي في اللَّذَّةِ يَبْلُغُها الإِنْسانُ مِنْ طَرِيقِ الفَضِيلَةِ - هُنَا وَاسِطَةٌ وَهُنَاكَ غَايَةٌ - وَمَنْ تَأَمَّلَ في هَذَيْنِ الرَّأْيَيْنِ وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَأْخُذَ بِالأَقْرَبِ مِنْهُمَا إِلىٰ الطَّبِيعَةِ البَشَرِيَّةِ وَالفِطْرَةِ الإِنْسَانِيَّةِ.

إِنَّنَا إِذَا تَأَمَّلْنَا في أَطْوارِ كُلِّ ذِي رُوحٍ وَجَدْنَاهُ يَأْنَسُ إِلىٰ اللَّذَّةِ مُنْذُ نَشْأَتِهِ في الوُجودِ وَيَمِيلُ بِطَبْعِهِ إِلىٰ التَّمَتُّعِ وَيَجِدُها خَيْراً عَظِيماً، ثُمَّ هُوَ يَنْفِرُ مِنَ الأَلَمِ وَيَتَّقِيهِ، وَيَسْعَىٰ جُهْدَهُ في دَفْعِهِ عَنْهُ، وَيَرَاهُ مِنْ أَكْبَرِ الشُّرُورِ عَلَيْهِ. هَذَا في حالَةِ صِحَّةِ الحُكْمِ الَّذِي فَطَرَتْهُ عَلَيْهِ الطَّبِيعَةُ قَبْلَ ٱخْتِلاطِ الفِكْرِ وَفَسادِهِ. وَلاَ مَحَلَّ هُنا لِتَعَدُّدِ البَرَاهِينَ وَطُولِ

الجِدَالِ، فَالأَمْرُ مَحْسُوسٌ لا نِزاعَ فِيهِ، وَمَا كَانَ مَحْسوساً لَمْ يَحْتَجْ إِلىٰ بُرْهانٍ، وَالفَرْقُ ظاهِرٌ بَيْنَ الاحْتِياجِ عِنْدَ بَيانِ الحَقِيقَةِ إِلىٰ تَرْتِيبِ المُقَدَّماتِ وَاسْتِخْراجِ النَّتَائِجِ وَبَيْنَ عَدَمِ الاحْتِياجِ لِغَيْرِ الشَّرْحِ وَالوَصْفِ في بَسْطِها، وَالحِسُّ هُوَ الحاكِمُ الأَوَّلُ عَلَىٰ الإِنْسانِ في جَمِيعِ أَحْكامِهِ، فَلَوْ نَزَعْناهُ عَنْهُ لَمْ يَبْقَ لَدَيْهِ شَيْءٌ مِنْ قُوَّةِ الحُكْمِ، وَلَمْ يُدْرِكِ التَّمْيِيزَ بَيْنَ ما هُوَ مُوافِقٌ للطَّبِيعَةِ وَما هُوَ مُخَالِفٌ لها.

وَٱعْلَمْ أَنَّهُ لا يُوجَدُ في العالَمِ مَنْ يَحْتَقِرُ اللَّذَّةَ وَيَكْرَهُها وَيَنْفِرُ عَنْها، لِأَنَّها لَذَّةٌ في ذَاتِها، بَلْ لِأَنَّهُ قَدْ يَنْتُجُ عَنْها الأَلَمُ لِمَنْ لَمْ يُعِدَّ لَها وَيَأْخُذْ فِيها بِحَسْبِ أَحْكامِ الفَضِيلَةِ، كَما أَنَّهُ لا يُوجَدُ إِنسانٌ يُحِبُّ الأَلَمَ وَيَبْحَثُ عَنْهُ لِلْوُقُوعِ فِيهِ لِكَوْنِهِ أَلَماً في ذَاتِهِ، بَلْ لِأَنَّهُ قَدْ تَنْتُجُ عَنْهُ لَذَّةٌ. فَتَرَىٰ الإِنْسانَ يَحْتَمِلُ كَثِيراً مِنَ الآلامِ لِأَجْلِ أَنْ يَتَوَصَّلَ بِها إِلى نَتِيجَةٍ نافِعَةٍ. وَأَيُّ الرَّجُلَيْنِ يَكُونُ في حُكْمِ العَقْلِ مَلُوماً؟ أَذَلِكَ الَّذِي يَبْحَثُ عَنِ اللَّذَّةِ الَّتِي لا ضَرَرَ في عاقِبَتِها أَمْ ذَلِكَ الَّذِي يَبْحَثُ عَنِ الأَلَمِ الَّذِي لا تَكُونُ في عاقِبَتِهِ لَذَّةٌ؟ لا شَكَّ أَنَّنا نَلُومُ كُلَّ مَنْ غَرَّتْهُ جاذِبَةُ اللَّذَّةِ الوَقْتِيَّةِ، فَعَمِيَ عَمَّا يَلْحَقُها مِنَ الآلامِ وَالأَكْدارِ الَّتِي تَنْتُجُ لِلنَّفْسِ عَنِ ٱسْتِسْلامِها في قِيادَةِ الشَّهَواتِ، كما أَنَّنا نَلُومُ

أُولَئِكَ الَّذِينَ تَذْهَبُ بِهِمْ رَخاوَتُهُمْ وَتَرَفُهُمْ إِلىٰ ٱتِّقاءِ الأَلَم بِإِخْلالِ القِيامِ بِالْوَاجِبِ عَلَيْهِم. وَشَأْنُ العاقِلِ في ٱللَّذَّةِ أَنَّهُ إِذَا كَانَ حُرّاً في تَنَاوُلِها وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مُمانِعٌ عَنْها أَنْ يَتَمَتَّعَ بِهَا وَيَتَخَلَّصَ مِنَ الآلامِ، وَلَكِنْ إِذَا ٱعْتَرَضَهُ في هَذِهِ الأَثْناءِ واجِبٌ مِنَ الوَاجِباتِ الاجْتِماعِيَّةِ وَضَرُورَةٌ مِنْ ضَرُورِيَّاتِ نِظامِ المَعايِشِ وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَرْفُضَ لَذَّتَهُ وَيَتَقَدَّمَ لِتَحَمُّلِ التَّعَبِ وَالأَلَم، فَإِنَّ رَفْضَ اللَّذَّاتِ العَظِيمَةِ وَٱحْتِمالَ الآلامِ الخَفِيفَةِ لِدَفْعِ الآلامِ الشَّدِيدَةِ هُوَ ما يَقْضِي بِهِ العَقْلُ عَلَىٰ الإِنْسانِ، وَيَكُونُ عَقْلُهُ مِيزَاناً يَزِنُ بِهِ الرَّاجِحَ مِنَ المَرْجُوحِ. وَلَيْسَتِ اللَّذَّةُ هُنَا بِالمَعْنَىٰ المَشْهُورِ بَيْنَ النَّاسِ، بَلْ هِيَ ما يُلائِمُ الجِسْمَ وَالنَّفْسَ، وَيَصِلُ بِهِمَا إِلىٰ سَعادَةِ الحياةِ مِنْ طَرِيقِ الفَضِيلَةِ كما سَيَأْتِي الكَلاَمُ في تَتِمّةِ تَعْرِيفِها.

(٣)

إِنَّ اللَّذَّةَ الكَامِلَةَ الَّتِي نَنْشُدُها مِنْ طَرِيقِ الفَضِيلَةِ وَنَجْتَهِدُ في تَعْرِيفِها لَكَ لَيْسَتْ هي ذَلِكَ الإِحْساسَ الَّذِي تُحِسُّ بِهِ في أَثْناءِ سَدِّ الحاجَةِ، بَلْ هِيَ الحَالَةُ الَّتِي يَكُونُ عَلَيْها الجِسْمُ قَبْلَ حُدُوثِ الأَلَم. وَبَعْدَ إِزَالَةِ الأَلَم، فَلاَ يُقَالُ لِلْجَائِعِ وَهُوَ يَلْتَقِمُ طَعامَهُ لُقْمَةً بَعْدَ لُقْمَةٍ أَنَّهُ قَدْ بَلَغَ اللَّذَّةَ، وَإِنَّمَا يَبْلُغُها عِنْدَ الانْتِهاءِ مِنَ الطَّعَامِ، لأَنَّهُ في أَثْناءِ ذَلِكَ سَائِرٌ في طَرِيقِ رَفْعِ الأَلَمِ لَمْ يَصِلْ إِلىٰ غَايَتِهِ وَلَمْ

يَبْلُغها إلاَّ بِالشِّبَعِ الَّذِي يَتَنَاوَلُ الطَّعَامَ لِأَجْلِهِ، فَاللَّذَّةُ إذاً في تَمام رَفْعِ الأَلَمِ لا في مُباشَرَةِ رَفْعِهِ، لأَنَّها في مُبَاشَرَةِ رَفْعِهِ غَيْرُ تَامَّةٍ، واللَّذَّةُ التَّامَّةُ هِي الرَّاحَةُ الَّتِي يَجِدُها الْجَائِعُ عِنْدَ الشِّبَعِ، وَالعَطْشانُ عِنْدَ الارْتِواءِ، وَالسَّهْرانُ عَقِبَ المَنامِ؛ وَلَكِنَّ النَّاسَ بِمَعْزِلٍ عَنْ مَعْرِفَةِ قَدْرِ هَذِهِ اللَّذَّةِ الَّتِي هِي سَلامَةُ الجِسْمِ مِنَ الأَلَمِ، وَالنَّفْسِ مِنَ الاضْطِرابِ. وَمِنْ جَهْلِهِمْ بِها أَنَّهُمْ لا يُدْرِكُونَ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ تِلْكَ الرَّاحَةِ إلاَّ إذا زَالَتْ عَنهُمْ، وَلاَ يَتَمَتَّعُونَ بِها وَهُمْ فِيها، وَلاَ يَتَوَهَّمُونَها إلاَّ في أَثْناءِ المَسِيرِ إلَيْها، فَتَرَىٰ صاحِبَ الجِسْمِ السَّلِيمِ مِنْ كُلِّ عِلَّةٍ لا يُدْرِكُ أَنَّهُ في أَعْظَمِ لَذَّةٍ مِنَ الصِّحَّةِ إلاَّ إذَا حَلَّ بِهِ مَرَضٌ مِنَ الأَمْراضِ يَصْرِفُ عَنْهُ الحَالَةَ الَّتِي كَانَ عَلَيْها مِنَ الرَّاحَةِ، فَإذا تَدَرَّجَ في أَدْوَارِ النَّقاهَةِ مِنْ ذَلِكَ المَرَضِ تَوَهَّمَ فِيها لَذَّةً، وَإِنَّمَا حَقِيقَةُ اللَّذَّة هِيَ الرُّجُوعُ إلىٰ حَالَتِهِ الأُولَىٰ ٱلَّتِي كانَ غافِلاً عَنْها. وَكَذَلِكَ لا تَكُونُ الرَّاحَةُ لِلْمُقَيَّدِ في الحَدِيدِ عِنْدَ فَكِّ القُيودِ عَنْهُ، بَلْ عِنْدَما يَرْجِعُ جِسْمُهُ إلىٰ الحالَةِ الَّتِي كانَ عَلَيْها قَبْلَ وَضْعِ رِجْلِهِ في القَيْدِ، وَهَذَا الوَهْمُ مِنْ أَكْبَرِ الأَسْبابِ الَّتِي سَوَّدَتْ حَياةَ النَّاسِ بِالأَحْزَانِ، وَجَعَلَتْهُمْ يَعْتَبِرُونَ أَنْفُسَهُمْ في شَقاءٍ وَهُمْ في نَعِيمٍ، وَيَرَونَ أَنْفُسَهُمْ في نَعِيمٍ وَهُمْ في شَقاءٍ، غَافِلِينَ عَنْ نِعْمَةِ تِلْكَ الرَّاحَةِ الَّتِي هِيَ مُنْتَهَىٰ السَّعادَةِ وَالَّتِي قِيلَ

فِيها: «لَيْسَ لِلرَّاحَةِ قِيمَةٌ»، فَهِيَ فَوْقَ كُلِّ قِيمَةٍ في الدُّنْيَا.

فَقَدْ تَقَرَّرَ إِذاً أَنَّ المَسافَةَ الَّتِي يَغِيبُ فِيها الأَلَمُ لا المَسافَةَ الَّتِي يَرْتَفِعُ في أَثْنائِها هِيَ اللَّذَّةُ المَقْصُودَةُ لَدَىٰ الحُكَماءِ. وَالْعَاقِلُ لا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ أَنْ يُدْرِكَ الرَّاحَةَ في حَياتِهِ عَلَىٰ كُلِّ حالٍ وَلَوْ كَانَ وَاقِعاً في الأَلَمِ، فَإِنَّ الأَلَمَ إِنْ كانَ طَوِيلَ المُدَّةِ كَانَ ذَا فَتَراتٍ تَكُونُ فِيها الرَّاحَةُ، وَإِنْ كَانَ شَدِيداً كانَ قَصِيرَ المُدَّةِ لِسُرْعَةِ الخَلاصِ مِنْهُ. فَالَّذِي يَهُونُ عَلَىٰ نَفْسه تَحَمُّلُ ما لا بُدَّ مِنْهُ مِنَ الآلامِ في هَذِهِ الحياةِ عَلَىٰ مُوجِبِ هَذِهِ القاعِدَةِ، إِمَّا بِتَحَمُّلِها وَالتَّمَتُّعِ بِراحَةِ فَتَرَاتِها في حالَةِ خِفَّتِها أَوْ بِتَرَقُّبِ الخَلاصِ مِنْها في حَالَةِ شِدَّتِها؛ هُوَ مَنْ يَمْلِكُ راحَةَ الحَياةِ وَسَعَادَةَ الدُّنْيَا.

وَهَذِهِ الرَّاحَةُ هِيَ الَّتِي لا يَتَعَلَّقُ الإِنْسانُ بِذَاتِ الفَضِيلَةِ ولا يَرْغَبُ فِيها إِلاَّ لِلْوُصُولِ إِلَيْها كَمَا أَنَّهُ لا يَتَعَلَّقُ بِصِناعَةِ الطِّبِّ لِذَاتِ الطِّبِّ، بَلْ لِلتَّوَصُّلِ بِهِ إِلىٰ الصِّحَّةِ الَّتِي تَنْشَأُ عَنْهُ، كما أَنَّ صِناعَةَ المِلاحَةِ لا تُطْلَبُ لِذَاتِها وَلَكِنْ لِلانْتِفاعِ بِها في السَّلامَةِ. وَالحِكْمَةُ الَّتِي هِيَ صِناعَةُ الحياةِ إِذَا لَمْ يَكُنَ مِنْها راحَةٌ لِلإِنْسانِ في حَياتِهِ، فَهِيَ غَيْرُ مَرْغُوبٍ فِيها، وَلاَ مَطْلُوبَةٌ لِذَاتِها.

هَذَا هُوَ تَعْرِيفُ اللَّذَّةِ الَّذِي يُخْطِىءُ النَّاسُ فِيهِ ولا يُدْرِكُونَ حَقِيقَتَهُ، وَلاَ وُصُولَ إِلَيْهِ إلاَّ بِالحِكْمَةِ الَّتِي تَكْشِفُ غِطاءَ الأَوْهامِ وتُمَكِّنُ الإِنْسانَ مِنَ الحُكْمِ الصَّحِيحِ عَلَىٰ أُمُورِ الحَياةِ وَتَنْزِعُ عَنْهُ غِشاوَةَ الغَباوَةِ الَّتِي اسْتَحْكَمَتْ فِيهِ، حَتَّىٰ صارَ يَتَخَوَّفُ مِمّا لا خَوْفَ مِنْهُ، وَيَحْزَنُ مِمّا لا حُزْنَ فِيهِ، وَهِيَ الَّتِي تُرْشِدُهُ إِلىٰ تَقْلِيلِ الرَّغَباتِ وَتَرْفَعُ عَنْهُ الاعْتِدَادَ بِأَحْكامِ النَّاسِ وَآرَائِهِمُ الفَاسِدَةِ المُتَوَلِّدَةِ فِيهِمْ مِنْ جَهْلِهِمْ بِالحَقائِقِ وَتَقْلِيدِهِمْ عَلَىٰ العَمَىٰ، فَتَنْطَفِىءُ مِنْهُ نَارُ الطَّمَعِ وَالشَّرَهِ الَّتِي أَوْدَتْ بِالأَفْرادِ وَالجماعاتِ وَبالأُمَمِ بِمَا وَلَّدَتْهُ فِيهِمْ مِنَ الأَحْقادِ وَالأَضْغانِ، وَمَا أَسْعَرَتْهُ مِنْ نِيرانِ الفِتَنِ وَالحُرُوبِ، فَجَعَلَتِ النَّاسَ في أَلَمٍ دَائِمٍ لا يَجِدُونَ مِنْهُ مَخْلَصاً. فَالْعَاقِلُ هُوَ الَّذِي يَنْفِي عنْهُ أَسْبَابَ الخَوْفِ، وَيُقَلِّلُ مِنَ الرَّغَبَاتِ، وَيَرْضَىٰ بِالْكَفافِ، وَيَقْصُرُ هَمَّهُ عَلَىٰ ما تُقْضَىٰ بِهِ الحاجَةُ الضَّرُورِيَّةُ أَوِ الطَّبِيعِيَّةُ، فَلاَ يَتَوَلَّدُ فِيهِ الشَّرَهُ وَالطَّمَعُ الَّذِي هُوَ مَجْلَبَةُ الأَحْزانِ وَالآلامِ، وَمَنْبَعُ المَخَاوِفِ وَالشُّرُورِ، وَقَدْ أَلَمَّ بِذَلِكَ أَحَدُ الشُّعَراءِ في قَوْلِهِ:

[الخفيف]

مَـرْحَـبـاً بِـالْـكَـفَـافِ يَـأْتِـي عَـفِـيَّـا

وَعَـلَـىٰ الـمُـتْـعِـبَـاتِ ذَيْـلُ الـعَـفَـاءِ

ضِلَّةٌ لِامْرِئٍ يُشَمِّرُ في الجَمْـ
ـعِ لِعَيْشٍ مُشَمِّرٍ لِلْفَنَاءِ
يَحْسَبُ الحَظَّ كُلَّهُ في يَدَيْهِ
وَهُوَ مِنْهُ عَلَىٰ مَدَىٰ الْجَوْزَاءِ
لَيْسَ في آجِلِ النَّعِيمِ لَهُ حَظْـ
ـظٌ وَمَا ذَاقَ عاجِلَ النَّعْمَاءِ
ذَلِكَ الخائِبُ الشَّقِيُّ وَإِنْ كَا
نَ يَرَىٰ أَنَّهُ مِنَ السُّعَدَاءِ
حَسْبُ ذِي إِرْبَةٍ وَرَأْيٍ جَلِيٍّ
نَظَرَتْ عَيْنُهُ بِلا غُلَوَاءِ
صِحَّةُ الْجِسْمِ وَالْجَوارِحِ وَالعِرْ
ضِ وَإِحْرازُ مُسْكَةِ ٱلْحَوْبَاءِ

وَقَدْ آنَ أَنْ نُبَيِّنَ غَلَطَ النَّاسِ في حُكْمِهِمْ عَلَىٰ الأَشْيَاءِ وَٱعْتِبارِهِمْ الخَيْرَ مِنْها شَرًّا وَالشَّرَّ خَيْراً. وَأَكْبَرُ خَطَإٍ لَهُمْ نَرَاهُ خَوْفُهُمْ وَفَرَقُهُمْ مِنَ المَوْتِ الَّذِي هُوَ رَافِعُ الأَسْقامِ وَآخِرُ الآلامِ، فَيَعُدُّونَهُ أَكْبَرَ الشُّرُورِ وَأَعْظَمَ الخُطُوبِ، وَسَيأْتِيكَ الكَلامُ عَمَّا يُماثِلُ ذَلِكَ مِنْ حَقَائِقِ الأَشْياءِ.

(٤)

لَيْسَ شَيْءٌ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا إلاَّ وَهُوَ مُعَرَّضٌ لِلشَّكِّ، حَتَّىٰ قَالَ بَعْضُ الفَلاسِفَةِ: «إنَّ كُلَّ شَيْءٍ يَقْبَلُ الشَّكَّ»، حَتَّىٰ قَوْلي هَذَا: «إنَّ كُلَّ شَيْءٍ يَقْبلُ الشَّكَّ» وَمِنْ بَيْنِ الفَلاسِفَةِ طائِفَةٌ يُعْرَفُونَ بِأَهْلِ الشُّكُوكِ، يَشُكُّونَ في كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ في وُجُودِ ذَوَاتِهِمْ، وَيَعْتَبِرُونَ الحياةَ بِما فِيها كَرُؤْيا في المَنَامِ.

وَلَكِنْ مَهْمَا وَقَعَ الشَّكُّ في أُمُورِ الحياةِ، فَإِنَّهُ يُوجَدُ أَمْرٌ وَاقِعٌ لا دَخْلَ لِلشَّكِّ فِيهِ، وَهُوَ المَوْتُ. وَمِنْ عَجِيبِ أَمْرِ الإنْسانِ أَنْ يَعْتَبِرَ ما يَراهُ مِنَ أَباطِيلِ الحياةِ كالحقائِقِ، وَيَعْتَقِدَ في مَا الشَّكُّ فِيهِ بَيِّنٌ وَاضِحٌ إلاَّ المَوْتَ، فَكَأَنَّهُ يَشُكُّ فِيهِ.

[الكامل]

وَالـمَـوْتُ لا يَـخْـفَـىٰ عَـلَـىٰ أَحَـدِ
مِـمَّـنْ تَـرَىٰ وَكَـأَنَّـهُ يَـخْـفَـىٰ

وَلِذَلِكَ كانَ مِنْ أَوَّلِ هِدَايَةِ الأَنْبِيَاءِ لِلنَّاسِ تَذْكِيرُهُمْ بِالمَوْتِ، وَكانَ مِنْ هَمِّ الفَلاسِفَةِ كَذَلِكَ تَفْكِيرُهُمْ بِهِ وَبَسْطُ الأَقْوالِ في بُطْلانِ الحَياةِ؛ وَحَقِيقَةِ المَوْتِ، وَقَدْ أَخَذَ أَهْلُ الصِّينِ عَنْ فَلاسِفَتِهِمْ قاعِدَةً أَجْرَوْها بَيْنَهُمْ مَجْرَىٰ العادَةِ إلَىٰ الْيَوْمِ في وُجوبِ تَذَكُّرِ المَوْتِ في كُلِّ حِينٍ، فَإِذَا وُلِدَ

الطِّفْلُ عِنْدَهُمْ صَنَعُوا لَهُ نَعْشاً وَوَضَعُوهُ بِجانِبِ المَهْدِ، يُجَدِّدُونَهُ في كُلِّ شَهْرٍ عَلَىٰ مِقْدارِ النُّمُوِّ في جِسْمِ الطِّفْلِ، وَلاَ يَزالُونَ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ حَتَّىٰ إِذَا شَبَّ وَٱشْتَدَّ وَضَعُوا النَّعْشَ بِجانِبِ السَّرِيرِ إلىٰ أَنْ يَتِمَّ نُمُوُّ الغُلامِ، فَيَبْقَىٰ النَّعْشُ بِجانِبِهِ حَتَّىٰ يحلَّ يَوْمُ أَجَلِهِ، فَيَحْمِلُوهُ عَلَيْهِ. يُرْشِدُونَ بِذَلِكَ إلىٰ أَنَّ يَوْمَ الوِلادَةِ وَيَوْمَ الوَفاةِ أَمْرانِ مُتَلاصِقَانِ وَحَبْلانِ مُتَواصِلانِ، وَأَنَّ الإِنْسَانَ يَمْشِي في هَذِهِ الدُّنْيَا وَكَأَنَّهُ عابِرُ جِسْرٍ في طَرِيقٍ، عَنْ يَمِينِهِ فِيها المَوْتُ وَعَنْ شِمالِهِ الحَيَاةُ، وَأَنَّهُ كما يَدِبُّ بِنُمُوِّهِ في الحَياةِ يَدِبُّ بِأَنْفَاسِهِ نَحْوَ المَماتِ في آنٍ وَاحِدٍ، وَأَنَّهُ لا بُدَّ لِلْعَاقِلِ أَنْ يَحْضُرَهُ ذِكْرُ المَوْتِ كَمَا يَحْضُرُهُ ذِكْرُ الحَيَاةِ، وَأَنَّ اليَقِينَ في أَعْوَادِ النَّعْشِ وَالشَّكَّ في أَسَاطِينِ القَصْرِ. فَمِنْ مُنْتَهَىٰ غَبَاوَةِ الإِنْسانِ وَجَهْلِهِ أَنَ يَتَّخِذَ في كُلِّ مَنْبِتِ شَعْرَةٍ مِنْ جِسْمِهِ حَبْلاً مِنَ الأَمَلِ يُعَلِّقُهُ بِالبَقَاءِ في أَطْنَابِ البَيْتِ وَيَمْحُوَ مِنْ ذَاكِرَتِهِ كُلَّ سَبَبٍ يَرْبِطُهُ بِصَفَائِحِ القَبْرِ.

وَالنَّاسُ يَنْقَسِمُونَ بِالنَّظَرِ إلىٰ ذِكْرَىٰ المَوْتِ ثَلاثَةَ أَقْسَام: قِسْمٌ لا يَتَذَكَّرُ المَوْتَ وَلاَ يَأْتِي لَهُ على خَاطِرٍ، وَلاَ يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ، كَأَنَّهُ قَدْ رَسَخَ في ذِهْنِهِ أَنْ لا فَنَاءَ مَعَ البَقاءِ، وَلاَ هَلاَكَ مَعَ الوُجُودِ. وَلا يُحِسُّ بِهَذِهِ الحَقِيقَةِ أَمِّ الحَقائِقِ

في الدُّنْيَا إِلاَّ عَنْدَ المُشاهَدَةِ وَالعِيَانِ، وَلاَ يَذْكُرُ المَوْتَ إِلاَّ رَيْثَما تَنْقَضِي عَنْهُ المُشاهَدَةُ، كَأَنْ يَشْتَدَّ بِهِ مَرَضٌ فَيَتَذَكَّرُ المَوْتَ، فَإِذَا قَامَ مِنْ مَرَضِهِ قَامَ وَهُوَ لا يَتَذَكَّرُ أَثَراً لِتِلْكَ الحَقِيقَةِ، وَإِذا شَاهَدَ المَوْتَ في أَهْلِهِ وَجِيرَانِهِ لَمْ يَبْقَ ذِكْرُهُ إِلاَّ رَيْثَما يَطْرَأُ عَلَيْهِ شُغْلٌ مَا مِنْ مَشاغِلِ الحَياةِ، فَيَعُودُ إِلىٰ ذُهُولِهِ الأَوَّلِ وَعَمَاهِ المُسْتَدِيمِ.

وَقَدْ يَظُنُّ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ هَذَا الذُّهُولَ رَاحَةٌ مِنَ التَّفَكُّرِ في المَوْتِ الَّذِي هُوَ عِنْدَهُمْ شَرٌّ مِنَ الشُّرُورِ، وَالحَقِيقَةُ أَنَّ في هَذِهِ المَسافاتِ الوَجِيزَةِ الَّتِي يَتَذَكَّرُ الذَّاهِلُ فِيها المَوْتَ عِنْدَ ٱشْتِدادِ المَرَضِ عَلَيْهِ أَوْ عِنْدَ مَوْتِ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِهِ وَأَصْحَابِهِ مِنْ أَنْواعِ الجَزَعِ وَالفَزَعِ مَا لا تُقاسُ آلامُهُ بِٱلآمِ الحياةِ كُلِّها، وَيَكُونُ هَذَا التَّذَكُّرُ لَدَيْهِ بِمَنْزِلَةِ زَلْزَلَةٍ تَهْدِمُ في لَحْظَةٍ جَمِيعَ مَا بَنَاهُ في رَأْسِهِ مِنَ الآمالِ وَمَا زَخْرَفَهُ مِنَ الأَمَانِي أَوْ هُوَ نَفْخَةُ الصُّورِ تَذْهَبُ بِلُبِّهِ، وَرُبَّمَا أَثَّرَ ذَلِكَ في أَعْضَائِهِ وَجَوَارِحِهِ، فَجَعَلَهُ ثاني صاحِبِهِ أَوْ قَرِيبِهِ في القَبْرِ، وَقَدْ سَمِعْنَا مِنْ هَذِهِ الحَوَادِثِ شَيْئاً كَثِيراً. وَمِنْ شِدَّةِ مَا يُصِيبُ أَهْلَ هَذَا القِسْمِ مِنْ الفَزَعِ وَالوَجَلِ تَرَاهُمْ أَكْثَرَ النَّاسِ حُزْناً عِنْدَ فَقْدِ فَقِيدٍ لَهُمْ، لا أَسَفاً عَلَيْهِ، وَلَكِنْ لِحُزْنِهِمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِتَذَكُّرِ المَوْتِ

وَهَلَعَهِمْ مِنْ أَنْ يَسْرِيَ عَلَيْهِم مَا يَسْرِي عَلَىٰ مَنْ بِجَانِبِهِمْ، وَتَجِدُهُمْ أَشَدَّ النَّاسِ انْدِهَاشاً وَٱسْتِغْراباً إِذَا قُلْتَ لَهُمْ مَاتَ فُلانٌ مِنْ أَصْحَابِكُمْ، كَأَنَّكَ أَخْبَرْتَهُمْ بِأَمْرٍ لَيْسَ مِنَ العَادَةِ وَقُوعُهُ، فَهُمْ يُبَادِرُونَكَ بِقَوْلِهِمْ: وَكَيْفَ مَاتَ؟ لا يَسْتَفْهِمُونَ بِذَلِكَ عَنْ سَبَبِ المَوْتِ، وَلَكِنْ عَنِ المَوْتِ نَفْسِهِ. وَلَوْ قُلْتَ لَهُمْ: إِنَّ فُلاناً طَارَ فِي الجَوِّ لَمَا وَقَعُوا فِي الاسْتِغْرَابِ وُقُوعَهُمْ فِيهِ عِنْدَ الخَبَرِ بِمَوْتِهِ.

وَمِنْ رَأْيِهِمْ أَنَّهُمْ يَعْمَلُونَ كُلَّ مَا فِي الوُسْعِ لِصَرْفِ أَفْكارِهِمْ عَنْ ذِكْرَىٰ المَوْتِ، وَيَدْأَبُونَ في مَحْوِ المُذَكِّراتِ بِهِ.

وَأَعْرِفُ صَاحِباً لي كَانَ إِذَا قَرأَ (بَانَتْ سُعَادُ) أَغْفَلَ مِنْهَا قَوْلَ كَعْبٍ فِيهَا:

[البسيط]

كُلُّ ٱبْنِ أُنْثَىٰ وَإِنْ طَالَتْ سَلاَمَتُهُ
يَوْماً عَلَىٰ آلَةٍ حَدْبَاءَ مَحْمُولُ

وَأَعْرِفُ آخَرَ لا يَمْشِي في جَنَازَةٍ، وَلاَ يَحْضُرُ مَأْتماً، وَلاَ يَزُورُ مَقْبَرَةً، وَلا يُبْصِرُ آلَةً مِنْ آلاتِ الدَّفْنِ أَوِ الكَفَنِ إِلاَّ وَيَهْرُبُ بِبَصَرِهِ عَنْهَا. وَيَسْتَعِيذُ بِاللَّهِ مِنْهَا.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَهْجُرُ بَيْتَهُ إِذَا مَاتَ فِيهِ مَيْتٌ حَتَّىٰ لا تُذَكِّرَهُ جُدْرَانُهُ بِخُرُوجِ المَيْتِ مِنْهُ.

وَلَوْ أَنَّكَ أَهْدَيْتَ إِلىٰ أَحَدِهِمْ صُورَةَ جُمْجُمَةٍ مِنْ ذَهَبٍ لَبَشِعَ مِنْهَا وَاسْتَنْكَرَهَا، وَلاَ أُبالِغُ في بَعْضِهِمْ، إِنْ قُلْتُ: إِنَّهُ يَنْبِذُهَا وَيَرْفُضُهَا، وَرُبَّمَا عَادَاكَ لِذَلِكَ وَسَخِطَ عَلَيْكَ لاِعْتِقَادِهِ أَنَّكَ قَصَدْتَ بِهِ سُوءاً في تَذْكِيرِهِ بِهَذَا الشَّرِّ العَظِيمِ وَالأَمْرِ الفَظِيعِ. وَحَتَّىٰ لَقَدْ صَارَتْ تِلْكَ الجُمْجُمَةُ الَّتِي بَقِيَتْ في محافِلِ الماسُونِ مِنْ آثارِ آبائِهِمُ الأَوَّلينَ في وُجُوبِ تَذَكُّرِ المَوْتِ وَالتَّفَكُّرِ فِيهِ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ اليَوْمَ آلَةً مِنْ آلاتِ الإِرْهابِ وَالتَّخْوِيفِ، يَمْتَحِنُونَ عَلَيْهَا شَجَاعَةَ المُنْضَمِّينَ إِلَيْهِمْ. وَلَوْ بَحَثْتَ في رَأْسِ المَاسُونِيِّ الجَدِيدِ عَنْ أَثَرِ مَا قاسَاهُ في لَيْلَةِ دُخُولِهِ، مِنْ تَصْنِيعِهِمْ في التَّهْوِيلِ وَالتَّخْوِيفِ، لَمْ تَجِدْ بَاقِياً مِنْهُ في هَذِهِ الرَّأْسِ إلاَّ تِلْكَ الجُمْجُمَةَ.

وَكَانَ في مِصْرَ رَجُلٌ عَالِمٌ مِنْ أَكْبَرِ العُلَماءِ، كَانَ يَجِيبُ مَنْ يَسْتَدْعِيهِ مِنَ الأُمراءِ والكُبَرَاءِ لِغَسْلِ مَنْ يَعِزُّ عَلَيْهِمْ مَوْتُهُ تَبَرُّكاً بِهِ، فَكَانَ مَعَ سَعَةِ عِلْمِهِ وَدَماثَةِ أَخْلاقِهِ وَنَظَافَةِ ثِيابِهِ وَرِقَّةِ شَمائِلِهِ، إِذَا دَخَلَ مَجْلِساً مِنْ مَجالِسِ العُظماءِ ٱنْقَبَضَ الجَمِيعُ وَنَسَلَ الوَاحِدُ مِنْهُمْ في إِثْرِ الآخَرِ، وَمَا ذَاكَ إِلاَّ مِنْ تَخَوُّفِهِمْ بِأَنْ يَتَذَكَّرُوا مَا كَانَ يُبَاشِرُهُ أَحْيَاناً مِنَ القِيَامِ بِغَسْلِ المَوْتَىٰ.

وَأَمَامَنَا اليَوْمَ كَبِيرٌ مِنَ الكُبَراءِ قَدْ تَهَدَّمَتْ زَاوِيَةُ آبائِهِ وَأَجْدَادِهِ الَّذِينَ يَعِيشُ فِي كَنَفِ مَجْدِهِمْ وَشَرَفِ نِسْبَتِهِمْ، وَيَرَىٰ نَفْسَهُ في مُنْتَهَىٰ السِّيادَةِ وَالشَّرْفِ بِالاتِّصالِ بِحَبْلِ تِلْكَ الرُّفاتِ، فَهُوَ إِلىٰ اليَوْم يَفْزَعُ مِمَّنْ يُذَكِّرُهُ بِبِنَاءِ المُنْهَدِمِ، وَيَسْتَهْوِلُ عَلَىٰ نَفْسه أَنْ يَزُورَ المَقْبَرَةَ يَوْماً لِيَنْظُرَ فِي وُجُوهِ تَرْمِيمِها.

وَلِضَرْبِ الأَمْثالِ فِي هَذَا البابِ مَجالٌ مُتَّسِعٌ لا تَسْتَوْعِبهُ الرَّسائِلُ وَالكُتُبُ، وَيَكْفِي لِلإِنْسانِ أَنْ يَنْظُرَ إِلىٰ مَنْ حَوْلَهُ في كُلِّ ساعَةٍ مِنْ كُلِّ يَوْمٍ، فَيَرَىٰ الغَرِيبَ العَجِيبَ مِنَ الشَّكِّ في اليَقِينِ وَالارْتِيابِ في الوَاقِعِ. وَسَيَأْتِي الكَلامُ بَعْدُ عَنِ القِسْمَيْنِ الآخَرِيْنِ.

(٥)

وَٱعْلَمْ أَنَّ أَهْلَ القِسْمِ الثَّانِي مِنَ النَّاسِ بِالنِّسْبَةِ إِلىٰ ذِكْرَىٰ المَوْتِ هُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ تَراهُمْ يَخْشَوْنَهُ دَواماً وَيَخافُونَهُ أَبَداً، وَيَتَوَلاَّهُمُ الرُّعْبُ مِنْهُ في كُلِّ حِينٍ، وَيَتَرَقَّبُونَ وُقُوعَهُ في كُلِّ آنٍ، وَيَعْتَبِرُونَهُ هادِمَ اللَّذَّاتِ، وَمُقَوِّضَ بِناءِ السَّعادَةِ. وَأَشَدُّ ما يَذْكُرُونَهُ إِذَا خَلَوْا مِنْ أَشْغَالِهِمْ وَانْتَقَلُوا إِلَىٰ أَوْقَاتِ فَرَاغِهِمْ وَصَفَائِهِمْ، فَيُكَدِّرُونَ عَلَيْهِمْ تِلْكَ اللَّحْظاتِ الَّتِي يَخْتَلِسُونَها مِنْ أَيْدِي المَشَاغِلِ

ٱخْتِلاساً، وَيُسَوِّدُونَ بَياضَ عَيْشِهِمْ بِالتَّخْوِيفِ الدَّائِمِ مِنِ ٱنْتِقالِهِ والتَّرَقُّبِ لِقُرْبِ زَوالِهِ. وَمَا أَشَدَّ مَا يَكُونُ عَذَابُهُمْ مِنْ ذِكْرَىٰ المَوْتِ إِذَا أَرْدَفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ النِّعْمَةَ بَعْدَ النِّعْمَةِ مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا وَزِينَةِ الحَياةِ وَكُلَّما آتاهُمْ ٱللَّهُ فَضْلاً ذَهَلُوا عَنِ التَّمَتُّعِ بِهِ وَنَسُوا الشُّكْرَ عَلَيْهِ، فَلاَ يُبْصِرُ أَحَدُهُمْ وَلَدَهُ إلاَّ وَيَتَغَلَّبُ عَلَىٰ فِكْرِهِ التَّخَوُّفُ مِنْ فَقْدِهِ وَالحَذَرُ مِنْ هَلاكِهِ أَوِ التَّرَحّلُ قَبْلَهُ وَلاَ يَتَمَتَّعُ بِهِ. وَلاَ يَنْظُرُ إِلىٰ ما ٱكْتَنَزَهُ مِنْ مالٍ وَٱقْتَنَاهُ مِنْ زُخْرُفٍ إِلاَّ نَظَرَ المَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنْ كَثْرَةِ مَا يَخْشَاهُ مِنْ حِرْمَانِهِ مِنْهُ بِالانْصِرافِ عَنْهُ وَمَا عَسَاهُ يَكُونُ مِنْ حالِهِ بَعْدَ زَوَالِهِ وَٱنْتِقالِهِ. لا يَزالُونَ هَكَذَا في حَالِ القَلَقِ وَالاضْطِرَابِ وَالجَزَعِ وَالفَزَعِ وَالرُّعْبِ وَالْكَدَرِ، فَتَنْقَبِضُ مِنْهُمُ النُفُوسُ وَتَطْرُقُ الرُّؤُوسُ وَتَسْقُطُ عَلَيْهِمْ الهُمُومُ كِسَفاً مِنَ العَذَابِ يَتَمَلْمَلُونَ مِنْهُ تَمَلْمُلَ السَّلِيمِ وَيَئِنُّونَ تَحْتَهُ أَنِينَ المُصَفَّدِ فِي القُيُودِ ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ [٢ سورة البقرة/ الآيات: ١٧ ـ ١٩].

(٦)

وَتَرَىٰ أَهْلَ هَذَا القِسْمِ الثَّانِي الَّذِينَ يَذْكُرُونَ المَوْتَ وَيخافُونَهُ وَيحْرِصُونَ عَلَىٰ الْحياةِ وَيُحِبُّونَها يَقْضُونَ أَوْقاتَهُمْ ٱشْتِغالاً بِالتَّوَقِّي مِنَ الأَخْطارِ وَالتَّحَرُّزِ مِنْ أَسْبابِ الهَلاكِ، وَلاَ يَكْتَفُونَ في ذَلِكَ بِمَا يَدْخُلُ في طَوْقِهِمْ الاحْتِرَاسُ مِنْهُ، بَلْ يَنْصِرَفُ هَمُّهُمْ إِلىٰ دَفْعِ ما لا دَافِعَ لَهُ مِنَ الأَقْضِيَةِ المُحَتَّمَةِ وَالنَّوازِلِ الطَّارِئَةِ وَالبَلايَا العَامَّةِ، كالطَّوَاعِينَ وَالأَوْبِئَةِ وَأَمْرَاضِ العَدْوَىٰ، وَكَالزَّلازِلِ وَالصَّوَاعِقِ وَالعَوَاصِفِ. وَمِنْهُمْ مَنْ لا يَرْكَبُ البَحْرَ خَشْيَةَ الغَرَقِ، وَلاَ يُسافِرُ في البَرِّ خَوْفَ مُصادَمَةِ القُطُراتِ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُومُ مِنْ مَنامِهِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ فَيَدُورُ في أَنْحَاءِ البَيْتِ، كَالْعَسَسِ يَتَفَقَّدُ أَثَاثَ الحُجُراتِ وَرِباشَها لِيَطْمَئِنَّ عَلَيْهَا أَنْ يَتَّصِلَ بِهَا شَيْءٌ مِنْ أَسْبَابِ الْحَرِيقِ، فَإِذَا أَمِنَ المِسْكِينُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، وَٱسْتَغْرَقَ في نَوْمِهِ بُرْهَةً مِنْ لَيْلِهِ، وَرَأَىٰ في الرُّؤْيا أَنَّ أَحَدَ الأَمْوَاتِ مِنْ أَقَارِبِهِ وَأَصْحَابِهِ دَنَا مِنْهُ أَوْ سَلَّمَ عَلَيْهِ أَوْ رَحَّبَ بِهِ أَوْ دَعاهُ إِلَيْهِ قامَ مِنْ مَنامِهِ في أَشَدِّ آلامِ الفَزَعِ كَالَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ مِنَ المَسِّ لا يَهْدَأُ لَهُ بَالٌ وَلاَ يَسْتَقِرُّ بِهِ قَرارٌ أَيْنَمَا وَجَّهَ وَجْهَهُ تَرَقَّبَ وُقوعَ المَوْتِ وَحُلُولَ الأَجَلِ وَتَصْدِيقَ الرُّؤْيَا. وَمِنْ غَرِيبِ المُتَناقِضاتِ أَنَّهُ مَعَ هَذَا التَّرَقُّبِ وَالتَّوَجُّسِ الَّذِي هُمْ فِيهِ إِذَا ذَكَرْتَ فِي مَجالِسِهِمْ

ٱسْمَ المَوْتِ، أَوْ تَلَوْتَ عَلَيْهِمْ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [٣٩ سورة الزمر/ الآية: ٣٠] لَوَوْا أَعْناقَهُمْ، وَتَقَلَّصَتْ شِفَاهُهُمْ، وَكَادَتْ تَقِفُ حَرَكَاتُ قُلوبِهِمْ مِنَ الكَدَرِ وَالغَيْظِ، وَنَقَمُوا عَلَيْكَ أَنَّكَ ذَكَّرْتَهُمْ بِما لا يَغْفُلُونَ عَنْ ذِكْرِهِ لَيْلَهُمْ وَنَهَارَهُمْ. وَيَسْتَبْعِدُونَ المَوْتَ وَيُنْكِرُونَهُ عَلَيْكَ، فَلاَ يَكَادُونَ يُصَدِّقُونَ بِمَوْتِ الفَجْأَةِ، فَإِذَا أَخْبَرْتَهُمْ بِحادِثَةٍ مِنْ هَذَا القَبِيلِ أَخَذُوا يَتَعَلَّلُونَ لِذَلِكَ العِلَلَ وَيَتَمَحَّلُونَ الأَسْبَابَ وَيَنْتَحِلُونَ لِلْمَيْتِ أَمْراضاً كامِنَةً وَأَدْوَاءً مُزْمِنَةً لَمْ تَكُنْ بِهِ، وَإِذا أَخْبَرْتَهُمْ بِمَوْتِ شابٍّ في غَضَارَةِ عُمُرِهِ وَغَضَاضَةِ سِنِّهِ زَادُوهُ مَا شَاؤُوا مِنْ عَدَدِ السِّنِينَ في عُمُرِهِ، كَمَا أَنَّهُمْ أَوْلَعُ النَّاسِ بِإِخْفاءِ حَقِيقَةِ أَعْمَارِهِمْ وَالاجْتِهادِ دَائِماً في تَنْقِيصِ سِنِيِّها لِيَغُشُّوا أَنْفُسَهُمْ وَيَطْرَحُوا مِنْ فِكْرِهِمْ إِمْكَانَ المُفَاجَأَةِ مِنْ هَذَا العَدُوِّ الأَحْمَرِ في حِينِ الغِرَّةِ وَفِي مُقْتَبَلِ العُمُرِ، وَلِيَطْمَئِنُّوا عَلَىٰ التَّرَاخِي في الأَجَلِ.

أَمَّا سِيرَتُهُمْ وَخَطْبُهُمْ في التَّحَرُّزِ عَلَىٰ أَجْسامِهِمْ وَالاحْتِراسِ عَلَىٰ أَبْدانِهِمْ في لَيْلِهِمْ وَنَهارِهِمْ أَنْ يَعْتَرِيَها اعْتِلالٌ أَوْ يُصِيبَها ٱخْتِلالٌ، فَهُمْ يَتَغَالَوْنَ في ذَلِكَ إِلىٰ حَدٍّ يُورِثُهُمُ الوَسْوَاسَ وَٱلْجُنُونَ، فَيُحاذِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ مِنْ هُبُوبِ النَّسِيمِ وَحَرَارَةِ الضِّيَاءِ، وَيَحْرِمُونَ أَنْفُسَهُمْ لَذَّةَ

الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، وَيَتَوَهَّمُونَ في كُلِّ لُقْمَةٍ تُخْمَةً، وَفِي كُلِّ جُرعَةٍ غُصَّةً، وَيَتَخَيَّرونَ لَهُمْ أَبواباً خَاصَّةً مِنَ الغِذَاءِ يَضْوَىٰ بِهَا الجِسْمُ، وَتُؤَثِّرُ شِدَّةُ الهَوَاجِسِ وَالوَسَاوِسِ عَلَىٰ أَرْوَاحِهِمْ فَتَنْتَهِي بِسُوءِ التَّأْثِيرِ عَلَىٰ أَجْسَامِهِمْ فَتَضْعُفُ، وَحِينَئِذٍ يَأْخُذُونَ في ٱسْتِعْمالِ الأَدْوِيَةِ المُخْتَلِفَةِ لِتَقْوِيَتِها فَتَزْدَادُ بِهَا ضَعْفاً. وَلاَ يَزالُونَ عَلَىٰ هَذَا التَّخَوُّفِ وَالتَّحَرُّسِ وَالتَّوَهُّمِ وَطُولِ التَّدَاوِي لِغَيْرِ عِلَّةٍ حَتَّى يَنْتَقِلَ الوَهْمُ إِلىٰ الحَقِيقَةِ وَتَحُلَّ بِهِمُ الأَمْرَاضُ الَّتِي أَعَدُّوا أَنْفُسَهُمْ لَهَا وَأَدْنَوْهَا نَحْوَهُمْ بِأَثَرِ التَّخَوُّفِ مِنْهَا وَالمُدَاوَمَةِ عَلَىٰ تَنَاوُلِ تِلْكَ الأَدْوِيَةِ الشَّدِيدَةِ الَّتِي تُنْهِكُ قُوَىٰ الْجِسْمِ وَتُفْسِدُ المَعِدَةَ وَتُخِلُّ نِظَامَ التَّرْكِيبِ، فَيَسْتَلِمُهُمُ الطَّبِيبُ بِجَهْلِهِ وَطَمَعِهِ، فَإِذَا لَمْ تَنْتَهِ بِهِ بَراعَتُهُ إِلىٰ إِرَاحَتِهِمْ بِالْمَوْتِ عَاشُوا عِيشَةً كُلُّها آلامٌ وَأَوْصَابٌ إِلىٰ أَنْ يَقَعُوا في المَوْتِ مِنْ خَوْفِ المَوْتِ، وَيَذْهَبُوا إِلىٰ حَالِ سَبِيلِهِمْ، لا هُمْ تَمَتَّعُوا بِالْحَيَاةِ وَلا هُمْ نَجَوْا مِنَ المَوْتِ.

وَلاَ تَسْتَبْعِدْ أَيُّها القارِئُ أَنَّ أَكْثَرَ هَذَا القِسْمِ يُحْدِثُونَ الأَمْرَاضَ لأَنْفُسِهِمْ بِأَنفسِهِمْ وَيُعَجِّلُونَ أَيَّامَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ، فَإِنَّ لِلْوَهْمِ وَالخَوْفِ سُلْطاناً عَلَىٰ النَّفْسِ وَالْجِسْمِ لا يُوازِيهِ سُلْطانٌ في العَالَمِ، وَلَهُ أَعْظَمُ أَثَرٍ في فَسادِ صِحَّةِ الإِنْسانِ،

فَيَخْتَلُّ بِهِ نِظامُ الْجِسْمِ، وَيُؤَدِّي بِهِ إِلىٰ الهلاكِ، وَلِذَلِكَ لا نَرَىٰ بُدًّا مِنْ إِسْهابِ القَوْلِ فِيهِ وَشَرْحِ أَثَرِهِ لِلانْتِبَاهِ إِلىٰ طَرْحِهِ وَإِضْعَافِ سُلْطَانِهِ، فَإِنَّ في الإِقَامَةِ عَلَيْهِ وَالاسْتِرْسَالِ فِيهِ شَقَاءَ الرُّوحِ وَسُقْمَ الجِسْمِ، وَمِنْهُ تَسِيلُ يَنابِيعُ الأَحْزانِ وَالأَكْدارِ، وَتَتَفَجَّرُ عُيُونُ الغُمُومِ وَالهُمُومِ.

(٧)

تَقَدَّمَ بِكَ القَوْلُ في شِدَّةِ تَأْثِيرِ الخَوْفِ وَالوَهْمِ وَسُوءِ فِعْلِهِ في النَّفْسِ وَالْجِسْمِ، وَأَنَّهُ إِذَا أَلْقَىٰ الإِنسانُ قِيادَهُ إِلَيْهِ ذَهَبَ بِهِ في وَادِي العَذَابِ يَمِيناً وَشِمَالاً، وَأَنَّهُ إذا تَمَلَّكَ النَّفْسَ نَشَبَتْ بِهِ في الجِسْمِ مَخالِبُ العِلَلِ وَالأَسْقَامِ حَتَّىٰ تُؤَدِّيَ بِهِ إِلىٰ الهَلاكِ وَالفَنَاءِ. وَقَدْ أَجْمَعَ جِلَّةُ العُلَماءِ مِنْ أَطِبَّاءِ العَصْرِ الحاضِرِ بَعْدَ كَشْفِهِمْ وَبَحْثِهِمْ عَلَىٰ أَنَّ مُجَرَّدَ ٱلتَّخَوُّفِ وَالتَّوَهُّمِ يُحْدِثُ أَمْراضاً في البَدَنِ لَمْ يَكُنْ لَهَا مِنْ سَبَبٍ سِوَاهُ في الْبَاطِنِ وَالظَّاهِرِ. وَلاَ مَحَلَّ هُنَا لِلشَّرْحِ وَالبَيانِ في أَبحاثِهِمُ العِلْمِيَّةِ التَّشْرِيحِيَّةِ، وَإِنَّمَا نَذْكُرُ مِنْ ذَلِكَ ما يَسْتَشْهِدُونَ بِهِ عَلَىٰ قَوَاعِدِ الْعِلْمِ مِنْ بَرَاهِينِ الحَوادِثِ وَالوَقائِعِ الَّتِي شَاهَدُوهَا بِأَعْيُنِهِمْ وَمَارَسُوهَا بِأَنْفُسِهِمْ مِمَّا لا يَقْبَلُ الشُّبْهَةَ وَلاَ يُدانِيهِ الرَّيْبُ، فَمِنْ ذَلِكَ مَا نَذْكُرُهُ مِنْ مُشاهَدَاتِهِمْ.

باشَرَ أَحَدُ الأَطِبَّاءِ تَشْرِيحَ مَيْتٍ مَاتَ بِدَاءِ الكَلَبِ، فَاعْتَرَاهُ مِنْ ذَلِكَ تَخَوُّفٌ شَدِيدٌ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِنْ تَعَلُّقِ العَدْوَىٰ به وَٱنْتِقالِ جَرَاثِيمِ المَرَضِ إِلَيْهِ، وَٱشْتَدَّ به تَوَهُّمُهُ، فَأَخَلَّ بِنِظَام جَسَدِهِ، فَتَوَلاَّهُ الأَرَقُ وَفَقَدَ شَهْوَةَ الطَّعَام، وَٱنْقَبَضَتْ نَفْسُهُ عَنْ تَنَاوُلِ كُلِّ سَائِلٍ، وَعَافَ الشُّرْبَ. فَكَانَ إِذَا ٱشْتَدَّ به العَطَشُ شَرِبَ المَاءَ قَسْراً عَنْهُ يَتَجَرَّعُهُ وَلاَ يَكَادُ يُسِيغُهُ، ثُمَّ ٱشْتَدَّ بِهِ الحالُ، فَهَامَ عَلَىٰ وَجْهِهِ في الطُّرُقِ ضَالاً مُخْتَبِلاً مِنْ هَوْلِ ما هُوَ فِيهِ. وَأَدْرَكَ بَعْضُ أَصْحَابِهِ مِنْ أَهْلِ صِنَاعَتِهِ حَقِيقَةَ حَالَتِهِ، وَأَنَّ بَلاءَهُ هُوَ مِنْ أَثَرِ الخَوْفِ وَالوَهْمِ وَسُوءِ التَّصَوُّرِ، فَأَعْمَلُوا جُهْدَهُمْ في تَخْفِيفِ مَا بِهِ وَصَحِبُوهُ أَيَّاماً لَمْ يُفارِقُوهُ فِيها، وَمَا زَالُوا بِهِ حَتَّىٰ أَقْنَعُوهُ بِأَنَّهُ سَلِيمُ الجِسْمِ مِنْ تِلْكَ العَدْوَىٰ، وَأَنَّ ما بَهِ هُوَ مِنْ عَمَلِ التَّخَوُّفِ وَالتَّوَهُّمِ، فَأَخَذَ يَنْسَىٰ بِفَضْلِهِمْ تِلْكَ الفِكْرَةَ القَائِمَةَ بِهِ، فَزَالَتْ عَنْهُ تِلْكَ الحالَةُ المُعْتَرِضَةُ، وَشُفِيَ مِنْهَا شِفاءً تَاماً.

وَمِنَ الأُمُورِ المُقَرَّرَةِ الَّتِي لا يَكادُ يَأْنَسُ لَهَا التَّصَوُّرُ أَنَّ مُجَرَّدَ الخَوْفِ عَلَىٰ مَا ٱجْتَمَعَتْ عَلَيْهِ أَقْوالُ الأَطِبَّاءِ يُوَلِّدُ في الْجِسْمِ أَعْراضاً هي أَعْراضُ دَاءِ الكَلَبِ بِذَاتِه، حَتَّىٰ ٱعْتَقَدَ أَحَدُ مَشْهُورِيهِمْ أَنَّ الخَوْفَ هُوَ سَبَبُ الكَلَبِ

وَلَيْسَ سَبَبُهُ عُقْرَ الكِلاَبِ وَلُعَابَها. وَمِمَّا رَوَاهُ بَعْضُهُمْ أَنَّ كَلْباً مِسْعَراً عَقَرَ أَخَوَيْنِ، وَكَانَ أَحَدُهُمَا عَلَىٰ أُهْبَةِ السَّفَرِ في يَوْمِهِ إلى أَمْرِيكة، فَسَافَرَ إِلَيْهَا وَغابَ خَبَرُهُ عَنْ أَهْلِهِ مُدَّةً طَوِيْلَةً، فَلَمَّا عَادَ إِلَيْهِمْ بَعْدَ عِشْرِينَ سَنَةٍ غَفَلَ أَحَدُهُمْ فَأَخْبَرَهُ بِأَنَّ أَخاهُ مَاتَ مِنْ إِثْرِ عَضِّ الكَلْبِ، فَوَقَعَ تَأْثِيرُ ذَلِكَ عَلَيْهِ كَالصَّاعِقَةِ، وَرَقَدَ مَرِيضاً، وَظَهَرَتْ عَلَيْهِ أَعْراضُ دَاءِ الكَلَبِ في أَقْصَىٰ حِدَّتِها وَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّىٰ مَاتَ.

وَكُتُبُ الأَطِبَّاءِ مَشْحُونَةٌ بِكَثِيرٍ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ الحَوَادِثِ، شَاهِدَةٌ بِأَنَّ الجانِبَ الأَعْظَمَ مِمَّنْ يُصَابُونَ بِدَاءِ الكَلَبِ لَمْ تَكُنْ إِصابَتُهُمْ ناشِئَةً إلاَّ مِنْ إِخْبَارِ مَنْ أَخْبَرَهُمْ بِأَنَّ الكَلْبَ الَّذِي عَضَّهُمْ كَانَ مِسْعَراً، وَلاَ يُمْكِنُ لِلطَّبِيبِ أَنْ يُمَيِّزَ بَيْنَ الإِصابَةِ بِالْكَلَبِ النَّاشِئَةِ عَنِ الوَسْوَاسِ وَالإِصَابَةِ النَّاشِئَةِ عَنْ عَدْوَىٰ الدَّاءِ. وَكَمْ مِنْ مَرَّةٍ أَنقَذَ الأَطِباءُ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ وَهُمْ عَلَىٰ شِفَارِ المَوْتِ بِحُسْنِ مَهارَتِهِمْ في تَسَلُّطِ نُفُوسِهِمْ عَلَىٰ نُفُوسِ المَرْضَىٰ وَتَمَكُّنِهِمْ مِنْ إِقْناعِهِمْ وَإِزاحَةِ غُمَّةِ الوَسْوَسَةِ وَالتَّخَوُّفِ مِنْ رُؤُوسِهِمْ.

وَقَدْ دُعِيَ أَحَدُ الأَطِبَّاءِ لِمُعَالَجَةِ أَحَدِ المُصابِينَ بِالْكَلَبِ بَعْدَ أَنْ يَئِسَ مِنْ شِفائِهِ جَمِيعُ رُفَقائِهِ، فَأَخَذَ يَفْحَصُهُ فَحْصاً دَقِيقاً، ثُمَّ مَالَ عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ، وَلَثَمَ فَمَهُ

لِيُحَقِّقَ لَهُ خُلُوَّهُ مِنْ ذَلِكَ المَرَضِ، فَمَا لَبِثَ المَرِيضُ أَنْ شُفِيَ مِنْ أَثَرِ تِلْكَ القُبْلَةِ الَّتِي ٱعْتَقَدَ بِهَا أَنَّ الطَّبِيبَ لَمْ يَقَبِّلْهُ إِيَّاهَا إلاَّ وَهُوَ آمِنُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِنْ وُجُودِ ذَلِكَ المَرَضِ وَٱتِّصالِ عَدْوَاهُ بِهِ[1].

وَبِالْجُمْلَةِ، فَإِنَّ أَثَرَ التَّخَوُّفِ وَالوَهْمِ عَلَىٰ النَّفْسِ مِنْ أَشَدِّ مَا يُقاسِيهِ الإِنْسَانُ مِنْ أَنْوَاعِ الآلام في نَفْسِهِ. وَيُمْكِنُ لِكُلِّ إِنْسانٍ أَنْ يُبْعِدَهُ عَنْهُ بِقَلِيلٍ مِنَ التَّثَبُّتِ وَسَلاَمَةِ الاقْتِنَاعَ وَالتَّبَاعُدِ بِالفِكْرِ عَنِ التَّدَرُّجِ فِي الهَوَاجِسِ وَتَحْكِيمِ سُلْطانِ الخَيالاتِ الْبَاطِلَةِ عَلَيْهِ. وَمَنْ سَلَّمَ قِيادَةَ فِكْرِهِ إِلىٰ الأَوْهَامِ وَالْخَيَالاَتِ فَسَدَتْ عَلَيْهِ عِيْشَتُهُ وَعَاشَ فِي ما لا يُوصَفُ مِنْ الآلام وَالأَكْدَارِ، يَرَىٰ المَوْتَ فِي كُلِّ لَفْتَةٍ، وَالحَتْفَ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ.

تَمَّ الجِزْءُ الأَوَّلُ

[وهو الوحيد الذي صدر من هذا الكتاب]

---

(١) حَذَفْتُ هنا حكاياتٍ لا تَخْرُجُ في مَعناها عن هذه الحكاية.

الفهرس

باب الفَصاحَةِ وَالبَيَانِ

قِسْمُ المَنْظُوم

قِسْمُ المَنْثُورِ

باب الأدب والحكمة

قِسْمُ المَنْظُومِ

قِسْمُ المَنْثُورِ